البروفسور
عدنان حب الله

التحليل النفسي للرجولة والأنوثة

من فرويد الى لاكان

بإشراف المركز العربي
للأبحاث النفسية والتحليلية

الفارابي
anep

التحليل النفسي للرجولة والأنوثة

من فرويد إلى لاكان

البروفسور
عدنان حب الله

١٥٠
ح ٤ ت

التحليل النفسي للرجولة والأنوثة

من فرويد إلى لاكان

بإشراف المركز العربي
للأبحاث النفسية والتحليلية

ANEP ـــ دار الفارابي

العنوان: التحليل النفسي للرجولة والأنوثة

المؤلف: البروفسور عدنان حب الله

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: * دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb

*** المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)**

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213

الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213

e-mail: dcpa@anep.com.dz
الطبعة الأولى 2004

ISBN: 9953-438-79-x ـ لبنان

ISBN: 9947-21-082-0 ـ الجزائر

Dépôt - légal: 85-2004
© جميع الحقوق محفوظة
دار الفارابي

شركة المطبوعات اللبنانية ـ لبنان

منشورات ANEP

05 شارع الخزناجي

الأبيار ـ الجزائر

الهاتف: 76 09 92 21 213

الفاكس: 77 09 92 21 213

e-mail: anep-edition@wissal.dz

المحتويات

إهداء 7

المقدمة، التمهيد 9

القسم الأول
المسيرة الفرويدية

لاكان على خطى فرويد 21

الجدلية العقلانية في التحليل النفسي 55

بنيوية الذات في التحليل النفسي 75

العقدة الأوديبية 102

استلاب الذات في الأنا 159

Le transfert التحويل 169

التعيين أو التماهي IDENTIFICATION 196

القسم الثاني
الأنوثة في التحليل النفسي

مقدمة عن موقع الأنوثة 219

نظريات المحللين المتجانسة مع نظرية فرويد 249

الخاتمة 281

المصطلحات اللاكانية 287

المراجع التي اعتمدها الكاتب 311

ثبت المصطلحات 315

صدر للمؤلف

1- Le Virus de la violence, Albin Michel, Paris, 1997.

ترجم إلى العربية تحت عنوان جرثومة العنف ـ دار الطليعة، بيروت، 1998.

2- Destin du traumatisme, Hachette, Paris, 1999.

ترجم إلى العربية تحت عنوان مصير الصدمة النفسية وكيفية التخلص منها: في طور الترجمة إلى العربية.

3- Pourquoi la violence des adolescents, Erés, Paris, 2001.

4 ـ مدخل إلى الطب النفسي العربي، دار العلم، بيروت، 2000.

5 ـ العنف الأهلي: دراسة نفس تحليلية، دار العلم، بيروت، 2003.

إهداء

إلى الأستاذ مصطفى صفوان

المقدمة

التمهيد

لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن يعطي هذا الكتاب فكرة عن الذات في التحليل النفسي. على كل، حاولت نقلها حسب ما تيسّر لي فهمها من خلال ما كنت أقوم به من بحث وتنقيب لكي أنقلها إلى طلاب علم النفس في إطار نظرية متماسكة.

وإن صادف القارئ صعوبة في فهم بعض المعطيات التي أصبحت متداولة في ميادين علم النفس النظري والعيادي، فقد يعود ذلك لأسباب قد نعتبرها طبيعية أو لأسباب ناجمة عن مقاومة خاصة، ولأسباب اجتماعية أو معتقدات أصبحت ثوابت لا يمكن زعزعتها.

وسوف نحاول استعراض هذه الصعوبة على بعض المستويات:

أولاً: المادة صعبة في حد ذاتها، لأنها تتطلب رؤية ذاتية «Insight» وتصوراً ممكناً. ونقلها إلى هذا المستوى الفكري المتداول يواجه صعوبة من قبل المنظّر نفسه، لأنه يتطلب من أناه أن تكوّن نظرية للذات هي في حد ذاتها جزءٌ منها. أي أن الموضوع يختلف إذا ما أجرينا بالمقارنة بحثاً علمياً فيزيائياً، كيميائياً، أو حتى طبياً... إلخ. فالموضوع خارجي لا يتقبل أي انحياز عاطفي، مما يسهل على الباحث أن يكون موضوعياً ويتحكم بمجريات البحث ضمن تسلسل منطقي يخضع للقوانين المتعارف عليها علمياً. وهذا ما لا يتيسر دائماً للباحث النفسي، لأنه قد يصعب عليه في بعض الأحيان التجرد الكامل من انحياز عاطفي، أو معتقد راسخ، أو تأثر بأوضاع اجتماعية وأحداث خارجة عن إرادته، ومن تأثير اناه مع ما تشكل من مقاومة مما يجعل تنظيره بعيداً أو قريباً من الحقيقة التي كان يود إثباتها.

لذلك، يصعب على المحلّلين وعلماء النفس الإجماع على نظرية معينة دون أن

يتداخل العامل الذاتي في خلق الخلافات والإنشقاقات التي تحصل في مجتمعهم المغلق.

ثانياً: هناك صعوبة ناجمة عن مقاومة تكمن في نفسية القارئ. وهي قد تكون واعية أو غير واعية، تسمح جزئياً أو لا تسمح بتاتاً في تقبل نظريات مغايرة للمعتقد الراسخ الذي كونه عن ذاته أو عن مجتمعه حتى الآن. وهو على غير استعداد لتقبل مثل هذه النظريات دون أن يخلق ذلك زحزحة في نفسه وتغييراً في المعايير الشخصية، قد يكون غير مستعدٍّ لتحمل نتائجها. فرفضها أو اعتبارها ذات أهمية ثقافية لا أكثر، على غرار أية نظرية أخرى فلسفية كانت أو أيديولوجية، شيء وارد في ذهنه شرط ألا يكون ملزماً به.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأبعاد للمقاومة الفكرية لكل حدث فكري هام يخلق انقلاباً في المنهجية الفكرية، أو أية حداثة حضارية تتطلب من الإنسان إعادة النظر في ذاته وفي مجتمعه، لوجدنا أن الإنسان تواق إلى الركود والاستقرار؛ ولا يحصل الانقلاب عنده إلا بفعل الصدمة التي تسببها الحداثة الفكرية. فالإنسان نرجسي بطبعه يُحيط تراثه ومكتسباته بهالة من العظمة والتقديس يعكس بشكل واضح تعاظم الأنا الجماعي، غروره بنفسه، كبرياءه ومحاربته لأية فكرة حتى لو أثبتت حقيقة لا مهرب منها، (إنْ تبين له) أنها تهدِّد أناه المسلوبة بأوهامها الراسخة.

وهكذا نجد (بحسب تعريف فرويد) أن الفكر الإنساني أصيب بثلاث صدمات ولدت عنده الشعور بالقصر، والخيبة كما أنها حطمت كبرياءه، وغروره، وزعزعت ثقته بنفسه ومغالاته في تعظيم الأنا.

الأولى: أتت عن طريق كوبرنيك (الثورة الكوبرنيكية) التي تلت اكتشاف غاليلي لاستدارة الأرض، وتبديده وهم أنها مسطّحة، الشيء الذي كان يخدع الناظر الساذج. فانتقل الإنسان من كونه محور هذا العالم الفلكي، إلى اعتبار نفسه طرفاً بل ذرة أمام هذا الكون من حيث أن الأرض في حد ذاتها ليست إلا كوكباً يدور في فلك الشمس التي هي محور من ضمن المحاور غير المتناهية.

الثانية: أتت من نظرية النشوء لداروين (Darwin) الذي برهن من خلالها أن للإنسانية تاريخاً نشوئياً بيولوجياً، وأن الصورة، التي كوّنها الإنسان المعاصر عن فضائله وقيَمه وآدابه ومعتقداته الإنسانية هي صورة متكاملة أُوجدت هكذا؛ وليست، في الواقع، إلا سراباً كان يؤمن به.

هذه القيَم ليست إلا وليدة تطور لتاريخ الإنسان منذ العصور الحجرية حتى الآن. ولو راقبنا الطفل منذ تكوينه في رحم الأم إلى حين ولادته ونضوجه الفكري والجسدي واكتسابه المزايا والأخلاق الإنسانية، لوجدنا أنه يختزل بشكل زمني نشوء الإنسان وتطوره من الهمجي إلى الحضاري(*).

الثالثة: أتت من قبل فرويد، عندما برهن عبر التحليل النفسي أن ديناميكية الفعل والرغبة المحركة تكمن في اللاشعور وليس في الأنا كما كان يُخيَّل للمفكرين سابقاً. والمميز في هذه النظرية أنها أتت انقلابية بقدر ما استطاعت أن تحقق النقلة للمحور الأساسي المعتمد على الأنا، والذي كان الشغل الشاغل للعمل الفلسفي طيلة الأجيال السابقة، إلى اللاشعور، المنهل الفعلي لكل عمل خلاّق.

فالمقاومة التي واجهت الثورة الكوبرنيكية، ونظرية النشوء، لم توفر على التحليل النفسي حملة عنيفة شوهت الكثير من معالمه الصحيحة.

أضف إلى ذلك منهجية العمل التحليلي - لأنها انقلابية بحد ذاتها -، فإذا كان موضوعها هو الكشف عن الرغبة الديناميكية للاوعي (اللاشعور) انطلاقاً من الوعي (الشعور) المموّه للحقيقة، فيعني ذلك أن منهجية التحليل النفسي هي الحديث بالمقلوب. وهو عمل مغاير تماماً للمنهجية العلمية، حيث أن الاكتشاف يأخذ منحى إيجابياً، أي ننتقل من نظرية أصبحت متخلفة إلى نظرية جديدة متطورة. فالتحليل النفسي يأخذ الطريق المعاكس، أي يطرح السؤال تلو السؤال حول معتقد أو نظرية راسخة، عن أسبابها، منشئها وأخيراً مصدرها.

وأول مفاجأة طالعت فرويد هي اكتشافه للديناميكية الجنسية كمحور أساسي يكمن في اللاوعي (اللاشعور) ويحرك الإنسان على غير علم منه. وهذه الديناميكية قد فهمت على غير حقيقتها.

فهي لا تقتصر كما يوضح فرويد على الفعل الجنسي أي المضاجعة (كما هو سائد في المفهوم العام)، ولا يعني بالمقابل أن انتشار التحليل النفسي هو متاخم للإباحة الجنسية؛ بل كما تظهر لنا الخبرة التحليلية يبدو أن العكس هو الصحيح.

(*) نظرية النشوء هذه لا تتطابق مع نظرية تطور الانسان من الطفولة حتى الرشد لأن تداخل عملية اللغة في نموه البيولوجي يخلق تقاطعات تترك آثارها في البدن والبنية تدخل عندئذ في اطار الموضوع الضائع. مثلاً المرحلة الفموية لا تكتمل، يقطعها الفطام. المرحلة الشرجية: يضبطها طلب الأم فيصبح الغائط موضوع مقايضة. المرحلة القضيبية: يحد من متعتها تداخل عملية الخصاء وهكذا.

فأحياناً كثيرة، قد يكون سبب المرض النفسي إباحة جنسية لا يعرف لها حد، أو انتهاك عبر هوامات مولدة لمشاعر ذنبية ودونية. وطلبه اللاواعي (اللاشعوري) هو تدعيم هذه الحواجز والكشف عن موضوع الانتهاك حتى يعود إلى حياة سوية. فالهوامات الجنسية المنحرفة موجودة في كل المجتمعات، وخروجها إلى حيّز الفعل والتنفيذ مرتهن بالقوانين والأعراف الاجتماعية السائدة في كل عصر(*).

وما يجب التنبيه إليه هو أن الإشباع الحاصل من التنفيذ لا يلغي الهوام الذي كان سبباً في ذلك. فالمومس مثلاً وكل الذين يمارسون حياة جنسية إباحية وانحرافية، ليسوا بعيدين عن تعرضهم لأمراض أو لأزمات نفسية حادة. فلذلك يجب أن لا يختلط علينا الأمر ما بين الممارسة والهوام؛ فموضوع التحليل النفسي لا يختزل بالأفعال، إنما محوره الأساسي هو الهوام موطن الرغبة المكبوتة.

يقول فرويد: إنه إذا اعتمدنا الجنس كمحرك أساسي في حياتنا الاجتماعية، فهذا لا يعني ما هو مطابق ومتداول في المفهوم العام، إنما يعني - مستشهداً بمأدبة أفلاطون: حسب ما ورد في تحليل سقراط - كناية عن القوة "Eros" التي تجمع بين كائنين لكي يلتحما في وحدة ارتقائية تؤمن استمرارية الإنسان.

وهذه القوة "Eros" مختزلة في الحب، سواء في مفهومه الجنسي أو مفهومه الاجتماعي عندما يتجرد من موضوعه الجنسي.

Eros يجمع أفراد العائلة والمجتمع على أهداف معينة بناءة يكون من أهم نتائجها مردود الخير والمحبة على الجميع. فالإنسان لا يستطيع أن يستمد سعادته إلا من خلال عمل يعطيه الاكتفاء الذاتي عبر استفادة المجتمع منه.

لكن قوة الحب (Eros) المتمثلة في الحياة، في التوالد، في التعايش المشترك، في الإبداع وفي الإنتاج الإنساني، يقابلها قوة خفية معاكسة Thanatos تحبط أعمالها. إنها متمثلة في النزعة التدميرية أو النزعة المميتة - حيث يتمثل بها كل ما يكتشفه الإنسان في داخل نفسه من نزعة إلى التدمير والكراهية والحقد، وقتل الإنسان للإنسان في كل أشكاله سيما الحروب المدمرة وبصورة خاصة الحروب الأهلية. وحتى لا يواجه الإنسان هذه النزعة على حقيقتها كجزء بيولوجي مكوّن له، يحاول أن يجد لها كل التبريرات المموهة، سواء كانت أيديولوجية اقتصادية أو دينية - علماً أنه برغم

(*) على سبيل المثال: كانت العلاقات المثلية تعتبر شواذاً مرفوض اجتماعياً. وقد أصبحت الآن في الدول الغربية مباحة بل مشرعة بحقوق وواجبات على غرار عقد الزواج.

دعوة الدين إلى المحبة والتسامح ومساعدة الإنسان لأخيه الإنسان، نجد أن هذا الإنسان ما فتئ حتى الآن يرتكب باسمه أفظع الجرائم وأعظم الحروب، والتاريخ شاهد على ذلك.

اكتشاف التحليل النفسي للنزعة التدميرية المميتة (Thanatos)، كان بمثابة كشف النقاب عن حقيقة بيولوجية، من حيث أن كل خلية حية تحمل في طياتها أسباب موتها. وإدراك هذا الواقع لا يأخذ شكله المرئي إلا عندما يتوجه الإنسان إلى إيذاء نفسه، أو توجيه هذا الإيذاء إلى الغير، دون مبرر فعلي. إن إدراك هذه القوة الخفية، قد يمكنه في يوم ما من تحويلها عن هدفها الأساسي التدميري، إلى أعمال بناءة تستفيد منها البشرية جمعاء.

في مقابلة عفوية مع سائق تاكسي في أحد شوارع باريس، سألني بعدما تعرف على هويتي: بربك هل بإمكانك أن تفسر لي كيف يمكن لهؤلاء المسؤولين أن يقوموا بحملة دعائية هائلة ضد الأمراض التي تشكل خطراً على الصحة العامة في نفس الوقت الذي يبذرون الأموال الطائلة لصنع قنبلة ذرية أكثر تدميراً وتشكل في النهاية خطراً أكبر فعالية على الإنسانية؟ سؤال يحمل في طياته الجواب، لأن الإنسان تسيِّره قوتان متناقضتان هما في تركيبته الأصلية: نزعة الحب (Eros) مع استمرارية الحياة، ونزعة الموت والتدمير (Thanatos). أي لا يوجد إنسان خير مطلق، ولا إنسان شر مطلق. فالإنسان بأفعاله هو نتيجة تمازج نوعي وكمي بين النزعتين، وتغلُّب إحداهما على الأخرى هو الذي يضفي عليه طابع الشر أو الخير.

ننتقل إلى مقاومة خاصة قد تطال القارئ العربي. فهو نتيجة لتأثير الصراع السياسي قد يرفض اكتشافات التحليل النفسي جملة وتفصيلاً، اعتباراً منه أنها صادرة عن باحث من أصل يهودي. فرويد يتنكر لهذا الموقف. أولاً: لأنه يعتبر هذا الرأي غير علمي. فالحقيقة من أين أتت يجب أن تؤخذ. فهل المسلم مثلاً يتنكر لاكتشافات باستور (Pasteur) فقط لكونه نصرانياً. ثانياً: يقول فرويد إن اكتشاف التحليل النفسي على يد يهودي، لم يكن إلا عن طريق الصدفة، أي يعتبر أن اكتشافه لا يمت بأية صلة إلى أصله اليهودي.

بل أكثر من ذلك، في كتاباته الأخيرة سيما "موسى والتوحيد"، حاول تحطيم الهوام الجماعي المسيطر على الشعب اليهودي الذي كان يعتبر نفسه الشعب المميز والمختار من بين كل شعوب العالم؛ فهو أعلاهم شأناً وأقربهم إلى الخالق. فقد

حاول بأسلوبه الخاص، معتمداً على بعض المعطيات التاريخية أن يبرهن وهمية هذا الاعتقاد الذي كان سبباً في اضطهادهم والانتقام منهم عبر التاريخ. ورغم كل الضغوطات والمحاولات من قبل الحركة الصهيونية لكي يعدل عن كتابه، إلا أنه رفض وأصر على قناعته حتى آخر لحظة في حياته.

كان همه الوحيد كما تبين في صراعه مع أقرب تلامذته اليهود: فرنتزي ورانك وإبراهام وغيرهم، هو أن ينزع عن التحليل النفسي الصبغة اليهودية. فكل ما كان يطمح إليه، هو تحييد التحليل النفسي عن منحى الانحيازات الدينية والأيديولوجية والفلسفية، حتى يصبح علماً قائماً بحد ذاته، يكشف عن حقيقة في كل مقولة يتوهم أصحابها أنها تملك لوحدها هذه الحقيقة. فالتحليل النفسي هو سؤال معكوس لكل حديث يُنطق به؛ من حيث أن النطق لا بد أن يظهر ثغرة كلامية أو زلة لسان، يكمن فيها شيء يعبر عن حقيقتها التي لم تنطق به حتى الآن.

وقد يتساءل القارئ العربي بأن اكتشافات التحليل النفسي عن باطن الذات تصلح لمجتمع غربي، وصل به تقدمه التكنولوجي إلى حدود النظرية المادية البحتة التي تسقط من حسابها كل مفهوم روحي ومعنوي للإنسان - الشيء الذي بقي الشرق العربي محافظاً عليه رغم تخلفه. الحقيقة أن ظهور التحليل النفسي في هذا العصر العقلاني هو متاخم للنظرية المادية. ولأن هذا المفهوم جعل من الإنسان فرداً مستهلكاً لأسواقه الإنتاجية، لا يتمثل إلا برقم في عداد الكمبيوتر، برز التحليل النفسي كظاهرة حضارية لمعالجة هذا الإغفال لإنسانية الإنسان حيث يتميز برغبته عن المجموعة ويلتقي معها من خلال تعبيره عنها.

التطور التقني - العقلاني، لا يتقدم إلا على حساب كبت هذه الرغبة وإلغاء الذات وقمع كل ما يمثلها في حرية فردية. من هذه الفجوة التي تتمثل في القلق الحضاري بزغ التحليل النفسي من ضمير الغائب، أي المكبوت؛ لكي يعيد للإنسان جانباً من تكوينه المكبوت، وهويته، ويعيد النظر في مكاسبه الحضارية. أي استحضار الذات اللاواعية بعدما كانت معدومة (Forclos)[٨].

ولو ألقينا نظرة على المجتمع العربي، لوجدنا أنه مقدمٌ لا محالة على مواجهة هذه المشكلة. فهو لا يستطيع أن يستمر في تخلفه تحت ستار الروحانية والتراث المتقوقع على ذاته، سيما بعدما أخذ المد التقني الغربي يأسره بحاجته إليه؛ إضافة

إلى الالتقاء الحضاري والمعرفي بعد تقلص الحواجز الجغرافية. فالذي يعتقد أنه يستطيع اقتباس تقنية الغرب، وتجاهل التطور الفكري الذي كان سبباً في استنباطها فهو مخطئ، لأنه يتنكر لأهم الحقائق التي لا تفصل الحضارة الغربية عن إنتاجها التقني.

فمواجهة الفكر الحضاري الغربي، لا يمكن أن تحل بردة عصبية أو قومية أو تيولوجية، بل تتطلب انقلاباً فكرياً في منهجيته لكي يتمكن من فهم حقيقة هذا التطور، والصدف التاريخية التي جعلته يأخذ هذا المنحى.

فنحن لا يمكن أن ندعي الحرية في الوقت الذي نجد أنفسنا مرتهنين لكل الإنتاج الغربي التقني ورفاهيته. فما أخفق في المفهوم الغربي لكونية الإنسان، هو الذي كان سبباً في بزوغ التحليل النفسي.

وهنالك سؤال آخر وأخير قد يدور في ذهن القارئ العربي: هل التحليل النفسي باكتشافه الباطن أي المكبوت يتماشى ويتجانس مع المفهوم العربي الإسلامي؟ الجواب لا يؤخذ من الناحية السلبية أو الإيجابية، إنما يدعو إلى المزيد من التساؤل لتفهم خصوصيتنا في الموضوع. فالمسألة ليست بهذه السهولة، لأن التحليل النفسي ليس بمثابة فلسفة جديدة، لكونية الإنسان، وليس دينا أو مذهباً، ولا أيديولوجيا تفرض نمطاً معيناً في التفكير، إنما تساؤل مستمر لكشف حقيقة كامنة في نفوسنا، لا يحصل التعبير عنها إلا في حرية التسلسل الكلامي؛ أي أن القوة الراغبة والمحركة تكمن في "اللاوعي (اللاشعور) المركب كتركيب اللغة"، كما يقول جاك لاكان. وهذا ما يعلمنا إياه ويشهد عليه كل يوم عملنا العيادي.

ولكي أعطي نموذجاً عن هذه المسألة: حصل لي مرة بينما كنت أحاضر في الجامعة اللبنانية عن موضوع عقدة أوديب وعقدة الخصاء، أن برزت إحدى الطالبات متسائلة بدهشة إذا كان من الممكن أن تحظى هذه النظرية بالقبول نفسه في مجتمعنا الشرقي أو حتى في المجتمعات الأخرى؟ بساطة السؤال تحمل في طياتها صعوبة الجواب. لأنه في الواقع لا يمكن إدراك حقيقة من هذا النوع لمن لم يتسن له المرور في التجربة التحليلية. ففرويد عندما اكتشف هذه الحقيقة في تحليله الذاتي اضطر الى الاستعانة بالأدب والشعر لكي يجد قاعدة لمثل هذه الاكتشافات، صعب عليه تحملها على كتفيه لوحده. وهكذا التجأ إلى هومير، ليبرهن عن وجود عقدة أوديب، وإلى الأساطير اليونانية الأخرى، وإلى شكسبير في هاملت ودوستويفسكي وغيرهم.

وأمام هذه الطالبة الساذجة، وجدت أن الصعوبة في الإجابة تكمن في محاولة تبسيط الأمور. فقلت إذا انطلقنا من البديهيات الثابتة بأن الأم محرمة - وهذا ما يمكن تعميمه على كل المجتمعات - فبحسب نظرية كلود ليفي ستروس الأنتروبولوجية حول البنوية في العائلة: لا يوجد مجتمع حضاري من دون تحريم للأم، ولا يوجد تحريم للأم في مجتمع حيواني، ولا يمكن أن يوجد تحريم للأم دون أن يتبع ذلك ولادة مجتمع إنساني(*).

وإذا انطلقنا من قانون تحريم الأم، فلا بد إذاً من محرم لها يقف حائلاً دون رغبة الابن السفاحية. وإذا كان الأب هو المانع الملزم، فليس إلا لأنه يعتبر الأم، الزوجة، من حق ملكيته الجنسية، مما يسبب عند الابن ارتداداً نحوه بشعور عدواني لا مهرب منه، أي تكون قد تمت العلاقة الثلاثية: الأب الأم والابن. وهذا ما يشكل القاعدة الأساسية للبنية الأوديبية. وإذا توغلنا في الموضوع نجد صعوبة إضافية في فهم منهجية التحليل النفسي وعلم النفس الغربي بصورة عامة.

وهذه الصعوبة تكمن في غياب أي مشروع فكري عربي يحدد جهازاً للديناميكية النفسية سوى التصور المتخيل في الخارج الفضائي، أي أن جهازنا النفسي يطلع علينا من الجهة «البرانية» (Extérieur à soi) بشكل إسقاطي. فكل ما يخالجنا من مشاغل وعوامل وصراعات مما ينتابنا من نزوات لا تخضع لمفهوم الخير، نجد أننا نرفضها في أنفسنا ونفصلها عنا كما لو كانت جزءاً غريباً. وهكذا كي نتخلص من نزاعها نسقطها في الخارج بشكل معكوس على رموز أسطورية واجتماعية تلاحقنا ويتوجب علينا محاربتها . فالجهاز النفسي المتمحور حول الذاتية مفقود في تصورنا ككل باستثناء ما يتجانس مع الأنا في مفهومها للخير. وهكذا لو أخذنا على سبيل المثال الشيطان الذي يتكرر في أحاديثنا الشعبية والدينية، لوجدنا أنه يتلبس أشكالاً مختلفة: منها ما يشير إلى الإغواء الجنسي أي إذا غررت امرأة جميلة بمؤمن، قيل إن الشيطان تلبس بها ويتوجب الاستعاذة منها. وإذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. أي بمعنى أن هذا الأخير قد تلبس النزوة الجنسية عند الطرفين يخدعهم عن أنفسهم ويغرر

(*) قد يتميز المجتمع العربي عن المجتمع الغربي ببنية قبائلية لا تزال شائعة في معظم البلاد العربية الريفية. والقبيلة قد تكون الموضوع الوسيط الذي يحد من عداء الأب بنفس الوقت الذي يعزز سلطته. فالانتقال السريع من دون تمهيد، من البنية القبلية الى البنية الأوديبية يؤدي الى عنف متفجر يكون موضوعه عدو بديل عن الأب. وهذا ما تشهد عليه الأحداث منذ 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

بهم . وفي مجال آخر إذا انفرد رجل بنفسه وبدأت تلاحقه أفكار سوداوية أو عدوانية، لقلنا إن الشيطان يوسوس له، ولكي يبعد هذه الأفكار يلجأ إلى شتى الطقوس الدينية والرمزية المتيسرة له.

وتارة أخرى يشار إلى الشيطان بأنه السبب في دوافع عمل الشر والأذى والاعتداء على الآخر والقتل إلخ. فيقال كل ذلك من عمل الشيطان مما ينفي المسؤولية عن مرتكب الإثم. وإذا أشرنا إلى عمل ما يتنافى مع الأخلاق والصفات الإنسانية، قلنا إنه كان من عمل الشيطان. ونلاحظ أن هذه النظرية الفرويدية فيما يختص بالنزوة (Pulsion) لا تختلف عن المفاهيم النفسية المتوارثة من جيل إلى جيل في المجتمع الشرقي إلا من الناحية الموضعية (Topologique). أي أن النزوات والتحريمات التي ينشأ ويربى الطفل عليها وتصبح في مرحلة لاحقة ذاتية، يطرأ عليها انقلاب موضعي، أي ما هو «براني» يصبح «جواني»؛أي أن المحرم الخارجي، يصبح داخلياً يمثل سلطة تعمل في انفراد على ردع المحرمات والقيام بالمهمة نفسها التي كانت تقوم بها الروادع الخارجية. وهذه السلطة الجوانية تصبح جزءاً من الذات من ضمن الجهاز النفسي.

فالنزوات مثلاً التي قسَّمها فرويد إلى جزئين: نزوة الحب والحياة (Eros) ونزوة التهديم والموت أي الشر (Thanatos)، فما هو براني أي المسقط في الفضاء أدخله ضمن الجهاز النفسي الذاتي، يعمل في صراع مستمر مع الأول؛ والإنسان السوي هو الذي يتمكن من إدراك نزعة التدمير في نفسه، أي لا يتهرب منها عن طريق إسقاطها على الآخر لكي ينفي عنه تبعتها، وهذا أشبه بسياسة النعامة. فلا بد من إدراك هذه النزوة في أنفسنا والاعتراف بها لكي نتمكن من التحكم بها وتحويلها عن أهدافها المدمرة، إلى أعمال بناءة اجتماعية ؛ وهذا ما يسميه فرويد بعملية التسامي (Sublimation).

وعلى سبيل المثال نجد الجراح الطبيب الذي يحركه هوام يحتوي على نزعة شغف برؤية الدماء وتشويه الجسد، قد يعود تاريخها إلى الطفولة الأولى، يحول هذه النزعة السادية المدمرة إلى نزعة إنسانية باستخدام القوة المحركة ولكن بعد تحويلها إلى أهداف سامية: استئصال ورم أو إنقاذ حياة إنسان. أي يتمازج ايروس مع ثاناتوس، ويتحول الأخير لصالح الأول.

حتى النزوة الجنسية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتركيبتنا البيولوجية، فإذا ما أدركنا

وجودها واستطعنا السيطرة عليها، إما أن نرفضها وإما أن نحولها عن أهدافها، أي بعد تجريدها من محتواها الجنسي. وأمام هذه العملية النفسية تصبح العلاقة مع الامرأة سليمة، لأننا نكون قد أبعدنا فعلاً الشيطان ومنعنا تغريره بأنفسنا . وهكذا سواء الرجل أو الامرأة يستعيدان صفاتهما الإنسانية، ولا يبقى هناك حاجة إلى القمع وتشديد القيود على الامرأة لكي يحمي الرجل نفسه من إغرائها أو يحميها من نزوات الإغراء.

فالعمل التحليلي النفسي إذا ما أخذناه من زاوية تحرير الإنسان من الكبت المسبب لتأزمه النفسي، فليس ذلك أنه يعني العكس أي الاستباحة، إنما الذي يحصل إذا ما تمكن المكبوت من العودة إلى حقل الوعي عن طريق السلسلة الدالة عبر الكلام لاستطاع التحكم بهذه النزوة والتحرر منها؛ لأن حرية الكلام عبر التداعي إذا ما توصلت إلى التعبير الصادق عن الذات اللاواعية (اللاشعورية)، مكنت الإنسان من التحرر، والانصراف إلى العمل والإبداع الخلاق. والتجربة تبين أن النطق بالمكبوت يحول دون خروجه إلى الفعل المؤذي.

إذا كانت عقدة الخصاء والعقدة الأوديبية هما المحور الأساسي الذي يدور حوله العمل التحليلي النفسي، فليس ذلك إلا لأن الإنسان لا يمكن أن يتمتع بحياة سوية من دون حلهما حلاً سليماً. واكتشاف فرويد لهذه الحقيقة أتى نتيجة عمل عيادي ومنهجية بطرح مقولته بالمقلوب: أي لماذا لم يرضخ المريض لهذا التحريم؟ فلا بد إذاً من أحداث تكون قد أثرت في مجرى حياته مما جعله يبني هواماً جنسياً خاطئاً على أساسها، بقي محافظاً على فعاليته في لاوعيه (لاشعوره) ومسبباً لتأزمه ولعوارضه النفسية.

وينطوي عمل فرويد على منهجية جديدة تقضي بنقل المفهوم الشيطاني المسقط الفضائي، إلى إدماج ذاتي ضمن نظرية انشطارية بين ما هو وعي (شعور) مدرك، ولاوعي (لاشعور) غير مدرك. ونظرية جاك لاكان أتت لكي تربط هذا الجهاز بالآخر الكبير(*)(>) ضمن نظام علائقي، من حيث أن الذات مرتهنة بهذا الكبير منذ أول بزوغها.

وهو ما لا يمكن حصره بجواني وبراني لأنه مكان رمزي تتوجه إليه طلباتنا وترتبط به رغباتنا، على اعتبار أن رغبتنا هي رغبة الآخر. وهذا ما سنأتي على توضيحه في سياق الكتاب.

(*) الآخر الكبير مفهوم لاكاني Grand Autre. كل ما يأتي في صدد هذا الكتاب من مصطلحات لاكان الجديدة وتحمل علامة (>) يجد القارئ تحديدها في آخر هذا الكتاب.

القسم الأول

المسيرة الفرويدية

لاكان على خطى فرويد

«من المهم أن كل الخبرات التي رأت النور في البداية، والتي قد تتناقض مع النتائج التي حصلت فيما بعد، استمرت إضافة، بالتأكيد، إلى الخبرات التي أصبحت نقيضها، وذلك بدلاً من الحكم الذي يمثل فيما بعد المخرج الأخير. شرح: ضعف القدرة على الاستخلاص، استمرارية صفة العمليات الأولية»[1].

(فرويد، حزيران/ جوان 1938)

وصل التحليل النفسي إلى ما وصل إليه بعد مضي أكثر من قرن على اكتشافه، وكل الاهتمامات النظرية مركزة على أهمية هذه الظاهرة التي، إن صح القول، دمغت هذا العصر بطابعها الخاص، وأضفت عليه صفة نفسية علمية،تعدت مجالها الخاص، لكي تشمل أكثر النشاطات العلمية والفكرية. وهذا التأثر أخذ عمقاً أصبح من الصعب في وقتنا الحاضر حصر نتائجه؛ فما من مجال فكري، سواء كان نفسياً، أم أدبياً فنياً، اجتماعياً، أو فلسفياً دينياً، أو انتروبولوجياً، وحتى طبياً، في مفهومه العضوي، إلا وتأثر بالتحليل النفسي، واكتشافاته.

والجدير بالاهتمام أن التحليل النفسي قد أعاد النظر في كثير من المعتقدات السائدة، والتي يعتمدها الإنسان منذ عهد فلاسفة اليونان دون أن يلتفت إلى الدوافع التي أدت إلى وجودها. وكان من نتائج هذه القفزة أن الإنسان المعاصر لم يقتصر على إعادة النظر فيما كان مسلّماً به سابقاً، ولكن تعدى ذلك إلى العمل الفكري، في عقلانيته حسب مفهوم ديكارت، الذي اعتمد العقل وسيلة وحيدة لاستكشاف الواقع الذي يحيط به، سواء كان ذلك فكرياً أو علمياً؛ من حيث أن العالم أو الباحث لم يعد ـ منذ أن عرف بمكمن رغبته ـ يعتبر نفسه متجرداً من عمله أو اكتشافه. فما

---

(1) العمليات الأولية: القانون السائد في اللاشعور حيث أن المتناقضات التي تتواجد جنباً إلى جنب ترضخ لعملية النقلة والتكثيف. تفسير الأحلام ـ الفصل السابع، فرويد.

يصدر عنه ليس إلا وليد المعرفة التي كانت ترافقه طيلة حياته على غير علم منه لأنها كانت مكبوتة، وما إنتاجه الآن إلا «عودة المكبوت»(*) بشكل مرتجع.

فالباحث لم يعد يجهل أو يتجاهل ما يربطه بأبحاثه، أو بالدوافع التي تكمن وراء هذه الأبحاث، سواء كانت فكرية، أو مادية بيولوجية. وليس من الغريب كما يورد «لاكان»(1) أن ينتاب الباحث في بعض الأحيان موجة من الخوف أمام أبحاثه كي يتساءل عما دهاه لكي يأخذ هذا الاتجاه الذي، إن استمر به، قد يشكل خطراً عليه وعلى الإنسانية (بصورة خاصة الأبحاث في علم الجراثيم: والخوف من انتشار جرثومة تهدم الجنس البشري)(**).

إن ما أحدثه التحليل النفسي من انقلاب فكري يعود إلى دعوة الإنسان للتحرر من المفاهيم المكبوتة سابقاً، مفتشاً عن حقيقة كامنة وراء جموده واستسلامه. لأنه، بالأساس منذ ولادته، إنسان راغب، دخل عالم الرموز لكي يسبح في بحر اللغة التي تعبر عنه وتكوِّنه في آن واحد، يخاطب الآخر ويحاوره، يدفع إليه بطلباته، ويرتبط معه في وثاق حيث إن رغبته تصبح رغبة هذا الآخر الكبير، بشكل مرسال مرتجع(2).

وعندما ندرك هذه الحقيقة تتبدد أمامنا الدهشة للمقاومة التي رافقت ولادة التحليل النفسي، خاصة في المجتمعات التقليدية التي تعتبر أن كل من حاول تخطي الحدود الفكرية المرسومة له بحكم التقاليد والمعتقدات، يعتبر بمثابة من ارتكب إثماً، وانتهك بذلك حرمة الجماعة. من الخطأ أن نعتبر أن عمل التحليل النفسي مقتصر فقط على علاج الأمراض النفسية (أي كوسيلة علاجية من بين وسائل عديدة يعتمدها الطبيب في إرشاداته الطبية)؛ فموضوع العلاج بالشفاء يعتبر ثانوياً، أي إضافة، إلى جانب اكتشاف الحقيقة الكامنة وراء كل عارض. ويختلف هنا بشكل جذري التحليل النفسي عن الموضوع العلاجي: بطريقة تقويمه لمفهوم العارض: فإن كان بالنسبة للثاني بمثابة جسم غريب يجب اقتلاعه أو استئصاله فإنه بالنسبة للأول (العارض) هو الدال(***) على الذات بمفهومها اللاشعوري أي ـ المخفي عن الأنا ـ ولهذا الدال ارتباط

(*) المكبوت معرفة مجهولة أي اللاوعي.

(1) حوار مع «لاكان» في مؤتمر روما سنة 1974.

(**) على سبيل المثال هناك أطروحة تتهم العلماء بتفشي مرض الايدز. على اعتبار أنه جرثومة خرجت عن سيطرة المختبرات البيولوجية.

(2) Lacan, *Les subversions de sujet*... Seuil.

(***) الدال هو ما يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر.

بسلسلة من الدلالات ارتسمت في تاريخ حياته بما تخلل ذلك من أحداث كان من نتيجتها تكوين الهوامات اللاواعية (اللاشعورية) التي أصبحت الموطن والمعبر عن رغباته. فالعارض ارتباط جماعي بالإضافة إلى ارتباطه الشخصي. وهذا ما يفسر موقف التحليل المغاير للموقف الطبي.

يتهيأ للبعض، وبصورة خاصة بعد التجربة الأميركية، أن فرويد قد تخطاه الزمن ـ وأن نظرياته التي كان لها أسباب اجتماعية خاصة بالأوضاع السائدة في محيط أوروبا الغربية (ڤيينا) قد زالت الآن،ولم يعد لها مبرر. فالإنسان المعاصر قد تحرر من قسم كبير من العقد، وعوامل الكبت التي كانت سائدة في عهده. وفرويد لا يمثل أكثر من حقبة تاريخية في تطور علم النفس الحديث. وهناك فريق آخر، وهو من المحللين المعاصرين، وجد أن التحليل النفسي قد تطور، ولا يجب أن نعتمد إلا على آخر ما توصلت إليه اكتشافات فرويد، باعتبار أن اكتشافاته الأولى أتت متناقضة مع اكتشافاته الأخيرة؛ فإمكانية الاستخلاص، وتجميعها في نظرية واحدة، هو شيء مستحيل، ومغاير للمفهوم العلمي، وعلى هذا الأساس اعتمد هذا الفريق على نظريته الثانية (النظرية الموقعية) (Topique)(*) كقاعدة يبني عليها العمل العيادي والتنظير الفكري[1]،

(*) 2ème topique نظرية موقعية أطلقها فرويد سنة 1923 لكي يحدد المواقع التي تتحكم بوظائف النفس، وهي الأنا والأنا الأعلى والأنا المثالي ومثال الأنا والهو.

(1) النظرية الأولى: وهي التي قدمها فرويد في كتاب تفسير الأحلام سنة 1900 في الفصل السابع.واعتبر على أساسها أن الجهاز النفسي منقسم على ذاته: ما بين الشعور (Conscient) واللاشعور (Inconscient)، وما قبل الشعور (Préconscient) الذي يربط بين الطرفين. واعتبر فرويد أن الأحلام هي الباب الواسع إلى اللاشعور، حيث تستغل النزوات والرغبات المكبوتة شهوة الرقابة فتحقق عبر التمثلات المقنعة والمشوهة: أي الخافية لحقيقة أمرها.

واعتبر أيضاً أن الأعراض المرضية تمثل مدخلاً آخر إلى اللاشعور من حيث إنها قابلة للتأويل على غرار الأحلام.

وأخيراً المدخل الأخير: المتمثل بالنكات والأفعال المغلوطة التي تطالعنا بها حياتنا اليومية. إذ إن ما يميز هذا اللاشعور عن غيره: أن له لغة قائمة بحد ذاتها.

أما النظرية الموقعية الثانية: وهي النظرية النفسية التي تقدم بها فرويد سنة 1923. وكانت غايتها تبسيط وصف الجهاز النفسي حتى يسهل استعماله وتحديده. وقسم هذا الجهاز إلى ثلاثة أقسام:

الأنا: بمثابة الوسيط ما بين اللاشعور والعالم الخارجي. وظيفته تغيير الواقع حتى تتحقق الرغبات المطلوبة، أو التكيف مع هذا الواقع إذا لم يكن لديك بديلاً عن طريق التسويات.

الأنا الأعلى (Surmoi): وريث الأوديب بمثابة الضمير الحاسب.

والضالعون في الموضوع يعرفون كيف أدت هذه النظريات إلى إيلاج التحليل النفسي خندقاً لا مخرج منه ـ من حيث أن عمله لم يعد يختلف عن أية نظرية نفسية سيكولوجية تبحث في وصف شكل الأشياء، ولا تعتني بتكوينها، أو كيف تكونت. فمقاومة المحللين للتحليل النفسي، هي أعنف وأكثر ضراوة من مقاومة الجاهلين في هذا المضمار. فانتهاء المحلل من تحليله لا يعني أنه انتهى من تفريغ لاوعيه (لاشعوره) (كما لو كان اللاوعي (اللاشعور) حوضاً قابلاً للتفريغ). فاللاوعي ملازم له، ملازمة الظل، يستقرئه، ويستكشف خفاياه من خلال عمله العيادي، وبما ارتبطت به رغبته بهذا العمل.

أمام هذا الانحراف، قام لاكان بحملته الفكرية سنة 1952 الداعية إلى تصحيح المسيرة أو«العودة إلى فرويد». فالاحتكام إلى فرويد لا يعني استعادة خبراته السابقة، واستنتاجاته الأولية، لكي نتبناها كما هي ـ وإنما الاحتكام إلى خبرة فرويد، واستقراء ما بين السطور التي خطها، لكي نستخلص المعنى الصحيح، والعامل النفسي الذي كان يحركه ـ فخبرة فرويد تبقى الخبرة الأساسية التي نحتكم إليها، والنمط المثالي لكل من أراد مزاولة هذه المهنة.

وفكرة التجديد ليست أكثر من لباس حديث لتورية المقاومة بشكلها القديم. فاللاوعي (اللاشعور) متاخم لعمل المحلل، لا يستطيع التنصل منه، ويقتضي استقراؤه، والتخلي عن الأحكام المسبقة، وحتى النظرية التي اكتسبها بحق المعرفة، أي قطع الروابط المعرفية، لكي يتمكن من السماع بأذن ثالثة ما لم يتمكن من سماعه بأذنيه. وعلى هذا الأساس تكون العودة إلى فرويد، بمعنى العودة إلى النموذج الفريد من نوعه، عندما قطع فرويد تدريجياً أواصر الارتباط بالمعرفة المسبقة، طبية كانت أو فكرية، لكي يجد نفسه على طريق اللاوعي (اللاشعور)، ويتمكن في النهاية من استقرائه واكتشاف وجوده(*).

وكل من عمل في التحليل لا بد له من العودة إلى فرويد بهذا المعنى، إن من وجد نفسه على هذا الطريق، سيتعرف لا محالة على نفس الخبرات، ويؤدي به

= الهو (ça): تكوين بدائي، تتجمع فيه المتناقضات والرواسب البشرية التي انفضت عنها بحكم تطورها. يشير فرويد إلى أن النظرية الثانية لا تنفي الأولى، بل تبقى قائمة إلى جانبها.

(*) اقرأ حالة اليزابيث فون فروبلاين، حيث يعترف فرويد بأن معرفته الطبية المكتسبة لم تسعفه في العلاج النفسي، فقد اضطر الى الخوض في أعماق المريض متسلحاً برغبته في الكشف عن حقيقة مكبوتة.

لمطاف إلى قطع أواصر المعرفة المسبقة، لكي يكتشف لاوعيه (لاشعوره) في تنظيم عمم على كل العمل النفسي. أي اكتشاف العقدة الأوديبية، وعقدة الخصاء المؤسسة وجود كل رغبة في مضمونها الهوامي الكامن وراء كل عارض. فالإنسان راغب قبل كل شيء، ومن دون هذه الرغبة، تفقد الحياة معناها ومدلولها ـ وإن توصل فرويد إلى هذه المعرفة، فليس ذلك إلا لأنه تمكن من الاستمرار في العمل متخطياً الحواجز والحدود التي توقف عندها غيره. وقد يكون ذلك على غير علم منه، كأي باحث يبدأ في أبحاثه دون معرفة مسبقة إلى ما يمكن أن يتوصل إليه من اكتشافات جديدة تكون مدهشة للغير بقدر ما هي مدهشة له. ونلاحظ هنا أن عمل الصدفة والأحداث التي مر بها، ليست بالشيء البسيط، الذي يمكن أن نقلل من أهميته. علماً أن الصدفة بنظر التحليل، تتبدد عندما نضعها في إطارها التاريخي ونحاول أن نكشف عن مضمونها بنزع قناع البراءة الذي يغلفها. يتبين لنا، على ضوء ذلك، أن الحقبات التاريخية التي مر بها فرويد، وكان لها الأثر الفعال في اكتشافه للتحليل النفسي، لم تأت على سبيل الصدفة بقدر ما كانت تعبر عن مراحل، كان لا بد له، قبل أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى، من أن يقطع علاقته مع المرحلة السابقة، حتى تصبح بحكم الغرض المفقود، الذي من دون فقدانه لا يمكن إدراك نقص وجوده.

وهذا ما سنحاول استعراضه وتحليله من خلال ثلاث حقبات تاريخية كان لها الأثر البعيد في تمكين فرويد من اكتشافاته التحليلية.

بدأ فرويد في تحليله لنفسه سنة 1897 ـ هذا ما يخبرنا به جونس في كتابه عن حياة فرويد[1]، استناداً إلى رسائله لصديقه فليس (Fleiss) وما ألمح إليه فرويد في كتابه «تفسير الأحلام». ومن الأسباب التي حدت بفرويد إلى القيام بهذا العمل الجبار: يضع جونس في الأولويات عاملين: العامل الأول، وهو نظريات فرويد حول مسببات العصاب عند الهستيريا، والانقلاب النفسي الذي حصل عنده نتيجة اكتشافه خطأ نظرية «الإغراء الجنسي المبكر» التي كان قد وضعها في رأس سلم الأولويات كسبب أساسي في تكوُّن العصاب عند الهستيريا. وأما العامل الثاني، فهو وفاة والده المسن في تشرين الأول/أوكتوبر سنة 1896 والتي كان لها أثر عميق في نفسه «بسبب وفاته، بعث الماضي بأكمله من جديد، وأشعر الآن بأنني بائس»[2]. ويزيد فرويد،

(1) جونس: تراث وحياة فرويد وهو من ثلاثة أجزاء.

(2) جونس: تراث وحياة فرويد،ص 350.

بأن هذا الموت الجثيم، هو الذي حدا به إلى كتابة تفسير الأحلام. فبعد إنجازه، تبين له ارتباط حدث وفاة والده في تحليله لنفسه، وفي كتابة الكتاب، الذي «كشف لي أن جزءاً كبيراً من تحليلي الخاص كان ردة فعل على وفاة والدي، أي أهم حدث، وأصعب خسارة مفجعة كان يمكن أن تحدث لي في خلال هذا الوجود»[1].

قبل التوغل في خوض هذا الموضوع، يجب الإشارة إلى أنه رغم التباين الظاهر ما بين العامل الأول، والعامل الثاني، فإنهما مترابطان في الداخل ويلتقيان على صعيد اللاوعي (اللاشعور)، والذي يجمع بينهما هوام واحد. فالعمل العيادي، وتنظير هذا العمل في نظريات شاملة، كان شغل فرويد الشاغل في ذلك الوقت، ولم يكن بحل منها، لأنها تطاله كما تطال مرضاه. فهذا الارتباط الوثيق ما بين العمل العيادي وبين ما ينتج في اللاوعي (اللاشعور) من ردات فعل، هو الذي يمثل نقطة الالتقاء، أي المكان الرمزي حيث تتكون النظرية في مفهومها المعمم.

ويمكن القول إنه ليس على سبيل الصدف أن يلتقي حدث وفاة والده مع خيبة أمله في نظريته الجنسية حول الإغراء الجنسي المبكر، الناجم عن اعتداء الأب. وهذا ما سنعود إليه فيما بعد.

الواضح أنه رغم أهمية هذه الحقبة التاريخية التي تمكن خلالها فرويد من تحليل نفسه، والتي ترتب عليها إدخال التحليل النفسي واستقراره في شكله الحاضر، هناك حقبات تاريخية لا تقل أهمية، ولولاها لما استطاع القيام بهذا العمل الجبار. فهي التي مهدت الطريق لهذا الاكتشاف، ومكنت فرويد من استخلاص العبر وحوَّلته إلى توظيف الخبرات في عمل فكري كان لا بد من أن يصب في التفتيش عن الحقيقة، حقيقة ذاته،أي المكبوت عنده.

قلنا إن فرويد مر بثلاث حقبات تاريخية قبل أن ينتهي به المطاف إلى الحقبة الرابعة: أي إلى ولادة التحليل النفسي.

الحقبة الأولى، وهي مسألة الكوكايين امتدت من سنة 1884 ولغاية 1886، ثم حقبة التنويم المغنطيسي من سنة 1881 ولغاية 1896، وأخيراً حقبة موضوع الإغواء الجنسي من سنة 1896 وحتى 1897.

نشير إلى أن هذا التسلسل الزمني لا يترجم تماماً حقيقة وضع فرويد وتطوره على

(1) ولادة التحليل، ص151.

لصعيد النفسي، فالانتقال من حقبة إلى أخرى لا يخضع لهذا التسلسل الفاصل، لأن لمخاض بقي مستمراً، وانقطاع أواصر الصلة مع المعرفة التي كانت تحدد مواقفه لم كن تظهر إلا بعد خيبة أمل، أي خسارة لموضوعه المرتهن في تجاربه. وهذه الخسارة قيت تمثل المحوَر، الذي يدور حوله التحول الفكري من منهج إلى منهج آخر.

● حقبة الكوكايين تمثل منعطفاً كبيراً في حياة فرويد الفكرية. فبعد انتقاله من مختبر بروكة (Brück)، الذي كان بمثابة المعلم الأول نظراً لمكانته العلمية ولرحابة صدره، وعاطفته الأبوية التي كان يغمره بها ـ ترك فرويد هذا المختبر مرغماً، تحت ضغط منه، لكسب رزقه وإعانة عائلته ـ فمستقبله في المختبر غير مضمون نظراً لقلة لمراكز المعروضة عليه ـ ولكن رغم دخوله معترك العمل الطبي الحر، ظل مرتبطاً رتباطاً وثيقاً بعمله المختري. وبقي يعلق الآمال على اكتشافاته في علم الأعصاب. فرويد كان يأنف من العمل الطبي ـ ويفضل أبحاثه النظرية على أي عمل عيادي ـ لذلك وجد نفسه مرغماً على ترك أبحاثه تحت ضغط ونصيحة أستاذه بروكة (Brück): «المعلم الذي قدَّرته كثيراً أفهمني بأنه نظراً لإمكانياتي المادية الضئيلة، لا يمكنني أبداً ن اكرس نفسي للأبحاث النظرية»[1].

ماذا كانت هموم فرويد إذاً في تلك الفترة، التي امتدت من سنة 1881، عندما رك المختبر، حتى سنة 1884؟ شغله الشاغل : كان أن يكتسب خبرة طبية تؤهله خوض معترك الحياة العلمية، وتمكنه من كسب رزقه ـ فعوزه المادي كان له الأثر لبعيد في تبديد أحلامه وآماله التي كان يدور في فلكها ـ وكان يتوجب عليه أن يروض نفسه على عمل يأنفه، ويتنازل في نفس الوقت عن أبحاثه التي كانت تستحوذ على اهتمامه. نلاحظ أن هذا العوز المادي بقي يلازمه فترة طويلة من حياته ـ نظراً للديون المتراكمة التي كان يستعين بها من بعض أصدقائه لإشباع نزوته الطاغية في شراء الكتب، بالإضافة إلى ولعه بخطيبته مرتا (Martha) التي كان يمني النفس في لكسب السريع وتقصير فترة الخطوبة للزواج منها بأقرب فرصة ممكنة. يبدو لنا ـ من خلال قراءة جونس لتاريخ حياة فرويد ـ أن هذا الأمل في الإثراء السريع والشهرة، كان يدغدغ خياله في كل مرة يجد نفسه أمام فرصة نجاح اكتشاف ما. ومن هنا بدأت قصته مع الكوكايين، والمراهنة الكبيرة في حال نجاح اكتشافه. ولكن مجرى الأحداث

(1 ges werk XIV, P.290.

بيَّن لنا غير ذلك، فما كان موضوع آماله وطموحه، هو غير ما كان مطلب لاوعيه (لاشعوره)، فإن دلت على شيء، تدل على أن فرويد كان يسير على خطى تتحكم به ولا يتحكم بها.

الإشارة الأولى عن الكوكايين، ظهرت في إحدى رسائله في نيسان/أفريل سنة 1884 عندما اعتبره مشروعاً علاجياً، يمكن أن يعلق عليه أملاً كبيراً. والكمية الأولى التي حصل عليها في تلك الفترة، وهي لا تتعدى الغرام، اختبرها مباشرة على نفسه وكانت النتيجة مدهشة، فهي قد بددت الشعور بالعياء والتعب والجوع، نتيجة التخدير الموضعي الذي غطى غشاء المعدة. هذا بالإضافة إلى إزالة الشعور بالكآبة، واستبداله بنشاط وحيوية لم يعهدهما في نفسه سابقاً. على أثر ذلك بدأ يعمم انتشار هذا المخدر على أصدقائه ومرضاه، وأفراد عائلته. وكان النصيب الأكبر من حظ صديقه فليشل الذي كان يعاني من الأمرين من التهاب في العصب.

واعتبره فرويد دواء سحرياً علق عليه الآمال الكبيرة، في حال نجاحه، لتأمين الشهرة والمال، نظراً لفعاليته في علاج أمراض العصاب. وكتب فرويد العديد من الدراسات حول مستحضر الكوكايين، وطرق استعماله في مجالات عدة: أمراض العصب، والسكري، ومعالجة المدمنين على المورفين، ودوار البحر، إلخ من الوصفات التي كان يعلل الآمال في حال نجاحها بتحقيق هدفه المنشود، الشهرة والمال والزواج بسرعة من مرتا (Martha)، لكن سريعاً ما بينت له الأحداث أن آماله بنيت على قصور من الرمال، بالإضافة إلى فوات فرصة العمر التي كانت من نصيب زميله كولر ـ الذي تمكن بفضل معرفته بفرويد، وبالاختبارات التي قام بها حول هذا المستحضر، من أن يكتشف فضيلة التخدير الموضعي للكوكايين، ويعلنها في المؤتمر الوطني في هايدربرغ في تشرين الأول/أوكتوبر 1884.

واعتبر اكتشافه حدثاً طبياً عالمياً، كان له صدى واسع، لأنه مكن من تطوير جراحة العين بصورة فعالة. فهذه الجراحة لم تكن ممكنة بسبب عدم وجود أية مادة تخدرها، أصبحت بعد الكوكايين عملية سهلة في متناول كل أطباء العيون. وهكذا اعتبر اكتشاف كولر لهذه المادة حدثاً عالمياً حقق من خلاله الشهرة والنجاح، أي فرصة العمر التي كان يتمناها فرويد والتي ضاعت بعد أن كانت في متناول يده.

والسؤال هنا كيف تجاهل فرويد ميزة التخدير للكوكايين؟ فهل كان على غير معرفة بها؟ أو أن اهتمامه كان منصبّاً على جوانب أخرى؟ وهل أن الصدف شاءت أن

يكون الاكتشاف من نصيب كولير، أم أن هناك دواعي نفسية حققت للأول النجاح، وحالت دون وصول فرويد إلى تحقيق موضوع طموحه؟

الواقع أن فرويد لم يشف بسهولة من أثر هذه الصدمة، بل بقي فترة طويلة يعاني من هذا الموضوع الذي، بالإضافة إلى ضياع الغرض، بقي يعاني من شعور بالذنب ظل يرافقه فترة من حياته، ولم يتخلص منه إلا عندما باشر تحليله الخاص في سنة 1897؛ وقد لمَّح إلى ذلك في كتاب تفسير الأحلام في أماكن عدة، من أهمها حلمان يشيران بصورة مباشرة إلى هذه التجربة: الحلم الأول الذي افتتح به كتابه تأويل الأحلام، ويعتبر بمثابة الفاتحة لعلم دراسة الأحلام، وهو حقنة إيرما[1]. والحلم الثاني هو المبحث النباتي[2].

يقول فرويد اعتماداً على ما نقله جونس[3]: إنه كان على علم بفضيلة التخدير: وحدث ذلك على مرأى من زميله كولر: ففي إحدى المناسبات بينما كان مجتمعاً مع نفر من الزملاء، إذ بأحدهم يشكو من ألم مبرح في حدقة العين، فأخذه فرويد على مرأى من الجميع وقطر له عدة قطرات في عينه، كان من نتيجتها أن زال الألم في الحال. وشرح للحاضرين أن هذا المستحضر العجيب مستخرج من ورقة الكوكا التي تنبت في أميركا الجنوبية. وأنها تحتوي على ميزات تخديرية، يحضر لها دراسات خاصة. كولر الذي كان يسمع بقي صامتاً، وبعد أشهر خلت، دهش فرويد عندما سمع باكتشاف هذا الأخير لفضيلة التخدير لمادة الكوكايين، وتسهيل سبل عمليات جراحة العين. وهكذا يزيد فرويد، أن السبيل الوحيد الذي يؤدي إلى اكتشافات مهمة هو حصر العمل الفكري في اتجاه محدد[4].

فكلاهما إذاً (كولر وفرويد) كانا على علم بميزة التخدير، والدليل على ذلك أنهما عندما تناولا الكوكايين شعرا بالتخدير الحاصل في اللسان، والحلق، والمعدة. ولكن الفارق بينهما: أن الأول قد أعار هذه الظاهرة اهتمامه، والثاني تجاهلها لأن اهتمامه كان موجهاً نحو التأثير النفسي. وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مشاغل الأول لم تكن

(1) تفسير الأحلام، ص 151.
(2) تفسير الأحلام، ص 195.
(3) جونس، idem الجزء الأول، ص 94.
(4) جونس، idem الجزء الأول، ص95.

في مستوى مشاغل الثاني. وهذا مفترق الطرق الذي أدى في البداية إلى اكتشاف كولر لميزة التخدير، وأدى بالثاني من خلال فشله إلى اكتشاف التحليل النفسي.

لا يتورع فرويد في إحدى رسائله من لصق التهمة بخطيبته مرتا (Martha) على أنها كانت السبب في ضياع فرصة العمر. فحبه وشوقه للحاق بها جعله يترك ڤيينا في حزيران/ جوان 1884، ويكلف صديقه كونفشتاين بمتابعة الإختبار. يعاتب نفسه بأنه كان الأجدى به في مثل هذه الحالة الاتكال على نفسه وليس على غيره. فلو بقي في ڤيينا، وتابع اختباراته لكان بالإمكان التوصل إلى اكتشافات التخدير للكوكايين قبل كولر.

ولكن هذه الخسارة الهامة في حياته لم تتوقف عند هذا الحد، فقد تبعتها مساوىء عديدة نظراً لانتشار استعمال الكوكايين كان من نتيجتها أنها زادت من حدة شعوره بالمسؤولية المترتبة عليه. وكما ذكرنا، فقد أصيب بنفس الوقت بسمعته العلمية، وبأعز أصدقائه فليشيل، الذي كان يعاني من آلام مبرحة نتيجة التهاب في العصب، جعلته يدمن على المورفين لتخفيف آلامه التي كانت لا تحتمل. وفليشيل لم يكن يمثل بالنسبة لفرويد صديقاً عادياً، فقد كان معجباً وفخوراً به، إلى حد أنه وضعه بمثابة طيفه المثالي، والآخر الذي كان يتمنى أن يكونه. وتشير إحدى رسائله إلى مرتا (Martha)[1]، كيف أنه استرسل في استيهامه إلى درجة وضع غرضه الحبي المثالي من حظ فليشيل بمثابة الأنا المثالي الذي كان يتمنى أن يكونه. ونحن نعلم أن مثل هذه العلاقة كانت تتكرر بحياة فرويد على غرار ما حصل فيما بعد بينه وبين فليس (Fleiss).

لذا لم يتورع عن إعطاء فليشيل أول جرعة من الكوكايين حصل عليها، أملاً منه في أن يخفف من آلامه، ويجعله يعزف عن استعمال المورفين. ولكن سرعان ما تفاقم الوضع، عندما زادت الكمية إلى حد وصلت به إلى عدة غرامات في النهار دون أن تعطي النتيجة المرجوة. والغلطة الكبيرة التي آخذ نفسه عليها، ولاحقته فترة من الزمن، هي النصيحة التى أعطاها لفليشيل باستعمال الحقن بدلاً من الجرعات بالفم، حيث كان من نتيجتها أن أصبح فليشيل مدمناً عن حق، يطلب باستمرار زيادة الكمية، مما أدى في النهاية إلى استعجال أجله. هذا بالإضافة إلى وصفة ثانية بالحقن إلى مريض كان يعالجه وكان من نتيجتها أنها أودت بحياته.

ماذا كانت حصيلة الكوكايين؟ خيبة أمل كبيرة، وخسارة ضخمة في صديقه،

(1) رسالة 27-4-1882 «أكن له حباً وإعجاباً إلى درجة الهيام الفكري إذا سمحت أن اعبر هكذا. زواله يصيبني بعمق لا يقل عن تأثر الإغريق أمام إنهيار معبدهم المقدس».

وخسارة في رصيده العلمي، وسمعته الطبية، سيما بعد أن بدأت تظهر مساوىء الإدمان على المخدر، الذي اعتبر وباء ثالث يهدد الإنسانية.

يقول جونس[1] «إن هذا الإنسان الذي حاول أن يخدم الإنسانية حتى اكتسب الشهرة عن طريق معالجة العصابيين، أصبح يرى نفسه في قفص الاتهام، بتهمة نشر الوباء في العالم وكثير من الناس حملوا عليه، واعتبروا أن حكمه كان متهوراً. . .» وحكمه على نفسه لم يكن أقل نقداً من حكم الآخرين عليه. فضميره العلمي أصيب بصدمة ظلت تلازمه فترة طويلة. وتتبين لنا آثار ذلك مما ورد في تفسير الأحلام ما بين سنة 1895 وسنة 1897[2] وبحلم حقنة إيرما بالذات[3]. فإذا ما استعرضنا التداعيات التي وردت، يتبين لنا أن فرويد يدافع عن نفسه أمام مسؤوليته تجاه هذه الحقنة اللعينة التي تسببت بوفاة صديقه فليشيل. فهو من خلال الحلم يحاول تبرئة نفسه، ولصق التهمة بزميله، حيث اعتبره مسؤولاً عن الحقنة الفاسدة. ويزيد على أن المريضة إيرما

---

(1) جونس، idem، الجزء الأول ص 104.

(2) تفسير الأحلام، ص 135.

(3) تفسير الأحلام، الصفحة ذاتها: يطلب من القارىء معرفة تامة بتفاصيل هذا الحلم ـ حلم إيرما: قاعة كبيرة ـ ضيوف كثيرون ونحن نستقبلهم. بينهم إيرما، أبادر إلى الانتحاء بها جانباً، كأنما أريد أن أرد على خطابها، أن ألومها على كونها لم تقبل«الحل» بعد. أقول لها: إذا كنت ما زلت تتألمين، فالذنب في الحقيقة ذنبك وحدك. تجيبني قائلة: لو علمت أية أوجاع أحسها الآن في الحلق والمعدة والبطن، إنها تخنقني ـ أفزع وأنظر إليها. إنها تبدو شاحبة منتفخة، أحدث نفسي: لا بد أن ثمة شيئاً عضوياً أغفلته. آخذها إلى جوار النافذة وانظر إلى حلقها. حينئذ تبدي بعض الممانعة، شأن النساء اللاتي يحملن أسناناً صناعية. أقول لنفسي ـ وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك ـ عندئذ ينفتح فمها فيما ينبغي، فأرى بقعة بيضاء على الجانب الأيمن، وفي موضع آخر أرى قشوراً كبيرة ذات لون رمادي يضرب إلى البياض، انتشرت فوقه زوائد متجعدة، غريبة الشكل، كان من الجلي أنها قد صيغت على غرار الخياشيم الأنفية. ـ أستدعي الدكتور على الفور، فيعيد الفحص ويؤيده. . . إن الدكتور م. يبدو مختلفاً في نفسه كل الاختلاف، فهو شاحب جداً، يعرج في مشيته، حليق الذقن. . . الآن يقف بجانبها صديقي أوتو كذلك. وصديقي ليبولد ينقر صدرها من فوق الصدار ويقول: إن تحت منطقة صماء على الجانب الأيسر إلى أسفل، ثم ينبه أيضاً إلى رقعة مرتشحة من الجلد على الجانب الأيسر(وهو ما ألحظه مثله على الرغم من الرداء). . . يقول م.: لا شك في أن هذه عدوى، ولكن هذا ليس بشيء؛ فسوف تعقب الدستاريا وينطرد السم. . . إننا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى. فقد حقنها صديق أوتو منذ وقت قريب، وقد ساءت صحتها يوماً، حقنة من مركب البروبيل.. بروبينيك.. حامض البروبينيك. . . ترتميتلامين (وهنا أرى المعادلة الخاصة بتركيب هذه المادة الأخيرة مطبوعة أمامي بحروف سميكة). . . إن مثل هذه الحقن لا يقدم عليها المرء بمثل هذه الخفة، أغلب الظن المحقنة لم تكن نظيفة كذلك.

إذا لم يتحسن وضعها، فهي المسؤولة عن ذلك، ولو كانت طيّعة، كمريضة ثانية استبدلها، لما كانت ساءت صحتها بهذا الشكل. وينتهز الفرصة أمام ذكرى صديقه فليشيل في تداعي أفكار الحلم: إن هذا الأخير كان هو المسؤول عن استعمال حقنة الكوكايين التي لم ينصحه بها، رغم تأكيد جونس في تأريخه لحياة فرويد على عكس ذلك. وخير دليل على أهمية هذا الحدث هو الخطأ الذي وقع به فرويد في تاريخ السنة التي وصف بها الكوكايين ولم يصححه في طبعاته المتتالية[1].

ونستعرض هنا فقرة من حلم إيرما وتعليق لاكان عليها: و كيف ارتبط الجنس بالموت.

«ما أراه في الحلق: بقعة بيضاء وخياشيم عليها قشور: إن البقعة البيضاء تذكرني بالدفتيريا، ومن ثم بصديقة لإيرما. ولكنها تذكرني أيضاً بالمرض الذي أصاب ابنتي منذ عامين على التقريب، وبكل الجزع الذي عانيته في هذه الأيام التعيسة. وأما القشور المنتشرة على الخياشيم فتذكرني بقلق يساورني على صحتي نفسي. فقد كنت في هذه الأيام أكثر من استخدام الكوكايين لأخفف به تورماً أنفياً مضنياً، وكنت قد سمعت قبل الحلم بأيام قليلة أن إحدى مرضاي حذت حذوي فأصابها نكروز واسع النطاق في الغشاء الأنفي المخاطي. ولقد كنت أول من أوصى باستعمال الكوكايين في سنة 1885. وجرت على هذه التوصية ملامة خطيرة. ثم إن الإفراط بهذا الدواء قد عجل بموت صديق عزيز عليّ، وكان موته قبل سنة 1895».

فنحن نعرف أن فرويد قد أوصى باستعمال الكوكايين سنة 1884، فلا حاجة به إلى إغفال هذا الخطأ وعدم تداركه فيما بعد. الجديد في الموضوع، والكامن وراء الحلم، أن ذكرى الكوكايين وما نتج عنها من مساوىء خطيرة قد عادت إلى ذهنه عندما بدأ يبني نظريته الجنسية حول الهستيريا. فكان بحاجة للدفاع عن هذه النظرية، سيما أن شغله الشاغل قبل الحلم: كان حالة إيرما بالذات حيث بدأ الشك يساوره في صحة نظريته النفسية[2].

يقول لاكان[3] إن فرويد قد تساءل في الحلم: ما هو العصاب؟ ما معنى العلاج؟ ما هي الدعامة لطريقة علاجي للعصاب؟ هذه الأسئلة كانت تراود ذهنه ولا يستطيع أن

(1) المرجع نفسه، ص 137.

(2) راجع: لاكان. Séminaire N° II: Le rêve d'injection d'Irma

(3) Lacan, Séminaire II, Seuil.

يجد لها جواباً. فهو أمام مفترق طرق من حيث إن الحقيقة تنكشف أمام واقع لا يعرف مداه، سوى أن المعرفة بدأت تتعدى الحدود المتعارف عليها. فاجتياز هذه الحدود يعتبر انتهاكاً، إذا ما اقترنت هذه المعرفة بما هو محرم عليه معرفته.

وتجدر الإشارة إلى أن إغفال فرويد للحقنة، وإنكاره لوصفها في استعمال الكوكايين، لا بد أن يكون قد ارتبط بذكرى سابقة كان قد شملها الكبت. . . ونشير بهذه المناسبة إلى احتمال ارتباط الحقنة، بما هو متداول في اللغة الألمانية بكلمة إحليل (UNTUR) كما يؤكد لاكان، علماً أن الغلمية الإحليلية كان لها أهمية كبيرة في حياة فرويد، من حيث إنه كان لها الأثر البعيد في تكوين موضوع هوامه. هذا بالإضافة إلى ما يشير إليه لاكان من ذكرى ارتبطت بالحقنة حصلت في طفولته الأولى: فقد حدث أن بوّل في غرفة والدته ووالده بدلاً من أن يبول في المكان المخصص له، وأهمية هذا الحدث أنه اقترن بهوامات محرمة.

الموت ليس ببعيد عما كان يفكر به فرويد. عندما طلب من إيرما أن تفتح فمها: **انفتحت أمامه حقيقة انقلابية لم يعهدها من قبل. انتصب الواقع أمامه من دون وسيط كلامي: فهذه الفجوة أشبه بمفترق طرق: التنفس والهضم والنطق ـ كان الأجدى به أمام هذا المشهد المرعب أن يصاب بالهلع ويقطع نومه. ولكن ما حصل أن بنية الأنا الفرويدية كانت صلبة لدرجة أنها طالبت بمواصلة النوم. بعد الاستعانة بزملائه لكي يخففوا عنه وقع الحدث وليجدوا الكلمات اللازمة لتسميته. ماذا رأى فرويد من خلال هذه الفجوة التي انفتحت أمامه؟ ـ رأى خياشيم ومزيجاً من اللحم والدم تنفر منها النفس. أشبه «بعضو المرأة التناسلي، الغرض الأولي بالتمام. القعر حيث تخرج كل حياة، بالإضافة إلى هذا الفم، الهاوية التي تبتلع كل شيء. وكذلك فجوة الموت حيث ينتهي إليها كل شيء. . . إذا كان لهذه الصورة ظهور مخيف، يعود ذلك إلى ما نسميه بكشف النقاب عن هذا الواقع الذي لا يخترق الواقع المجرد من دون وساطة ممكنة أي الواقع (réel) الأخير. الغرض الأساسي الذي لم يعد غرضاً. ولكن هذا الشيء حيث تتوقف أمامه كل الكلمات وتفشل كل اللغات، هو موضوع الخوف بكل حذافيره».**

لاكان(*)

والكوكايين ماذا جاء يعمل في هذه الحقنة: أليس هو أيضاً ذلك المستحضر

(*) لاكان لنقده لحقبة إيرما في السيمينير رقم 2.

العجيب في هذا المحلول الذي إن ما سرى في الجسم أدخل الانتعاش، واللذة المحرمة، وأضفى على الواقع وشاحاً من صنع خيال الواقع، كالفاتنة الساحرة التي تحمل في إفتانها نزعات الموت. فالكوكايين كان موضوع رغبته، علل به الآمال الكبيرة، بتحقيق النجاح والشهرة والمال. ولكن ما كان يجهله فرويد أن وراء لمعان هذا الغرض - بما به من جاذبية أخاذة، استسلم لها في بادىء الأمر ـ كان يختفي وجه آخر لم يدركه إلا فيما بعد، ألا وهو الموت، ليس فقط كمصير محتوم، ولكن كمطلب لاواعي (لاشعوري) لكل إنسان وهذا في الواقع كان برعم نظرية نزعة الموت التي طورها فيما بعد سنة 1923.

يبدو لنا أن حقبة الكوكايين بدأت تمثل نقطة التحول من علم المختبر البيولوجي إلى ميدان الاختبار النفسي. فكيف كان ممكناً لهذا الشاب الذي تربى على أيدي بحاثة بيولوجيين أمثال بروكه (Brück) وكان يمضي معظم أوقاته في المختبر ليكرس نفسه لأعمال مستوحاة من معلمه، حول العصب وتكوينه، يشرِّح الضفادع، والأسماك، ليزيد من النشرات الطبية كي يضيفها إلى ملفه، طامعاً في يوم من الأيام أن تكون ضمانة في ترقيته؟ كيف كان ممكناً أن ينتقل من ميدان إلى آخر: ميدان الهستيريا: وهو نقيض الأول؟ علماً أن الهستيريا لا تخضع لأية معرفة مسبقة، بل عكس ذلك تتطلب قطع أواصر المعرفة في منهجه الأول. فالهستيريا لا ترضخ، لا من بعيد ولا من قريب، لأي قانون تشريحياً كان أو فزيولوجياً. إنها خارج إطار التشخيص الطبي. تصدر الأعراض للاستهلاك الطبي، ولكن في المكان الذي تستثني نفسها منه. فالكوكايين يحتل بالنسبة لمنهجية فرويد الطبية الحلقة الأخيرة، التي بفقدان الغرض المتمثل بها، أصبحت الحلقة المفقودة، التي حولت الاتجاه عن هذه المسيرة العلمية الجامعية، إلى مسيرة من نوع آخر.

ولكي نفهم ما حصل لفرويد و تحوله لا بد من الاستعانة بلاكان في تقسيمه الخطاب الى أربعة. الخطاب الجامعي[1] الذي يدور في فلكه كل موقف فكري. ويتكون: من خطاب المعلم (S1 أو دال 1)، خطاب الجامعة (S2 دال 2) خطاب الهستيرنا ($) وأخيراً خطاب التحليل النفسي (a أ). وتجدر الإشارة إلى أن هذه الخطابات الأربع لا توجد بشكل منفصل، فهي مترابطة فيما بينها، ولكن التسمية تعطي الصدارة دائماً للتي تتربع عليه إحدى هذه الخطب بالنسبة للأخرى.

(1) Séminaire. XVII, L'envers de la psychanalyse.

فخطاب المعلم مثلاً، يحتل المكان الأول (د1 دال الأول) الذي يولد المعرفة (د2، د3، د4، إلخ. . .) أي أن خطاب الجامعة هو وليد مقولة العلم. والعلم هو النتيجة العملية لهذه المسيرة، أي لفائدة الإنسان ولزيادة استمتاعه بالحياة، حسب Clavreul[1] «والعلوم المتجمعة في المعرفة تستمر في المنفعة التي تنتجها a --- s2»[*] على اعتبار أن الإنتاج العلمي ما هو إلا للاستهلاك لزيادة متعة الإنسان في رفاهيته، وصحته، بما في ذلك الطب عبر اكتشافاته الحديثة، مما تطالعنا به المختبرات كل سنة عن أدوية جديدة. ولكن «المعرفة تكوننا كمنقسمين في أنفسنا؛ فسمك السلمون لا يصبح كذلك لو عرف أنه إذا ما اتبع التيار الذي يوصله إلى مكان تزاوجه وتكاثره، يدفع به إلى موته؟ فالمعرفة الطبية هي التي تقسم المريض، تفصله إلى عنصرين: الإنسان والمرض»[2] وهكذا على الباحث أو الطبيب إذا اتبع الدراسة الجامعية أن يرضخ لقانونها: بأن يولد دوال جديدة يغذي بها المعرفة الجامعية، ويساهم في تجميع المعلومات: شرط أن تكون هذه الدوال ضمن السلسلة المطلوبة د1، د 2، د3، د4، إلخ. وإذا ما حصل أن أتت من خارج هذه السلسلة أو أعادت النظر في سابقاتها، أو هددت وجودها فإنها تحارب وتطرد إلى أن تفرض وجودها: وعندئذ تتكون المجموعة بتركيبة جديدة حول الدال الجديد ـ وهكذا كان مصير كل الاكتشافات العلمية في البداية.

فرويد في البداية عندما كان يعمل في المختبر كان في صلب المنهجية العلمية: يحاول عبر أبحاثه اكتشاف دوال جديدة يضيفها إلى المجموعة المتكونة سابقاً، وتأتي متممة لها. ولكن الذي حصل أن خسارة وقعت في الكوكايين أفقدته الرهان على العمل المختبري. فبدلاً من أن يعمل الخير، كان من نتيجته السوء والوباء. فهذا الانقلاب، أو هذه النقلة، أدت إلى انتقاله من الخطاب الجامعي، إلى الخطاب الهستيري. لأن الانقسام الذي تحدثنا عنه حصل في نفسية فرويد، وأخرج إلى حيز الوجود وجدانيته الفكرية التي كانت مسقطة على موضوعه الطبي.

---

(1) Clavreul, Ordre médical, P.167, Seuil.

(*) على اعتبار أن التقدم العلمي و التكنولوجي يؤدي الى المزيد من متع الحياة ← S2 .. بمعنى ان هدف التكنولوجيا الحديثة أي المعرفة العلمية يؤدي إلى اكتشاف الآليات التي تؤمن حاجات الإنسان، ملذاته ورفاهيته، مجموعها يرمزها لاكان بموضوع ألف (Object a →(a)) (الخطاب العلمي) S2.

(2) Ordre médical, P. 167 , Clavreul, Seuil.

الحقبة الثانية: حقبة التنويم المغنطيسي، والهستيريا بدأت عندما نزل فرويد إلى معترك عمله العيادي في سنة 1886، أي بعد رجوعه مباشرة من باريس، وبرلين، حيث أمضى سنة في مستشفى سلبتريير تحت إشراف الأستاذ شاركو الذائع الصيت، وحمل من إقامته أجمل الانطباعات عن هذا العالم الذي استطاع أن يدخل في حوزته، ويثير اهتمامه عبر الترجمات التي كان يكلفه بها. وكان شاركو مهتماً بعوارض الهستيريا وحتى العاملين في مضمار التنويم المغنطيسي، ولكن نظريته كانت تختلف عن نظرية الضالعين في هذا المضمار أمثال برنهايم وليبوليت. فشاركو يعتبر التنويم مظهراً من مظاهر الهستيريا، استعمله كوسيلة لاستقصاء ولادة الأعراض عندها، أما برنهايم فكان يستعمل التنويم كوسيلة لشفاء المرضى. كان شاركو بالنسبة لفرويد موضع تقدير وإعجاب «شاركو ذلك الطبيب العظيم الذي يتصل رشاده بالعبقرية، يستقطب بكل بساطة جميع تطلعاتي ونظراتي. وعندما أغادر درسه أحياناً كمن يغادر كنيسة نوتردام، وفي رأسي فكرة مكتملة بالنضوج ولست أعلم ما إذا كانت هذه البذور ستثمر يوماً، ولكن ما أعلمه أن كائناً من كان لم يؤثر عليّ بهذا الشكل»[1].

فشاركو كان يفتعل الأعراض الهستيرية على مرأى من تلامذته، إما بدافع الإيحاء، أو بدافع التنويم، وكان يشرح أن للأعراض الهستيرية قوانينها الخاصة بها، وكذلك لها مصدرها، فهذه النظرية تركت انطباعاً خاصاً في تفكير فرويد على اعتبار أنها تختلف تماماً عن النظرية السائدة عند الأطباء الألمان في ذلك الوقت والتي تعلل اضطرابات الهستيريا على ضوء النظريات الفزيولوجية، فهذا الفصل ما بين الهستيريا والفيزيولوجيا يمثل في حد ذاته نقطة التحول في تأويل أعراضها، كونها ترضخ لقانون فكري له مصادره المختلفة عن المصادر الطبية التي ألصقت بها؛ أي بتعبير آخر أنه يشير إلى احتمال وجود فكرة «مفصولة عن الشعور». هذا بالإضافة إلى اهتمام شاركو بالاضطرابات الجنسية التي كان يصادفها باستمرار في الحالات الهستيرية. وقد نوّه عن آرائه في مجالس عدة على مسمع من فرويد ولكن دون أن يعطي أهمية مميزة لهذا الموضوع.

رجع فرويد إلى ڤيينا وهو يحمل هذا الانطباع وعندما بدأ عمله العيادي لم يكن يملك من وسائل العلاج للأمراض العصبية إلا وسيلتين:

---

(1) 24-11-1885 (مراسلات).

الأولى: المعالجة الكهربائية : وكانت سائدة بين الأطباء: اكتسبها عن «د. أرب» (Erb) ـ ولكن سريعاً ما تركها عندما تبين له صحة ملاحظة بعض الزملاء على أنها غير مجدية «وهكذا وضعت الجهاز جانباً، قبل أن يتلفظ موبيوس بعبارته: «إن نجاح العلاج الكهربائي، إن كان هناك ثمة نجاح، فهو لا ينتج إلا عن إيحاء الطبيب لمريضه»»[1].

ويبقى التنويم المغنطيسي: وهو المرحلة الحاسمة التي مهدت لانتقاله إلى اكتشافات اللاشعور، واعتماد التحليل النفسي كوسيلة علاجية. فالتنويم المغنطيسي، إن صح القول، يمثل الأرضية التي نبت عليها التحليل النفسي، نظراً لما كان لهذه الوسيلة من أهمية ارتباط الطبيب بمريضه، كون النظريات الطبية والفزيولوجية التي كان يعتمدها الطبيب أصبحت لا تأتيه بعون ولا تجدي نفعاً. فالانقطاع ما بين المنهجية العلمية والمنهجية الجديدة أصبح مكرساً وتاماً. أصبح فرويد في مواجهة مباشرة مع الهستيريا في انقسامها ما بين عوارضها وذاتها. ونستطيع القول إن في هذه الفترة كان في موضع الموقف الهستيري. وهذا ما تدل عليه رسائله لفليس عندما كان يصف نفسه بالهستيري ـ قبل أن ينتهي من تحليل نفسه ـ وليس هذا بالمعنى المرضي بقدر ما يعني الموقف الفكري الذي يستدعي استقراء ما ينتج عن اللاوعي (اللاشعور) وبمفهوم آخر من حيث إن الموقف الهستيري هو الذي يمكن بالتعرف على قوانينه اللاواعية (اللاشعورية)؛ وسيتبين لنا فيما بعد أن اكتشاف النظريات التحليلية المعممة كانت وليدة الهستيريا كون عوارضها المصدرة إلى المعلم طبيبها كانت في حد ذاتها تساؤلات عن موقف هذا المعلم، بل إعادة للنظر به لكي تعكس المرسال ليس للإجابة عما يخالجها فقط، إنما الإجابة عما يطالعه من رغبات ونزوات كانت إلى حد الآن في حكم التستير والتعتيم في أبحاثه السابقة، فمنهاجية الهستيريا تطال في آن واحد المريض وطبيبه. أي أن المعلم ليس بحمى في ذاته عما يحصل في أبحاثه.

يطالعنا تاريخ فرويد، إلى حين انتهائه من تحليله مع انتهاء صداقته بفليس، إنه كان بحاجة ماسة إلى مثال يهتدي ويقتدي به، يؤمن له حماية وتغطية في آن واحد. وهكذا وجدنا أهمية العلاقات بالأشخاص تأخذ بالنسبة له دوراً هاماً في حثه على

(1) حياتي والتحليل النفسي، فرويد.

العمل، ورأينا كيف كان لمعلمه بروكه (Brück) أهمية كبيرة. وكذلك لفليشيل، ومن بعدهما كان دور بروير (Beuer) وأخيراً فليس (Fleiss).

فبروير كان طبيباً ناجحاً يكبر فرويد بـ 14 سنة. قدم له المساعدات الجليلة في أبحاثه في عمله، وحتى في حياته المادية. توطدت علاقة فرويد ببروير على أثر العمل المشترك، وتبادلا الأفكار حول الاستنتاجات العيادية، وكانت ثمرة هذا العمل نشر كتاب من نتاج مشترك حول «دراسات عن الهستيريا».

قلنا بدأ فرويد المعالجة بالتنويم المغناطيسي، وسريعاً ما تحمس للفكرة بعد أن حصل على نتائج إيجابية. وكان يستعمل الإيحاء عبر التنويم، ويخلق تحسناً عند المريض في اليوم التالي. ولكن سرعان ما تبين له أن التنويم كوسيلة علاجية لا يطبق إلا على جزء يسير من المرضى. فإما لأن المريض يرفض ذلك، وإما لأن مقاومته اللاواعية (اللاشعورية) رغم تقبله الفكرة تحول دون الوصول إلى المرحلة التنويمية.

هذا بالإضافة إلى أن النتائج المرجوة لم تكن بمستوى ما يطمح إليه. فبمجرد انقطاع الصلة بين الطبيب والمريض، تعود العوارض بشكل آخر. وهذا ما حدا بفرويد للقيام برحلة إلى نانسي لمقابلة برنهايم، وليبوليت برفقة إحدى مريضاته سنة 1889، ورجع بانطباع مطابق لما توصل إليه بأن العلاج التنويمي ليس فقط محدود التطبيق نظراً للمقاومة التي تواجهه، وإنما أيضاً نتائجه غير مضمونة.

كان بروير يلجأ إلى فرويد بأحاديثه عن المرضى، ويحاول تعليل الاستنتاجات التي كان يحصل عليها لضبطها في نظرية مشتركة، ورغم التباين الذي يظهر من وقت لآخر بينهما فإن العلاقة استمرت حتى سنة 1895، واستطاعا أن يتعاونا ويحرزا تقدماً مرموقاً في نظريتهما لأعراض الهستيريا، وتطوير طريقة علاجها. وكان من أهم من لعب دوراً في هذا المجال مريضة لبروير وردت تحت اسم «آنا أو» (Anna«O»)[1].

ولهذه المريضة قصة، مع بروير كان لها الأثر البعيد في تراجعه من جهة، وفي تطوير العلاج النفسي من جهة ثانية؛ استدعي بروير للمرة الأولى لمعاينة آنا ـ أو (Anna O)[*] التي كانت تشكو، على أثر وفاة والدها، من شلل في الأطراف السفلى مع تشنج وفقدان الحساسية، بالإضافة إلى اضطرابات معقدة في النطق، والنظر، وعدم القدرة على الأكل، مع سعلة عصبية. ولكن الأهم حالة نفسية مزدوجة كانت

(1) لمع اسمها فيما بعد ببرتا ابنهايم كمؤسسة لجمعية للإسكان الاجتماعي.

(*) انظر إلى هذه الحالة بالتفصيل في كتاب دراسات حول الهستيريا.

تنتابها وتبدو خلالها ضائعة، وغير مدركة، من حيث إنها عندما تعود إلى حالتها الطبيعية تبدو مختلفة لا تذكر شيئاً عن الحالة الأولى كما لو كان عندها شخصيتان مزدوجتان وهي لا تصنف انفصامية (ذهانية).

كان بروبير يتردد عليها باستمرار،ويكرس لها عدة ساعات يومياً، ومما لا شك فيه أن هذا الصبر والوقت الطويل الذي منحها إياه يعود إلى جاذبية شخصيتها الطريفة، وقد كانت مثقفة، وخلوقة، وعلى مستوى عال من الذكاء، بالإضافة إلى خفة روحها، ومستوى جمالها.

وبعد فترة من العلاج بدأت حالتها تتحسن، على إثر اكتشاف طريقة جديدة في العلاج؛ فخلافاً لعادته، لم يستعمل بروبير طريقته في الإيحاء، إنما ترك لها الحرية الكاملة في التصرف، وتبين له عندما بدأت ترد الأسباب التي كانت وراء ظهور العارض، لأول مرة، زوال العارض نفسه. واستنتج بروبير أن خلف كل عارض ذكرى محجوزة، ويكفي أن يفسح المجال أمام المريض لكي يفضي بما هو محجوز من أفكار وذكريات ومشاعر، حتى يزول العارض في نفس الوقت الذي يحصل به الإدراك. وهكذا تابع مع آنا أو ـ (Anna O) على هذا المنوال. وكانت واعية لما يحصل، فاستمرت في تحليل كل عارض من أعراضها، وأطلقت على هذه الطريقة تسمية «العلاج بالكلام «Talking Cure» والإفضاء عن ذكرياتها المحجوزة «تطهير المدخنة».

شغلت Anna تفكير بروبير، فكان لا يفتأ يتكلم عنها في كل مناسبة، مع فرويد، ومع زوجته، إلى درجة أن هذه الأخيرة بدأت تشعر بالغيرة، وانتابها شعور باليأس والكآبة وبروبير لا يدرك مدى التغلغل الذي حصل بنفسه من جراء هذه العلاقة، وبعدما تفاقمت مشاعره أدرك المنزلق والمنعطف الذي لم يحسن تفاديه: فقرر فجأة قطع العلاج معها. وفي آخر لقاء معها أعلمها بقراره، وأنه منذ الآن بإمكانها أن تستعين بطبيب غيره. في المساء استدعي بشكل طارئ لمعاينة Anna O على أثر نوبة آلام مبرحة فوجدها تعاني من مغص هيستيري شبيه بالولادة، وشخّص أنها مصابة "بالحبل الوهمي"؛ وعلى الأثر حاول تهدئتها وتنويمها رغم اضطرابه وشعوره بالقلق، وهو يتصبب عرقاً بارداً: اعتذر وقفل راجعاً إلى منزله، ويقول جونس: «إنه ترك ڤيينا بعد ذلك ليمضي شهر عسل جديد مع زوجته، التي حملت منه وأنجبت فتاة كان نصيبها الموت انتحاراً هرباً من النازية بعد ستين عاماً خلت».

ويقول فرويد بعد هذه الحادثة بعشر سنوات: أنه طلب من بروير نصيحة بشأن فتاة تعاني من حبل وهمي، وفي الحال ارتجف بروير وتناول قبعته وعصاه وتركه دون أن يتفوه بكلمة.

السؤال الآن ماذا دهى بروير حتى يتراجع هذا التراجع؟ وما هو دور هذه الهستيريا في زعزعة رجل علم رزين واثق من نفسه لا غبار على سمعته؟

إذا كانت الهستيريا تمثل المدخل إلى التحليل النفسي، فلا يعود ذلك إلى الصدف، إنما لأنها جزء لا يتجزأ من تجربة فكرية تطال الطرفين معاً. عندما تتحدث المريضة عن أعراضها تبدو بشكل $ على اعتبار أنها منقسمة في ذاتها، أي غائبة عن المكان الذي تتكلم به أعراضها عنها ($ أي دال منشق) حسب تعريف لاكان، ولا تلجأ إلى الطبيب إلا لأنه في موقف المفترض أنه عارف، أو على الأقل يعرف أكثر منها عن حالتها ويتمثل في S1 (د1 أي دال المعلم).

وهذا المعلم الذي يعتمد عادة على المنهجية العلمية التي تدرج عليها من حيث إنه لا يسأل عما يحركه من رغبات وهوامات، وجد نفسه لأول مرة يسأل عن تفكيره، وعن رغباته وهواماته التي تتحرك من حيث لا يدري: فهذه كانت ولا تزال فريدة من نوعها. فخلافاً لما كان يتصور بأن العلاقة بين شخصين ثنائية، يتبين له في الواقع بأن هناك ثالثاً على الأقل يسيِّر الحوار. وعدم اكتشاف وجود لهذا الطرف الثالث كان من نتيجته في قصة آنا ـ أو (Anna O) وبروير، أن الأولى اصطنعت حبلاً وهمياً، والثاني لجأ إلى الهروب كمخرج أمام ما اكتشف، ولم يعد باستطاعته السيطرة عليه، فما حصل عنده كان نتيجة ردة فعل لما حصل عند الأولى، والعكس صحيح. فالمقاومة كما يقول لاكان هي مقاومة المحللين أنفسهم: فالمحلل لا يسمع ما لم يكشف النقاب عنه في نفسه.

الإغواء هو سلاح الهستيريا، تستعمله لكي تستدرج المعلم إلى المكان الذي يشير إلى غيابها. والجسد هو مسرح الإغراء، بما تصنع من أعراض. وهذا ما يفسر قابليتها للإيحاء من أنها تتجاوب في تصدير عوارضها تلبية لطلب الآخر. تريد أن تسمع هذا الآخر الكبير(٨) ما لم تدركه في ذاتها، ولكن إسماعه في أذن ثالثة، في طرف الثالث: اللاوعي (اللاشعور)، حيث تكمن حقيقتها المكبوتة. وهذا ما لم يدركه بروير من حيث إن جوابه الوحيد كان الانجذاب كجواب على طلب الإفتان، متجاهلاً الطرف الثالث الحاضر، والذي يجيبه بشكل معكوس عما طلبه وتغاضى عنه، في

الاساس، حتى ولو كان الطلب حب، فهو في الواقع طلب نقصان، والاعتراف والتعريف عن هذا النقصان هو المطلوب قبل كل شيء. بروير وقع في الكمين، كما هو الحال عند كل طبيب يجهل منهجية الهستيريا، فالعلاقة إذا لم تنتهِ بهذا الشكل المأساوي فإنها تنتهي على الأقل بتصدير الأعراض المستمرة عند الحاجة، شرط أن تطابق أي مرض من الذي يستهلكه الطبيب في معجمه الطبي.

حسب تعبير كلافيرول «لا تفسر العوارض على ضوء المنهاجية الطبية، إنما تشير إلى الذات نفسها»[1] وما التزام الهستيريا في التطبيب،إلا لأن الطب أخذ مكان الصدارة في واجهة العلوم. على غرار ما كان التزامها في السابق عبر النوبات المسرحية، حيث كانت تحاكي الجن، والشياطين عندما كان السحر، أو الدين، في الواجهة الأمامية. الهستيريا تتكيف مع منهجية المعلم الذي يبرز علمه في تكوينه بظاهرة قضيبه، أوليست الهستيريا مشتقة من utérus أي الرحم المتجول في الجسد، يعني في حد ذاته العضو الخفي عن الأنظار، الغامض، أو القوة الخفية غير المرئية. فلا عجب إذا توجهت الهستيريا إلى رجل العلم بسؤالها: من أنا، وما هي الأنوثة؟ سؤال لا تتطلب الإجابة عنه من علمه: ولكن من إدراكه لنقصها، أي دعوته إلى إعادة النظر في تفكيره، كون المعرفة لا يمكن أن تسدل الستار على ذاته بقدر ما هي نتيجة انقسام هذه الذات بشطريها: العلمي S 2 أو د 2 حيث تغيب، وبالفكر الذي كان وراء هذا الإنتاج أي بسبب الرغبة[1] (Objet a)[2]. من هذا الباب اعتبرت الهستيريا المنظرة الأولى ـ من حيث إن فرويد، وكل المحللين الذين أتوا بعده، كانوا ينظرون من هذا الموقف.

بروير رفض هذا الموقف: **لأنه بقي متمسكاً بموقف العلم: الذي لا يسأل عما يشعر به، وعما يحرك أبحاثه، فهمه الأول والأخير، هو تصدير معرفة: متممة لما سبقه في سلسلة المعارف. وبما أن ما خالجه من شعور جديد، كمعرفة تجهل نفسها: لذلك فضل الانسحاب والهرب.**

قلنا إن هذه التجربة كان لها الأثر البعيد في دفع العجلة شوطاً كبيراً على طريق اكتشاف التحليل، فمن حسناتها أنها مكنت فرويد من اعتماد طريقة علاج الكلام،

(1) Ordre médical, p. 168.

(2) Séminaire XVII, L'envers de la psychanalyse.

بدلاً من التنويم الإيحائي، ويعود الفضل في ذلك إلى بروير ومريضته (Anna O). وكان هم فرويد في البداية، تمهيد الطريق أمام المريض لكي يفرج عما كان محجوزاً حتى الآن من ذكريات مؤلمة.

والفارق الأساسي بين بروير وفرويد، أن هذا الأخير اكتشف التحويل عند المريضة، والتحويل المرتجع عند الطبيب الذي قد يقف عائقاً في سير التحليل؛ إن لم يتداركه في تحليل خاص. فبروير كان يكتفي بنظرة سطحية مبنية على الملاحظة دون الذهاب إلى ما وراء ذلك، مستشهداً بنظرية «حصر المشاعر» مما يعوق انطلاقها في قنواتها الطبيعية. وما الحالة الثانوية المغنطيسية التي تنتاب الهستيريا وتجعلها شخصية ثانية، إلا شعور مزدوج شبيه بنظرية جانيه حول الآلاتية النفسية: (Automatisme psychique). اكتفى بروير كما هو الحال مع آنا ـ أو بالاستذكار، واستحضار الماضي، والكلام على ما يخفف من آلام المريض. أما فرويد فاتجه اتجاهاً ديناميكياً مغايراً، حيث إن العارض والشعور المزدوج ليسا في الواقع، إلا نتيجة الكبت الذي يشير إلى وجود اللاوعي (اللاشعور). وقد فسر فرويد الكبت بالآتي«يحاول شخص ما التخلص من فكرة متنافرة بصورة إرادية، وفكرة كهذه لا تتلاشى بهذا الإقصاء، فهي تدفع فقط نحو اللاشعور ولكن النتيجة تختلف عما كان يهدف إليه هذا الشخص في البداية، لقد أراد أن يتخلص من الفكرة كما لو أنها لم تكن، ولكن ما وصل إليه لم يتعدَّ فقط عزلها نفسياً».

كان من الطبيعي أمام هذا التباين ان تنتهي علاقة بروير بفرويد بأن ينفصل الأول عن الثاني. في خلال هذه الفترة بدأت المعاني تنكشف أمام فرويد سيما بما يختص بالإضطرابات الجنسية التي كان يحلل على ضوئها الأعراض الناتجة. واستنتج أن كل تحويل يحصل من المريض إلى الطبيب لا بد أن يكون مضمونه جنسياً.

قبل أن نسترسل في هذا الموضوع لا بد من التساؤل عما اعتمد عليه فرويد في جمع معلوماته وتنظيرها فيما بعد؟ فنظرياته ومحاضراته كانت تقابل بعاصفة من الاحتجاج والسخرية، وفي أحسن الأحوال باللامبالاة؛ وكما قال عنه كرافت ابنغ الذي كان يترأس مؤتمراً علمياً «هذا أشبه ما يكون بحكاية شبه علمية عن الجن». فنظريته عن الجنس كعامل أساسي كمن وراء تكوين الأعراض العصبية، كان يفتقد بنظر الأطباء إلى الجدية العلمية. فليس من برهان حسي، على غرار الاكتشافات البيولوجية، ممكن أن يؤكد نظريته، سيما أن ما يقول يتنافى مع النظريات السائدة في

ذلك الوقت. فاكتشافاته مبنية على الفكر، وعلى العلاقة الفكرية التي تربطه بالمريض. والإقناع أصبح مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمقاومة التي تحول في مثل هذه الحالة دون اكتشاف الأفكار المكبوتة.

إن الإنسان بطبعه يأنف التكلم عن موضوع الجنس فهو من المحرمات التي لا يلمح إليها إلا من بعيد، وتقابل، إذا مست، بالقمع، اعتباراً إن الأخلاق المتعارف عليها أصبحت نقيضها. إن الفعل الجنسي بكل انحرافاته وشواذاته شيء متعارف عليه منذ أقدم العصور، ولكن التكلم عن هذا الموضوع بالذات هو الفضيحة بحد ذاتها. واهتدى فرويد من خلال سماعه لمرضاه أنه كلما اقترب من هذا الموضوع، وجدوا حرجاً كبيراً في الإفصاح عما يجول في رأسهم، أو يبدون مقاومة عنيفة. وتساءل هنا ما حاجة المريض إلى مثل هذا الحرج والممانعة، لو لم يكن للموضوع هذه الأهمية؟ سيما أن الاسترسال في سرد أفكاره بعد التغلب على مثل هذه المقاومة يؤدي إلى انحلال هذا العارض وزواله فيما بعد. وهذا ما كان يؤكده في معظم الحالات التي نشرها. أمام هذه الوقائع يصبح الاستنتاج سهلاً: لا بد من صلة بين الخلل الجنسي والأمراض العصابية. اعتبر فرويد أنه أول من اكتشف مثل هذه الحقيقة، رغم أنه كان قد سمع تنويهاً حول الموضوع من أستاذه شاركو، ومن صديقه بروير. الواقع أن الاثنين لم يحيطا الموضوع باهتمام صادق، بل كانا يأنفان ويشمئزان من بحثه. ويقول فرويد أنه كان يشاركهما مثل هذا الشعور في البداية، ولكنه استطاع أن يعيره اهتمامه بعدما تغلب على مقاومته الداخلية.

اعتمد في بناء نظريته في البداية على غرار تركيبة النموذج الفزيولوجي، رغبة منه في إعطائه صبغة علمية، فقال: عندما يرتفع الضغط الجنسي في الجسد إلى درجة ما، يخلق في النفس رغبة جنسية، سماها "ليبيدو"[1] مصحوبة بأفكار ومشاعر مختلفة، ولكن لسبب ما تجد نفسها محبطة، فيتحول عندئذ الضغط إلى خوف. ويقول فيما بعد إن "عصاب الخوف مرتبط بكل ما يبعد عن النفس التهيج الجنسي البدني ويحول دون إدماجه فكرياً". وعلى هذا الأساس اعتبر أن الخوف هو النتيجة الفيزيائية لمثل هذا التحول. وذهب أبعد من ذلك ليقول: إن الحالات الجسدية الملازمة لهبات الخوف مثال: اللهثة، وخفقان القلب، والعرق المتصبب، والاحتقان، إلخ. شبيهة إلى حد

(1) ولادة التحليل النفسي، ص 60.

المطابقة بما يحصل في حالة الجماع. انطلاقاً من هذه النواة الجنسية، كوَّن فرويد أول فكرة عن الكبت، عندما لا يتفرغ الضغط الجنسي في سبله الطبيعية لأن الظروف النفسية لا تسمح له بذلك، يقابل في مثل هذه الحالة بوسائل دفاعية: مثال الحزن- القمع- الإبعاد، إلخ. أي إن الضغط يؤدي إلى رغبة واعية تقاوم بعمل نفسي دفاعي. ويجب التنويه هنا إلى أن عمله العلاجي كان يقتصر على تحليل هذه الأفكار الناجمة، حتى تصبح الرغبة في تمثلها حاضرة، فيحدد المريض موقفه منها، وليس كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن بإسداء النصيحة في كيفية إشباع رغبته الجنسية. أي أن العمل التحليلي يقضي بنقل المكبوت من حيز اللاوعي الى حقل الوعي الوجداني.

دأب فرويد في تجميع الحالات والدراسات التي تؤيد نظريته حول الاضطرابات الجنسية في تكوين العصاب. وكان لهذا الاكتشاف أثره الفعال في تحويل تفكيره في هذا الاتجاه. وأصبح ينتقل من دراسة إلى دراسة، ويؤكد في كل مرة أهمية الحدث الجنسي الذي يحصل في الطفولة الأولى، ويتبين لنا أنه أصبح أسير هذه النظرية، تسيّره بدلاً من أن يسيّرها، تملي عليه الاكتشافات في اتجاه واحد: صورة الإغواء الجنسي في سن مبكرة، وكما سنرى فإن هذا الاتجاه أدى إلى مأزق فكري شبيه بما حصل بقضية الكوكايين، ولكن على صعيد آخر. ولم يخرج منه إلا بعد أن بدأ بتحليل نفسه (أي بمثابة نقطة تحول ثانية)، ولكن هذه المرة من المنهجية الهستيرية إلى منهجية التحليل النفسي.

رغم الضجة التي قامت حوله من قبل المجتمع الطبي والانتقادات اللاذعة التي كان يواجهها، بقي فرويد مراهناً على نظريته الجنسية، يعلل الآمال بأن يصل عن طريقها إلى بناء نظرية شاملة حول مصدر العصاب، والتمكن من شفائه. وفي محاضرة ألقاها أمام جمعية الأطباء والنفسانيين في ڤيينا، قدم فرويد 18 حالة كان قد عالجها بالتحليل، وأصر على أن العامل الجنسي كان دائماً يلعب الدور الأساسي في تكوين العصاب، رغم المعارضة القوية والبرودة الفكرية التي قوبلت بها نظريته. فكان يشدد على أهمية صدمة الإغراء الجنسي التي يتعرض لها الطفل من قبل راشد في السنين الأولى من حياته. واعتبر أن هذا الحدث مؤشر مهم في عملية الكبت التي تليه، نظراً للاشمئزاز والقرف الذي كانت تحدثه هذه الذكرى نتيجة تهيج شبقي.

فالحياة الجنسية، خلافاً لما هو سائد، لا تبدأ مع سن المراهقة، إنما تبدأ قبل ذلك بسنوات، أي في الطفولة الأولى، والإنسان يتوصل إلى نموه الجنسي قبل

المراهقة (أي ما بين الثامنة والعاشرة من عمره) وكل ما يحدث قبل هذا السن من إغراءات جنسية لا بد أن تسبب صدمة، إذا ما تكررت، تحول في النهاية دون نموه الجنسي الطبيعي عن سيره السليم وهذا ما يؤدي إلى العصاب. وللتدليل على ذلك: يتساءل: ما حاجة المريض أن يبدي مقاومة عنيفة، يتنكر لمثل هذه الأحداث، لو أنه كان مخترعها. فهذا دليل قاطع على صحة مثل هذه الإغراءات التي كانت تحدث.

وفي مقال آخر في أيار/ماي سنة 1896[1] يشرح بأن الإغراءات التي تحصل في الطفولة تولد احساسات في الأعضاء التناسلية شبيهة إلى حد ما بما يحصل في الجماع، فممارسة العادة السرية وحدها غير كافية لكي تؤدي إلى عصاب الهستيريا. ولكن عندما يلتقي الحدثان معاً: السلبي والإيجابي. فخيار نوعية العصاب: قهري أو هستيري يصبح مرهوناً بالمرحلة الليبيدية التي يكون قد وصل إليها[*].

ففرويد، كان يصادف خلال علاجه لبعض الحالات الهستيرية، أن الكثيرين كانوا يسردون أحداثاً تعرضوا خلالها لاعتداء، أو لمحاولة اعتداء من قبل راشد، وعادة ما يكون الأب، أو الأخ، أو شخصاً غريباً. واعتمد هذا الحدث كنظرية قائمة بحد ذاتها يمكن تعميمها كقاعدة في تكون أعراض الهستيريا. وانحصر همه خلال عدة سنوات من العمل المستمر للبرهان عن صحة هذه النظرية، واعتبر أنه لا بد أن يكون الأب الآثم، وهكذا أصبحت صدمة نظرية الإغراء الجنسي محور تدور حوله مجمل دراساته، ويعتمد عليها اعتماداً رئيسياً. ويدافع عنها بإصرار أمام منتقديه.

بقيت هذه النظرية متحكمة بتفسير العصاب إلى سنة 1897 حيث بدأ الشك يراود نفسه، وشعر، كما يقول، بأن الأرض بدأت تموج تحت رجليه، ضائع لا يعرف أين هو. وكتب رسالة، أصبحت تاريخية، إلى فليس[2] يشرح سراً أصبح عبئاً عليه ولا يعرف الخلاص منه: (يجب أن أفضي لك بسر كبير بدأ يكشف أمامي، ببطء، خلال الأشهر القليلة. لم أعد أؤمن بنظرية نيروتيكا، التي لا تفهم من دون تفسير... وسأعرض لك من البداية الأسباب التي جعلتني أقلع عنها).

هناك أولاً الخيبات المتكررة التي كنت أصادفها في محاولاتي لكي أدفع بتحليلاتي الصحيحة، فانفضاض المرضى عني حيث يبدو أن حالاتهم كانت أوفر حظاً

(1) جونس، ص 291.

(*) أي أن الهستيريا يبدأ تكونها قبل سن الرابعة أما القهري فبعد الرابعة عندما يواجه عقدة الخصاء.

(2) ولادة التحليل، رسالة: 21-9-1879.

لمثل هذا العلاج، فشل النجاح الكامل الذي كنت أتوخاه، وإمكانية التعبير بطريقة مختلفة. ببساطة. هذه النجاحات الجزئية تحتل أول مجموعة من الأسباب. بالإضافة ثانياً، إلى المفاجأة التي تأكدت لي من أنني كنت في أكثر الحالات، أتهم الأب بالانحراف، والمفهوم القائل بالتفشي غير المنتظر للهستيريا حيث كان يصادف في كل مرة مثل هذا السبب المحتم، علماً أن مثل هذا التعميم لأفعال شاذة ارتكبت بحق الأطفال يبدو غير معقول. . . اليقين، من أنه لا يوجد في اللاوعي (اللاشعور) أي أثر للحقيقة، بحيث يبدو من المستحيل التمييز بين الواحدة والأخرى، أي الحقيقة والوهم المستثمر عاطفياً. رابعاً، توصلت إلى التأكد بأنه حتى في الذهان الأكثر تطوراً، لا تظهر ذكرى لاواعية (لاشعورية)، كون حدث الطفولة لا يتكشف، حتى في الحالات الأكثر هذياناً».

وهكذا يبدو أن فرويد وصل إلى اكتشاف حقيقة مرة، لم يعد بإمكانه تجنبها، ظهرت أمامه بوضوح لتبين خطأ نظريته في صدمة الإغراء الجنسي. وكان من نتيجتها خيبة أمل كبيرة في إمكانية اكتشافه أسباب العصاب أو حتى معالجته علاجاً كاملاً. وتراه في تلك اللحظة يرتد إلى نظريات قديمة كان سبق أن عدل عنها: وهي أهمية الوراثة في الموضوع «لهذا السبب يبدو أن العامل الوراثي قد استعاد مكانته بعدما كنت أحاول جاهداً رفضه لمصلحة تفسير نفسي للعصاب»[1].

ويبدو أن فرويد كان في أحسن حالاته الفكرية، يستبعد ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من أنه كان في حالة يأس أو انهيار نفسي، فهو واع ومدرك لفشله، يتقبله كمن يتقبل فقدان أو خسارة موضوع عزيز عليه. ونحن ندرك أهمية هذا الحدث وكبر الآمال التي كان يراهن عليها في آخر الرسالة عندما يقول «أتابع رسالتي بتنوعات من كلمات هاملت: TO BE AN READINESS ـ الاحتفاظ بالرزانة ـ كل شيء يتوقف على ذلك. كان بالإمكان أن أشعر بيأس شديد: الشهرة الخالدة، الثروة المؤمنة، الاستقلال التام، الرحلات، اليقين من حماية أطفالي من كل الصعوبات التي كانت همّاً في شبابي. هذا ما كان حلمي الجميل. كل شيء كان يتوقف على نجاح أو فشل الهستيريا. وها أنا الآن مجبرٌ على أن أقف هادئاً، أستمر في رداءة الحياة، أقتّر

---

(1) ولادة التحليل، ص 191.

مصاريفي، ومكبلاً بالهموم».. ويستشهد بقول مأثور على غرار الخطيبة التي كانت تمني نفسها بالزواج السعيد بعد فشل الخطوبة «روبيكا اخلعي ثوبك، فشلت الخطوبة».

يسمي فرويد هذه المرحلة بالانهيار التام لنظريته. باستثناء ما كان قد بدأه في تفسير الأحلام: ولكن كما يقول نظرية الأحلام لا تغني عن جوع.

الواقع أن فرويد لم يفشل بمعنى الفشل، بل كانت مرحلة من تطوره التحليلي التي كان لا بد من المرور بها على غرار ما يحصل في التحليل النفسي، عندما يراهن محلل على موقف من المواقف ويتبين له عدم صحته، أو يتبدد لكي تظهر مكانه حقيقة أخرى كانت كامنة وراءه. التحليل عملية مستمرة بين الهدم والبناء،الهدم لكل السرابات النرجسية التي كانت تغلف الواقع وتظهره مغايراً لحقيقته، فالحداد والعزاء يرافقان فقدان كل غرض عزيز كان مستثمراً على الصعيد النرجسي، فهذه عملية مستمرة في التحليل، من حيث إن التحليل يبدو من أوله إلى نهايته أنه فقدان لهذا الموضوع رغم السراب المسيطر في البداية والذي يلوح إلى الحصول عليه واكتسابه عن طريق البدائل. وهذه عملية تسير على غير علم من الشخص، لأنها في الواقع تؤدي به إلى فقدان ما كان يرنو إليه أي بالمعنى الأصح إدراكه لنقصه، هذا النقص الأساسي الذي يحتل الفراغ كان يحتله الغرض الأولي، وكل التمثلات التي تأتي كبدائل لتحل مكان الموضوع الضائع، لا يعبىء الفراغ بقدر ما يشير إلى وجود نقصانه.

فالهستيريا كما صرّح فليس عنها كانت فرس الرهان التي علق عليها الآمال بالشهرة والمال ورغد العيش، ولكن هذه الفرس الضالة المنشودة لم تكن لفرويد إلا سبب الرغبة: الموضوع الصغير حسب المفهوم اللاكاني (Objet a) الذي يجدد الرغبة بعد أن يتلاشى. فكان إذاً لا بد بعد فشل الهستيريا من أن يكتشف الهوام، وهو الوجه الآخر، أي ما كان يربطه بالنظرية. الجانب الفكري الذي يؤسسه ويكونه من حيث إنه موطن رغبته. فهذا هو فضل الهستيريا كونها استطاعت أن تجبر من كان بموقف المعلم، أي فرويد، من أن يطرح السؤال عما يحرك مشاعره وأمنياته، ويكمن وراء تحقيق رغباته شرط أن لا يقع في شباكها على غرار بروير، الذي تجاهل الدوافع التي تحركه، فأسقط عليها هواماته التي ارتدت إليه بشكل مرتجع بأمنيات وتحقيق آمال، أي باختصار ما كان يتجاهله في نفسه كان يأتيه من الواقع بشكل آخر.

والسؤال هنا ما الذي حدا بفرويد كي يتهم الأب بالشذوذ ويعتمد أحداث الاعتداء كحقيقة تاريخية حصلت؟ أجاب فرويد بعد مضي 30 سنة أنه كان لا يميز في

تلك الفترة تماماً ما بين الواقع والخيال، لأن نظرية الهوام لم تكن قد اكتملت بعد عنده.

فنظرية الهوام كانت قائمة إلى جانب نظرية الصدمة الإغوائية،وقد بدأت تخط طريقها قبل أربعة أشهر من اعترافه بفشل نظريته، وقد ظهر ذلك في رسالته المؤرخة في 25-5-1879، عندما اكتشف الهوام، وأعطى لأول مرة تعريفاً كاملاً عنه[1]:

«تتكون الهوامات من تركيبات لاواعية (لاشعورية)، تتمازج بها أشياء معاشة وأشياء مسموعة، حسب ميول مبيتة. وهذه الميول تهدف كي تحول دون اكتشاف الذكريات التي كانت سبباً في ولادة العوارض. تتكون الهوامات ضمن عملية انصهار وتشويه على غرار التحول الذي يصيب الجسم الكيميائي المركب مع آخر (. . .) جزء من مشهد مرئي يرتبط مع جزء مسموع لكي يكون هواماً، أما الجزء المتبقي فإنه يدخل في تركيبة هوام آخر. فهذه العملية تجعل من المستحيل اكتشاف المكونات الأصلية».

كان من نتائج اكتشاف الهوام أنه استعاض بهذه النظرية ما كان قد فقده من نظرية صدمة الإغراء؛ فلم يعد يهم ما حدث من أحداث هامة أو غير هامة، لأنها عرضة للتحريف، المهم كيف ارتبط الطفل بهذه الأحداث: أي الهوامات التي تكون قد نتجت عنها. فالمحور الأساسي في التحليل هو الهوام حيث تتواجد الذات على مسرحه دون أن تنكشف متمثلة بشكل مقنع، ومحققة في آن واحد رغبة (لاشعورية) لاواعية. وأصبح من الممكن التمييز ما بين الواقع النفسي، وما بين الواقع الخارجي، كون الأول متمثل بقانون ومنطق الهوام، وإن صح القول، يمثل موطن الرغبة. فعلاقة الإنسان بالإنسان أو بالأشياء هي علاقة هوامية كوسيط بينه بينها، يحقق رغبته عن طريقها، فتأخذ بالمناسبة صبغتها الواقعية. وهكذا تتكون الهوامات منذ ظهور الموضوع الذي تتعلق به الرغبة. أي منذ الفترة الأولى التي يحاول بها الرضيع استعادة الثدي بعد أن شعر بالجوع عندما يتوهم صورة الثدي المرئية، ولكن فرويد ركز على أن أول الهوامات يعود إلى المشهد الأول[*](*).

وليس من غريب الصدف أن يكتشف فرويد الهوام في الفترة التي باشر فيها

(1) ولادة التحليل، ص 180.

(*) يستثنى الطفل من العلاقة الثنائية التي تجمع بين الأب والأم في فراش واحد. على اعتبار أنه من هذه العلاقة ولد، ولكن على حساب غيابه كمشارك.

تحليله لنفسه. فيبدو أن إلصاقه التهمة بالأب كسبب من مسببات الهستيريا لم يفقد قيمته على الصعيد النظري، حتى ولو لم يكن يحصل أن الأب قد اعتدى بالفعل على الابن، هذا لا يمنع من وجود مثل هذه الفكرة على الصعيد المخيالي، وهذا لا يفقدها قيمتها النفسية. لأن التصور في حد ذاته يعبر عن واقع نفسي يتحقق عبر الرغبة نفسها. وكان من النتيجة المنطقية لهذا التحول أن يكتشف فرويد خلال تحليله العقدة الأوديبية. فالطفل يتصور أن الاعتداء يأتي من الأب أو من الراشد، ولم تكن تأتي موافقة فرويد على هذا الواقع لولا أنه كان يشارك مرضاه مثل هذا التشويه، فليس بإمكانه اكتشاف صحة مثل هذه الرؤيا إذا لم يكن قد أدرك مسبقاً الاجتذاب الشبقي نحو والدته ـ واعتبار والده حاجزاً يحول دون ذلك.

ونستطيع أن نستقرئ بأن صدمة الإغراء هي في حد ذاتها هوام فرويد نفسه: أي ارتباطه الهوامي في النظرية. ونرى أنه عدل عن هذه الفكرة بمجرد ما انكشفت أمامه حقيقة مشاعره الطفلية: عندما كان يهيم في حب أمه، ويغار بالمناسبة من والده، وكان يصحب ذلك المحاولة التي يتحبب من خلالها إليها، لكي يغريها ويجتذبها نحوه. فإذاً لا بد من قلب هذه الحقيقة بأسلوب معاكس، فليس الطفل الذي يغري، إنما الراشد الذي يغريه، وبما أن الطفل يأخذ هواماته كواقع، أي لا يفرق ما بين الهوام والواقع، اذا ما كان هواماً اعتبره حدثاً واقعياً، أليس هذا هو موقع فرويد النظري عندما التبس عليه الأمر ما بين الحدث والهوام؟

ويتبين لنا فيما بعد أن هذا الالتباس يتبدد في الوقت نفسه الذي يكتشف فيه فرويد هوام عقدته الأوديبية. يقول فرويد في رسالته إلى فليس في 15 ـ 10 ـ 1879: أي (أقل من شهر من تاريخ رسالته حول الصدمة الإغرائية)[1]: «إنه لتمرين مفيد بأن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه، لم يطرأ على فكري إلا فكرة واحدة لها قيمة شاملة. وجدت في نفسي كما يتواجد في كل مكان ومع كل كائن، مشاعر حب نحو والدتي، وغيرة نحو والدي. مشاعر حسب ما أعتقد معممة عند كل الأطفال. . . إذا كان هذا صحيحاً نفهم عندئذ، رغم كل الاعتبارات العقلانية التي تتعارض مع احتمال هذا القدر القاسي، الأثر العميق لأوديب الملك. . . ولكن الأسطورة الإغريقية أشارت إلى كبت اعترف به الجميع لأنهم جميعاً شعروا به. كل سامع، لا يزال يراوده، برغم

(1) ولادة التحليل النفسي: رسالة 15-10-1897.

أو خيال الأوديب يفجع أمام تحقق حلمه إذا ما نقل إلى الواقع، يرتعد بحسب مقدار الكبت الذي يفصل ما بين وضع طفولته ووضعه الحاضر».

إذا استطاع فرويد فصل الحدث عن الواقع لكي يعمل منه هواماً، وفي آن واحد نرى أنه وضع اللمسة الأولى على هوام المحرمات، لكي يعمم ذلك على كل أفراد البشر عبر أسطورة أوديب وشكسبير في قصة هاملت. لم يجرؤ فرويد على التعبير عن هذا الاكتشاف إلا في رسالة فليس المذكورة، قبل أن ينشرها في كتابه تفسير الأحلام.

انطلاقاً من هذا الاكتشاف انقشعت أمامه الحقائق المتتالية: أوديب ومشتقاته، عقدة الخصاء[<] ـ فيما بعد ـ كعامل أساسي في تحول الطفل من التعلق بالأم إلى الاتجاه الاجتماعي السوي؛ وكذلك تكشّفت أمامه الحياة الجنسية عند الطفل: جمع كل ذلك في كتاب ونشره سنة 1905، وكان له صدى عميق في الأوساط الطبية والتربوية. على اعتبار أن هذه هي المرة الأولى التي يتجرأ كاتب على نزع قناع الطهارة والبراءة عن الطفولة. كل ما قاله فرويد كان معروفاً من الأمهات والمربيات، ولكن الفضيحة كانت تكمن في كشف النقاب ليس عن الطفل، إنما عن الراشد الذي كان يتواطأ لكبت مثل هذه الحقائق فلا يمكن أن يقبل بما هو ممكن عند الطفل إذا كان يجاهد كي يكبت ويرفض ذلك في نفسه حتى يتوقى صدمة لنرجسيته.

كان من نتاج هذه الحقبة كتابه «تفسير الأحلام» الذي صدر سنة 1900 ـ وكان فرويد قد أودعه كل نظرياته النفسية التي توصل إليها على أثر تحليله لنفسه. والكتاب من أوله لآخره جاء ليقول بأن الإنسان منقسم على ذاته بين وعي (شعور) ولاوعي (لاشعور)، وأن لهذا الأخير قوانينه، ولغته شبيهة باللغة التي نتكلم بها، وذلك رغم التباين الظاهر والغرابة التي ترتبط بصورة الحلم، فلا بد إذاً من خيط يربط بينهما. يجعلها إذا ما فسرت، تبدو أنها تعمل ضمن لغة منطقية تخضع لقانونها الخاص هو: التكثيف والنقلة. ونجد الشبه لذلك في اللغات المتداولة عبر: المجاز والكناية المرسلة (Métaphore, Métonymie)[<]. والتداعي الحر، وهي الطريقة المتبعة في التحليل النفسي وتعتمد على هذا القانون؛ على اعتبار أنه مهما ظهر من تباين في نوعية الأفكار، فلا بد من وجود خيط يربط فيما بينها، وأن تواردها لا يتمتع بالحرية التي نتصورها لأنها تخضع لرقابة لاواعية (لاشعورية) تشير إليها. وهذه الطريقة استوحاها فرويد من ثلاثة مصادر.

(1) كاتب اسمه بورن، كتب مقالة يقول فيها: كيف يمكن أن تصبح كاتباً طريفاً في خلال ثلاثة أيام، ويجيب: ما عليك إلا أن تأخذ قلماً وورقة وتكتب كل ما يجول

بفكرك من دون تحفظ عن: حياتك، زوجتك، أصدقائك، رؤساؤك وأساتذتك، عن الحرب، عن الدين، إلخ. وستجد أن أفكاراً جديدة لم تعهدها من قبل تنكشف أمامك ويتبين لك في غضون ثلاثة أيام من الكتابة، أنك أصبحت كاتباً طريفاً. هذا الكاتب تأثر به فرويد منذ حداثة شبابه حيث كان يملك مجموعة كتبه، وكان يعتبره من أفضل الكتّاب.

(2) كان يعالج امرأة اسمها ايمي فون ن. وكان من عادته أن يقاطع مرضاه لكي يعطي تفسيراً، أو يوجه الحديث في غير الاتجاه الذي كان يسير عليه. وفي إحدى المرات اعترضت هذه المريضة لكي تلفت نظره: بأنه يزعجها بكثرة تساؤلاته، ويقطع عليها حبل أفكارها، وتتمنى عليه أن لا يقاطعها.

(3) تأثر بهولمز الذي قال إن تداعي الأفكار، رغم التباين فيما بينها، لابد من وجود خيط يربط بينها. وإن حدوثها ليس على سبيل الصدف.

فهم فرويد أن الحكمة تقتضي الإنصات وليس الكلام، وإسداء التفسيرات الإيحائية. وبدأ منذ ذلك الوقت يروّض نفسه على الإنصات أكثر من الكلام. إلى أن اكتشف القوانين المتحكمة في التداعي الحر:كسبيل وحيد لفسح المجال أمام اللاوعي (اللاشعور) لكي يفضي بالتعبير عن وجوده حيث تكمن الذات الحقيقية بنزواتها المكبوتة ورغباتها.

إذاً انتهى المطاف بفرويد، من غير أن يدري، بالانتقال من المنهجية الهستيرية التي تضع الهوام (العوارض، الأحلام) في مكان الصدارة إلى المنهجية التحليلية التي تتساءل عن الرغبة المحركة للحياة (لا حياة من دون رغبة وهذا ما نصادفه عيادياً، في حالات الاكتئاب حيث يبدو أن الإنسان مرتبط بها في تطلعاته النفسية، ارتباطه بجسده).

فالرغبة هي في مكان الصدارة، لها موضوعها كما سماها جاك لاكان (Objet a)[*]، وتدخل في تركيبة الهوام الذي انتهى إليه فرويد في اكتشافه وتحديده؛ والهوام يربط الذات بما يحركها من رغبات دون أن تكشف عن نفسها، على اعتبار أنها متمثلة بشكل مقنّع ($ ◇ a). ويتبين لنا من خلال التحليل أن لهذا الهوام[*] وظيفة بنيوية في تحديد علاقته ما بين الذات المنقسمة وما بين موضوع الرغبة[*]. ($ ◇ a): هذا الموضوع كما يقول كلافرول[1] وهو الأول والملازم للرغبة؛ هو

---

(1) Clavreul: ordre médical.

$ تعني الذات المنفسحة في علاقتها مع موضوع الرغبة عبر ◇ ـ أي غير مباشرة.

الموضوع المفقود، الذي تمّحي ذكراه. فالقانون لا يقول فقط بأنه يجب ألا نستمتع بالموضوع المحرّم، بل وأن لا نرغبه، أي التعرف عليه أو الرغبة بالتعرف عليه فالتحريم عندما حوّل الذات عن هذا الموضوع الأولي، أجبرها على التفتيش عن كل موضوع ممكن أن يأخذ مكانه كبديل.

وكل ما يأخذ مكان هذا الموضوع الأول للرغبة، من كلام، أو من أي طرف آخر، لا يستمد أهميته من الواقع، ولكن من مقدار ارتباطه بالهوام. وهذا ما كشف عنه فرويد عندما توصل إلى العقدة الأوديبية، واكتشف أن ارتباط الطفل بالأم أو الطفل بالأب، من جاذب إغرائي أو من إغواء معاكس، ليس إلا حدثاً يدخل في بنية الهوام، حيث إن الأم أو الأب يدخلان من خلال العقدة الأوديبية في إطار الموضوع الأول المحرم.

السؤال الذي يطرح نفسه هل كان بإمكان فرويد أن يكتشف التحليل النفسي دون أن يمر بهذه المسيرة الطويلة؟ سؤال يطرحه ولا يزال يطرحه المحللون دون أن يتوصلوا فيه إلى اتفاق على مبدأ، حول نقل التحليل وطرق تعليمه. فالتحليل النفسي يختلف عن بقية العلوم الإنسانية فهو ليس بمعرفة تنقل بواسطة الجامعات، والمعلمين المكلفين بذلك على غرار ما يحصل بالنسبة للطب، والفلسفة، والهندسة، فهناك فارق ما بين موضوع التحليل وما بين المعرفة. فالمعرفة بالموضوع لا تغيِّر شيئاً لأنها مفصولة عنه بخط فاصل، فمعرفة الطالب عن عقدة الخصاء، لا يخفف عنه خوفه من الخصاء، أو المعرفة التي تستهلك في المدارس الحديثة عن الحياة الجنسية وخفاياها لا تحمي المراهقين من العقد الجنسية، لأن لكل طفل نظريته الجنسية التي كانت قد تكونت قبل المعرفة المكتسبة، من حيث إن هذه الأخيرة لم يبق لها دور إلا تغطية حقيقته الداخلية، أي المعرفة المؤسسة.

وهكذا كان الشرط الأساسي لنقل التحليل، وتعليمه، من المحلل إلى الطالب لا يتم إلا عن طريق التحليل الخاص كي يكتشف بنفسه ما اكتشفه فرويد؛ ولا بد له في مثل هذه الحالة إلا أن يتمم الدورة التي قام بها والتي تتكرر في كل مرة يتوجه فيها بطلب الى الآخر الكبير(*) الذي يحتل مكان المعلم أو السيد، يسأله من موقع المفترض العارف فحوى رغبته، عما يريد، عن الفارق الذي يميزه، وأمام صمت هذا الآخر، يرتد الطلب لكي تعاد صياغته بأسلوب نقوصي أكثر فأكثر، جاراً معه

الذكريات الدالة على ما يؤسس هذا الطلب كونه، ما قبل وما بعد الرغبة كي يتحول في آخر المطاف من رغبة في الاعتراف إلى طلب اعتراف بالرغبة.

موقف المحلل في هذه الحالة يختلف عن موقف الطبيب أو الجامعي، فهو لا يستعين بأية معرفة مسبقة، لأن كل مريض يحمل في نفسه معرفته التي تأبى أن تدخل في سلسلة المعارف لأنها تميزه، وتحدد هويته. خلافاً للطب الذي لا يدخل المريض إلى الحقل الطبي إلا إذا طابق معرفة دالة في المعجم الطبي ـ فيعرف عليه مثلاً بمرضه وليس باسمه ـ لأن المرض هو المهم وليس الإنسان الذي يقف وراءه. ومن هنا ندرك لماذا وقع الخيار على الهستيريا لكي تقلب المفاهيم العلائقية المتحكمة بعلاقة الطبيب بالمريض. لأنها فضلت استثناء ذاتها من العلاقة، فقدمت أعراضها على مذبح المعلم، لكي تستدرجه حتى يجد نفسه بعد أن يتبدد السراب، وجهاً لوجه أمام الطرف الثالث: حقيقتها الذاتية. ولا عجب إذا ما استثنيت الهستيريا من الدراسة الجامعية واعتبرها الأطباء الكمين الذي يجب أن يتفادوه، أو الشبح الذي يهدد المنهجية الطبية. وكان من ردة الفعل أن نعتت الهستيريا بشتى النعوت المحقرة: من كاذبة، إلى مشعوذة، الى مخادعة، إلى ممثلة، إلى متظاهرة، وكان من نصيبها دائماً أن ترمى في سلة مهملات الطب. تحاكي كل الأمراض دون أن تكون أحدها.

نستطيع القول إن فرويد لبى نداء الهستيريا واستجاب لاستغاثتها، واستطاع أن يفك رموزها عبر الدورة التي قام بها: على غرار ما حددها لاكان بالشكل الآتي:

1) S1 منهجية المعلم. تلخص حقبة علاقته، ببروك و هولمهلتز و شاركو.

2) S2 منهجية العلم المختبر ـ حقبة الكوكايين

3) التحليل النفسي الرغبة وموضوعها (a)

4) منهجية الهستيريا صدمة الإغراء الجنسي التي أدت الى اكتشاف انقسام الذات على نفسها. وفي كل مرة كان فرويد يقطع ربع دورة يفقد خلالها الموضوع البديل للغرض الأولي الضائع بحكم التحريم، فالمعرفة به لا تغنيه عن السؤال عما يسبب رغبته بها. لأن هذه الرغبة منذ البداية نقصان لوجود(*). وإن انتهى التحليل إلى الشكل الذي انتهى إليه فرويد، فليس ذلك إلا نموذجاً لما يمكن أن ينتهي إليه أي تحليل تعليمي، يتكلم من الموقف الهستيري المنقسم بذاته، المتحرر من المعرفة المسبقة،

(*) من هذا النقصان الذي يؤسس وجود الإنسان يبدأ السعي وراء هذا الموضوع الذي غاب عن هذا المكان: من هذا المنطلق حدد لاكان الرغبة بنقصان لوجود وموضوعها (a-1) وهو موضوع ضائع.

لأنها تفقد قيمتها كمرجع للتعريف عنه، فيتمسك باللغة مرجعه الوحيد، التي تعبر عنه لأنه يتكون ويتولّد منها، فيحدد غرضه الضائع عبر البدائل التي تحل مكانه، ويفقده إلى غير رجعة بكل ما كان يحمله من أمنيات نرجسية، أي عبر التحليل تتم عملية الحداد عليه، كي يكتشف هذا النقص الأساسي مدخله الرئيسي إلى عالم الرموز حيث تتوالى الدوال الواحدة تلو الأخرى لتمثله باستمرار بالنسبة إلى دالٍ آخر(٨).

الجدلية العقلانية في التحليل النفسي

رحيل «لاكان» لم يغيِّبه، ولن يغيِّبه عن المسرح الفكري الجدلي للعديد من السنوات القادمة. فالكثير من إنتاجه الفكري هو قيد النشر حتى الآن، ولا ينتظر أن يتم نشر إنتاجه الكامل قبل عشر سنوات على الأقل(*) وإحدى أمنياته كانت في أن يؤخر ويتمهل في نشر كتبه ـ حتى يتسنى لأفكاره أن تتسرب وتتغلغل في العلوم الإنسانية ممهدة الطريق لما سيليها ـ وكان يردد أن أفكاره التي يخيل للمرء عند قراءتها بأنها صعبة وعسيرة الفهم، لا بد أن تصبح بعد عدة سنوات بمثابة البديهيات المتداولة، يتناقلها الناس فيما بينهم، متعدية في ذلك أصحاب الاختصاص.

امتاز «لاكان» بأسلوبه الكتابي المعقد: وكان يعتبر أن الأسلوب هو الرجل، وهي نظرية منبثقة من مفاهيمه اللغوية، على اعتبار أن الإنسان، قبل أي شيء، يمتاز بمنطقه، بالتعابير اللغوية التي يتعامل بها، فهي المعبرة عنه.اختياره للمرادفات والتعابير والكلمات والأسماء، والمصنفات لا تأتي على سبيل الصدفة، إنما تتحكم بها بنية نفسية ترتكز في الأساس على الأسلوب نفسه.

فـ«لاكان» ككل: لاكان المحلل النفسي، المفكر، الكاتب المحاضر، وهو وحدة متدفقة تنساب ضمن قانون بيَّن أسسه لكي يوضح قناعته في أن اللغة هي في حد ذاتها ظاهرة بنيوية، وفي أن اللاوعي (اللاشعور) الذي يتحكم برغباتنا هو من هذه البنية نفسها ولا وجود للإنسان من دون اللغة.

دعوة لاكان المستمرة للعودة إلى فرويد، هي في حد ذاتها دعوة تصحيحية، يعتبرها أساساً وفي صلب نشاطه التعليمي. دعوته استقراء كتابات فرويد، هي دعوة

(*) رغم مرور أكثر من عشرين سنة لا يزال أكثر من نصف أعمال لاكان غير منشور، و يعود ذلك الى الإرث العائلي. فقد احتكر صهر لاكان الان ميلير أعمال لاكان ولزَّم نفسه اخراجها ولم يخرج إلى الطباعة أكثر من عشرة أجزاء من أصل 25 سمينير.

إلى تصحيح ما أخطأ فهمه تلامذة فرويد، الذين جردوا التحليل النفسي من فاعليته الانقلابية، لكي يرتهنوا في مفاهيم متوارثة، ومبسطة، تقتصر فقط على علم السيكولوجيا السائد، وهذا ما يعني حسب تنبؤ فرويد نفسه، إغلاق باب اللاوعي(اللاشعور)، بعد أن كان قد فتحه على مصراعيه.

«اللاوعي (اللاشعور) مبني كبناء اللغة»، يقول لاكان، وهو بمثابة العروة الوثقى، والمحور الأساسي الذي انطلق منه لاكان في مجهوده الفكري. وإذا كان من السهل إطلاق مثل هذه الفكرة فالصعوبة تكمن في البرهان على ذلك، لأن مثل هذا العمل يطال الفكر الإنساني بأكمله في منهجيته، ويعيد النظر في كثير من المعتقدات السائدة، فلسفية كانت أو علمية. بنظر لاكان إن اكتشاف اللاوعي (اللاشعور) من قبل فرويد، هو شيء يختلف تماماً عن المفاهيم السابقة التي برزت، فما اكتشفه فرويد هو حدث جديد إنقلابي في المفاهيم البشرية، لم يسبقه إليه أحد.

فاللاوعي (اللاشعور)، خلافاً لما تصوره علماء النفس سابقاً: ليس مثل المخزن المحكم الإغلاق للنزوات البشرية، أو للغرائز التي أدى تقدم الإنسان إلى إهمالها وتجريدها من فعاليتها؛ أي بمثابة تاريخ الإنسانية القديمة، بهمجيتها وبدائيتها. فرويد لم يقل ذلك أبداً. يتحدى لاكان المحللين جميعاً بأن يعودوا إلى قراءة كتب فرويد من أولها إلى آخرها لكي يتأكدوا بأن اللاوعي هو بنية في حد ذاتها، لها تركيبة شبيهة بتركيبة اللغة. وإن كانت لغة بدائية تذكرنا بمحاولة الناسخ الأول على ضفاف النيل(*)، أو في سامراء، وهو ينسخ أولى المخطوطات، منتقلاً من اللغة التصويرية إلى اللغة الفكرية الرمزية، (صفوان ـ مجلة الفكر العربي المعاصر 1980).

منذ البداية لم يدرك المحللون المغزى الذي أعطاه فرويد للاوعي (للاشعور)، رغم أنه حاول جاهداً في كتابه «تفسير الأحلام»، من أول الكتاب إلى آخره، البرهان على أن اللاوعي (اللاشعور) لغة فالحلم نص يقرأ : النص الظاهر إلى النص الباطن عبر الأفكار نفسها؛ فهو بمثابة لغز لتركيبة صورية على غرار (Rebut)(◁)(**)، مترابطة فيما بينها بمعان وصور مختلفة، كون التنسيق لا يأتي على سبيل الصدف، إنما يرضخ لقانون يتحكم بتكوينه، وهذا ما سماه فرويد بالعمليات الأولية(◁): أي التكثيف والنقلة. فهي تتحكم بالحلم منذ تكوينه حتى نصه الأخير. فالنقلة تخدم مغافلة

(*) انظر كتاب صفوان اللاوعي ومخطوطه، «L'inconscient et son scribe, Paris, Seuil, 1982.

(**) الصورة المركبة من عدة كلمات.

المراقبة، والتكثيف للتعبير المتعدد عن الرغبة المكبوتة. وهكذا بعد أن يخدع المراقب والمحاسب، عن طريق استبدال موضوع بموضوع آخر، تحصل النقلة للمشاعر، لكي تعبر عما يخالجها بحرية أكثر.

إنطلق لاكان من هذه النقطة كي يوضح منهجية جديدة في فهم اللاوعي (اللاشعور)، كلغة قائمة بحد ذاتها شبيهة باللغة التي نتداولها. وإن كان فرويد لم يعتمد على الألسنية التي استعان بها لاكان فلأنه سبق الألسنية في تنظيره. وهكذا لم تتيسر له الإمكانيات في زمانه.

يقول لاكان: إن أوجه الشبه عديدة ما بين العمليات الأولية، والقواعد القائمة عليها اللغة، لأن اللغة هي ظاهرة بنيوية، ترضخ لقواعد محددة نتحكم باستعمالها. وتمثل البنية التي تقوم عليها أية لغة من اللغات: سواء في تصريف الأفعال، أو المضادات والمرادفات، أو في البلاغة: من كناية، إلى استعارة، إلى مجاز ومجاز مرسل، فاستعمال اللغة يرضخ لمثل هذه القوانين اللغوية، لأن المعاني تتدفق ضمن قنوات محددة خاصة ومميزة للذات.

فماذا يقول لاكان : إن صياغة الحلم، وصياغة اللغة، يعتمدان على نفس القاعدة والأسلوب: المجاز (بمثابة التكثيف)، الكناية أو المجاز المرسل بمثابة (النقلة). أي أن العمليات الأولية تكمن وراء اللاوعي (اللاشعور)، والبلاغة هي التي أشبه بما سماه فرويد بالعمليات الثانوية، يفصلهما خط فاصل يقاوم كل محاولات الفهم لاختراقه، سيما استئصال المعنى الأخير أي المدلول(*).

فالمعاني تتوالد تدريجياً نتيجة تناسق متواز ومدروس في انتقاء الكلمات التي بدورها تفترض استقصاء ما يخالفها، وما هو ضدها أو في ذكرى ما يتجانس معها ويؤدي المعنى المطلوب. فاللغة قد تعني غير ما تقوله إذا ما أخذناها بحذافيرها كلمة كلمة، وخير برهان على ذلك النكات التي تظهر لنا حقائق نستنتجها من خلال الكلمات والجُمل. ويعود ذلك إلى الكناية والمجاز كون استقلالية التعبير تتعدى ما تقوله الكلمات لأنها مرتبطة أساساً بهذه العمليات.

وظيفة الكناية هي مغافلة المراقبة، عن طريق استبدال الموضوع الأساسي بموضوع آخر، قد يكون طرفاً من الأول: (أي اعتبار الجزء بمثابة الكل) ـ وللبرهان على ذلك يستعين لاكان بأمثلة: رأيت ثلاثين شراعاً. (الشراع هو الجزء الذي اعتبر بمثابة الكل أي المركب) ـ أو عندما نقول شربت كأساً (فالكأس هو الذي أتركه

(*) إذا أردنا تأويل حلم بالكامل يصعب علينا استخراج المدلول الأخير له.

فارغاً من المحتوى إذا ما انتهيت من الشرب) يستنتج لاكان أن الكناية هي عملية متاخمة للترميز: أي إن كل ترميز يفترض في البداية فقدان الموضوع.

والكناية في أساس وظيفتها: تدخل بتركيبة لفضح هذا النقصان عندما تحاول إيجاد بديل له تتحول إليه النزوة المكبوتة. خلافاً للمجاز الذي يكشف عن حقيقة المعاني المكبوتة، يكثفها لكي يعطيها صيغة جديدة تفصح عنها ببلاغة أعمق وأكثر وقعاً. لاكان يعتبر هذين المحورين بمثابة سر خطي له وجهان: 1) الكناية ترجمة للرغبة، غياب الغرض، والتفتيش عن بديل له. 2) المجاز الدال عن الوجود حتى ولو كان هذا الوجود في حكم النقصان.

استعان لاكان في البرهان على نظريته بعلم الألسنية الذي كان قد دخل حديثاً على العلوم الإنسانية ابتداء من فردينان دي سوسير الذي وضع المعادلة الأولى اللوغاريتمية في استبدادية العلامة وتحكّمها في تصدير المعاني.

علامة= الصورة الصوتية / الفكرة المجردة ↓↑

العلامة = الصورة الصوتية ـ الفكرة المجردة ـ فهذه العلامة لا توجد بين الشيء(*) والاسم، ولكن بالمعنى المجرد والصورة الصوتية المرتبطة به. والأخيرة لا تمثل الصوت بحد ذاته بقدر ما تمثل الانطباع الذهني لهذا الصوت. وعلى هذا الأساس اعتمد دي سوسير في تسمية الصورة الصوتية بالدال، والفكرة المجردة بالمدلول بحيث تصبح المعادلة:

علامة = دال / مدلول ↓↑ سمي المولِّد للمعنى

فهذه الوحدة اللغوية مرتبطة باستبدادية العلامة التي تملك قيمة تتعدى المعنى الذي تضيفه عليها بنية الكلمات المنتسبة إلى نظام اللغة والتي تدخل في تأليف الجملة.

اختلف لاكان مع الألسنيين بإسقاطه لأفضلية العلامة واستبداديتها في توالد المعاني، واعتبر أن الفضل الأول والأخير يعود للدال نظراً لارتباطه وتشابكه بسلسلة

الدوالي التي تكون الذات. فللدال حق التصدر على المدلول: فهو منفصل عنه بخط لا يمكن لأي معنى أن يخترقه: دال

مدلول

فهما جهازان لا يمكن أن يغطي أحدهما الآخر. الدال هو الذي يقود قوانين بنيته، تدفق الكلام. والمعاني غير مرتبطة بالدال لأنها تستخرج من أصل ارتداد الدال إلى دال آخر، وهكذا فالفارق بين د1 ود2 هو الذي يميزهما عن بعض و يفرز المعنى.

ولهذا الدال أفضلية في التعريف عن الذات، متنقلة ضمن السلسة الدلالية، هو الذي يعرف عنها ويشير إلى مكانها، لأن الذات حسب تعريفه هي ما يمثله الدال بالنسبة إلى دال آخر[>] على اعتبار أن أي دال لا يستطيع أن يستأصل المعنى الأخير للمدلول.

وصول لاكان إلى هذا المفترق كان بمثابة تحول في تحرير التحليل النفسي من مخلفات علم البيولوجيا، والسيكولوجيا، التي غاص فيها فرويد، وكان لها التأثير الكبير في بناء نظرياته. سيما بما يختص بنظريته حول الطاقة الليبيدية ومشتقاتها. فنظرية الطاقة عند فرويد لا يمكن أن تنفصل عن مفهوم الآلة المستحدثة في عصره. فهذه الطاقة، يقول لاكان : لم تكن مجهولة في العصور الغابرة، ولكن لم يخطر على بال أحد بأن يوجد لها معادلة حسابية ما، بين إنتاج العبيد وثمن غذائهم مثلاً موقف مخالف تماماً لعلاقة الإنسان بالآلة: فهو ليس بحاجة فقط إلى تغذيتها، وإنما بحاجة أيضاً إلى صيانتها لئلا تخرب بسرعة. فالآلة تستهلك، وكذلك الإنسان إذا وضع في حكم الآلة فالعبد ينتج، يَستهلك ويُستهلك، يعجز وينتهي إلى الموت. ولكن سريعاً ما تبين للإنسان، على خلاف عالم الآلة، بأن الأحياء يتعايشون، ويؤمنون صيانة بعضهم لبعض ضمن توازن مستمر[*].

فالآلة تمثل قمة الترميز، ومن هنا نفهم السؤال الذي طرحه فرويد عبر نظريته حول الطاقة البشرية، والتي لم يكن يقصد بها الاستعانة بعلم البيولوجيا، لكي يضع الإنسان في معادلة مع الآلة، فالمقصود كان غير ذلك، وأبعد من الحدود الإنسانية، لأن كل تعامله مع الطاقة كان من باب المجاز وليس من باب البيولوجيا، كواقع

(*) على سبيل المثال يبين لاكان في سيمينير الفرق بين حسابات الطاقة للآلة والإنسان. فإذا نزل عبد من أعلى الجبل وعلى ظهره 50 كلغ ثم صعد إلى المكان نفسه مع الحمولة ذاتها يكون حصيلة مجهود الطاقة صفر.

ممكن ربطه بما يجري في الفكر الإنساني. المقصود عبر هذا المجاز هو إنسانية الإنسان لأنها وليدة حقل الرموز. انطلق فرويد من المفهوم العلمي السائد للجهاز العصبي، وحاول دائماً العودة إلى نقطة التوازن، شأن كل طبيب انهمك في دراسة جسم الإنسان. وعلى هذا الأساس حاول بناء نظرية متناسقة تسيِّر الجهاز العصبي، انطلاقاً من الدماغ، وبيّن على أنه عضو يتميز بوظيفة الوسيط الممهد والمنسق ما بين الفيزيولوجي والواقع الخارجي.

ولكن، يقول لاكان، إن فرويد وقع على ما لم يكن في الحسبان، عندما تبين له أن هذا الدماغ آلة مختلفة عن كل الآلات، فهي آلة تصنع الأحلام. وفي هذه الآلة وجد ما لم يجده في غيرها، على مستوى أبسط الأشياء في ماديتها البحتة، في عفويتها، و اكتشف اللاوعي (اللاشعور) حين ينكشف أمامه المعنى والكلام في تكوينه الأساسي.

كتاب «تفسير الأحلام»(*) كان بمثابة الانقلاب الرئيسي، انتقل من خلاله فرويد من العالم البيولوجي الفيزيولوجي إلى عالم الرموز: اكتشاف الرمز في جدليته، دلالته، في تقلبه في تحريك الكلمات، في النكات، في الإعراب عن الرغبات، كل ذلك اكتشفه في الآلة الحالمة،كما ذكرنا، وما عليه إما أن يتركه أو يأخذه. ولم يدرك فرويد ما جرى له إلا بعد مضي عشرين سنة من الخبرات، عندما تكلم عن مبدأ اللذة ونزعة الموت.

هذا الانقلاب الفكري أدركه لاكان في عمقه، ولم يدع الفرصة تفوته لكي يتوقف عنده كثيراً، بل تعمقه، ودعمه في نظريته حول الدال، واستقلالية الرمز، فعملية الترميز هي عملية مستقلة عن الواقعي (Réel)(**)، وليست بحاجة إلى مسببات سيكولوجية أو بيولوجية وحتى فيزيولوجية لكي تنطلق، فالسلسلة الرمزية هي التي تتحكم بمبدأ آلية التكرار، حيث ارتبطت الرغبة بإصرار وعناد تتكرر دون أن تنطفىء خلافاً لما يحصل للقوة الحيوية. وهذا يفترض أن لها بنية رمزية ترتكز عليها، محاكاة بشكل نظام، ضمن سلسلة من الدوالي، تعبر عنها من خلال انتقالها من دال إلى آخر.

والدال، بحكم البنية التي تكوّنه، يتميز تعريفه بالفارق بينه وبين الدوالي الأخرى من ناحية، ومن ناحية ثانية يرضخ، في دخوله إلى قانون تركيب الجمل والخطب،

(*) زيغموند فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة مصطفى صفوان، مع مقدمة للمترجم، دار الفارابي، بيروت، 2003.

(**) الواقعي يختلف عن الواقع: هو بمثابة الحدث الذي لا يقبل التأويل والتراجع. مثلاً الموت.

إلى قواعد اللغة والبلاغة. ولكن المهم هو اقتران الدال بدال آخر دون أن يطابق ذلك على معنى المدلول، لأن كل دال يرتبط بالسلسلة بدال آخر وليس بالمدلول، فالمعنى المستخرج يؤدي إلى معنى آخر. تتتالى الدوالي الواحدة تلو الأخرى دون أن تنطفىء المعاني أو يستأصل المعنى النهائي(*).

المدلول بالتحليل النفسي يمثّل هدفاً بحد ذاته ـ فالمريض الذي يتكلم عن أعراضه يفترض أننا نفهم ما يخفى عنه ـ هذا المدلول الذي أصبح، بحكم التساؤل والغموض، يفترض معرفة مسبقة من قبل الآخر، والذي يوجه إليه الحديث. أما الذي يحصل فهو أن الحلقات الدالة التي تستخرج من اللاوعي (اللاشعور)، تدلج عالم الشعور، وتصبح معرفة، ولكن، في آن واحد، تترابط ضمن شبكة بدوالي عدة، تظهر بأن المدلول لا يزال في تكوينه غامضاً وإن بدا اقترابنا منه. وهكذا يتنقل إلى حلقة ثانية وثالثة ورابعة، إلخ.

وفي كل مرة نقترب من المدلول، تتوالى الدلالات في غزارة، لكي تفضي عن المدلول بصيغة جديدة دون أن تكشف النقاب عنه نهائياً، لأنه بحكم وجوده، ليس إلا كناية عن حلقة مفقودة أو موضوع ضائع، لا يستدل عليها إلا عن طريق الدوالي الجديدة التي ترد عبر التحليل. فالإنسان يقول دائماً أكثر مما يعرف، وهذا ما يذهله. وكان يشير فرويد: إلى دهشة المحلّل عندما ينطق بشيء مذهل غير مصدق ما سمعه بأذنيه: فيرد أنه لم يكن يخطر على بال، أو لم يكن يتصور بأنه ممكن أن يفكر هكذا.

المدلول بنظر لاكان بمثابة المكبوت الذي لا يفتأ أن يعود، ويبرر وجوده بالعديد من الدوالي التي تكوّن حلقات السلسلة عبر الاستعارات والمجازات.

بهذه النظرية استطاع لاكان أن ينجز ما بدأه فرويد بتطهير التحليل من الرواسب البيولوجية، والفيزيولوجية، المسيطرة في ذاك الوقت، ومن نقله إلى حقل الفكر والبحث القائم على عملية الترميز وحقل الرموز عبر السلسلة المكونة له. ولكي يبين أهمية الدال واستقلاليته، اعتباراً إن الإنسان ليس إلّا كناية عن حلقة دالة ضمن هذه السلسلة، فالدال هو الذي يحدد دور الذات، ووظيفتها، ومكانها بالنسبة للآخرين.

(*) إذا أخذنا القاموس اللغوي و فتشنا عن معنى كلمة، ترسلنا الى كلمة أخرى و هكذا نقرأ القاموس بكامله دون أن نتوصل الى المعنى النهائي.

وضع أهمية الدال في بنية الإنسان بمقاله المشهور «الرسالة المسروقة»[1] الذي تصدر كتابه «كتابات». وكان هذا المقال بمثابة انقلاب، كرس للدال أهميته في البنية اللغوية، وفي التعريف عن الذات، لأن الدال هو الذي يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر.

فالتحليل النفسي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالذات المتكلمة كونها «طاحونة الكلام» كما يسميها لا تتوقف عن تصدير الكلام المعبر عن الذات في صيغ متطورة، إذا ما استمر حضور من يسمع مرسالها؛ فمهمة ووظيفة المحلل، هي في الأساس فكرة مجردة، مبنية على استراتيجية كلامية، سيما إذا تبين لنا أن اللاوعي (اللاشعور) الذي نعمل على تأويله، لا يكشف عن نفسه إلا عبر الإفصاح اللغوي، لأنه في الأساس مركب تركيبة لغوية. العارض إذا ما انحلّ لغزه عبر الكلام، فليس إلا لأنه في الأساس كان عقدة كلامية تكونت وحاكت نواتها المرضية. ويستشهد لاكان بفرويد عندما تطرق إلى نظرية الكبت بأن الانفعالات العاطفية لا يتطرق إليها، فهي تجد طريقها نحو التفريج بواسطة النقلة، إنما الكبت يطال، في الدرجة الأولى، التسمية الحقيقية لمثل هذه الانفعالات، أي الدال الذي يدل عليها ويعرف عنها؛ فكل الدراما عند أوديب الملك كانت تكمن في أنه يجهل الاسم الحقيقي لهذه الامرأة التي ضاجعها، واسم زوجها الذي قتله وحل محله. الشحنة العاطفية لم تكبت بل وجدت طريقاً لها عبر التحايل على الرقابة؛ فمأساة أوديب بدأت عندما انقشعت الحقيقة أمامه، فهذه الامرأة التي لم تعد في سريرها لم تعد عادية، وهذا الرجل الذي قتله لم يعد حدثاً عابراً، إنما ارتسمت الأحداث في تاريخ حياته بمجرد ما أخذت التسميات مكانها كحلقة مفقودة في سلسلة الدوالي المعرفة عنه. فالكبت إذاً يطال الدال كممثل للمدلول، وهو منفصل عن المعنى المستخرج لأن المعنى الجديد لا يستنفد التعبير عن وجوده، فهذه عملية

---

(1) استعنا بهذه المراجع في الكتاب لكي نستخرج الفكر المحوري للاكان.

J. LACAN, Les écrits, «Ed. Seuil».

-La lettre volée, p, 9

-Le stade du miroir comme formateur de la fonction du je, p.93.

-Fonction et champ de la parole et du langage en psychanalyse.

-Introduction sur le commentaire de J. Hyppolite sur le Verneinung, p.369.

-Subversion du sujet et dialectique du désir dans l'inconscient freudien, p.793.

-Position de l'inconscient, p. 829.

تستمر بالانتقال من دال إلى دال آخر، وهكذا (د1، د2، د3، د4، إلخ) مكونة سلسلة الدوالي. وهذه في حد ذاتها تدخل في بنية حبك (اللاوعي) اللاشعور الذي يستعمل لغة شبيهة باللغة التي نستعملها. إنه يستعمل الاستعارات والكنايات لكي تتمكن الرغبة من الإفلات من الرقابة. وهذه الاستعارات والكنايات ليست غريبة عما هو متداول في الحديث العام، فاللاوعي (فاللاشعور) يستقي منه ما هو بحاجة له، كونه يمثل الحقل الفكري حيث تتم عملية الترميز قبل أن تصبح في حكم المفهوم العام المتداول. وهذه الرموز المتكونة تساهم في إثراء اللغة وإعطائها نهجاً جديداً.

يتكوَّن الرمز عن طريق الصدفة، ولكن بمجرد أن يصبح رمزاً ينفصل عن هذه الصدفة ويصبح في حل منها، بعد أن يكون دخل وأخذ مكانه في سلسلة الرموز التي ترضخ لقانون اللغة وليس للصدفة. ويأخذ لاكان مثالاً على ذلك قصة حفيد فرويد في لعبته FOR-DA. هذا المثل أورده فرويد لكي يبين أول عملية ترميزية، ودخول الطفل في عالم الرموز. فبمجرد أن تحاك الحلقة الأولى، تتتالى العمليات تلقائياً في تقدمه نحو اكتشاف الحلقات الأخرى. فهذا الطفل كما ذكر فرويد كان يعاني من غياب أمه، ولم يكن بعد ذا قدرة على الكلام. إنه لا يعرف إلا بعض الألفاظ. وفي إحدى المرات فاجأته أمه وهو يرمي بمكوك تحت التخت ويلفظ FOR-DA بعيداً، ثم يظهره ويجذبه إليه ويردد DA بمعنى قريب، وكان يكرر هذه اللعبة عدة مرات دون أن يكل، منصرفاً عن المشاغل الأخرى، وبصورة خاصة عن أمه.

يقول لاكان بأن الطفل استطاع عن طريق هذه اللعبة التي اكتشفها صدفة بأن يسيطر على وضع مأساوي كان يعاني منه بالنسبة لغياب أمه. فحرمانه منها يضعه أمام استحالة لا قدرة له عليها، سيما أن مفهوم الوقت وتقسيمه لم يدخلا بعد في نهج ترميز[<] الطفل، فالأم تستطيع الاستغناء عنه، لقد أصبح مرتهناً لإرادتها بتسلطها عليه. واكتشافه لهذه اللعبة مكنه من التحكم بوضعه المأساوي واستطاع عن طريق ترميزه أن يتماهى بالأم ويجعل من المكوك ممثلاً لما كان وضعه، ولكن استبدال السلبية بالإيجابية هذه المرة، جعله يتحكم باللعبة. الآن هو الذي يغيب ويحضر. وتتساءل هنا ما الذي حدث لكي يتمكن هذا الطفل من السيطرة على وضعه؟

يجيب لاكان: إذا مكنت الصدفة من إيجاد الرمز[<]، فانه يصبح في مرحلة ثانية مستقلاً عنها هنا، يرضخ لتحكم الذات به. بهذه العملية الصدفية استطاع الطفل أن يدخل عالم الرموز انطلاقاً من اكتشافه الأساسي لنقصان الوجود. فترميز هذا النقصان بالنسبة لوجود هو الذي مكنه من استخراج الدال الذي يعبر عنه. والإنسان يبدأ السؤال

حول وجوده منذ البداية: يكون أو لا يكون: TO BE OR NOT TO BE فالوجود لا يبنى إلا على قاعدة عدم الوجود من أين أتى؟ من نقطة الصفر (اللاوجود)، من نقطة الموت ـ حيث ارتبط بالدال الأول بكونه انتقل من حالة العدم الى الحياة(*). ولكن منذ اللحظة التي يدخل فيها عالم الوجود، يرتسم هذا الوجود في تاريخ حبك قبل وجوده، يتحكم بحد ما بمصيره. «لم يكن يعرف أنه كان ميتاً». هذا السؤال الذي طرحه لاكان حول حالة «هانس الصغير» التي حللها فرويد، هو بحد ذاته جواب على ما يخالج الطفل من سؤال ملح: «من أين أتى؟» و«أين كان؟».

فالوجود انبنى على اللاوجود، والدال الأول هو دال انبعث من النقصان: الفراغ الذي يتركه في حال انفصاله عن هذا العالم. وفي الأساس فإن هذا الوجود انبنى على فراغ، أو نقصان تحددت معالمه قبل ولادته في حديث الأهل ـ من خلال أمنياتهم أو من رغباتهم ـ والذات عندما تتكون تعتمد على المعادلة: إما أن تكون أو لا تكون، فمعنى هذا اللاوجود يؤسس وجوده، ومن اللامعنى ظهر المعنى. فمن هذه المراهنة انطلق الرمز الأول بالنسبة لحفيد فرويد في لعبته المكوكية: غياب وحضور هو ما كان بحاجة إليه لترميز نقصانه بالنسبة إلى والدته مما يمكنه من السيطرة والتحكم بهذه العلاقة عن طريق الواسطة الكلامية مقابل التزامه النهائي بعالم اللغة، عالم الرمز الذي دخله وأصبح المسرح الوحيد لتكوين الذات والتعبير عنها. فمن هذا الواحد الذي ينقص، تبدأ العملية الأولى للترميز، على اعتبار الكتاب لا يدل على مكانه في مكتبة ما إلا من الفراغ الذي يتركه في حالة نقصانه(**).

الطفل في بداية الكلام يفترض غيابه مقابل اسم العلم الذي يستعمله كشخص ثالث، وهو بداية اللعبة الرمزية التي تفترض لكل من دخل عالم اللغة، أن ينطلق من نقص وجوده لكي يتمكن من التعبير عنه، ولولا هذا النقصان الأساسي لما كانت هناك ضرورة للترميز(***).

(*) يتأكد ذلك في اللغة العربية حيث يشار الى الدال الاول بالحرف. والحرف هو الحد الذي يتمسك به الانسان المتكلم كي لا يقع في هاوية العدم.

(**) يشير لاكان إلى أن الطفل يتماهى في وحدة عددية (1). تشكل إن ما طُلب منه حساب عدد الاطفال العشرة، فيقول تسعة ولا يعد نفسه لأنه (1-) الذي يتمم البقية. أي يتماهى بنقصانه.

(***) وللتبسيط في فهم المقولة نأخذ لعبة المركبات المربعة: عن طريقها يتحرك كل مربع من الفراغ الذي يتركه الآخر وهكذا نستطيع أن نحقق العديد من الأشكال الرياضية، من دون النقصان الأساسي لمربع واحد لا يمكن أي مربع آخر أن يتحرك.

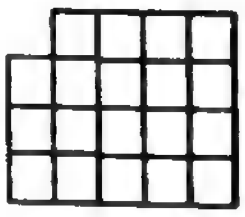

فاللغة هي الشرط الاساسي للوعي الذاتي والانسان بحاجة الى وسيط بينه وبين الاشياء، بينه وبين العالم، بينه وبين ذاته، اللغة هي التي تسمي الأشياء. فترميز الشيء مبني على موت الشيء، على غيابه (لاكان)،على نقصانه،أي أن الكلمة تعني في آن واحد: فقدان الشيء ووجوده. عندما نذكر فلان: اسمه يعني وجوده رمزياً وفي آن واحد غيابه جسدياً.

حفيد فرويد استطاع أن يحول أمه لوجود يلازمه ويأسره، باستنباط الرمز الذي يعبر عن نقصانه بالنسبة لها، وعن نقصانها بالنسبة له، فالتسمية هي التي تحدد معالم الأشياء، وتبعث الضوء في سير الأمور وتنسيقها ضمن نظام محدد. هي التي تحرم وتحلل، ولولا ذلك لما كانت هناك مأساة أوديب الملك. فتسمية النساء هي التي تحدد ما هو محلل وما هو محرم من حيث القرابة والبعد.

ومن هذا الباب يدخل الطفل في الشبكة الأوديبية، يتلقى الدمغة الخصائية التي لا تفارقه مدى الحياة، فالخصاء عقدة تنحل بانحلال الدوافع التي كانت سبباً في المراهنة عليها، ومن هنا يتوجب على الطفل دفع دين إلى والده مقابل صك عقد مسبق على غير علم منه.

إنه يتنازل ليس فقط عن أمه كغرض جنسي محرم. وإنما عن التماهي القضيبي الذي كان يمثله لإتمام نقصانها، أي عن كل السراب النرجسي المستثمر في هذا المكان ـ وهو نفس الشيء الذي انتهى إليه أوديب الملك في آخر المطاف عندما تساءل: هل الآن، عندما صرت لا شيء، أكون قد أصبحت إنساناً؟ إذا للدال أفضلية على المدلول، (يقول لاكان) يتحرك ضمن شبكة من الدوالي محاكة على قياس بنية الذات، يعرف عنها بالنسبة إلى دال آخر. فهو بمثابة رمز«وحدة متخفية» يتنقل عبر سلسلة من الدوالي، كل واحدة تمتاز عن الأخرى بفارق، يمثل اختلافها واقترانها فيما بينها؛ واللاوعي (اللاشعور) محاك من الدوالي التي تقتبس التصور النظري محاكية في ذلك اللغة التي نتكلمها. ولكي يعطي لاكان برهاناً على نظريته هذه استعان بقصة «ادغار بو» حول "الرسالة المسروقة"، فوجد في هذه القصة البوليسية عبرة تجسد ـ بكل ما للكلمة من معنى ـ وظيفة الدال في التحكم بالأشخاص وبأدوارهم. وهو مثال حاول لاكان من خلاله أن يظهر فعالية الدال في تركيبة اللاوعي (اللاشعور)، بنى على أساسه جدليته المنطقية في تكوين اللاوعي (اللاشعور) انطلاقاً من أن الذات منقسمة على نفسها بمجرد أن ترضخ لحكم الكلام.

القصة تقتصر إذاً على أن الملكة تفاجأ بدخول الملك بصحبة وزيره، بينما كانت

تقرأ رسالة هامة، وكي لا تثير شكوك الملك بمحتوى الرسالة: تضعها على الطاولة بشكل عادي ومهمل، مخفية بذلك انفعالها، جاعلة من اللامبالاة ستاراً تخفي وراءه أهمية الحدث. الوزير صاحب الدهاء وسرعة الفهم، يدرك بعينه الرقيبة أهمية الموضوع، وكذلك دون أن يبدي أي اهتمام على غرار الملك يخرج من جيبه رسالة شبيهة يضعها مكان الرسالة الأصلية، الملكة أدركت ما حصل لكنها فضلت السكوت كي لا يفتضح أمرها.

الملكة لا تيأس من استعادة الرسالة، وبإيعاز منها، يقوم البوليس بحملة تفتيش في منزل الوزير بحثاً عن الرسالة و لكن دون جدوى. عندئذ يتوجه قائد الشرطة إلى تحري يسمى ديبان يطلب مساعدته لتمكينه من الحصول على الرسالة. ديبان يقوم بزيارتين إلى الوزير: الأولى استكشافية، يعين مكان الرسالة. وفي الثانية ينفذ مخططه بالاتفاق مع سائق عربة بإطلاقه عياراً نارياً في الشارع، مما يشغل بال الوزير خلال فترة من الزمن، الوقت الكافي لكي يضع ديبان رسالة شبيهة بالرسالة التي كان قد موهها الوزير بعنوانه ووضعها على مكتبه كما لو كانت رسالة عادية مرسلة من الخارج. ديبان كان يدرك خطة الوزير، ويعلم أن أحسن السبل لإخفاء الشيء الهام هو وضعه في دائرة نظر الذي يفتش عليه لأنه سيفتش خارج هذا الإطار.

الرسالة الآن في حوزة ديبان: يتساءل ماذا يفعل بها؟ يقرر أن يستدعي قائد الشرطة، ويعرض عليه أنه لقاء تسليم الرسالة ثمن، سيستجيب لهذا الطلب، وفي الحال يأخذ الرسالة ويدفع إلى ديبان مبلغاً معيناً. مقابل ذلك يخرج ديبان من الحلقة الرمزية، وهكذا ينفض يديه من الموضوع.

يقول لاكان إن «الرسالة المسروقة» تمثل بحق الدال بكل معانيه وأفضليته على المدلول، فالقصة تدور حول من بحوزته الرسالة؟ تنتقل من يد إلى يد دون الأخذ بعين الاعتبار، أو حتى أن يعرف بالضبط أهمية المعلومات التي تحتويها. فالرسالة بمثابة رمز يتنقل ضمن حلقة معينة، بشكل لا يمكن لأحد أن يمسه دون أن يؤخذ في لعبته ويتحمل النتائج المترتبة عليه، بغض النظر عن خصائصه المتميزة. فوضعية كل فرد في اللعبة تتحدد من المكان الذي يمثله بالنسبة لهذه الرسالة. ويزيد لاكان بأنه إذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية هذه الرسالة كنموذج لما يترتب عليها من أحداث نتيجة لتنقلها: نستخلص أنها بمثابة اللاوعي (اللاشعور) لكل شخص منا. وهذا ليس بغريب.

فإذا وجَّهنا نظرنا إلى كل مأساة إنسانية لوجدنا أن على مسرحها تنعقد العقد، وترتبط الصلات بحكم عقود مسبقة تحدد دور الإنسان بالنسبة لغيره، مكانه وحتى مصدره.

وهذا ما يستخلصه لاكان من هذه الرسالة في يدي الملكة مهما كان نوعها: قد تكون رسالة غرام من شخص معين، أو حاملة أخبار مؤامرة على الملك، أو تحمل أحداثاً بالغة الخطورة. المهم في الموضوع أن المعنى المستخلص عندما كانت في يد الملكة يختلف تماماً حين تصبح في يد الوزير، فبالنسبة له حجة دامغة وبرهان لا يستهان به يضعه في درجه ويستعين به عند الضرورة في تهديد الملكة لكي يحقق بعض طموحاته. ولكن الوزير لا يستعمل هذه الرسالة إنما يضعها في درجه، لأنه يدرك أن الملكة ستخشى أمره لمجرد معرفتها أن الرسالة في حوزته. ويقول لاكان: إن هذه العلاقة الثنائية بين الملكة والوزير: هي نموذج لما يمكن أن نتصوره في التحليل النفسي لما نسميه بالعلاقة النرجسية. وعلى ضوء ذلك يظهر دور الوزير بالنسبة لهذه الرسالة على أنه دور أنثوي شبيه إلى حد بعيد بدور الملكة، فهو مثلها لا يستطيع أن يتكلم عنها ـ مما يضعه في موقف لا مهرب منه: هو الاحتيال للاستيلاء عليها. وهذا لا يعود إلى ذكاء ديبان في الموضوع بقدر ما هو مرتبط في البنية المتحكمة باللعبة.

البوليس لا يرى الرسالة: يفتش عنها ولا يجدها رغم أنها قد تكون مرت من بين يديه. لأن البوليس هو السلطة التي تعتمد على القوة لتفتش عن رسالة، وتجهل محتواها في آن واحد. فموقفها شبيه بموقف الملك، الذي يرى ولا يفهم. لأنه كان يفتش عن واقع الرسالة، وليس عن الحقيقة المتخفية في الرسالة نفسها. دخول ديبان إلى الساحة قلب الأوضاع، لأن تعامله مع أصحاب الرسالة كان من مبدأ المحايد الذي يحاول أن يفهم البنية القائمة في هذه اللعبة، أي كشف الأضواء عن دور كل واحد من أصحاب اللعبة بحكم الرسالة التي تسقطها عليه إن كانت بحوزته أو ضائعة من بين يديه. فوجودها ونقصانها يتممان بعضهما بعضاً ـ لأن هذا الوجود من النقصان، وهذا النقصان ليس فراغاً كأي فراغ، إنما يصبح تعبيراً لوجود مرتبط بالأساس بالغرض الضائع، فديبان، انطلاقاً من هذه المعرفة، دخل اللعبة، وقبل الرهان، لاستعادة الرسالة؛ ولكنه لم يصل إلى الرسالة إلا بعد أن كشف دور كل شخص، سيما الوزير في التماهي الأنثوي.

وهو عندما حصل على الرسالة وجد نفسه، مثل غيره، مأخوذاً من اللعبة؛ وسيترتب عليه، بحكم امتلاكها، دور قد يورطه على غرار باقي الأفراد. لا سبيل إذاً

للخروج من هذه اللعبة إلا بإعادة الرسالة إلى المرسل إليه ولكن مقابل دفع أتعابه.. هكذا يصبح بحل من أمر الرسالة، من ناحية ومن ناحية ثانية بحل من أصحاب الرسالة، لأن الدين إذا بقي لا بد أن يدفع بطريقة أو بأخرى، والرسالة بالنتيجة لا بد أن تصل في آخر المطاف إلى صاحبها أي المرسل إليه.

فديبان جسّد بكل معنى الكلمة موقف المحلل النفسي الذي يدخل اللعبة لكي يخرج منها بعد أن يكون قد كشف النقاب عن الحقيقة المتخفية على غرار الرسالة. فهو بحل من دين المريض لقاء ما يدفع له لأتعابه، مقابل أن يوصل الرسالة إلى المرسل إليه أي إلى حتميتها.

من هذا المنطلق يبين لاكان أهمية الرمز في تكوّن الذات، فالذات لا تكوّن الرموز، إنما هي في الواقع وليدته. تتحكم بها وبمصيرها، على غرار ما تبين لنا من «الرسالة المسروقة» ومن تنقلها في تحديد الأشخاص وأدوارهم، فهي اللاوعي (اللاشعور) بحد ذاته، على اعتبار أنه محاك من الدوالي، التي تتكشف أمام المحلل عبر التداعي الحر الذي استنبطه فرويد. فالأفكار مهما تنوعت تنساب عبر الكلم ضمن نظام محدد سلفاً لتراتبها. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى استقلالية الرمز. الإنسان إذا ما تكلم بالنظام الرمزي فليس إلا لأنه أساساً مأخوذ بوجوده. وما الوهم الذي يطال وعيه، إلا نتيجة هذه العلاقة الثنائية مع الآخر شبيهه التي انطلقت من فراغ لكي تؤدي عبر الانسياب الكلامي إلى ولادة الأنا في مكان الآخر الكبير(٨): من حيث إن المرسال الموجه إلى الآخر الكبير يعود من هذا الآخر بشكل مرتجع، يعترف به ويعرِّف عنه. (هذا ما سنعود إليه لاحقاً).

ونجد تسلسلاً منطقياً عند لاكان بالنسبة لما ورد في نظرته للأنا وتكوينها: يتباين تماماً مع المفاهيم السيكولوجية السائدة في ذلك الوقت.

لقد كان لخطوة لاكان أثرها العميق في تصحيح الانحراف الذي سار عليه التحليل النفسي، والذي كان قد بدأ يتحول إلى نظرية سيكولوجية مجردة من الديناميكية التي بدأها فرويد. فالمحللون اعتمدوا السلطات الثلاث : الأنا، والهو، والأنا الأعلى، كقاعدة ينطلقون منها، سواء في تنظيرهم، أو في عملهم العيادي. إلى أن أصبحت هذه كلمات تقنية يتعامل بها، فارغة ومجردة من أية صلة عيادية. فالمفاهيم أخذت الطابع النفسي، ككليشيهات تنتج وتستهلك حسب الحاجة. انطلق لاكان يدعو مستمعيه للعودة إلى فرويد، لإعادة قراءته، ومحاولة فهمه على ضوء معطيات جديدة هي: علم الألسنية، والفيزياء والرياضيات.

كل شيء: هو حصر الجهالة، لأنه لا يمكن تحديد معرفة إلا بحكم إدراك الجهل المتمثل بها.

فمعرفة الجهل تفتح الطريق أمام المعرفة. ولذا نراه يكثر من طرح الأسئلة على طلابه محاولاً إثارة حشريتهم حيث كان يكمن جهلهم. ولا يطلب استباق الأجوبة لأن الجواب الصحيح يتضمنه مسبقاً، السؤال الصحيح. ولذلك نرى أن الفكر اللاكاني اتسم بالموضوعية، وبالجدلية المنطقية، حذراً لا يتقدم خطوة إلا إذا تبين صحتها على الصعيد الفكري والعيادي.

فالعمل العيادي هو الوجه الآخر للتنظير الفكري، لا يمكن فصلهما عن بعض، وحقل الإنسان كموضوع للتحليل النفسي لا يقتصر على جانب واحد، بل يطال النشاط الفكري بأكمله؛ بإنتاجه في كل المجالات: فكرية كانت أو عملية.

وهنا يطرح لاكان السؤال: إذا كانت الأنا وموضوع الوعي، الشغل الشاغل لعلماء النفس وللفلاسفة، أما كان الأجدى أن نتساءل كيف أتت؟ ومن أين مصدرها؟ وكيف تكونت؟ قبل الإجابة عن وظيفتها ودورها النفسي في علاقة الإنسان بالإنسان. وإذا كان التحليل النفسي قد ساهم في فهم الإنسان؛ فالفضل يعود إلى العمل العيادي الذي مكن فرويد، والمحللين من بعده، من كشف النقاب عن العمليات النفسية التي تسيِّر الإنسان، وتحدد تصرفاته؛ فالاستنتاج الفكري هو عملية متاخمة للرؤيا العيادية.

لا يخرج الإنسان إلى عالم الرموز إلا ويكون قد سبقه تحديد دوره ومكانه الذي بدأ منه. فالرموز هي الوسيط بين الذات والشيء. وليس بإمكانه التعامل بها إلا بعد أن يكون قد حصل ترميز ذاته كوجود ناقص(1-)، الحلقة المفقودة في سلسلة الرموز، حيث يشير نقصانها إلى وجودها.

إذاً كيف تكوّنت الأنا؟

الإنسان قبل أن يدخل حقل الرموز ويسبح في فلكها ضمن النظام الذي يسيّرها، وهو نظام اللغة وقواعدها، لا بد من أن يمر بعلاقة ثنائية يصبح حبيسها، ومرهوناً بها. وهذه المرحلة من نموه سماها لاكان بمرحلة المرآة[1]، وهي مرحلة تصورية بحتة، أي يسيطر عليها الخيال والوهم، قبل أن تصبح نقطة انطلاق لتكوين برعم الأنا الذي يخاطب به الآخر.

فالطفل لا يرى في الآخر، أو في صورة المرآة، أو في أمه، إلا الشبيه الذي

(1) J. Lacan Séminaire I: Les écrits techniques de Freud, (éd. Seuil).

يميزه عن ذاته. وهذا لا يدعو إلى الغرابة لمن يراقب الأطفال ما بين الشهر السادس والشهر الثاني عشر، فإذا ما ضرب الطفل طفلاً آخر يبكي كما لو ضرب هو، وإذا ما اعتدى على أحدهم يبكي كما لو كان قد اعتدي عليه، فهذا يشير إلى أن الطفل لا يميز بين صورته وصورة الآخر التي التقطته وأصبح مرهوناً بها. ويتساءل لاكان : ماذا دهى بالطفل لكي يؤخذ بهذه الصورة التي يصادفها في المرآة والتي تلازمه مدى الحياة؟ يجيب، بأن الطفل عندما يلتقي بصورته في المرآة يشعر لأول مرة بالغرابة، محاولاً لمسها وتحديد معالمها كما لو كانت آخراً، وسريعاً ما يعمد إلى اللعب بهذه الصورة: يتحرك تتحرك أمامه، يخفيها كما يظهرها، يضحك لها، يداعبها، ثم يكيلها ضرباً، إلى أن يتمكن من السيطرة عليها، سيما بعد أن يأتيه اعتراف من آخر بجانبه (أمه أو قريب له) بأن هذا أنت.

تجاه هذا اللقاء، واكتشافه لصورته، تظهر عنده غبطة ونشوة كبيرتان. يهلل لصورته بمجرد أن تتراءى أمامه. فيصبح مأخوذاً بها، يشير إليها كطرف ثالث يعرف عنها باسمه. وتصبح هذه الصورة المثال المتكامل الذي يرنو إليه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الواقع الدراماتيكي الذي يتخبط به الطفل في مثل هذا السن نظراً لعدم اكتمال نموه: فهو يعيش في حالة تجزؤ جسدي: لا يقوى عصبياً على السيطرة على جسده وأطرافه، فكل جزء بجسده لا يدرك وحدته، سيما أنه لا يقوى على المشي والسيطرة على تحركاته. وتأتي هذه الصورة لكي تحقق بتكاملها ما كان ينقصه ويتخبط به في واقعه، فنضوج نظره يجعل لهذه الصورة سابقة لمثال متكامل يسبق وحدته الفعلية، ونضوجه الجسدي والعصبي، والفارق ما بين الشكل التصوري، وما بين واقع التجزؤ الجسدي، يبقى يرافقه طيلة حياته كمثال يرنو للوصول إليه، لتحقيقه، على اعتبار أنه النواة المكونة للأنا المثالي. وينتج من هذا الفرق (ما بين الصورة المتكاملة الموحدة في المرآة والموقع الجسدي المجزأ) عمليتان مهمتان: الأولى، يميز فيها الطفل في هذه الصورة وجوده ككائن يتحدد بالنسبة للآخر، ويصبح بحكم ذلك الممثل الأول للأنا التي يخاطب بها (الأنت) ـ من حيث إن اعترافه بالآخر، كشيء مختلف ومميز عنه،هو في نفس الوقت ارتداد للاعتراف به كونه وحدة مميزة عن الآخر شبيهه.

والعملية الثانية، تفتح أمامه باب التماهي: أي يتماهى بالآخرين انطلاقاً من هذه الخطوة الأولى، عندما تتكون الأنا في آخر المطاف من مجموعة هذه التماهيات المخيالية.

ومن هذا الباب يدخل الطفل عالم الرموز عبر التعبير اللغوي. وفي آن واحد

يصبح أسير هذه السلطة لأنها في الأساس وهم مرتبط بالآخر باستمرار. وانطلاقاً من هذه المعطيات يدحض لاكان بشدة الفكرة القائلة بأن للأنا استقلالية، وهي المعبرة عن الذات. فالأنا هي الوسيط لمخاطبة الآخر، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تقتصر الذات عليها. فهذا ما حدا بلاكان إلى حوار مع الكوجيتو الديكارتي حول الفكرة والوجود، كون الأنا الديكارتية ليست إلا الممهد لانقشاع (اللاوعي) اللاشعور(*).

وأهمية هذه المرحلة أنها تمكن الطفل من ترميز الجسد كنواة الأنا: تحدد معالمه، في المكان والزمان،كحجم فارغ، وتصبح هذه الصورة بمثابة التماهي الأول النرجسي الذي يعكس الذات في ازدواجية دراماتيكية من حيث تطابق الوعي على الصورة، والصورة على الوعي، في نشوة نرجسية، تحاول الإفلات من الزمان، ترنو إلى الاتحاد ولكن في وقت يكون الموت سابقها إذا ما أُخذ لها على غرار ما حصل لنارسيس.

فالرمز هو الذي يحول دون هذا اللقاء المميت. فهو الذي يمكن الطفل من تقبل الواقع ويتحمل حرمانه؛ فغياب الشيء مقترن بوجود رمزه الذي إن دخل في الحلقة الكلامية المعبرة، يخرج من حكم الصدف، لكي يتحول إلى ملكية يتحكم بها ويحسن استعمالها. ولكن قبل الدخول بهذه المرحلة حيث تتمكن الرغبة من تحقيق الاعتراف بها عبر الرمز، يتساءل لاكان: ماذا كانت هذه الرغبة؟ وعلى أي أساس تعتمد؟ السؤال، يقول لاكان: يطرح من زاوية الاستدلال المنطقي، وليس الزمني. فهذه الرغبة عمادها الآخر، لأنها في الأساس، قبل التداول اللغوي، لا توجد إلا في شكل العلاقة التصورية التي فرضتها مرحلة المرآة حيث يرى الطفل نفسه مرهوناً بالآخر، ومسقطاً عليه. ويرى لاكان أن هذه العلاقة الثنائية تخلف تأزماً دراماتيكياً دون مخرج، يشكل بحد ذاته مصدر العدوانية عند الإنسان في تعامله مع هذا الآخر، وإذا كان هناك مخرج فلا يمكن أن يكون إلا بتحطيم هذا الآخر، أي الدخول معه في منافسة مميتة للفوز بموضوع الرغبة. ولكن من حسن الحظ أن الإنسان يسبح في عالم الرموز حيث يتكلم هؤلاء الآخرون، ولذلك يصبح بإمكان رغبته أن تعتمد على وساطة الاعتراف، وإلا بقي حبيس هذه العلاقة الثنائية التصورية، ولاقتصرت أمنيته في الحياة على تحطيم الآخر لكي يتحرر منه. وتشكل هذه البنية نواة الذهان البارانويا.

(*) الأنا الديكارتية هي الأنا العقلانية انطلاقاً من الكوجيتو: أفكر إذا أنا موجود. أي هذه الأنا الوجودية هي نتيجة التفكير والعقلانية. فصل الأنا عن الوجود اللاهوتي وربطها فقط بالوجود العقلاني.

فالرغبة لا تدخل إطارها الإنساني إلا بعد أن تخلق من اللغة، أي تنتقل من حقل التصوير والخيال، إلى حقل الرمز، حيث تتجاوز العلاقة الثنائية إلى علاقة ثلاثية، وحتى رباعية. فالكلام، كما ذكرنا في مثال حفيد فرويد، ليس إلا محاولة للانطلاق عبر لفظتين مختلفتين، من واقع متخيل ملزم، إلى عالم رمزي يتحكم به. فالنطق بلفظ معين هو بمثابة غياب وقتل الشيء الذي يمثله، لأنه في الأساس لا بد أن يحل محله. وهكذا بالنسبة لـ FOR-DA هذا الزوج من اللفظ: الذي يعني في حد ذاته اختفاء البكرة ووجودها. يمثل انقلاباً في بداية الإنسانية، لأن إنسانية الإنسان، كما قال فرويد، لم تبدأ إلا عندما استبدل الإنسان الحربة للقضاء على أخيه الإنسان، بالسباب أي بالكلام. ومن هذا النطق اعتبر لاكان أنه لا يمكن احتواء الرغبة إلا بشكلها الكلامي: أي التسمية الرمزية؛ وهذا ما سماه فرويد «بالنواة الكلامية» للأنا. فالرغبة تتجدد باستمرار بواسطة طاحونة الكلام ما بين الأنا المستثمر وليد مرحلة المرآة ومثال الأنا حيث تسقط عليه لكي تتجدد باستمرار. والأنا بنظر لاكان ليست مستقلة، ولا هي آلية، والوعي لا يطابق مفهومه عليها، بل مجموعة لتماهيات متخيلة على غرار تركيبة البصلة (وهو تشبيه لفرويد) كلما نزعنا طبقة وقعنا على طبقة أخرى. فالطفل يتماهى بالمواضيع التي يحبها، وهكذا تنمو الأنا في خلال تطورها ونضوجها من مجموعة هذه التماهيات المخيالية. وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبار الأنا موضوع التحليل، فهذه الأنا مرتبطة بعلاقة مع الآخر الكبير الذي تخاطبه، وتستمد منه مرسالها بشكل مرتجع. الارتباط بهذا الآخر يمثل بحد ذاته موطن اللاوعي (اللاشعور) وموضوع التحليل.

الأنا، خلافاً لما يتوهم بعض علماء النفس، بأنها وحدة منسجمة، بل هي منشقة على نفسها، منذ أن بدأ الإنسان يتكلم، وهذا ما سماه فرويد بـ Ich - SPALTUNG لأنها منذ البداية موطن الرفض لكل ما هو مخالف لواقع معين، أو عرف معين، بل السجل التاريخي لكل أنواع الرفض والنفي، وبصورة خاصة، للنزوات العميقة الجذور. والخبرة التحليلية إن كشفت وظيفة للأنا فهي تكشف عن التجاهل كوظيفة أساسية لكل أنواع السراب حيث كانت الذات مأخوذة بها. من هذا الموضع انطلق فرويد في مفهومه اللاواعي (اللاشعوري) للأنا، قبل أن يحددها في عملية الإنكار: الصفة المميزة للأنا المتكلمة. لأنها في كل مرة تتكلم، يتبين لنا أنها منقسمة: في أنا البيان وأنا المبين.

يقول فرويد عن الإنكار: «بأن المحتوى المكبوت لتصور معين، أو لفكرة ما، لا

يمكن أن يدلج حقل الوعي إلا تحت شرط الإنكار. فالإنكار هو وسيلة يتمكن من خلالها الشعور أن يعي المكبوت، وأن يرفع الحجز عن الكبت، ولكن لا يعني بذلك أنه قبل بالمكبوت»[*].

فالذي يحصل ليس أكثر من تقبل فكري للكبت، مع الاحتفاظ بكبت ما هو أساسي عن طريق مقارنة التماهي بمحتواه.

يتبين لنا هنا، انفصال تام ما بين الفكر وعلاقته بالواقع العاطفي.

ويشير هيبوليت الذي تفحص مقالة فرويد حول الإنكار بإيعاز من لاكان: إلى مثلين يبينان عملية الإنكار:

الأول: ستعتقد بأنني آت لكي أعنفك، ولكن هذه ليست نيتي. تترجم: بأنني آت فعلاً لكي أعنفك.

ـ الثاني: رأيت شخصاً في حلمي، من الأكيد أنه ليس أمي، تترجم: بأنها حقاً أمي.

فالإنكار هو وسيلة لكي تظهر الأنا على«ما هي» تحت غطاء نفي أنها كذلك. ويبدو أن ظاهرة الإنكار هذه هي الوسيلة التي تمكن الأنا من الإمساك باللاوعي (باللاشعور) في الوقت الذي ترفضه. فهي تعريف عن الدال المكبوت بحكم ظهوره من جهة الإنكار.

فالذات، يقول لاكان، في خلال تكونها، مرتهنة أولاً بالدال. لأنه لا يمكن أن نتصور أن لها سبباً للظهور في الواقع، إلا في حال وجود مخلوقات متكلمة. لأن للدال أولوية على الذات، لأنه يتحكم بلعبته ويربح، قبل أن يتبين للذات شيئاً، على غرار ما يحصل في النكات، حيث تفاجأ الأنا بظهور دال لم يكن بالحسبان. وهذا ما يؤكد لنا أن الأنا منشطرة على نفسها.

الدال[<]، كما ذكرنا، هو الذي يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر. حقيقة تتأكد لنا في كل إنتاجات اللاوعي: لأن الدال يتكون في موضع الآخر الكبير[<]: وهو المكان الرمزي حيث يلتقي الكلام، وتفك رموزه، وتتوضح معانيه، ويعود إلى صاحبه بشكل مرتجع، وهذا المكان الرمزي هو الضمانة للحقيقة ولو أتى المرسال بشكل كاذب.

وفي هذا المجال تجد الذات سبباً لمعناها، دون أن تقتصر غايتها على المعاني،

(*) النفي يحمل الحقيقة بالمقلوب.

لأنها تصطدم برغبة هذا الآخر الكبير، قبل أن تتمكن من تسميتها، أو تتصور كيف سيكون موضوعها. ولكن ما يكوِّن الذات في هذا المكان ليس إلا نقصها الحقيقي، بشكل معكوس، أي إذا ما نقصت لهذا الآخر الكبير بحال زوالها(*).

ولكن يبقى السؤال: ماذا لو حدث أن فقدني الآخر. فمن هذا الفراغ، من هذا النقصان تبزغ الذات مرهونة برهانها الأول من حيث إنها دال يعبر عنها بالنسبة إلى دال آخر، وأن رغبتها هي رغبة الآخر.

وكما أن الكلمة تولد موت الشيء (أي غيابه)، بتعبير آخر يتوجب فقدان هذا الشيء لكي يصبح تمثيله أو ترميزه ممكناً، كذلك بالنسبة للذات لكي تتمكن من التعبير في خطابها وتجد تسميتها في الكلام، لا بد من تصور نقصان أشبه بالوعاء الذي كان يحتويها.

وهذا ما دعا لاكان إلى القول: «إن ما لا أفكر به، إذاً أنا موجود»: تقسم وتفصل ما بين«أنا الوجود» و«أنا المعنى».

فهذا الانقسام أو الانشطار يجب أن يفهم كأساس لأول دفعة للكبت الأولى. وهو كما نعرف مكون اللاشعور.

(*) لنأخذ مثلاً الطفل عندما يسأل أمه، إذا مت ماذا تفعلين؟
قبل أن تعطيه جواباً عن حزنها الشديد، يعرف الطفل أنه يتأسس كوجود انطلاقاً من هذا النقصان في حقل الآخر الكبير. وهذا ما يتكرر في التحليل عندما يتهيأ للمتحلل في التحويل بأن وجوده متمم للآخر الكبير (أي المحلل). العصابي يحاول كبت وجود هذا النقص، فتأتي كل عوارضه كمحاولة لتعبئة هذا الفراغ بموضوع هوامي يؤكد من معتقد نرجسي أنه لا يمكن للآخر أن يتحمل نقصانه.

بنيوية الذات في التحليل النفسي

معالجة الذات في تركيبتها اللاواعية (اللاشعورية)، لم يسبق طرحها في العصور التاريخية السابقة بالشكل الذي اكتشفه فرويد، فالتركيز الفلسفي والسيكولوجي كان منصباً على الأنا في تحولاتها المستمرة، وفي كيفية معالجة الإنسان لموقعها عبر العلوم السائدة، وطرق إدراكها لذاتها. فالأنا، سواء في الفهم الديكارتي، أو في المفهوم الهيغلي، هي كناية، بالنسبة للأول عن عملية وجود عبر التفكير، وبالنسبة للثاني، عبارة عن تطور تاريخي من حيث إنها تتوق للوصول إلى الحالة المثلى، أو المعرفة المطلقة. ولكن لا شيء يشير إلى كيفية هذا الإدراك، وإلى مصدر الفكر؛ أو هل أن الحالة المثلى للإدراك التاريخاني هي عملية يمكن تحقيقها(*)، أو مجرد هوام يخضع للطموحات المثالية. فالحقيقة ليست مطلقة بل هي نظرية مخالفة لطرح هيغل، ونسبتها تتقيد في الدرجة الأولى بإمكانية التعبير عنها عبر المعاني التي يفصح الإنسان عنها وتعطي من خلاله معنى لوجود عقله ويصبح مدركاً بالنسبة لتاريخه الخاص الذي ارتسمت عليه هذه المعاني، والتي أصبحت محركاً تحركه من الداخل على غير علم منه، كمعرفة ثانية تجهل نفسها.

فمن هذا المنطلق وضع فرويد، ومن بعده لاكان الأسس البنيوية التي يرتكز عليها مفهوم الذات وكون الإنسان منشطراً على نفسه في قسمين لاوعي (لاشعوري) وآخر واعي (شعوري). وهذا الانشطار ليس حداً فاصلاً يحول دون معرفة الأول للثاني، إنما هو ترابط ضمن سلسلة دوالي لها بنية ترتكز عليها، قاعدتها اللغة، تتكرر باستمرار سواء عن طريق المسلك، أو عن طريق العوارض النفسية المرضية.

(*) في الفكر الاسلامي : نجد الصوفيين والعرفانيين يحاولون عبر تجربة ذاتية الاتصال بالخالق أو بالمعرفة الالهية وبلوغ مقامات. حتى آخر مقام تصبح الذوات منصهرة بالذات الالهية او تتوضح الحقيقة المطلقة. وهي بدت قبل الفكرة الهيجلية (Savoir absolu) أو (Vérité absolue)، بعشرة قرون.

ومن المؤكد أن التحليل النفسي انفصل عن الآلة البيولوجية التي كانت تشكل قاعدة للمفهوم السيكولوجي للإنسان، لكي يدخل علم اللغة والسلسلة الدالة كوسيلة وحيدة لمعرفة بنيوية الذات، لأن لا شيء يمكن أن يعرَّف عليه، أو يوجد إذا لم يكن له تسمية لغوية. واللغة مهما كانت جنسيتها، تعتمد على قواعد تحدد المكان والزمان من خلال معرفة تصريف أفعالها، وتعطي المعاني المرتجاة للتعبير عن الذات، عبر المجاز (Métaphore) والكناية (Métonymie). وهذه التركيبة الفوقية التي شدد عليها لاكان في محاضراته تغطي لغة تحتية لا تختلف عنها إلا في الطرق البدائية المستعملة، والتي تعتمد على عامودين اكتشفهما فرويد من خلال تفسير الأحلام: وهما النقلة والتكثيف كما شرحنا سابقاً. وهذا ما حدا بلاكان إلى القول بأن اللاشعور مركب كاللغة، أي أنه لغة تختلف عن اللغة التي نتكلم بها، كونها بدائية التعبير، تشتق معناها من التصور النظري والسمعي، ضمن تركيبة ترضخ بصورة خاصة لعامل الرقابة. فهذا الارتباط ارتباط عملي مستمر سواء في حياة اليقظة عندما نقوم بأفعال مغلوطة، أو يخوننا لساننا بهفوة لم نكن ننتظرها، أو في أحلامنا حيث يقول فرويد في تفسير الأحلام: إن نومنا لا يكون كاملاً، فلا بد أن يبقى قسم يقظ، يشكل رقابة تحول دون الإفصاح عن نزواتنا المكبوتة دفعة واحدة. وإذا ما حصل ذلك لسبب من الأسباب فإنه ما من شك يقطع النائم عن نومه، لكي يعزز مقاومته رغم مشاعر القلق التي تنتابه والتي تؤكد على حصول تحقيق لرغبة مكبوتة.

فاكتشاف هذا اللاشعور من قبل فرويد، هو بحد ذاته ثورة فكرية، وانقلاب طغى على كل المفاهيم الفلسفية التي سبقته. فالتأمل في الوجود لم يعد محصوراً في التحولات البيولوجية، والطبيعة، وموقع الإنسان منها، أو بتطلعاته الماورائية طامحاً بذلك إلى اختراق جدار الطبيعة ليجد مكنوناً جديداً؛ إنما النظرة التأملية ترتد إلى الإنسان نفسه كونه منطلقاً لكل هذه التأملات، إنما ما يحركه في الداخل هو المجهول بحد ذاته(*)، وهو النقص للوجود الذي ما برح يفتش عنه.

ولكن مفاجأة التحليل النفسي كما أوردها لاكان هي أن المتحلل كلما اقترب من هذا النقصان لوجوده، كلما فقد البدائل التي كان يتماهى بها (هي في الاساس

(*) التأملات الفلسفية للكون، السماء والنجوم والشمس، الخ، وقوانين الطبيعة، كلها ترتد اليه لكي تكتشف الأنا الموجودة. فقبل هذا الارتداد كانت نقصاناً لهذا الوجود المكتشف. ولكن هذا الاكتشاف لا يتوقف لأنه يفتح أفقاً: ما معنى هذا الوجود.

نرجسية)، ويعتمدها في علاقته مع الآخر، ويكتشف أن التركيز على ذاته لم يكن إلا تماهياً نرجسياً يسقط كالأقنعة الواحد تلو الآخر، مما كان يضلله في نظرته لنفسه، وتغيب عنه حقيقة إدراك ذاته.

ويكتشف أن هذا الوجود هو نقصان في حد ذاته، منذ أن دخل في عقدة أوديب، وخرج منها بفعل عقدة الخصاء التي وضعت استحالة اللذة من دون حدود كشرط أساسي، كي يستطيع أن يتحول من أنانيته الحيوانية، إلى إنسانية يتعامل بها كعضو في مجتمع لا يجد سعادته واكتفاءه إلا من خلال عمل إنساني شرط أن تكون له مساهمة فعالة.

ومن هذا المنطلق حدد لاكان الدافع الأساسي لبناء الرغبة، هو موضوعها الذي لا يمكن تحديده لأنه كلما برز موضوع تلاشى، على اعتبار أن كل المواضيع ما هي إلا بدائل، لهذا الموضوع الأساسي، الضائع منذ فقد الانسان مكانه في الرحم، ثم الثدي ثم الأم، الخ. كلها مراحل تساهم في تحديد الموضوع الضائع.

ولكي نعالج كل هذه الأمور من زاوية منطقية، لا بد من الاستعانة بمقال مصطفى صفوان(*) الذي طرح البنيوية في التحليل كمشروع، أو محاولة، لوضع بعض النقاط على الحروف، نظراً للالتباس، واللغط، الذي يدور حوله، علماً أن التحليل النفسي ليس تركيبة بنيوية على غرار ما هو متعامل به في العلوم الفيزيائية والرياضيات. وإن استعان لاكان ببعض التشبيهات فليس إلا رغبة منه في التوضيح، وإعطاء منحى شبه علمي للاكتشافات النفسية، وليس المقصود، كما تهيأ للبعض، أن تعتمد هذه المعادلات والمشكلات (Matheme)، كنتيجة نهائية تصبح بمثابة هياكل خلت من الحركة، ومن كل حياة؛ يتداولها المختصون دون أن تعني شيئاً آخر. فالتحليل النفسي ليس شبيهاً بعلم الرياضيات، أو الفيزياء، وليس فلسفة، أو مفهوماً جديداً للحياة، إنما هو عملية فن يكشف في طياته حقيقة عن الذات، وارتباطها التاريخاني. وأما الاستعمال الذي أدخله لاكان في العلوم والفلسفة ليس إلا مجاز يسهِّل فهم واكتشاف ما توصل إليه في التحليل النفسي.

يبدأ صفوان طرحه للبنيوية من زاويتين: الأولى اللاوعي(اللاشعور)، والثانية الخصاء. والواقع أنه رغم الفصل اللاواعي (اللاشعوري) كما يبدو بينهما إلا أنه من غير الممكن عزل الخصاء عن المحتوى! لأنه في الأساس، سواء عقدة أوديب أو

(*) البنيوية في التحليل النفسي. M. Safwan, Le structuralisme en psychanalyse, Seuil, 1972.

الخصاء، فكلاهما يتم على غير علم من الأنا. وما اكتشافهما في التحليل إلا نتيجة معرفة الثانية التي تطال معرفة الأولى، بقيت في حكم اللاوعي (اللاشعور). وانطلاقاً من هذا المبدأ يطرح صفوان تساؤلاته عن طريق تكوين الرغبة في اللاوعي (اللاشعور)، وتتمحور هذه الدراسة على مقال فرويد الذي كان يشكل النقلة الأساسية من مشروعه العلمي الذي ربي عليه إلى المشروع النفسي الذي حاول أن يركز قواعده على الأسس العلمية المكتسبة. والمقال هو: «Esquisse d'une psychologie collective» مقاربة لعلم نفس جماعي».

السؤال الذي يطرحه صفوان: هو عن كيفية التجانس ما بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع.

فعالم اللاوعي (اللاشعور) يسوده مبدأ اللذة، إلا أنه، خلافاً لما يتصور البعض، فمبدأ الواقع ليس بالضرورة ضد مبدأ اللذة، إنما هو مكمل له، ويهيىء له إمكانية استمراره. غير أنه لا يمنع أن يكون المفهوم المعاكس هو الصحيح أيضاً. فمبدأ اللذة يعتمد على الإشباع، ولا يريد أن يكون هناك عائق بين الطلب وإشباع هذا الطلب، وأن مبدأ الواقع يحول دون الاستمرار في تحقيق جميع الطلبات انطلاقاً من الأم وما يخلفها فيما بعد. فتصبح هذه الأخيرة موضوع النقص المخالف للموضوع المهلوس الذي يؤمن جميع حاجاته ويخدم بالحال مبدأ اللذة. فدخول مبدأ الواقع هو شرط أساسي لإعادة تكرار هلوسة الطلب. أي كلما اصطدم برفض الواقع كلما أعاد تكرار الهلوسة الى أن يتبين عدم جدواها فيرضخ عندئذ لمبدأ الواقع.

ويثير صفوان (ص 245) نقطة في تكرار الموضوع المهلوس بأن اللاوعي (اللاشعور) ليس مكوناً من هذا الموضوع، فهو قد يكون وعياً، ولكن اللاوعي (اللاشعور) يكمن في الخيوط كما يقول فرويد في «تفسير الأحلام» (ص358) التي تتكون منها هذه الرغبة المهلوسة. فاستخراج اللاوعي لا يتضح في الحلم إلا من خلال خيوط عمل الحلم الذي سبق تكوينه في صيغته النهائية.

وهذه النقلة تعتمد أساساً على العملية الأولية (Processus primaire) التي ما فتىء فرويد يكررها باستمرار على أنها العامل الأساسي في تكوين الكبت، خاصة الكبت الأولي، وبالتحديد عندما يكون أمامنا العديد من التحولات لموضوع رغبة معينة. فنجد أن منها ما هو وعي (شعوري)، ولا يخلق مشكلة، ومنها ما هو لاوعي (لاشعوري)، وهو ما يمكن افتراضه بأنه يمثل العملية الأولية، أي بمثابة سلسلة حلقات وسيطة. وما يميز ذلك هو أن ليس التمثل الأكثر استثماراً على الصعيد الليبيدي الذي يلج الوعي

(الشعور)، بل هناك نقلة كمية تجرِّد التمثل الواعي من أهميته، لكي تستثمر في تمثل آخر يبقى بحكم اللاوعي(*).

فمن هذا المنطلق تأتي عملية استخراج المعنى عبر التداعي، حيث يفاجأ الشخص بما يكتشفه. والمحور الأساسي يكمن في «العملية الأولية»(٥) التي تتجسد في شبكة ارتباط المعاني فيما بينها. وكما يقول صفوان (ص252 La significance استخراج المعنى لا يحدث في مكان «الحس المتخفي» ولكن في المكان حيث لم يكن عارفاً. فالعملية الأولية تمكّن من تحكّم اللاوعي (اللاشعور) بالوعي(بالشعور)،اللامعروف بالمعروف، من حيث إن الكلام لا يمكن مطابقته على المعرفة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار النظرية الألسنية الحديثة، فكل كلام لا بد أن يخضع لانقسام داخلي ما بين نطق ومنطوق. حيث إن التفاوت بينهما يولد معنى جديداً يمكن أن يدخل في تركيبة لغوية جديدة، وهكذا. . . إلخ؛ وقد أكد لاكان عندما تحدث عن حقل الكلام بأن هناك ذات النطق وذات المنطوق .Sujet de l'énoncé et sujet de l'énonciation

واكتشاف اللاشعور مرتبط بالسؤال التالي: «هل تعرف الذات ماذا تفعل عندما تتكلم؟» فرويد يجيب كلا، ويزيد لاكان توضيحاً، في محاضرته الطب والتحليل النفسي «Lettres de L'école... n°3» «ليس هنالك من لاوعي(لاشعور) بمجرد احتمال وجود رغبة لاواعية (لاشعورية)، قد تكون مغلقة ثقيلة لا ترتفع إلى مستوى الوعي (الشعور). بل على العكس، فإذا كان هناك من رغبة فلأن هنالك لاوعياً (لاشعوراً)، أي أنه من الصعب على الذات أحياناً التحكم ببنية اللغة وبتأثيراتها، حيث لا بد أن يفلت منها شيء ما، وهو إذا ما قسمناه على مستوى اللغة، يبدو أن شيئاً ما يتعدى الوعي (الشعور)، وفي هذا الحقل الإضافي تكمن وظيفة الرغبة». باختصار إذا ما تكلم شخص نراه يقول اكثر مما كان يعرف قوله. هذه الزيادة تأتي من اللاوعي (اللاشعور).

فمسألة الرغبة هي المحور الأساسي الذي يقوم عليه التحليل النفسي على أساس أن الإنسان لا يعرف ماذا يرغب، أو أنه مختلط عليه الأمر بالنسبة لموضوع رغبته. فالتماهيات المخيالية التي يعتمد عليها في أناه تغيِّب عنه الرؤيا، أو تخدعه بالنسبة لرغبته، على اعتبار أن هذه الرغبة لاواعية (لاشعورية) في الاصل؛ وموضوعها يدخل في تركيبات هوامية متعددة لا يمكن فكها إلا عبر التحليل النفسي.

(*) مثال على ذلك في لعبة الاوراق الثلاثة: يضلل اللاعب المراهن بعد تبديل الاوراق لكي يوهمه بأن الورقة الرابحة هي ما حازت على اهتمامه. ويتبين ان الرابحة هي التي لم تحظ باهتمامه.

وفصل الوعي (الشعور) عن اللاوعي (اللاشعور) لا يمكن أن يتم إلا بعد أن يدخل الطفل عالم اللغة. فاللغة هي التي تؤسس وتكون اللاوعي (اللاشعور) وليس العكس كما يدعي البعض(*). فانطلاقاً من ذلك، وقبل أن يصل الطفل إلى تحديد موضوع الرغبة. يجب التمييز ما بين هذا وما بين الطلب والحاجة التي تؤمن له الإشباعات اللازمة.

وصفوان (ص253) يطرح الموضوع انطلاقاً من كتاب فرويد حول نظريته النفسية (Esquisse) حيث يحاول فرويد أن يصور جهازاً نفسياً ينطلق منه الطفل في علاقته مع الآخرين؛ وهذا الجهاز كناية عن ردة فعل (Réflexe) (ارتكاس) يهدف إلى التفريغ بعد تجمع الطاقة بشكل لا يحتمل. ويقول فرويد لكي يحصل على هذا الإشباع، ويتم التفريغ لا بد من إجراء عمل مناسب، يؤمن بالفعل ما هو مطلوب، ولكن نظراً إلى أن الطفل موجود في حالة عجز وجهل، لا تمكّنه من إشباع حاجته بنفسه، فلا بد له من الالتجاء الى طرف ثالث يقوم عنه بهذه المهمة (الأم).

وهنا، كما يقول فرويد، ينتج عن هذه التلبية المناسبة لحاجة الطفل ثلاثة أشياء:

أولاً: تفريغ مستمر، مما يشعره بالاكتفاء، ويرفع عنه حالة الحصر المولدة للضيق.

ثانياً: يوظف الموضوع الذي كان مصدر الاكتفاء بإدراك خاص.

ثالثاً: تتسجل هذه الحالة من التفريغ التي رفعت عنه الشعور بالألم، والناتجة عن العمل المناسب أي الارتكاس (Arc réflexe).

والحاصل من هذه العملية أنه بمجرد ما يعود الضغط الداخلي، والمسبب للضيق، تتجه الطاقة المتجمعة، إلى الإدراك الحاصل من الإشباع الأول، متطلبةً التفريغ وإعادة الإشباع السابق.

يستنتج صفوان (ص254) «أنه من المحتمل جداً أن الصورة الذكروية للموضوع، هي أول ما يطاله التحريك». وفرويد يقول بأنه في المرحلة الأولى يستحضر الطفل الموضوع عن طريق الهلوسة.

ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن هو أنه كيف يتحول الطفل من هذه العملية الأولية (Processus primaire) التي تؤمن له الاكتفاء عن طريق المخيال إلى المرحلة

(*) جدل حصل بين لاكان ولابلانش، هذا الأخير ادعى أن اللاوعي هو شرط لبزوغ اللغة وهذا مغاير للنظرية الفرويدية التي اعتبرت المكبوت الأولي مؤسس اللاوعي. كيف يمكن أن يتصدر المكبوت دون تسميته اللغوية؟ لا يوجد لاوعي سابقاً للغة.

الثانية التي تؤمن له الإشباع الفعلي. فهنا لا بد من تدخل داخلي يخفف من حدة العملية الأولية نتيجة الحرمان الحاصل، واستمرار الشعور بالضغط، رغم استحضار الموضوع عن طريق الهلوسة.

ولكن الشيء الذي يتكون نتيجة هذه العملية الأولى هو أن التخيل يأخذ حيزاً مهماً في الحياة النفسية، وبصورة خاصة، على حساب العالم الواقعي. ويستمد قوة كبيرة في محاولة السيطرة على العالم الخارجي، تتدعم فيما بعد بقوة نرجسية تستثمر من قبل الأنا. (بعد مرحلة المرآة).

مما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الوهم في العملية الأولية يتكامل انطلاقاً من شعور الطفل بعجزه، وأن الصرخة الأولى تأتي لكي تحقق له «العمل المناسب» الذي يؤمن الإشباع. ولكن هذا الإنجاز الأولي يتطلب حضور شخص آخر تربطه علاقة مودة وعطف مع الطفل. ونستطيع أن نعتبر أنه انطلاقاً من هذا الموقع في هذه العلاقة، تأخذ صرخة الطفل أهميتها وقدرتها الخارقة على التنفيذ. فالعجز الأساسي نراه يتكامل مع دعوة وتلبية هذا الآخر لطلباته.

ودخول هذا الآخر هو من صلب تكوين العملية الثانوية، التي تغير العالم الخارجي، لكي يتناسب مع تلبية حاجاته. وهي مبنية على الاستنتاج الثانوي المعتمد على الإدراك للآثار الذكروية التي تركها إكفاء حاجاته الأولية.

ويستنتج من هذه التجربة البدائية شيئان:

الأول: ما يختص العلاقة بالآخر، من حيث إن له حدوداً (صفوان ص 251) فهذا الشخص المنقذ ينقسم فعلاً إلى حالتين: الأولى متفهمة لحاجات الطفل، والثانية تبقى عنده غامضة.

الثاني: هو أن حضور الإشباع والإكفاء الحاصل يدخل الطفل في استنتاج ثانوي هو غياب الموضوع، ولا يعني ذلك العدم؛ إنما هو إمكانية استحضاره في حال غيابه، وتغييبه في حال عدم حاجته له. ولكن لكي يتوصل إلى هذا التحكم بهذه العملية، لا بد من الاعتراف من الآخر على صعيدين: اعترافه به (أي بالطلب) واستنجاد الطفل، واعترافه بالموضوع المناسب الذي يلبي حاجته. فدخول هذا الاعتراف يمكّن الطفل من تحمل غياب الموضوع، وانتزاعه من فكرة العدم التي تجعله في حالة قلق قصوى. يشير صفوان (ص 260) إلى خطر كامن من استحضار الموضوع عن طريق الهلوسة على حساب الواقع. لأن الإشباع الحاصل يفرض قانونه، القانون الأول، على النفس. «هذا القانون لا يوجد إلّا اذا تواجدت معه اللغة. وهذه

اللغة قبل أن تكون موضوعية جسدية، هي دعوة إلى عودة وجود، أي أمنية في العودة بعد ان يكون قد أصبح هذا الوجود نقصاناً. لأنه لكي تبدي تأثيراتها على الجسم، فالموضوع الواقعي، ليس بحاجة بعد هذا كله إلى الترميز، ولا حاجة للذات إلى معرفة أي شيء منه، بمعنى آخر، كونه واقعياً، لا يكفي أن يكفي الواقع حاله بحاله: فهو يسبق المعرفة. ولكن اللغة لها تأثير بأن معرفة الوجود بهذا الشكل، ليس فقط إثباتاً ولكنها تسبق كل معرفة: الموضوع موجود قبل أية معرفة عن واقعه. وكما أن كل وجود، يأتي مكان وجود آخر منتظر، حيث يتمثل بهذا أو ذاك وبازدواجية غير مجدية (حضور ـ غياب) ولكنها ضرورية، هذا أو ذلك نفسه. وما هو موجود هو صحيح بالضرورة، ويعادل الحقيقة. الغرابة أن هذا الوجود يدخل في المرحلة الأولى عن طريق الاحتمال المخيالي» (ص260).

ومن هذا المنطلق يصبح الإكفاء أي بأمنية لقاء الموضوع على إكفاء الحاجة الوجودية، مصدر تأزم ذاتي. لأنه كما ذكرنا، لا يقتصر لقاء الموضوع على إكفاء الحاجة الوجودية ولكنه يظهر لنا في آن واحد فقدان هذا الموضوع أي الثدي، الذي كان يندمج به. فغيابه أو حضوره يتداخلان إلى أن يحصل الفصل بينهما ويصبح وجوداً مفقوداً، أو ضائعاً لا يمكن استعادته، مهما تعددت المواضيع البديلة التي يحاول استحضارها. فرغبته تتعدى هذا الحضور أو أي موضوع بديل عنه. «لأن الرغبة تبدأ من حيث تجد الحاجة إكفاءها، فيستسلم الطفل مسترخياً وحالماً. . . لأنه ليس في النهاية من موضوع للرغبة، إلا ما يرشح من هذا الحقل، ألا وهو الدال على الاعتراف به، ولا من إكفاء غير هذا الاعتراف نفسه». أي رغبة بالاعتراف واعتراف بالرغبة.

والطفل عندما تنفرج أساريره بعد إكفاء حاجته، يسقط الثدي من فمه، ولكن في الوقت نفسه، يوجه نظراته إلى وجه أمه، متوخياً منها، ما وراء الإكفاء، أي الاعتراف بوجوده وبوجودها، انطلاقاً من هذا التلاشي للموضوع يعرف عن الواقع وحكمه.

رغبته إذن تنطلق من النقصان، يحاول عبثاً تحديد موضوع الوجود الذي فقده، ولكن كل المحاولات لإيجاد الموضوع البديل عنه تؤدي إلى عدم إكفاء الرغبة بشكل نهائي، لأن الموضوع المستهدف هو موضوع أولي، يمثل وجوداً فقده ويستحيل عليه إعادته، مما يعطي الرغبة صفة الاستمرار لا تكتفي بأي موضوع تلتقي به في الواقع الخارجي، لأن موضوعها، كما ذكرنا توهمي أي هوامي يعبر عنه نقصان أساسي يستحيل إتمامه.

انطلاقاً من هذه الحقيقة، ركز لاكان دراسته حول تفسير هذه البنية التي هي بمثابة البديهيات في التحليل النفسي. وحاول أن يبرهن عن أهمية موضوع الرغبة على اعتبار أنه نقصان لموضوع في الأساس، ولا يمكن لأي موضوع حقيقي أن يستعيده. فولادة الإنسان، بمفهومه الإنساني تبدأ انطلاقاً من ظهور هذه الرغبة إلى حيز الوجود والتعبير عنها. ولكي يتوضح لنا ذلك يجب أن نبدد الالتباس الحاصل في علم النفس حول الرغبة والطلب والحاجة حسب التعريف اللاكاني.

الحاجة، هي أصلاً بيولوجية: حاجته إلى الغذاء، والماء، وتفريغ جسمه من النفايات، البراز، والبول، وغيرها، كلها تدخل في الحالة البيولوجية التي تجمع بينه وبين الحيوان، لكي يتمكن من الاستمرار في الحياة؛ وهذه الحاجات تتحكم بها الغرائز الحيوانية الموروثة قبل أي معرفة لها. والغريزة كناية عن معرفة ذكية تمكّن الإنسان أو الحيوان من استمرارية الحياة، تتوارثها الأجيال عبر التركيبة البيولوجية. إنما الوضع عند الإنسان يختلف، كون طلبه لإكفاء حاجته يتعدى عملية الإشباع الحاصلة. وهذا ما سنتناوله في العلاقة البدائية التي تربط الطفل بالأم، وتصبح، في المناسبة، الموضوع المحوري الذي تتوجه إليه كل الطلبات لإكفاء حاجاته؛ فمن خلال هذه العلاقة يبدأ بزوغ الرغبة على غير علم منه، لأنها في الأساس لاشعورية، ولأنها تدخل في نطاق رغبة الآخر، وهو يتوخى ضمانة هذا الوجود كي تكون رغبته رغبة الآخر. ومن هذا المنطلق شدد لاكان على القول بأن اللاوعي (اللاشعور) هو مقولة الآخر (الكبير)[٧]. علماً أن اللاوعي (اللاشعور) في تركيبته وبنيته، كما أوردنا سابقاً، هو كاللغة. فمن خلال الحوار الحاصل بين الطفل وأمه في المرحلة الأولى، تظهر الفجوات[*] التي يدركها الطفل ويحاول أن يتماهى بها لكي يعوض النقصان الأساسي الحاصل. والبنية النفسية الحاصلة تتمحور حول رؤية نظرية مرتكزة: على الرغبة واللغة واللاوعي (اللاشعور).

ولكي نتناول موضوع الرغبة وكيفية بزوغها، لا بد لنا من العودة إلى التجربة الأولى الفموية بين الطفل وأمه، والتي بينها فرويد في مقالات عديدة[1].

(*) نقصد بالفجوات اعتباراً أن أي خطاب لا يقول كل شيء، يبقى دائماً ثغرات توضع في خانة الكبت المتوارث أي (اللايقال). والفجوة في الخطاب يسمعها الطفل ويسجلها في لاوعيه وقد تكون سراً عائلياً يطال نسبه، تفضي حقيقة لا تقال.

(1) استعان الكاتب بهذه المراجع الثلاثة لفرويد:

S. Freud:- Esquisse d'une psychologie scientifique.

- Interprétation des rêves.

- Pulsions et destin des pulsions.

وتسهيلاً منا للتوضيح نبدأ بتفحص عملية الإشباع الغذائي. فعندما يشعر الطفل بالجوع لأول مرة، لا يكون عنده أية فكرة مسبقة عن ماهية هذا الشعور، لأنه لم يسبق له أن تعرض لتجربة إشباع فموي، فوجوده في الرحم كان يؤمن له كل شيء من الدفء والغذاء، والاطمئنان. لذلك، ونتيجة لعوامل بيولوجية (نقص السكر وفقدان ما كان يتمتع به في الرحم من الإكفاء الذاتي)، يحصل عنده ضيق وقلق يؤديان إلى صراخه الذي يصبح بحد ذاته مرسالاً تتلقاه الأم، وتفهم معناه في الحال. فتأخذ الطفل في حضنها، وتعطيه الثدي . بعد الإشباع يحصل عنده استرخاء واطمئنان نتيجة استعادة جزء من الموضوع الذي كان قد فقده (أي الرحم)؛ ولكن كما بينا سابقاً فإن ذكرى هذا الإشباع تسجل في الخلايا الدماغية، وتصبح مرجعاً في كل مرة يتعرض لها الطفل لمثل هذه الحالة من الضيق الناجم عن حاجته إلى الغذاء. وأي طلب للإشباع يتوجه بالضرورة إلى هذه الصورة الذكروية التي تكونت من الإشباع الأول، والتي تؤسس الآثار الذكروية التي يبدأ الجهاز العصبي في اكتنازها. في كل مرة تعاوده الحاجة إلى بلوغ هدفها (أي الإشباع) يعاد تحريك هذه الصورة الذكروية التي كانت مصدراً لهذا الإشباع. وهكذا يتمكن الطفل مستقبلاً من إدراك هذه الصورة التي كانت مصدراً لإكفاء حاجته، لكن يحصل ما لا غنى عنه، بأن يخلط الطفل ما بين الصورة الذكروية السابقة وما بين حضور الواقع. فلذلك عندما ينتابه الجوع أي الحاجة إلى الغذاء، تنطلق نزوته باتجاه الصورة الذكروية التي تكونت من أثر الإشباع الأول. وهكذا نراه في هذه المرحلة يصبو إلى الإشباع عن طريق التصور الهلوسي، ولا يستطيع أن يميز ما بين الواقع المخيالي، والواقع الخارجي، إلا بعد تكرار المحاولة عدة مرات التي تؤدي حتماً إلى الإحباط، و يتكون عنده، بالإضافة إلى ذلك، هذا التمثل الأول للإشباع كمثال يرتجى . تتجه نحوه النزوة كلما شعرت بحاجة إلى الإشباع. نموذج آخر يمر عبر الطلب وهذا ما يحاول التفتيش عنه في الواقع الخارجي كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

أي أنه يدرك للمرة الأولى مبدأ الواقع الذي يفرض نفسه ولا يستطيع أن يتعامل معه إلا عبر اللغة. وهكذا يندفع الرضيع إلى الطلب. فبكاؤه يصبح بمثابة نداء ـ أي الكلمة الأولى ـ يفهمه الآخر أي الأم التي تلجأ، لتهدئة الإثارة الداخلية الحاصلة في ذاته، إلى اعتماد تغيرات في الواقع الخارجي تؤدي إلى إشباع حاجته وإسكاتها. فالطلب هنا أصبح أيضاً مرتبطاً بالإثارة الذكروية لتمثل الإشباع الأول؛ فهو يعمل على

استعادته. يقول فرويد في تفسير الأحلام (ص 481): عندما يجوع الطفل يتعرض لإثارة داخلية تتطلب الإسكات (الهيجان الحركي والبكاء اليائس) وتستمر حتى يحصل على ذلك: أي هناك تغيرات داخلية تتطلب معالجة بتغيرات خارجية. وهذا ما يلبيه الآخر الذي يعيد إليه الهدوء والسكينة عن طريق إشباع حاجته. الشيء المستخلص من هذه التجربة الأولى أن الإشباع الحاصل (أي الحليب) يرسخ في ذهنه كإدراك يربطه بالإثارة الذكروية الناجمة عن الإثارة الداخلية (الحاجة). بمجرد ما تعود الحاجة إلى الإلحاح، يعيد الطفل في ذاكرته التجربة الأولى، ويتخيل الإشباع نتيجة إحضاره ذهنياً للموضوع الذي أكفى حاجته سابقاً. هكذا يوظف الآثار الذكروية الأولى في القدرة على إشباع حاجته. أي يعيد إلى مخيلته ذكرى الإشباع الأول.

«هذه المحاولة يقول فرويد: هي ما نسميها الرغبة، وإعادة إظهار الادراك هي تحقيق رغبة، والتوظيف الشامل لها بالمخيال منذ الإثارة الناجمة عن الحاجة هي الطريق الأقصر نحو تحقيق الرغبة».

أمام هذا الطرح نجد احتمالين:

الاحتمال الأول: يستمر هذا الجهاز الأولي بعمله، فيستحضر موضوع إكفاء الحاجة ذهنياً كلما دعت الضرورة الى ذلك، ويسكت عن أي طلب من الخارج . أي يتبع اتجاهاً نكوصياً ينفصل به الطفل عن العالم الخارجي، ولا يدرك في المناسبة الموضوع الواقعي الذي يكفي حاجته فعلياً؛ وهذا ما يؤدي إلى الهلوسة الذهنية. وهنا يطرح السؤال الآتي : ما الذي يدعو الطفل إلى الخروج من هذه الحالة الهلوسية، لكي ينصرف إلى إدراك الموضوع الخارجي، ويعمل على الحصول عليه؟ أي الالتزام بمبدأ الواقع؟

إجمالاً، يزيد فرويد: بأن هذا هو الطريق الأقصر والبدائي الذي يعمل على أساسه الحلم: أي يتبع الاتجاه النكوصي لكي يحقق لنا رغباتنا. ولكن يتبين لنا في الواقع عند اليقظة أنها ليست إلا تحقيقاً وهمياً لرغبة حقيقية. فالرغبة تكمن إذن في الفكرة وما بعد، وليس في إكفاء الحاجة، وهذه الرغبة هي التي تدفعنا جاهدين إلى العمل لتغيير الواقع الخارجي كي نؤمن حاجاتنا و لكن في نفس الوقت يتخطى موضوعها موضوع الحاجة(*).

(*) في الحياة العملية عندما يشتغل العامل لكسب العيش، رغم تأمين ذلك فانه قد يضاعف جهده لكي يحقق الثروة حيث يعشش موضوع الرغبة.

الاحتمال الثاني: هو الدخول على الخط لجهاز ثان، يحول دون استمرار الجهاز الأول في استحصال الموضوع عن طريق النكوص. وهذا الجهاز يستمد فعاليته من القدرة على إيجاد وحدة التعريف ما بين الموضوع الداخلي الذكروي المهلوس، وما بين الموضوع الخارجي الذي يؤدي فعلياً إلى تغيير في الداخل.

والتقاء الموضوعين حول نقطة واحدة يطرح مسألة بديهية، كيف يمكن للطفل الخروج من هذا العالم الهلوسي، ويميز بالمناسبة ما بين موضوع واقعي، وما بين موضوع مهلوس؟ أي كيف يكون بإمكانه إدراك الواقع الخارجي، وتمييزه عن واقعه التخيلي الداخلي؟ من هذا المنطلق يتكون الموضوع، وتتحدد العلاقة معه.

ڤينيكوت[1] يوضح هذا التناقض: «ان محك إثبات الواقع يكمن في الإحباط: أي إذا كانت الهلوسة، والرغبة الملبية، غير مميزتين منذ البداية، فإن ذلك يعني أنه كلما كان الواقع ملحاً على الإشباع كلما كان محك واقعيته أقل إثباتاً».

انطلاقاً من ذلك يتساءل لاكان[2]: هل بإمكاننا اعتبار ما يحصل في الهلوسة إشباعاً؟

فأحلام الأطفال تكشف عن هذا التناقض: حلم الطفل لا يعني الإشباع. فموضوعه (حلم آنا ابنة فرويد) ليس المآكل الشهية غير المتوافرة، إنما الموضوع المحرم منها. كذلك هو الحال بالنسبة للهذيان، فهو لا يعني تحقيق عظمة ما، أو إشباع حاجات عن طريق أحلام اليقظة، إنما هو إسقاط لعلاقة ما بين الذات والدال.

من هذا المنطلق لا يمكن حصر إخراج الطفل من عالم الهلوسة إلى إدراك الواقع في عملية الإحباط فقط. مبدأ الواقع لا يبزغ بالنسبة للطفل إلا عندما يبدأ الدال بفعل تأثيره. الترميز الحاصل بينه وبين الأم، هو الذي يمهد له اكتشاف الواقع. أي صورة بمثابة إشارة، توجهه إلى ما هو موضوع حاجته. وهي تنطلق من علاقته مع الأم على أساس تناقض رئيسي، وجود وغياب، لذاته، بالنسبة لها، وهي بالنسبة له. مما يمكنه من ترميز ذلك ببعض الألفاظ البدائية، ممهداً بذلك لبزوغ بعض الدوالي التي تشير إلى موضوع رغبته وعلاقته بها.

تبقى الذكرى الأولى للإشباع الأول في شكل متصور لوجود اشباع نموذجي،

---

(1) D. Winnicott: transitionnel objet et transitionnel phénomène (International Journal of Psychanalyse 1953).

(2) Séminaire de Jacques Lacan: Formation de l'inconscient, inédit.

بالنسبة للطفل، يشير الى التكامل فيما بينه وبين موضوعه؛ وما ينتج عن ذلك هو أن هذا الاستثمار الذكروي للنزوة، يجعلها في اندفاع دائم لتحقيق هدفها. لكن الحال أن هذا التحقق يبقى دون التصور للإشباع الأول النموذجي. فالفارق بينهما يصبح فيما بعد النقصان الذي لا يمكن إتمامه بأي موضوع واقعي. فمن هذا المنطلق تبزغ الرغبة من حيث أن موضوعها دائماً مخيالي لوجود مثالي سابق لا يمكن بلوغه في الواقع. فهي لا يمكن أن تصل إلى موضوعها مهما تحقق لها في الواقع الخارجي. ويتبين لنا من خلال هذا البحث أنه وإن ارتسمت خطوط اندفاع النزوة على نفس خطوط الرغبة، إلا أنها تنفصم عنها عندما يبدو أن موضوع الرغبة ليس إكفاء الحاجة، إنما بعد الحاجة وما قبلها. وهذا ما تناوله لاكان بإسهاب عندما حدد أن الرغبة مرتبطة أساساً في تكونها بالنقصان الحاصل لوجود، والذي لا يمكن أن يحل محله أي موضوع واقعي(*).

حاول لاكان إدخال حقل الآخر الكبير، واعتبر هذا المجال انقلاباً نوعياً في مفهوم علم النفس للذات، فبدل أن تنحصر الاكتشافات النفسية حول الأنا، وخصائصها، وسلوكها، اتجهت بفضل لاكان نحو العلاقة التي تربط هذه الذات بالآخر الكبير. فحقل التحليل النفسي هو حقل علائقي، يدخل به أكثر من طرف، وهذا ما ينعكس على العمل العيادي، حيث كانت تعتبر هذه العلاقة ثنائية، وإذ بها ثلاثية، وحتى رباعية إذا ما أدخلنا عامل الموت في ديناميكية العلاج. فما وراء المحلل يتوجه الكلام إلى الآخر الكبير، ومن صمت المحلل يبرز الموت كوجود لا يمكن تجاهله، يعمل في الخفاء.

انطلق لاكان في دراسته للنزوة، من اكتشافات فرويد حول الموضوع. تفهم النزوة من أربع زوايا[1]: المصدر ـ الدفع ـ الهدف ـ والموضوع. وفي محاضرتين، حاول لاكان إلقاء الضوء على العلاقة المتشابكة ما بين الرغبة وموضوعها من جهة، وما بين عملية النزوة من جهة ثانية.

تحديد فرويد للنزوة لا يقتصر فقط على كونه مبدأ أساسياً (Concept Fondamental) إنما يذهب بتحديده إلى كونه عرفاً (Convention) يتوسط ما بين الجسد

---

(1) Séminaire XI, Les 4 concepts fondamentaux de la psychanalyse, Seuil.

(*) يجب أن لا يغيب عن الذهن أن مبدأ اللذة الذي يطال الحرمان بالنقوص إلى عالم الهلوسة يصطدم بالإحباط الذي يولّد الألم ويحول الطفل إلى مبدأ الواقع فيتحقق إشباعه، عندئذ يدخل هذا الواقع كامتداد لمبدأ اللذة.

في حاجته، وما بين النفس (Psyché) في فكرها. فمن هذا المنطلق اعتمد لاكان[1] على تمييز النزوة عن الحاجة، كون هذه الأخيرة ناجمة عن وظيفة بيولوجية متكررة (Rythmée)، أما الأولى (النزوة) حسب تعريف فرويد فإنها تخضع لدفع مستمر وثابت.

فالنزوة لا تتوصل إلى هدفها، ومع هذا قد تحصل على شيء من الإكفاء، عبر عملية التسامي[<]؛ ويزيد فرويد بأن خروج النزوة عن هدفها، وإمكانية الاستعاضة عنها بأهداف أخرى أكثر تسامياً، يحقق لها عاملين[2]:

الأول : امكانية الاشباع ولو جزئياً.

الثاني: إفلاتها من الرقابة، أي من الرضوخ لعامل الكبت.

والتباين الظاهر ما بين الإشباع الحاصل للنزوة، وعدم تمكنها من بلوغ هدفها، يخلق تناقضاً عند فرويد. يجيب عنه لاكان: بأنه ليس هناك من حاجة لأن تجد النزوة إشباعها ببلوغ موضوعها.

«من الواضح أن هؤلاء المرضى الذين نتعامل معهم، لا يكتفون كما يقال، بما هم عليه، ومع هذا، فنحن نعرف أن كل ما هم عليه، وكل ما يعيشون، وحتى أعراضهم المرضية، تشير إلى الإكفاء. فهم يكتفون بشيء مغاير لما يمكن أن يكفيهم، ويمكنهم أكثر من ذلك، أن يجدوا الإكفاء بشيء ما. هم لا يرضون بحالتهم الحاضرة، ولكن رغم ذلك كونهم في هذه الحالة عاجزين، نراهم يكتفون بها. كل السؤال يتجه إلى معرفة الشيء الذاتي الذي يجعلهم يكتفون من خلاله».

فإذا انطلقنا من موضوع الحاجة، وموضوع النزوة، نجد حسب لاكان بأنه لا يوجد أي موضوع لأية حاجة، يمكن أن يشبع هذه النزوة. والدليل على ذلك أن أي موضوع حاجة غذائية يمكن أن يشبع الحاجة البيولوجية عن طريق المصل، أو الأنبوب؛ أما النزوة فإشباعها يتمحور حول لذة الفم. ولذا يؤكد : «بما يختص موضوع النزوة، فلنعرف جيداً أن ليس له أهمية، فهو موضوع هامشي كلياً»[3][*].

وقد يكون لاكان قد أراد بهذا التباين، أن يفصل بشكل جذري ما بين موضوع الحاجة وموضوع النزوة. فهما لا يلتقيان، وحتى لو اجتمعا على نفس الموضوع. لأنه إذا كانت الأولى قد بلغت هدفها، إلا أن الثانية (النزوة) لم تبلغ هدفها لأن موضوعها

---

(1) J. Lacan, Séminaire XI, p. 147-157.

(2) S. Freud: Pulsions et destin des pulsions p. 25.

(3) J. Lacan, Séminaire XI, p. 153.

(*) موضوع النزوة يمكن أن يتبدل و يتغير حسب الطلب . المال مثلاً قد يصبح موضوعا بديلا للغائط. والثدي قد يتحول الى موضوع شبقي يطال الشهوة الفموية، و هكذا..

هو موضوع ضائع يلتقي بشكل أساسي مع موضوع الرغبة، والذي يسميه لاكان موضوع ألف (objet a).

وهو في آن واحد موضوع لهذه الرغبة، ومسبب لها، لكي تتكرر وتستمر. فإذاً لا بد أن يكون هذا الموضوع، موضوعاً ضائعاً يفقده في كل مرة يتهيأ له أنه حصل عليه، مهما تعددت المواضيع الواقعية التي تحاول أن تحل محله، فهي لا يمكن أن تعادله، بل تؤكد ضياعه ونقصانه الأساسي لوجود لا يمكن أن يتوجد بالكامل.

فالنزوة تحاول الوصول إلى هذا الموضوع، ولكنها في الواقع لا تتمكن من الالتفاف حول موضوعها دون أن تبلغ هدفها. فهي تنطلق من مصدرها لكي تعود مشيرة في خط سيرها إلى الموضوع الذي تلتف حوله، والذي يشكل فراغاً ونقصاناً، لأنه مفقود إلى الأبد.

ومن هنا يؤكد لاكان على الفصل والتمايز ما بين الحاجة الجسدية، وما بين النزوة، فهي لا تهمد بمجرد حصول إكفائها لأنها ليست بمثابة طاقة تتجمع ثم تفرغ، بل هي طاقة ثابتة تؤمن استمراريتها دون أن ينخفض مستواها:

«فدوام الاندفاع يحول دون كل اختلاط ما بين النزوة وأية وظيفة بيولوجية تتميز بنظام دائم: وأول شيء يؤكده فرويد، هو أنه ليس للنزوة ليل أو نهار، ربيع أو خريف، ولا صعود أو هبوط . هي قوة دائمة»[1].

فالنزوة في اندفاعها وإن كانت تطلب الإكفاء، إلا أنها لا تحصل عليه، لأنها تصطدم بالمستحيلات. فلا يمكن للطفل أن يحصل على كل ما يشتهيه، أو يجد شبيهاً لأي حاجة جسدية يطلبها، فهو يصطدم بعالم يجهله حتى الآن، وهو الواقعي[٧] (réel) الذي كما يحدده لاكان بالمستحيل، فهذا الاصطدام يقف حجر عثرة أمام مبدأ اللذة الذي يحرك النزوة في اندفاعها. والمستحيل موجود في الحقل الآخر، يحدد مبدأ اللذة، ويضع حداً لها وإن لم يعترف به في الوهلة الأولى. فالهلوسة التي تعتمد على الانطباع الأول للإكفاء، تجد طريقها لكي تخدم مبدأ اللذة، وتتعدى مبدأ الواقع أي المستحيل. ولكن هذا الواقع لا يؤمن لها بلوغ هدفها، والإشباع المطلوب، لأن أي غرض يأتي لكي يحقق ذلك، يبدو وكأنه دون هذا المطلوب. فالإكفاء لا يمكن، ولا يحصل إلا جزئياً. ومن هذا المنطلق طرح فرويد مسألة التسامي، أي أن النزوة لا تحقق الإكفاء إلا بالكف عن بلوغ موضوعها. فهي تدور حول موضوعها دون أن تبلغه.

---

(1) J. Lacan, Séminaire XI, P. 150.

أما فيما يختص بمصدر النزوة، فإنها تأتي تلبية لإثارة داخلية من الجسد تتميز بمواقع مخصصة لها. وهذه المواقع تتحدد في الفتحات المتواجدة على خريطة الجسد . ولو أخذنا الفم وباب البدن على سبيل المثال. فالنزوة الغذائية منطلقها ومصدرها الفم وليس الحلق أو المعدة أو الشرايين. بل كل ما يكوِّن هذا الفم، من شفاه، إلى أسنان، إلى جوف الفم. فهي تبدأ من هذا الطرف لكي تعود إليه مهما كان موضوع الغذاء الذي يصل إلى جوف المعدة. وكذلك بالنسبة للنزوة الشرجية. فهي في هذه الفتحة، دونها من باقي الجهاز الإمعائي.

فالنزوة هي، كما يسميها لاكان، تركيبة (Montage) نفسية ما بين البدنية والجهاز النفسي. وهذه التركيبة في بنيتها الأساسية تخضع لمبدأ اللذة الذي يحركها لبلوغ هدفها، إلا أنها عندما تصطدم بمبدأ الواقع يستحيل عليها ذلك، مما يدفعها إلى التصورات الهلوسية، أي يدخلها في حقل آخر، كتمثل أولي لما يحقق هدفها؛ وهذا الآخر الكبير هو موضوع طلبها، لأنها منه وإليه كانت تستجدي الإكفاء. وهذا التصور المخيالي هو بمثابة العملية الفكرية الأولية التي تحدد الآخر بمكانه كمصدر للاشباع وإليه ترسل الطلبات. يتطابق ظهور الآخر الكبير مع أول دال يشير الى الحصول على اللذة عن طريق الاشباع.

ولكي نحدد مكانة هذا الآخر، لا بد من العودة إلى الخبرة الأولية التي تربط الطفل بالأم أو ببديلها.

فالطفل يبدأ من منطلق العجز الذي لا يستطيع إكفاء حاجته بنفسه. وبحكم الضرورة الجسدية، يجد نفسه ملتزماً ومرتهناً لإرادة الآخر الكبير الذي يتلقى مرساله ويؤوله نتيجة الألم الحاصل من فقدان حاجته. فعندما ينتابه الجوع، يترجم ذلك بحركات جسدية وبصراخ، سريعاً ما يفهمه الآخر، ويلبي طلبه في الحال. وهذا المرسال بمثابة إشارة يفهمها الآخر بحكم أنها تعني له حاجة الطفل؛ بمعنى أن الطفل لا يعني في الوهلة الأولى بأن تململه وصراخه سيؤديان إلى إكفاء حاجته بقدر ما يعبر عن فوضى داخلية نتيجة ضغط وألم. فهذا المرسال لا يأخذ مفهوم إشارة لها مغزاها ومعناها، إلا بمقدار أن هذا الآخر الموجود أمامه، قد فهمها، وأعطاها معنى يشير إلى ذلك. فمن هذا المنطلق يجد الطفل نفسه غائصاً في حقل علائقي له مفاهيمه ولغته، مرتهن به بكل حاجاته وطلباته. فهو يدخل إذن عالم التعبير اللغوي على غير علم منه. فتلبية النداء غير المعنى تمنحه مفهوم المعنى، وتفصله عن المنطلق

البيولوجي، لكي يصبح طلباً «موجهاً» إلى الآخر لأنه أدرك معناه، وأعطاه التسمية الملائمة حسب قوانين اللغة. فبهذه العملية يكون الآخر الكبير قد أدخل الطفل في عالم العلاقات الرمزية، التي عن طريقها يمكن أن يطلق النداءات لكي تلبي حاجاته، وبنفس الوقت يصبح الآخر الموقع الأساسي لتلقي هذه الإشارات وفهمها على حقيقتها. فالطفل أصبح مرتهناً لهذه اللغة التي تحدد العلاقة، والآخر يصبح الآخر الكبير المؤتمن على فهمه وتلبية طلباته، عبر الدلالات التي اكتسبها.

ولكن هذه التجربة لا تتوقف عند إكفاء الحاجة البدنية، بل تتعداها إلى ما هو أهم وأساسي في علاقة الطفل بالأم. فبعد الارتخاء الحاصل من جراء الإشباع يتطلع الطفل إلى الأم تطلعات تعني الامتنان نتيجة الاعتراف بفهم متطلباته. وبالمقابل فإن الأم تحيط طفلها بالمداعبة الكلامية، وبتعابير العطف، الشيء الذي يضيف إلى موضوع الإكفاء، عامل الحب، أي الشيء الذي يمدد في استرخائه، ويزيد من متعته. والأم بفهمها وإجابتها لطلبه تدخل بشكل نهائي عالم اللغة المكون من الدوالي الخاصة حيث إن الحب يصبح المطلب الأساسي بعد إكفاء الحاجة البدنية. وهذا الموقف يعتمد بالدرجة الأولى على رغبتها منه. وبالمقابل يصبح الطفل مرتهناً بهذه الرغبة. أي أن رغبته تصبح، بشكل نهائي، هي رغبة الآخر الكبير، ويصبح بالإضافة إلى الطلب هو الوسيط والممهد لتحقيق هذه الرغبة.

وعندما تتكرر الحاجة البدنية، لا يجد الطفل أمامه سوى نفس التعابير التي حققت له الإكفاء الأول، والموجهة إلى الشخص نفسه، الذي يضفي بالتعرف إلى ملامحه عامل الاستمرارية والارتياح. وهذا ما يعلق عليه فرويد في تفسير حالة الخوف والاستنفار التي تحصل للطفل عند رؤية أشخاص غرباء. فوجودهم يعني له غياب الوجه الأولي والضروري لتأمين ما يحتاج له.

الآثار الذكروية للانطباع الأول الناجم عن إكفاء الحاجة، تتحرك في كل مرة يشعر فيها الطفل بالحرمان، فتدخل الرغبة في طيات هذه الإشارة لكي تدفعه إلى الطلب عبر الدوالي المكونة لديه والموجهة إلى الآخر الكبير.

فديناميكية الرغبة تتحكم إذاً بالآثار النابعة من البدن لكي تحولها إلى إشارات مرسلة إلى الآخر الكبير في انتظار أن يؤمن له في المقابل الإشباع المطلوب. ولكن ما بين الآثار وتلبية حاجته الفعلية، تدخل الهلوسة كبديل يمكن اعتماده لإكفاء حاجته إلى

أن يصطدم (في الواقع المستحيل) بمبدأ الواقع المحتم لمبدأ اللذة الذي كان موظفاً في الهلوسة؛ وهكذا تتوحد هذه الإثارات في شكل طلب يوجه إلى الآخر، على اعتبار أنه بالمقابل يفهم معناه، ويعترف بوجود هذه الرغبة في آن واحد.

من هذا المنطلق، تتجمع كل التغيرات الحاصلة في البدن والناجمة عن حالة الحرمان، في شكل طلب موجه إلى الآخر بانتظار أن يجيبه بما هو مناسب لإكفاء حاجته، وابتداءً من هذا الطلب تبدأ عملية التعامل عن طريق ترميز الموضوع الأمومي لكي يؤدي في النهاية إلى المجاز المحوري لاسم الأب . وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

ومن آثار هذه العملية،أن بروز الرغبة عبر عملية الترميز، تضع الحد الفاصل بينها وبين الطلب والحاجة البدنية، فالطلب، كما ألمحنا سابقاً، يتعدى مفهوم تلبية الحاجة، إلى متعة إضافية تؤمن الراحة والطمأنينة، فهو طلب حب واعتراف لوجود(*). كونه الموضوع الوحيد لرغبة الآخر الكبير الذي يلبي حاجته. فهو طلب من دون منازع ولا يقبل المشاركة. طلب يتجلى في رغبة من رغبة الآخر، انطلاقاً من التجربة الأولى التي حققت إكفاءه دون أن يطلب أو أن ينتظر شيئاً. والشيء المميز لهذه المتعة الأولية والتي كانت مباشرة، قبل أن يسبقها أي طلب، أنها تصبح بمثابة الحالة المثالية للإكفاء الذاتي. إلا أن الطفل يصطدم في الخبرة التالية وبعد أن يفشل مبدأ اللذة عبر الهلوسة في تأمين استمرارية هذه الحالة المتكاملة، فيضطر إلى إطلاق ندائه الأول الذي هو بمثابة اعتراف تأسيسي بفقدان لوجود مثالي كان يحلم في استمراريته. ويصبح الطلب الوسيط بين ما يريد استعادته وما فقده بشكل نهائي. ويتبين له أن شيئاً ما قد سقط، وفقد، ما بين المتعة الأولى، والمتعة الثانية. فهذا الفرق هو بمثابة الموضوع الضائع، أو النقصان لوجود، ولا بد من تكرار هذه المحاولة لاستعادته. فبزوغ الرغبة ينطلق من هذا الفارق الذي سقط وأصبح بحكم المفقود حسب تعريف لاكان واستنباطه لموضوع ألف. الموضوع الذي يعود دائماً بمزيد من المتعة.

وتنتقل العملية من حاجة جسدية إلى حقل فكري حيث يحاول الطفل استعادة ما فقده عبر الدوالي التي يمكن أن يستحصل عليها تفكيره.

ولكن ما يحصل أن هذا الطلب وإن تكرر مستعيناً بكل التعابير التي تتيحها له اللغة، لا يستطيع أن يلبي موضوع الرغبة. فهي وإن كانت محركة للطلب فإنها لا تفي

(*) هذا الوجود يصبح الهم الأساسي لبناء الشخصية. والاعتراف بالوجود قد يتصدر الأفضلية في بعض الأحيان عن كل الحاجات البدنية.

بغرضها بعد تلبية هذا الطلب، لأن الرغبة تنطلق من نقصان لوجود مرتهن برغبة الآخر الكبير، وهو ما كان يسمّيه لاكان «الشيء (La chose)» ولا يمكن تحقيقه، ولا يمكن تسميته، لأن أي موضوع يحل محله لا يفي بغرضه. والملاحظ أنه كلما ألح بالطلب للحصول على هذا «الشيء» كلما اتسعت الفجوة بين ما يحققه وما أصبح بحكم المفقود. فمن طلب إلى طلب، تتكون الرغبة حول موضوع ناقص. ولا تفي الحاجة باستعادته، فهو ما بعد إكفاء الحاجة، وما قبل الطلب. فالرغبة دائمة ومستمرة، تنطلق من نقصان لهذا «الشيء» الذي هو بمثابة فراغ مسبب لها في انطلاقها، وهدف لها في آن واحد. ومن هذا المنطلق يستنتج لاكان بأن أي محاولة لاستبدال الموضوع المفقود بمواضيع أخرى لا يمكن أن تفي بالحاجة، لأن كل المواضيع ليست إلا بدائل لا توازي ما قد فقد. فمن هذا المعنى يصبح موضوع الرغبة، موضوعاً مفقوداً إلى الأبد، مسبباً لوجود وهدفاً في آن واحد. وهذا ما عناه لاكان بترميزه «موضوع أ» («Objet a») أي مسبب الرغبة وموضوعها في نفس الوقت.

والسؤال هنا، كيف ارتبطت هذه الرغبة برغبة الآخر الكبير انطلاقاً من هذا النقصان الأساسي لوجود؟ إنه بحكم الضرورة والتجربة تنفصل الرغبة عن الحاجة وكيفية إكفائها. فالرغبة تبزغ ما بعد الحاجة كما ذكرنا، لأن أي موضوع قد يكفيها، ليس إلا بديلاً لنقصان لوجود لا يمكن أن يملأه. فتوجه الانسان إلى الآخر الكبير، ليس إلا محاولة عبر الطلب لتحقيق ذلك. ولكنه يدرك بالبديهة، أن هذا الآخر يعاني أيضاً من نقصان في حقله، وأن رغبته نابعة من هذا المنطلق(*). يتجه بالضرورة إلى هذا التماهي بهذا الموضوع متوخياً أن يملأ فراغه ويصبح بالنتيجة موضوع رغبته. وهكذا تصبح رغبته، كما يقول لاكان، هي رغبة الآخر الكبير. ويحاول قدر الإمكان التماهي بموضوع الآخر، لكي يصبح الموضوع الوحيد بالنسبة له. وهذا ما سنأتي على توضيحه في المرحلة الأوديبية التي يتمكن الطفل من خلالها الاعتراف بنقص الآخر، وأن أي موضوع يتماهى به لا يمكن أن يعوض نقصانه. وبالمقابل يعترف الآخر برغبة الطفل كنقصان لوجود كونه غير قادر على أن يملأ فراغه. فهذه العملية لا تتم إلا بتدخل الأب عبر المجاز المشار إليه اسم الأب، وما يترتب عليه في البنية الأساسية.

(*) هذا النقصان في حقل الآخر يشير إلى موضوع الرغبة. ولولا ذلك لما توجه الشخص إليه بالطلب. ويرتسم عندئذ في حقل الآخر موضوع ألف الذي يشير الى نقصانه وقد يتماهى به لكي يتممه في حالة العصاب أو التحويل. أي المحلل يملك موضوع رغبته ألف (Object a) لذلك يصبح محرِّك التحويل، ولا ينتهي التحليل إلا بسقوط موضوع ألف ليترك مكانه نقصان، يعرف أنه توهم بملأه.

مسألة الطلب والرغبة في نظرية لاكان

بعد أن بيّنا أن الرغبة هي غير الحاجة البدنية، وأن الطلب هو الممهد للحصول على الحاجة عبر سلسلة الدوالي الموجهة إلى الآخر الكبير، يتضح لنا أن الطلب لا يكتفي بإكفاء الحاجة حقها من الإشباع، بل يتعداها إلى أبعد من ذلك، كونه طلباً فكرياً لوجود معين، أي طلب حب كما ظهر عند الأم. فهو ما قبل الحاجة انطلاقاً من فقدان موضوع ما، ويستمر ما بعد إكفاء الحاجة. والرغبة كذلك تمر عبر الطلب، إلا أننا نستطيع أن نخلط ما بين الاثنين. وكما تبين لنا الخبرة التحليلية فإن مشكلة العصابي الأساسية، أنه يخلط ما بين طلبه ورغبته، ويتهيأ له أن إكفاء طلبه حقه من الإجابة، يضمن له تحقيق رغبته. إلا أن العمل التحليلي يقتضي اعتماد أسلوب مغاير فبقدر الإحجام عن تلبية الطلبات المرسلة إلى المحلل عبر الصمت المتعارف عليه، بقدر ما يمكن هذه الرغبة المتاخمة له بأن تنفصل، وتبزغ لكي تأخذ حيز الوجود المعترف به. فهو يخشى، بالدرجة الأولى، مواجهة رغبته، وتحديدها، رغم أن مطلبه اللاواعي (اللاشعوري) يصر على إيلاجها في اطار اعتراف الآخر. وما الخوف الذي ينتاب المتحلل في كل مرة يقترب فيها من رغبة من رغباته إلا مؤشر على وجودها، ودلالة صادقة على أن وراء هذا الخوف يكمن تعبير عن هذه الرغبة لا بد للمحلل أن يتهيأ لولادتها والاعتراف بها. وكما يقول لاكان، يأتي تأويل المحلل بمثابة إخراج لهذه الرغبة. فالتأويل هو الرغبة بحد ذاتها.

وقبل أن نعالج موضوع الرغبة في دلالتها الجنسية انطلاقاً من العقدة الأوديبية، لا بد من توضيح الطلب في تحولاته عبر المراحل التي يمر بها. وهذا ما يساعدنا على فهم الرغبة، عندما تتلبس موضوع الطلب، وتنزلق معه في اتجاه نكوصي، يعود بها إلى المراحل الأولية، فموية كانت أم شرجية. وهذا لا يعني أن المريض خلال التحليل قد أصابه النكوص إلى تلك المرحلة، أو لا بد من أن يمر به في الترتيب من مرحلة إلى أخرى. بل يعني ذلك أن رغبته قد تلبست طلبه في منحاها النكوصي لاستخراجها بصيغة قديمة كان يختلط عليه الأمر(*). فلا بد هنا من التأويل لفصل الرغبة عن الطلب، حتى تتمكن من التحرر، أو الارتهان له.

(*) عندما يواجه المتحلل مشكلة الخصاء نراه يأخذ منحى النكوص الفموي أو الشرجي، ليعطي تصوراً قديماً لانفصال الموضوع عنه. الثدي أو الغائط لدفع البلاء عنه أي توقي الخصاء.

فالتجاذب بين الطلب والرغبة يبدأ منذ المرحلة الأولى التي يطلب فيها الطفل الرضاعة. وقد أشار لاكان في محاضراته عن التحويل (1960)، إلى التأزم الحاصل من طلب الطفل الغذاء. وطلب الأم بالمقابل أن يستسلم لإرادتها في تلقي هذا الغذاء. فهذا بمثابة أول تأزم يخلق في مرحلة الرضاعة من جراء الطلب؛ فهو يرفض أن تحصل المعادلة ما بين الطلب والرغبة. ولذلك نراه يرفض طلب التغذية من الأم كي لا تنطفىء رغبته مع إكفاء الطلب(*). ونلاحظ أن أكثر الأطفال المعرضين لمرض فقدان الشهية، هم الأطفال الذين لا ترى الأم فيهم سوى أفواه تتلقى الطعام ويجب إسكاتها. أي فم يبتلع كل شيء. ويجب إشباعه. فالطفل يرفض خضوعه للتغذية مفضلاً إحياء رغبته. لأنها بالنسبة له أهم من الغذاء، ولو كان على حساب حياته.

فعلاقة الطفل بالثدي هي علاقة طفيلية، يقتات منه ويولد لديه شعوراً بالاستمرارية والاندماج. وذلك قبل أن يدرك الأم بكليتها. ولكن سقوط الثدي عند الإشباع يصبح بمثابة الموضوع الجزئي الذي يفقده ويشعره بوهمية حالة الادماج. فالنقصان الناجم عن سقوط الثدي، يحدث حالة سببية تدعوه إلى استعادته كلما دعت الحاجة انطلاقاً من الانطباعات الأولى التي تركها الإشباع.

إلا أن هذه العلاقة بالثدي كموضوع، تدخل في طلب التركيبة الهوامية التي تربط الطفل بالأم. ويقول لاكان بأن كل طلب يتميز بالتناقضات، كونه يطلب الإكفاء واللاإكفاء في الوقت نفسه، ويهدف إلى رغبة لم تسمَّ حتى الآن.

وكون الطلب الفموي يعني شيئاً آخر غير الطعام، فهو طلب جنسي في خلفيته، أي إلتهامي (Canibalique) فالإنسان لا يكتفي بالغذاء الذي يعطيه له الآخر، إنّما مطلبه أن يتغذى من الآخر من جسده(**). فالعلاقة الأولية تظهر لنا بوضوح ـ كيف أن الطفل يتوحد مع الثدي وهو جزء لا يريد أن يسقطه. وفي نفس الوقت تبزغ رغبة سادية في التهام الثدي وإدماجه عن طريق الفم. فهو لا يكتفي بامتصاصه وبالحالة الطفيلية التي يعيشها على حسابه، إنما يريد أن يقتني هذا الثدي كموضوع يدمجه في نفسه . وهوام مصاصي الدماء، كما ورد في الأساطير والروايات، ليس أبعد من تجسيد الهوام الفموي في مرحلته الأولى. سيما حين نعرف أن نظرية فرويد في التماهي تعتمد في

(*) هذا إذا كان تركيز الام على إكفاء الحاجة الجسدية أتى على حساب وجودها.

(**) أسطورة دراكولا مصاص الدماء، قائمة على هذا الهوام البدائي للطفل الذي يريد أن يمتص الام لكي يدمجها كلياً في جسده.

المرحلة الأولى على التماهي الفموي. فالطفل عندما يقع في حب والده ووالدته، يتماهى بهما عن طريق إدماجهما عبر الاستهلاك الفموي[1]. «فالتماهي متناقض منذ البداية، يتوجه نحو الآخر بدافع الحصول على الحب والحنان، في نفس الوقت الذي تظهر فيه رغبته بإلغاء هذا الآخر. فهذا التماهي هو من نتاج المرحلة الأولى، أي المرحلة الفموية لتكوين الليبيدو، حيث يدمج موضوع رغبته ويستمتع به عن طريق أكله، أي بمعنى آخر إزالته. ونعرف أن آكل لحوم البشر هو الذي توقف عنده هذا الهوام ولم يتطور، يأكل من دون تردد أخصامه ولا يأكل إلا من هو أحبهم إليه». وهذا القول يلخص لنا معنى العلاقة الجنسية من حيث أن الإتحاد الجسدي هو هدفها الأساسي، كما هو الحال في العلاقة الفموية حيث تصبو إلى الإتحاد بالآخر عن طريق ابتلاعه واندماجه به. وإذا كان هذا هو منطلق العلاقة الجنسية، إلا أنها لا تقتصر على هذا الحد. فالليبيدو، كما يقول لاكان، هي إضافة، ولكن ترفض أن يقتصر إكفاؤها على إشباع الحاجة البدنية فقط، وذلك أملاً منها بأن تحفظ الرغبة من الإكفاء.

فالحاجة البدنية قد تكتفي إذا كان الجوع موضوعها، وقد ترفض أن تشبع عن طريق نوع من أنواع الطعام. إلا أن اختيار هذا النوع، ورفض الآخر، إذا كنا في مطعم، يدخل في عملية الرغبة، من حيث إن الخيار هو من خصائصها وقد يضطر الطفل إلى رفض الطعام رغم جوعه إذا لم يكن يتلائم مع اختياره، فالرغبة المحركة لهذا الخيار تصبح بالضرورة أهم شأناً من الحاجة الملحة المتمثلة في الجوع. يشير لاكان بأن تأمل لائحة أنواع الطعام يدخل في إطار قبل البدء بالأكل.

المرحلة الشرجية: هذه المرحلة تتميز حسب تعبير لاكان بنقلة نوعية بعلاقة الطفل مع الآخر الكبير. فإذا كانت المرحلة الفموية تتميز بأن الطفل يتوجه إلى الآخر بطلب لكي يلبي حاجته، إلا أنه في هذه المرحلة تنقلب المعادلة: الآخر هو الذي يتقدم بالطلب الى الطفل، بأن يحصر برازه ولا يعطيه إلا عندما يطلب منه. وهذا يعتبر بمثابة المؤسس لما سيصبح فيما بعد رغبة الانتفاء (Désir d'expulser) أي استخراج ما يريد التخلص منه. ولكن المهم في الموضوع أن الطفل يدخل في عالم «طلب الآخر منه». وبالمقابل يظهر عامل جديد، هو العطاء، إعطاء شيء ما من جسده لكي يرضى الآخر، أي البراز، أو الاحتفاظ به وضبطه.

---

(1) Essais de Psychanalyse. Identification, p.127.

فتتولد من جراء ذلك علاقة موضوعية تتركز على الرفض والعطاء(*)، يكون محورها في حكم طلب البراز الآخر له. فهذا العطاء هو حسب التعريف التحليلي بمثابة الهدية التي يمنحها له. هذه الهدية تستمد أهميتها من التركيز والاهتمام الذي يصحب طلبه منه. فإكفاء حاجته في البراز يصبح مرتبطاً بشكل نهائي بطلب الآخر وحاجته إلى الحصول عليه؛ والطفل لا يدرك أهمية هذه النفايات إلا من خلال السعادة والارتياح الذي ينتاب الآخر عندما يحصل البراز، فيشعر عندئذ بأن سعادة الآخر أصبحت مرهونة بموضوع يملكه ويتحكم به ساعة يشاء.

ومن هذا المنطلق ركز المحللون على المرحلة الشرجية، كونها مرحلة سادية، أي تتعدى بمفهومها عملية إكفاء حاجة بدنية؛ فهي تتعداها إلى مفاهيم جنسية مرتبطة بهوامات تشكل الارتباط الأساسي بالآخر، يترتب عليها الكثير في سبل تكون الطباع التي تكلم عليها فرويد في مقاله «الطباع والغلمية الشرجية» ـ 1908 .

في هذا المقال يؤكد فرويد على أهمية المرحلة الشرجية، وكيف أنها تلعب دوراً أساسياً في تكون الطباع: ويستفرد منها ثلاثة: النظام، الاقتصاد، والعناد. فكيف يمكن لهذه الصفات في الطبع أن تكون تحولاً لما يمكن أن يحدث في المرحلة الأولى من الطفولة لهذا الطلب من الطفل في حصر برازه وضبطه حسب المنهج التربوي؟

فالبراز الذي كان يخرج بحكم عملية ميكانيكية من الإمعاء دون انضباط، كان يلبي حاجة بدنية عند الطفل. إلا أن تدخل الآخر بطلب منه لضبطه، وإعطائه في توقيت زمني معين، يخرج البراز من كونه نفاية، إلى موضوع ذي أهمية في نظر الآخر، ويصبح بالمقابل حصر البراز وإعطاؤه بالنسبة إلى الطفل عملية تتعدى الحاجة البدنية. فهو ذو مدلول يستمد معناه وأهميته من انتظار الآخر له. وعندما يعطي برازه في الوقت الذي يطلب منه، يدخل الطفل لأول مرة في موضوع العطاء: كون هذه النفايات أصبحت عزيزة ومهمة لمن كان بانتظارها. ويقول فرويد[1]: «يبدو أن الرضع الذين يرفضون تفريغ إمعائهم عندما يوضعون على «الأرضية» إنما يتوخون الحصول على لذة إضافية من الخروج. وهذا ما يشير بالفعل إلى أنهم يجدون لذة في حصر برازهم حتى في سن متأخرة، يتذكرون العديد من الأفعال المشينة بما يختص ببرازهم إلا أنهم يلقون التهمة على إخوتهم أو أخواتهم بدلاً من أنفسهم».

(*) هذه المقايضة ما بين العرض والطلب تشكل اول عملية تجارية تدخل الطفل في حقل التبادل الاجتماعي.

(1) ثلاث نظريات في الجنس، ترجمة سامي علي.

من هذا المنطلق يصبح باب البدن مركز لاستثمار شبقي يطالهم فيما بعد في تركيبة جهازهم النفسي. وهذا ما يسميه فرويد بالنزوة الجزئية، من حيث إن الاختلاجات التي تتحرك في المناطق الشبقية في البدن هي نتيجة نزوات جزئية تطال كل مركز منها، ويصبح موضوعها موضوعاً جزئياً له حساباته ووظيفته في البنية النفسية. وهذا التحول الذي يحصل فيما بعد بالنسبة للعملية الشرجية (أي النظام، والاقتصاد، والعناد) ليس إلا نتيجة لعملية التسامي الناجمة عن تحول النزوة عن هدفها. ويستعرض فرويد كل صفة من صفات في الطباع على أنها لا ترسو عند هذه المحطات إلا عبر سلسلة الدوالي المميزة لكل منها، وهي عبارة عن معان كلامية مستقاة من الآخر الكبير، على اعتبار أنه كنز الدوالي ومصدرها. ويدخل في الاعتبار كل المعتقدات، والأساطير والمفاهيم المرتبطة بالموضوع، كون أي دال يحل محل دال آخر لا يمكن أن يفي المدلول الأساسي حقه في التعبير. فالفارق مستمر عبر الدلائل المتتالية في السلسلة.

فالبراز يصبح بالنسبة له دالاً، يستلهم معناه وأهميته من طلب الآخر له. فيدخل عندئذ في عالم العرض والطلب. ومن خلال برازه يتماهى به لكي يصبح جزءاً من بنيته النفسية يتوقف عليه العديد من التطورات النفسية عندما يبلغ المرحلة القضيبية، لأن البراز يتعدى مفهوم النفاية لكي يصبح موضوعاً قائماً بحد ذاته، يلبي طلب الآخر إنطلاقاً من أن طلبه ناتج عن نقصان ما لا يعرف تحديده بعد(11)(*).

وهذا التماهي يترتب عليه العديد من الاضطرابات النفسية التي تتكون نتيجة المعادلة الرمزية: القضيبية بالنسبة للبراز، أو المولود وطريقة الولادة عبر الشرج بالنسبة للفتاة. والهوامان يتكونان في المرحلة القضيبية انطلاقاً من مبدأ العرض والطلب الذي تتركز عليه المرحلة الشرجية.

ورغم أن المرحلة الفموية تتميز، في فترة لاحقة، بنزوة سادية (أي ابتلاع

---

(1) ولا غرابة بأن يتوصل فرويد إلى اعتبار ارتباط الذات بالمال أهمية ناجمة عن تشعب ليبيدي في القلمية الشرجية، يوظفها فيما بعد بموضوع بعيد كل البعد عن الأول. وكذلك البخل بالنسبة لحصر البراز أو التبذير بالنسبة لافراغه.

(*) إذا طلب شخص موضوعاً، معنى ذلك أن هذا الموضوع ينقصه وإلا فلا جدوى من الطلب. الطفل يجهل في المرحلة الشرجية نقصان الأم.

الموضوع وإدماجه)، إلا أن فرويد خصص السادية كميزة خاصة تتسم بها المرحلة الشرجية[1]. فهذه السادية حول طلب الآخر من حيث إن الرضيع، كما يشير فرويد، يجد مزيداً في المتعة في حصر البراز في حين أن الآخر ينتظر هذا العرض بكثير من القلق والألم. فالمتعة الإضافية الناجمة من انتظار الآخر، تتوظف في عملية حصر البراز وإفراغه، وفي كلا الحالتين يترجم الطفل عدوانيته سواء في حرمان الآخر من هذا العطاء، أو إغراقه في براز مدمر ينعكس عليه خوف لا يحتمل، لأن رغبته المرتبطة بهذه الحالة تذهب في الخلاء (أي في فجوة بيت الخلاء) وكما يقول لاكان[2] «فهذه الإناطة المخيالية للآخر فوق فجوة الألم تكون قمة التحول نحو الشبقية السادية المازوشية».

وهذا المتخيل عند الطفل يصبح الهوام الأساسي لما هو رغبة الآخر منه سيما عندما يدخل في المرحلة القضيبية، الشيء الذي يصبح محوراً رئيسياً في الهوامات المدمرة في العصاب القهري . فالاستثمار الليبيدي حول الفتحة الشرجية من حيث إنها وظيفة تقتصر على حصر أو إفراغ هذا الموضوع المتميز بالنسبة للآخر، توظف من قبل الليبيدو بصفة جنسية تصبح وسيلة للتعامل معه على أساس أنها استثمار مسبق منه. فالتماهي بهذا الموضوع يصبح بالنسبة للقهري ديناً يدفعه للآخر يغذيه منه، ويدفع في المقابل تسديد الدين الأساسي: هو المتخيل القضيبي[*].

وكل محاولة، يقول لاكان، من قبل المحلل لطمأنة المريض عبر التأويلات، ليست إلا مادة كلامية تغذي المعنى في حدود الطلب، دون أن تتعداه إلى ما هو مفهوم الرغبة.

لأن الذات لا تعرف ماذا ترغب من هذا الطرف، ومن هذا الآخر الذي يتدخل عبر طلبه، فمن هنا يكون المنطلق الأساسي لما يسمى هوام السادية المازوشية، لأن البراز يوظف كموضوع أ (objet a) يستخرج ويطرد كنفاية، ولكن على أساس أنه مسبب للرغبة في حقل طلب الآخر منه، وذلك انطلاقاً من نقصان، يؤدي حصوله إلى

---

(1) S. Freud: Névrose et psychose, «caractère et érotisme anal», p.144, E.D P.U.F.

(2) J. Lacan: Séminaire sur le transfert.

(*) كثير من العصابيين اللذي يعانون من اضطرابات معوية تعود أسبابها إلى هذه المرحلة. في كل مرة يلوح التهديد بالخصاء (فشل، خوف من الامتحان، انتظار الخ) تكون إجابتهم بالمزيد من البراز أي الاسهال، إو الحصر أي الامساك.

اكتمال (Oblativité)، تتكون صورته في مخيال الطفل كمثال للاكتفاء وهو، كما يقول لاكان، ليس إلا هواماً أساسياً عند العصاب القهري، على اعتبار إن بلوغه يتم عبر تدمير الآخر، (أي إلغاء كل رغبة أخرى عنده). بمعنى آخر إن الرغبة تذهب في الخلاء، ويصبح الشرج في هذه العملية موظفاً ليبيدياً بعملية إكفاء واحباط تتعدى حدود الوظيفة الفيزيولوجية . وحول هذا المحور تتكون العملية السادية المازوشية من تألم الآخر في الانتظار واللذة المكتسبة من خلالها؛ والألم عند الطفل في الحصر هو في الوقت نفسه مصدر لمتعة إضافية. هذا هو المدلول الجنسي الذي أشار إليه فرويد، وركز عليه لاكان، فيما بعد، متمحور حول المرحلة الشرجية[1]. والشيء الأساسي في هذه المرحلة هو الانقلاب الحاصل من الطلب إلى الآخر المميز في المرحلة الفموية، إلى طلب الآخر له من حيث إن الاستفادة الحاصلة تنصب في مصلحته. وهو المنطلق الذي ينتج عنه فيما بعد الانضباط في النظافة، والتحكم بالفتحة الشرجية، بحصر البراز أو استخراجه. والرغبة تبزغ من قبل الطلب (أي من النقص الذي يحركه) ومما بعده (أي من بعد إكفائه).

وكي نوضح ما يحصل في المرحلة الفموية والمرحلة الشرجية يجب أن نشير أولاً إلى موقع الآخر الكبير (أي الأم في المناسبة).

في حقل الطلب باختصار لما ذكرنا:

- في البداية الفموية تتلقى طلب الطفل للغذاء.

- لاحقاً في المرحلة الشرجية تتحول إلى طالبة للبراز. في نفس الوقت يتغير موقع الطفل كما ذكرنا في حقل العرض والطلب.

- لا تظهر آثارها النفسية إلا بعد أن تنصهر هذه النزوات الجزئية في النزوة الكبرى: الجنسية - عندئذ تفقد جزئيتها لكي تشكل هواماً أساسياً تتوقف عليه نوعية العصاب المستقبلي. في البداية قد لا تكون جنسية كما نفهم ذلك بشكل عام، ولكن عندما تنغمس في حوض المرحلة الجنسية، تخرج منها مدمغة بالجنس وتكتسب التهيجات الحاصلة الجزئية صفة جنسية.

---

(1) الرغبة اللاشعورية عند العصابي، أي المكبوت، تأتي نتيجة طلب معاكس يلغي الرغبة. وهذا الأفول نتيجة هذا الطلب المعاكس يصبح فيما بعد بمثابة الأنا الأعلى المولد للقلق والألم.
أنظر: J. Lacan, Séminaire sur le transfert, p. 58.

على سبيل المثال: الثدي الذي كان عضواً فيزيولوجياً للغذاء يصبح عضواً شبقياً ويفقد في المناسبة صفته الغذائية.

- الغائط بعد أن كان نفاية ـ يصبح جزءاً من الجسد ينفصل عنه ويمهد لتكوين احتمال انفصال القضيب عن الجسد اي يعطي تصوراً مسبقاً عن التهديد بالخصاء.

يؤكد فرويد: بأن النكوص إلى المرحلة الأولى انطلاقاً من استحالة عقدة الخصاء: يؤدي إلى العصاب الهستيري: وهذا ما تؤكده العوارض الحديثة: في الاضطرابات الفموية: أكل، استفراغ، الخ.

أما النكوص إلى المرحلة الثانية أي الشرجية يؤدي إلى العصاب القهري، لنفس العقبات (الخصاء).

العقدة الأوديبية

العقدة الأوديبية، وعقدة الخصاء، تمثلان المحور الأساسي الذي يدور حوله كل تحليل نفسي. فمن هذه العقدة تتفرع الأعراض العصابية، ومن حلها تبدأ الحياة السوية. وهي المحور الذي تتكون حوله البنية النفسية في كل مشتقاتها سواء كانت مسلكية اجتماعية، أو إحساسات نفسية داخلية. واكتشاف التحليل النفسي هو اكتشاف اللاوعي (اللاشعور) أي المكبوت في متكوناته التي تخضع لبناء داخلي يتمحور حول عقدة أوديب، وعقدة الخصاء.

سنبدأ حديثنا عن عقدة أوديب التي أذهلت الأدباء، والأطباء، والمفكرين، وخلقت تمزقاً في دائرة المحللين النفسيين الأول. وكان فرويد قد تكلم عنها، واكتشافها قبل اكتشافه لعقدة الخصاء التي أشار إليها في بعض كتاباته حول الأحلام، إلا أنه لم يعطها الدور المهم والثابت، إلا فيما بعد، ابتداءً من كتابه: ثلاث نظريات سنة 1905.

أما فيما يختص بأوديب: فقد أتى على ذكره لأول مرة في كتابة «تفسير الأحلام» سنة 1900، واكتشافاته لهذه النتيجة كانت ضمن عمل مضنٍ:

أولاً: على صعيد تحليله الذاتي.

ثانياً: على صعيد العمل العيادي عند العصابيين.

والصحيح أن فرويد لو لم يكتشفه في ذاته أولاً، لما استطاع إدراكه عند العصابيين. فتذليله لمقاومته الداخلية هو الذي مكنه من تذليل هذه العقدة عند الآخرين وتحليلها.

يتبين لنا أن فرويد وجد نفسه مشدوداً إلى عمله التحليلي اليومي. وكان، كما ذكرنا سابقاً، قد تاه في نظريات متعددة قبل أن يتوصل إلى اكتشاف المكبوت، وأن الذات مقسومة على نفسها ما بين واعي (شعوري) ولاواعي (لاشعوري).

نحن نعرف أن فرويد قرر خوض عملية تحليل نفسه بعد وفاة والده سنة 1897.

جونس يشير إلى أهمية هذا الحدث في كتابه «تفسير الأحلام» الذي يشكل نظرية نفسية جديدة لعملية التحليل. والاكتشاف الذي فاجأ فرويد هو أن وفاة والده ولدت عنده شعوراً بالذنب لم يجد له تفسيراً سوى كونه تلبية لأمنية تعود إلى طفولته الأولى.

والسؤال هنا: لماذا يضمر الطفل لاشعورياً العداء لوالديه، علماً أنه يضمر لهما وجدانياً المحبة والولاء. يتطرق فرويد لهذا الموضوع في كتابه «تفسير الأحلام» في المقطع المخصص «حلم موت الأحباء». ينطلق فرويد من مبدأ أن الحياة الطفولية الأولى تتميز بأنانية ونرجسية ليس لها حدود لأنها لم تدخل بعد في إطار الحياة الاجتماعية المهذبة. وهكذا يتمنى الطفل زوال كل شخص يكون عائقاً، أو يحول دون تحقيق مآربه. فمثلاً ولادة أخ، أو أخت، يقاسمه مكاسبه العائلية، ويحرمه من معطيات كان يتمتع بها سابقاً يشكل بالنسبة له جسماً غريباً دخل عالمه، ولا يجد ضرورة لبقائه أو استمراره، يتمنى ازاحته، أو العودة به من حيث أتى. ولا تتكون عنده الحماية أو العطف على هذا الأخ الصغير إلا بعد أن يلتزم بمحبة الأب والأم، ويتعرف إلى المحرمات الاجتماعية. ولا يستبعد أن تتحول هذه النزعة الأنانية أو العدوانية إلى محبة وعطف يستمران مدى الحياة. ويعتمد فرويد في نظريته هذه على العديد من الأمثال العيادية حيث تبدو الأحلام واضحة في كشف خفاياها. فتنكشف له في المناسبة من خلال العديد من الحالات العصابية نزعات عدوانية تطال الأهل. فالفتى يضمر العداء لوالده، والفتاة تضمر العداء لوالدتها. وهذه الظاهرة التي تأخذ أشكالاً مختلفة في الأعراض العصابية، نجدها حتى عند السويين، يتبيّن من خلال التحليل أن مصدرها يعود إلى الطفولة الأولى. وهنا يتطرق فرويد لأول مرة إلى الحديث عن أسطورة أوديب الملك الذي قتل أباه لايوس ملك تيبيس، وتزوج أمه يوكستا على غير علم منه. هذا هو قدره لأن النبوءة قالت ذلك، وحددت مصيره قبل ولادته، ودون أن يسأل أو يكون له الخيار؛ والمعرفة (أي معرفة حقيقة نفسه) هي الفاجعة بحد ذاتها. فقد دفعته، تكفيراً عن جريمته، إلى ترك الجاه، والملك، وفقء عينيه؛ لكي يسير تائهاً معدماً في البراري. ويقول فرويد بأن مأساة أوديب كناية عن اكتشاف مذهل شبيه بما يحدث في التحليل النفسي. فهي مأساة القدر الذي خاط قصتها لكل امرىء قبل أن يشاهد النور. فأوديب الملك عندما يقتل أباه ويتزوج أمه يحقق بذلك أمنية كل طفل. وبشاعة هذا العمل الذي يراودنا في طفولتنا، يتمتع بكل أسباب الكبت التي تحول دون ظهوره. الشاعر المؤلف لهذه المأساة، يدعونا إلى النظر في داخلنا، ويجبرنا على الاعتراف بما كان مقموعاً. فوضعنا، كما يقول فرويد، لا يختلف عن وضع أوديب الملك. فنحن نعيش في داخلنا اللاواعي (اللاشعوري)

مأساتنا، ولا نواجهها خوفاً من المس بكبريائنا، وبمعطياتنا الأخلاقية. وأسطورة أوديب ليست إلا إخراجاً على المسرح العام لكل ما هو خاص بكل امرىء. فالإنسان، منذ طفولته تتكون عنده هوامات جنسية تدل على اضطرابات في علاقته مع الاهل، «ما من امرىء إلا وضاجع أمه في أحلامه. ولكن تسهل الحياة لكل من لا يعطي أهمية لهذه الفظائع» هذا قول الأم لابنها أوديب لكي تهون عليه جريمته. إنه واقع عيادي، قد يتعرض له كثير من الناس في أحلامهم، ويفاجأون في الصباح عندما يدركون ماهيته ويتساءلون كيف يمكن أن تحدث عندهم مثل تلك الرغبات. المفاجآت تزول على ضوء اكتشاف التحليل النفسي الذي يبين فرويد من خلالها أن الطفل، بحكم أنانيته، عندما تنتابه النزعات الجنسية تكون الأم أول غرض له، وسريعاً ما يكتشف أن ما يشكل عائقاً للوصول إلى الأم ومثالها هو الأب، فمن هنا تبدأ المأساة الداخلية حيث يتآكل الطفل صراع ما بين حبه لهذا الأب، وكرهه له كونه عائقاً يحول دون أمنيته؛ فينتابه الشعور بالغيرة والقصر، وتدخل التمنيات لتحل محل الأفعال. تمنيات بأن يزول هذا الأب لكي يحل محله. هذه هي أسطورة أوديب التي تعبر عن هوام كل فرد منا(*).

ويستشهد فرويد بشاعر آخر،هو شكسبير في دراميته هاملت. حيث يتبين أن قدر هاملت لم يكن أحسن حالاً من قدر أوديب الملك، ولكن الفرق أن الهوام كان ظاهراً عند الأول، أما عند الثاني فقد كان مكبوتاً على غرار ما يحصل في العصاب؛ أي أن عامل الكف هو المهيمن حتى لا ينفذ محتوى الهوام إلى الشعور. محور المسرحية يقوم على تردد هاملت في الانتقام لوالده، فهو مصاب بكف لا يعرف مصدره كلما تحققت له الفرصة لتنفيذ وصية والده، وتبرير هذا الكف في خوفه، وإحجامه من ارتكاب جريمة ما، تبيّن بطلانه المسرحية نفسها، عندما تظهر هاملت لا يتردد لحظة في طعن والد محبوبته، وأمنية حياته أوميليا، الذي كان مختبئاً وراء الستار يتجسس عليه، وكذلك لم يبدِ أي تردد، وأي شعور بالرحمة عندما ارسل اثنين من ملازمي بلاطه إلى الموت.

(*) يتبين أن المحرم الأول (الام) هو اجتماعي، ومؤسس للبنية الانسانية وحتى اللغة. في الأديان وبصورة خاصة في الاسلام : التحريم الالهي هو أمر من الله. ولكن في نفس الوقت يحرم نساء الأب ولكن نسبة أقل" الزواج المقيت" فمنع الأب للابن لارتكاب المحرم مزدوج : من الرغبة الذاتية للأب على اعتبار أنه مؤتمن لهذا التحريم اجتماعياً. ومن امر من الله حيث يصبح الاب امتداداً لها. من جهة الابن: الصراع مع الاب هو نفسه. يتميز بالحب الظاهر وبالكراهية في الباطن. الحساب هو مع الامر الرباني اكثر من الاب الواقعي. فلا بد من الاستغفار أو طلب الغفران من الله بصورة دائمة طالما هذا التيار ساري المفعول في اللاوعي (اللاشعور).

مع ذلك نجد هاملت يتردد، ويصاب بصراع عنيف أمام كل فرصة تسنح له للانتقام من قاتل والده وزوج أمه.

ويستنتج فرويد أن هذا الكف والتردد لا بد أن يكون مصدرهما في اللاوعي (اللاشعور)، حيث إن هناك تواطؤاً ما بين أمنيات طفلية، وما بين هذا الرجل (عمه) الذي قتل أبيه، وامتلك الأم. أي أن هذا الرجل يمثل أمنيته الطفلية الكامنة في اللاشعور، فهو متواطىء معه على غير علم منه، بل يمثل الصورة المعكوسة لما كان وضعه في طفولته الأولى. فكيف يمكن أن ينتقم من رجل جسد أمنياته وحققها، ونقلها من حقل الخيال إلى حقل الفعل، والتنفيذ. أي أن هذا الرجل هو الصورة المزدوجة لذاته المكبوتة. لإخراج الفعلي لبنيته اللاشعورية. وعلى ضوء ذلك تفسر ردات الفعل المتعددة، وما يتخللها من شعور بالذنب، ومن انفعالات عصبية، تتملك المشاهدين طيلة المسرحية. يتوصل فرويد إلى الاستنتاج الآتي بأنه إذا كنا مأخوذين بأسطورة الملك أوديب، ومتأثرين بمسرحية هاملت، فليس ذلك إلا لأننا نعاني في داخلنا من نفس العقدة. وما يثيرونه في نفوسنا، هو دليل على أننا في مرحلة من مراحل نمونا لا بد من أننا شاركناهم نفس الهوام، ولكن بحكم نمونا وتربيتنا، كبتنا وأحكمنا الإغلاق عليه.

عقدة أوديب هي النقطة الحاسمة في تطور نمو الإنسان، وفي تركيبته الحضارية، لأنه رغم المعارضة التي تناولتها من قبل العديد من علماء الأنتروبولوجيا، وعلى رأسهم (Malinowski): في كتابه حول الحياة الجنسية عند المتوحشين، كان الرأي السائد بأن هذه العقدة شاملة في التكوين النفسي لكل إنسان، وهي حسب رأي C. Lévi-Strauss تمثل نقطة التحول ما بين الطبيعة والحضارة.

الإنسان ينفصل عن الطبيعة ليتابع سيره الحضاري، وهذا ما كان يبحث عنه فرويد في كتابه الطوطم والمحرم(*) حيث جعل من مقتل الأب الفعل الرمزي لبداية الإنسانية، ومصدر الشعور بالذنب الملازم للإنسان طيلة حياته، واعتبر أن الأديان الوثنية ليست في تركيبتها إلا نوعاً من الأجهزة الاجتماعية ـ النفسية، حيث يدور الإنسان في تنظيمها محققاً بذلك نوعاً من الحماية الذاتية ضمن هوام مشترك يكفر به عن ذنوبه، وعن الشعور بالذنب الملازم له.

(*) Totem et tabou, 1915.

العقدة الأوديبية أصبحت، بنظر فرويد والمحللين الذين أتوا بعده، حجر الزاوية في البنية النفسية، فهي تشير إلى أن الإنسان لا يوجد أبداً لوحده. منذ ولادته يدخل في مسألة حسابية (Matheme) حسب كلافرول. الفكر العربي المعاصر عدد (11)(*). وهي مسألة تقوم على الثلاثية في كل علاقة إن لم تكن رباعية بدخول الموت كطرف رابع.

تظهر هذه العقدة ما بين سن 3 و5 سنوات حيث تبلغ ذروتها لكي تنحل ويدخل الطفل بعدها مرحلة الكمود، وتعود فتستيقظ في سن المراهقة لتنتقل إلى اختيار موضوع جنسي جديد. الشكل الذي تنحل به هذه العقدة يحدد بالضبط نوعية العصاب، أو الحياة السوية وما ينتج عنها من رغبات جنسية سوية أو انحرافية . كل هذا متوقف على وضعية الفعل في المثلث الأوديبي، فيمكن أن يتحول إلى إيجابي، ويدخل في صراع المنافسة مع الأب، لكي ينتهي بالتماهي بهذا الأب. وإما أن يتحول إلى سلبي: (أي يتعلق بالأب بحب شبقي)، وتصبح الأم بالمناسبة المنافسة له وهذا ما يؤدي إلى الانحرافات الجنسية.

لنستعرض ذلك بالتفصيل حسب تطور فرويد في كتاباته. فهو يعترف بعد كتابة «ثلاث نظريات حول الجنس» أنه لم يتوقف عن ترميم نظريته في الموضوع، وهذا ما تشهد عليه الزيادات التي أضافها على النص الأول دون أن يغير به، رغم بعض التناقضات التي قد تبدو ما بين القديم والحديث . وغاية فرويد من ذلك، هي الاحتفاظ بالخط الذي يحدد مسيرته منذ البداية، لكي يكون في تطوره مبحثاً للمحللين، يقتدون به في أبحاثهم، على اعتبار أن التحليل النفسي ليس نظرية، إنما مسيرة من قبل العاملين به لكي يكتشفوا، عبر التجربة، ويستقرئوا اللاوعي(اللاشعور). بمعنى أن الحقيقة ليست مطلقة حسب ما ورد عند الفلاسفة الأقدمين، ولا يوجد هناك من يضمن صياغتها النهائية. فهي في نصف الكلام (mi-dire) كما قال لاكان(**). لأن النصف الآخر من الكلام لا بد أن يتواجد باستمرار لكي يعبر عنها.

(*) يجب الاشارة وهو تأكيداً لما شرحه لاكان : بأن عقدة أوديب وان بدت لنا عن طريق الاسطورة إلا انها في الواقع بنية نفسية تتكون على أساسها الذات. فهي بمثابة القاعدة.

(**) ينتقد لاكان بالمناسبة هيغيل (في سيمينير الآخر الكبير) نظريته في الحقيقة المطلقة، ويعتبر أنها إذا ما كانت تتمثل في الآخر الكبير، فهي دائماً ناقصة من الموضوع "أ" الذي يؤسسها.

النظريات الجنسية الطفلية

ارتباط المرء بالحقيقة يبدو باكراً منذ الفترة الأولى التي يبدأ فيها الطفل بطرح أسئلته على الأهل، ويتلقى أجوبة قد تكون مبسطة أو مموهة أو حتى كاذبة. والتقييم كما تبين لفرويد يطال بالدرجة الأولى الاهتمامات الجنسية. الطفل يتساءل باستمرار، ويطلب إجابة صريحة، وغالباً ما تكون أجوبة الأهل جانبية أو كاذبة، لأنه باعتقادهم، غير قادر على فهم هذه الأمور ومعرفتها التي قد تفسد أخلاقه. إلا أن التجربة تبين أن الطفل قادر على استيعاب أشياء كثيرة إذا ما أزال الراشد العقدة الحائلة دون المصارحة بها. الأم تخجل قبل الطفل، وتحمر إذا ما طرح عليها سؤالاً من أين يأتي الولد؟ وعادة، تتجنب الإجابة الصريحة، وتستنجد بالقصص والأساطير المتداولة كمخرج لها. فقد تقول: إن طيراً وضعه وذهب، أو أن النورية أحضرته أو وجدوه تحت الجميزة، إلخ. من الحكايات أي من الذكرى. عادة الطفل يصدق الأهل، ولكنه لا يقتنع. فهناك العديد من الملاحظات التي يدركها أنها تتناقض تماماً مع ما أعطي من معرفة. فهو يلاحظ أن تغيرات حصلت في جسم أمه قبل أن تنجب أخيه الأصغر. وقد يحدث له أن يشاهد الحيوانات تولد غيرها. تتكون عند الطفل فكرة مغايرة لما رواه الأهل يبني عليها استنتاجه، وهذا ما سماه فرويد "بالنظرية الجنسية الطفلية". هكذا يتبين للطفل أن هناك معرفة يتلقاها من الأهل هي ظاهرة، مقابل حقيقة باطنية في ذاته نتيجة ملاحظاته واستنتاجاته التي تتناقض مع الأولى، ولكن يشعر أن الراشد يمنع عنه هذه الحقيقة لأنه يحتفظ بها لنفسه، وأن معرفتها يشكل نوعاً من التهديد له. ينتج عن ذلك أول تأزم داخلي، وهو ما يسمّيه فرويد بـ «انشطار نفسي» ـ (Clivage) أي القسم الأول واعي (شعوري) متمثل بإظهار الاذعان أمام المعرفة الكاذبة المدعومة بسلطة الأهل، والقسم الثاني متمثل بحقيقة، نتيجة ملاحظته واستنتاجات مناقضة ومغايرة للأولى، يقمعها ويكبتها في لاوعيه (لاشعوره). من هنا تتكون عنده العقدة، وتكون النواة الأولى لمرض عصابي مستقبلي. وهذه الحقيقة تستوطن الهوام المسبب للعوارض.

هذا ما يسميه فرويد بالنظريات الجنسية الخاطئة التي تتكون عند الطفل نتيجة عمله الفكري وهي رغم خطئها لا بد أن تحمل جزءاً من الحقيقة مشيرة بذلك إلى مصدر النزوات الجنسية التي تحدد اتجاهها، وتساهم في تكونها. لأن البنية الجنسية

هي الأرضية التي تنطلق منها هذه النظريات، وهذا ما يجعلها شبه معممة على كل الأطفال.

يميز فرويد ثلاث نظريات، تتكون منها مجمل هوامات الأطفال حول الجنس:

النظرية الأولى: تتمثل بإنكار وإهمال التباين الجنسي بين الأنثى والذكر، يعود ذلك بالدرجة الأولى إلى الأهمية النرجسية التي يوظفها الطفل في ذكره. فهو يلعب به، يداعبه، يولد عنده لذة جنسية مكثفة تفوق ما عرفه من الملذات السابقة في المراحل الفموية والشرجية. امتلاك الذكر يعممه على جميع المخلوقات، ويتهيأ له أن كل الناس صنف واحد يتمتع بامتلاك الذكر. وهذا الاعتقاد الخاطىء يتزعزع عندما تسنح له الفرصة لمشاهدة طفلة صغيرة أو شقيقته عارية، يتنكر لهذه المعرفة، ويبدي لامبالاة أمام هذا النقص، ويصححه باعتقاد خاطىء هو أن هذه الفتاة لا بد أنها تملك ذكراً صغيراً، وأنه سيكبر معها. أو حتى يتهيأ له بالفعل أنها تملك هذا الذكر في الداخل. الشيء الذي يستمر في لاوعي (لاشعور) الراشد بشكل أحلام امرأة لها ذكر مثل ذكر الرجل ويصبح مدخلاً نحو الشذوذ الجنسي المثلي، إن بقي متشبثاً به(*).

استمرار لعب الطفل بذكره يؤدي إلى تهيجات تدفعه إلى الاقتراب من الحل. وعندما يتوصل إلى اكتشاف أن الجنين يتكون قي بطن الأم بواسطة الأب يدرك أن الواسطة لا بد أن تتحقق عن طريق قضيب الاب. علماً بأنه ينتابه نوع من الاندفاعات العدوانية ملازمة لتهيجات ذكره: تتخذ طابع التكسير والبخش، وإدخال الإصبع في الفتحات، إلخ. ولكن عندما يتوصل إلى اكتشاف الفرج نجده يتراجع كونه يصطدم بنظرية متكونة عنده سابقاً بأن للأم ذكراً مثل الأب، وهذه النظرية لا تقوم على أساس تجاهل لفتحة الفرج.

النظرية الثانية: الشرج (أي الفتحة الشرجية) وهي كذلك على غرار ما سبق، مبنية على أساس جهل لفتحة الفرج . الطفل الذي ينمو في بطن الأم، لا بد له من مخرج: فإما أن يخرج من فتحة الشرج على غرار الغائط، أو أن تشق بطن الأم،

(*) الشائع في البلدان الاوروبية أن العلاقة الجنسية المثلية خيار على غرار العلاقة الجنسية الطبيعية. الواقع ان هذا الخيار ليس إرادياً إنما تتحكم به هذه العملية النفسية الاولية التي جعلته ينكر الفارق الجنسي، ولا يعترف إلا بما هو مشابه له، أي حامل عضو القضيب، لأنه يؤمن له عن طريق الانكار الحماية من تهديد الخصاء.

ويستخرج منها. واستطراداً مع هذه النظرية يتوصل خيال الطفل إلى هوام آخر: بأن الحمل والولادة ليست مقتصرة على النساء، فبما أن الفتحة الشرجية مشتركة عند الطرفين، فلا بد إذاً من إمكانية إنجاب طفل.

أضف إلى ذلك أن هذه النظرية إذا ما استمرت في معتقده، توصله عبر نفس المنطلق إلى اكتشاف مصدر إنجاب الأطفال. فهو يأكل شيئاً ما يتحول فيما بعد إلى غائط يستخرجه، وبالمقابل يمكن أن تأكل شيئاً ويتحول إلى طفل يستخرج من الفتحة نفسها.

النظرية الثالثة: وهي النظرية المتعلقة بالأهل: يتجمع لدى الطفل العديد من الملاحظات التي شاهدها، أو لمحها، تؤدي في النهاية إلى فكرة ثابتة: بأن الجماع هو عملية سادية ترضخ من خلالها الأم الضعيفة، لطغيان الأب القوي الذي يتمتع بذكره الكبير، ويدعم هذه النظرية التي سبقت، والمتمثلة بلعبه بذكره، مع تفجر دواعي العنف، والبخش.

ويلفت فرويد النظر إلى أن الطفل لا يتمكن في هذه الفترة من ربط فكرة إنجاب الأطفال بالعمل الجنسي السادي.

يواصل الطفل استنتاجاته حول العنف في العلاقات الجنسية من خلال خبراته الشخصية من ناحية: (في عراكه مع أقرانه ومداعبته لأبويه التي لا تخلو من بعض الإثارة الجنسية)، ومن ناحية ثانية، من ملاحظاته لعلاقة الأهل فيما بينهم، فكثيراً ما تكون الأم مصابة ببرودة جنسية، ولا تخفي أمام الأولاد اشمئزازها، وممانعتها للعلاقات الزوجية. أو ما يلاحظه الطفل في بعض الأحيان من بقع الدم، الناجمة عن العادة الشهرية، فيدخلها رأساً في حساباته على أنها كانت نتيجة جماع سادي، اقترفه الأب بحق الأم.

هكذا تتلخص النظريات الجنسية التي تتكون في مخيلة الطفل، لتصبح المدخل الذي يعالج قضاياه الجنسية عندما يدخل في سن المراهقة، ويبدأ في تلقي المعلومات الصحيحة حول وضعية الجنس. هنا يجد المراهق نفسه أمام نوعين متضاربين من المعرفة. فهو أمام معرفة واقعية، لا يتقبلها بالسهولة المفروضة، كما هو سائد في تفكير الراشد، لأنه لم يتلق بعد أية معرفة أخرى. فالتجربة التحليلية تبين أن الطفل يكون قد كوَّن معرفته، وأصبح له نظرية جنسية قائمة بحد ذاتها. ولا عجب إن وجدنا كثيراً من المراهقين، والمراهقات، يبدون الدهشة، أو يتنكرون للمعرفة الجنسية الجديدة، ويجدون المبررات، متمسكين بذلك بالنظرية الأولى المتكونة لديهم.

ويتعقد الموقف، ويصبح مصدراً للتأزم النفسي عندما تصطدم الحقيقة الداخلية بالواقع الخارجي. فهذه الحقيقة الأولى المتمثلة بالنظرية الجنسية تمثل القماشة التي نسجت منها خيوط اللاوعي (اللاشعور) الأولى، فهي بمثابة الواقع النفسي الداخلي الذي قد يتنافى ويتناقض مع الواقع الخارجي. وقد تصبح مصدراً للعصاب إذا ما أتاها تعزيز ليبيدي يثبتها في هذا الاتجاه، ويحول دون نقل هذه الكمية الليبيدية إلى العناصر الجديدة التي تأتي من المعرفة الواقعية. لذلك تبقى في اللاوعي (اللاشعور) مدعومة بدفعات ليبيدية، تظهر عبر العوارض والأحلام.

ويبدو من مقال فرويد، أن غرضه، هو إظهار الفرق ما بين حقيقة متكونة في اللاوعي (اللاشعور)، وما بين معرفة جديدة تغطيها دون أن تتمكن من إلغائها. وهذا هو الانقسام (Clivage)(*) الذي يحصل في الأنا، من حيث إنها في مضمونها يكمن الطرف الآخر غير المدرك، والمتمثل بالدال الذي يعبر عن الذات بالنسبة إلى دال آخر، والذي لا يمكن الوصول إليه، كما يتهيأ للمربين، عبر المعرفة المستقاة من الخارج، إنما عبر سلسلة الدوالي المرتبطة به، والتي يشير إليها التحليل النفسي في علاجه. وهذه النظريات في حد ذاتها تتمحور حول الهوام الذي سنتكلم عليه فيما بعد.

اندثار العقدة الأوديبية وعقدة الخصاء عند الأطفال

جمعنا اندثار الأوديب، مع عقدة الخصاء، لأنه لا يمكن فصلهما عن بعض. فللخصاء دور هام ورئيسي في التحولات الليبيدية عن أهدافها، فهي التي تؤدي إلى تطورات هامة في حياة الطفل النفسية، وتهيِّئه لحياة اجتماعية سوية فللخصاء وظيفة تنسيقية وصحية في نشاط الطفل السوي، تمكنه من التخلص من النزوات الجزئية عبر صهرها، وتوظيفها في علاقات اجتماعية بناءة.

عقدة الخصاء متاخمة للعقدة الأوديبية، وهي بمثابة المخرج من هذه العقدة، وهذا ما سنوضحه انطلاقاً من مقال فرويد الرئيسي «حول بعض النتائج للتباين التشريحي بين الجنسين».

لمح فرويد في كتابه «تفسير الأحلام» إلى عقدة الخصاء، وذكر العديد من

(*) يختزل لاكان في تصوير الذات المنقسمة بحرف $ بمعنى الذات التي تحتوي في تعبيرها على قسم واعي وقسم لاواعي. بالعربية سنرمزها بـ: ذ.

الأحلام التي تشير إلى هذه العقدة، ولم يعط لها دور الصدارة في البنية النفسية إلا بعد مقالة عن«هانس الصغير» (خمس حالات في التحليل النفسي).

عقدة الخصاء:

كتب فرويد لأول مرة عن عقدة الخصاء سنة 1908، واعتبرها جزءاً من النظرية الجنسية الطفلية، انطلاقاً من معتقد يطال كل الأطفال: بأن العالم مكون من نوع واحد يتمتع بامتلاك الذكر؛ وتتزعزع عنده هذه النظرية عندما يتبيّن له أن هناك طرفاً آخر ينقصه هذا العضو، فتبدو له أولوية الذكر، فهو العنصر الذي يحوز على اهتمامه نسبة للشبكة العصبية المكثفة فيه، التي تجعل منه عضواً شبقياً من الدرجة الأولى. ولهذا السبب لا يمكن أن يتصور الطفل بأن هناك جنساً آخر ينقصه هذا العضو. وهوام الخصاء يأخذ صوراً متعددة في حياة الراشد الواقعية والخيالية: (خوف من المستقبل، خوف من المرض، الأمراض الزهرية ـ السرطان ـ القلب ـ عمليات جراحية إلخ ...) وفي الحلم يأخذ رموزاً متعددة (الرسوب في الامتحان، قلع الأضراس، بتر طرف من الأطراف،العماء كما حصل عند أوديب الملك)(*). والأب، المهدد بالخصاء، قد يتلبس صور مقنعة مختلفة، مستقاة من الأساطير، أو من المخاوف الطفلية المتداولة، أو من الحيوانات، كما يحصل في الخوف(خوف الكلاب، والقطط، والذئاب، والأفاعي، والفئران، إلخ).

وموضوع الخصاء، يستمد طاقته من مورد آخر نرجسي، مرتبط بصورة الأنا. وكل تهديد يطال هذا القضيب يضع الأنا في خطر محدق.

من هذا المنطلق فحص فرويد في مقاله، المذكور أعلاه، كل النظريات التي استمدت موادها من المرحلة الما قبل أوديبية والتي تعود إلى الخبرات الطفلية، سيما أن التحليل النفسي لا يطالها بسهولة، وما يمكن قوله: إن الخبرات السابقة، من فموية إلى شرجية، وبصرية، وسمعية، يمكن أن تدخل وتدعم نظرية عقدة الخصاء، ولكن ليس العكس، لأنه ليس بمقدورنا أن نعطي وصفاً جنسياً في فترة لم يكن هناك تصور لذلك. العقدة الخصائية متاخمة للمرحلة القضيبية، ومميزة لها في آن واحد.

(*) تقول الاسطورة إن أوديب الملك اقتلع عينيه بعدما اكتشف إثمه. وهو الثمن الذي دفعه كما لو كان ديناً يجب ان يدفعه من لحمه . وقد يكون ذلك في بعض الأحيان عبر عمليات جراحية.

العقدة الأوديبية واضحة عند الصبي، خلافاً لما هو عند الفتاة. ويسهل علينا فهمها منذ بداية نشوء الطفل وتعلقه بأمه، من الناحية الليبيدية إلى أن يحصل الفصل في المرحلة الأوديبية. الطفل، في البداية، (كما يذكر فرويد في مقاله حول التماهي: (Identification)، يرتبط بحب متواز ما بين الأم والأب، دون أن يخلق له ذلك أي إشكال، فهو يجمع بذاته ما بين الاثنين، ويتنقل بينهما دون أن ينشأ تأزم أو صراع والمشكلة لا تبدأ بالنسبة له إلا بعد أن يتحول هذا الحب إلى شعور شبقي، وتصبح الأم موضوعاً جنسياً يريد امتلاكه والحصول عليه بمفرده، فعندئذ يتبين له أن الأب يقف حاجزاً أمامه، ويحول دون تحقيق هذه الرغبة. ويزدوج شعوره الحبي نحو أبيه، بشعور كرهي عدواني، سيما عندما تظهر دوافع تتجه نحو الأب لإزاحته، والحلول محله؛ وهكذا يدخل في العقدة الأوديبية، والتي يكون قد مهد لها باكتشاف الذكر، كعضو استمتاع يتفوق على باقي الأعضاء، ومن حيث إن الوصال مع الأم يصبح الموضوع المحرك لهذه العادة السرية. وما استمرار التبول في الليل إلا استمراراً لهذا التيار الداخلي، وما التهديد الذي يطال التبول، إلا تهديداً بالخصاء. لكن يبقى السؤال الآتي: كيف يتهيأ للطفل الربط ما بين العادة السرية ووظيفة القضيب في العلاقة الجنسية، وبين امتلاك الأم جنسياً، علماً بأنه في هذه المرحلة لا يملك معرفة مسبقة للموضوع. يحاول فرويد الإجابة، ولكن دون أن يتوصل إلى برهان كافٍ. الطفل قد يتعرض في المرحلة الماقبل أوديبية لمشهد جماع ما بين الأم والأب، قد يولد عنده أول إثارة جنسية تصبح نقطة الانطلاق للتطور الجنسي فيما بعد، لكن يتساءل أنه قد لا تتم هذه المشاهدة لجميع الأطفال، فهناك قسم كبير لا يتعرض لمثل هذه الإثارة. ويحق القول بأن هناك هوامات أولية «تتكون عند جميع الأطفال سواء تعرضوا أم لم يتعرضوا» للمشهد الأولي، لأنه لا يوجد هناك برهان آخر. وهذه الهوامات الأولية: يقول فرويد عنها إنها بمثابة بنية نفسية فيلوجنتيكية تخلق مع الإنسان، وتصبح المنطلق لكل هوام آخر، ولها من الشمولية أنها تطال كل طفل عام، وتخلق تصوراً للجماع بين الأهل، للإغراء، لموضوع الخصاء، للحياة الجنينية. وهذه التسمية ظهرت لأول مرة في كتابات فرويد سنة 1915 حيث يقول أسمي الهوامات الأولية كل التكوينات المتخيلة التي تتمحور حول: جماع الأهل، الخصاء، الإغراء الجنسي، إلخ. ويشير إلى أن مصدر هذه الهوامات يعود إلى مرحلة ما قبل التاريخ، وحيث من المحتمل، أن هذه الهوامات كانت في فترة من الفترات واقعاً حقيقياً، وانتقلت في مرحلة من

الواقعية الخارجية إلى الواقعية النفسية، (أي انتقلت من التنفيذ إلى المتخيَّل). ونواة هذا الهوام الأولي، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعقدة الأوديبية، حيث إن النشاط الجنسي الذاتي (Auto erotic) يستمد قوته وموضوعه من هذه العقدة التي تمثل المحور الأساسي لتكوين العصاب فيما بعد. فالأب يمثل الحاجز الأول لتحقيق الإشباعات الجنسية الذاتية، والمنافس الأول لامتلاك غرضه الجنسي. فمن البديهي أن تتكامل العناصر المستجدة من واقع الحياة، مع التراث التاريخي، لنشأة الإنسان، لكي تكون الهوام «الهوام البدائي» كعنصر أساسي وشامل في البنيان النفسي. حاول فرويد في البداية إثبات نظريته عبر المعطيات الواقعية، وهذا ما برهن عليه في تحليله لهوام «رجل الذئب» عندما اعتبر أن حلم الذئاب كان نتيجة حضوره في العلاقة الجنسية بين الأب والأم. واتخذ من ذلك برهاناً على نظريته. وكذلك نراه في نفس الموقف عندما اتخذ من نظريته الانحرافية التي قال عنها: إنها وراء كل عصاب يحصل في سن الرشد. فالطفل يتعرض لإغراء جنسي من قبل الراشد، الذي عادة ما يكون الأب. وحاول في كل مرة إيجاد البراهين الواقعية على ذلك عن طريق حض المريض على استذكار ما حدث له، ولكنه سريعاً ما تراجع أمام هذه النظرية كما ذكرنا سابقاً. فبعدما تبين له أن حادثة الإغراء ليست ثابتة، ولا هي واقعية عند معظم الناس أصيب بخيبة أمل كانت صدمة له نتيجة الإخفاق، أدت إلى تبديل في نظريته وسبباً في دفعه إلى اكتشاف حقيقة الهوام الذي يمثل في حد ذاته واقعاً نفسياً معيناً يرتبط أولاً بما حدث بالفعل. وهذا الهوام هو جزء في تكوين النظرية الجنسية كما بين ذلك في مقاله عن النظريات الجنسية الثلاث عند الطفل.

الهوامات الأولية: هي بحد ذاتها مزيج من شيء معاش منظور، أو مسموع، ومن تخيل يستمد مواده من تراث التطور الإنساني. ولكن الهوام موطن الرغبة.

فهذه الهوامات ليست إلا أجوبة عن تساؤلات يكون الطفل قد طرحها عن مصدر الأشياء، وبالأخص مصدر ذاته: التي تتمثل في المشهد الأولي (جماع الأهل). فهو حاضر ومكون له نتيجة هذا اللقاء العشقي الناجم عن رغبة جامحة تجمع الأب والأم، وتستثني أي طرف ثالث. فغيابه واجب تقتضيه ضرورة وجود الأب كراغب فاعل.

وكذلك بالنسبة لهوامات الإغراء، حيث إنها جواب على سؤال المصدر الجنسي، وبزوغ الدوافع الجنسية التي ترتبط بموضوع معين يكون به الطفل طرفاً، إما سلبياً أو

إيجابياً. هوام الخصاء هو إجابة عن سؤال مصدر التباين الجنسي. لأن هذا التباين يبدو عند الطفل المعتقد السابق حول شمولية الذكر عند الأحياء ويسقط من حسابه النرجسية المتأصلة في تعاظم ذاته.

في البداية، يقول فرويد، لا يوجد إلا الذكر، وهي المرحلة المسماة بالقضيبية (فالوس)(*) وهي تشمل الطفل والطفلة على السواء. وسنرى فيما بعد أهمية هذه النظرية، وما خلفت من تناقضات فكرية عند المحللين المنظرين في موضوع الأنوثة.

ويدحض فرويد بالمناسبة الآراء القائلة بتصور نفسي لوجود الفرج. فهو لا يعطي أية أهمية في هذه المرحلة، الماقبل أوديبية إلا للقضيب سواء كان ذلك عند الطفل أو الطفلة، وهو يشدد على أنه لا يمكن أن نعطي أهمية لاكتشاف عضو قبل أن يكون له تصور ذهني. والأشياء لا ترتبط ببعضها إلا بعد أن يتكامل النضوج، سيما عندما تصبح موضع استثمار نرجسي كبير. فليس باستطاعتنا أن نعطي أهمية للفرج قبل أن يكون له حضور شبقي. شيء لا يحصل إلا في مرحلة لاحقة إنطلاقاً من العلاقات الجنسية الكاملة، وكذلك للبظر: التي تكتشفه الفتاة في سن مبكر. ويصبح محور العادة السرية عندها. مما يدعها تعتبر أنها تحاكي الطفل الذكر. والشيء المؤثر في توجهاتها هو أن الهوامات المرافقة للعادة السرية ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعقدة الأوديبية. وفي أول مرة تسنح لها مشاهدة ذكر الأخ أو أي طفل آخر تفكر، تحكم وتحسم أمرها، فهي قد شاهدت، وعرفت أنها محرومة من هذا الذكر، وتشتهي الحصول عليه ـ (Penis need)، فاشتهاء الذكر هو تحصيل حاصل لمعرفة التباين الجنسي بين الرجل والمرأة . وله آثاره البعيدة في التكون الجنسي للامرأة، سواء في ترتيب حياتها السوية، ونضوج أنوثتها، أو في تحولات عصابية، وأفعال عرضية إذا ما بقيت تكبت هذه الحقيقة، وتحاول إخفاءها. وقد يحصل من جراء ذلك تطورات نفسية تلعب دوراً هاماً في تحول الفتاة عن الرجل. ويعدد فرويد ثلاث نتائج عند اكتشافها هذا الفارق التشريحي:

(*) لاكان اعتمد التمييز ما بين الذكر أي القضيب وما بين الفالوس في مفهومه الرمزي: أي ما يمثل العضو الجنسي عند الرجل عندما يكون في حالة الانتصاب تتدفق به الحيوية والحرارة، وتتجسد به الرغبة الجامحة واعداً بنشوة لا تماثلها نشوة أخرى ومصدراً للانجاب واستمرار الحياة.

1 ـ جرح نرجسي، وشعور بالنقص تجاه الرجل مع رد فعل احتقار وازدراء للرجال بصورة عامة. ومن هذا المنطلق طوّر أدلر (Adler) تعميم نظريته في عقدة النقص، متنكراً بذلك لمفهوم عقدة الخصاء.

2 ـ غيرة، ليس لها ما يبررها على صعيد الواقع الخارجي، وقد تكون منقولة إلى موضوع آخر، ولكن هدفها هو تحويل الانتباه عن اشتهاء الذكر.

3 ـ عدوانية تجاه الأم أساساً، على اعتبار أنها أخرجتها إلى هذا العالم دون أن يتم تكاملها بذكر، على غرار الصبي. فقد ولدتها ناقصة، وهذا الشعور يولد إحباطاً يتعزز إذا ما تبين لها أن الأم تولي اهتماماً متزايداً لأخ أكبر أو أصغر منها.

مع هذا يشدد فرويد على احتمال رابع يفوق أهمية الاحتمالات الثلاثة. وهو أن هذه المعرفة تشكل عاملاً رادعاً لاستمرار العادة السرية. فالفتاة تتحمل بعجز ردات فعل العادة السرية. لأنها تعيد إلى ذهنها الفارق الشاسع بينها وبين الرجل. فترتد إلى نفسها بالشعور بالذنب والقهر. وتكافح ذلك بشتى الوسائل لكي تتوصل في النهاية إلى العلاقة الجنسية السوية. فالعادة السرية هي صفة من الصفات الذكورية؛ تتمسك الفتاة بهذا الموقف الذكري، وقد تستمر في هذه الممارسة، إلى أن تستغني عنها، وتستبدلها بعلاقة عشقية في سن المراهقة. فالإقلاع عن العادة السرية هو خطوة أساسية في اتجاه الأنوثة السوية. وهذا الاقلاع يتم بواسطة إدراكها لاستحالة محاكاتها للرجل، وأنها مهما فعلت، لا يمكن أن توازيه. فمن الأفضل أن تكف عن هذه المزاحمة، لأن نتيجتها محسومة سلفاً. ويخلص فرويد إلى القول بأن إدراك الفتاة للتباين التشريحي بينها وبين الرجل، يؤدي إلى إزاحة عقدة الذكورة، والكف عن العادة السرية، وتوجهها إلى الخط السليم نحو أنوثة سوية.

كل هذا يحصل في المرحلة الما قبل أوديبية. فانطلاقاً من معرفة التباين الجنسي بين الجنسين تدخل الفتاة في عقدة أوديب. فهي قد حكمت وحسمت بأنها لا تملك ذكراً، أي بأن الخصاء قديم فعلياً. أي جزء من تكوينها وليس كما يتهيأ لبعض النساء بأنها كانت تملكه وحرمت منه. وهو ما يسمى بالفالوس المخيالي.

أما الفتى فإدراكه لهذه الحقيقة يصبح بمثابة العامل الأساسي لإخراجه من العقدة الأوديبية؛ فتحت وطأة التهديد بالخصاء تتفجر العقدة الأوديبية، وتتطاير شظاياها في الهواء حسب تعبير فرويد. ولا يبقى منها سوى الختم الذي يترجم بالختان.

فالطفل قبل إدراكه للتباين الجنسي، يتوهم بأن كل المخلوقات تملك ذكراً مثل ذكره. والبشر جنس واحد، وما يعزز هذا الاعتقاد هو التوظيف النرجسي لهذا العضو نظراً لما يؤمن له من متعة كبيرة. إضافة إلى استثمار للأنا في حقل نشاط الفالوس. وهذه الأنا في تكونها الهش، هي نرجسية، وتخضع لمبدأ اللذة، أكثر مما تخضع لمبدأ الواقع. فلذلك عندما يتبين له أن الجنس الآخر ناقص، ولا يملك الذكر، يحاول أن يتنكر لمثل هذه الحقيقة، أو لا يعطيها أهمية كافية. ولكن دخوله في العقدة الأوديبية يضعه في موقف المنافسة مع الأب، الشيء الذي يعيد إلى ذهنه صورة الفتاة المحرومة من الذكر. فهو لا يتصور بأنها خلقت كذلك، بل إنها كانت تملك الذكر، ولكن لسبب من الأسباب نفذ بها الخصاء، وهذا الحدث يتعزز بأحداث وذكريات سابقة(>)(*).

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى تأتيه ذكريات من المرحلة الطفلية السابقة تدعم نظرية احتمال انفصال العضو عنه: الثدي عندما يسقط من فمه والغائط عندما ينفصل عن جسده . فالتشبه بين الغائط والذكر هو احتمال وارد. كما انفصل عنه الأول، يمكن للثاني أن يلقى نفس المصير. وهذا ما يفسر ارتداد بعض العصابيين إلى هذه المرحلة بعد أن يكونوا قد عجزوا عن تخطي عقدة الخصاء، فيتشبثون بالمرحلة الشرجية مع كل مظاهرها العيادية. ويؤدي ضريبة الخصاء بالتحكم بالبراز ما بين الحصر والعطاء، مع اضطرابات معوية متعددة. والذكرى الثانية هي الفطام: أي انفصال الثدي عنه، والاحباط الحاصل من ذلك، وهنا يحصل التشابه ما بين الذكر والثدي. ويولد في حال تعثر حل العقدة الأوديبية، الارتداد إلى المرحلة الفموية؛ ويتكون بذلك العصاب الأساسي الفموي حسب تعبير برغلر(**). إذاً كل هذه العوامل تعزز عند الطفل واقعية التهديد بالخصاء. فهو احتمال وارد، تؤكده الرؤية عند الطفلة التي حرمت من ذكرها، والتي قد تظن أنها فقدته اقتصاصاً لنفس الدواعي التي يعاني الطفل منها. فهو يشتهي الأم ويرغب في امتلاكها جسدياً، وبالمقابل يحب الأب، ولكنه يكرهه ويتمنى التخلص منه، لأنه يشكل حاجزاً يحول دون تحقيق هذه الرغبة.

(*) هذا ما يفسر ظاهرة معممة على أكثر المجتمعات في الطريقة التي يتعامل بها الرجال مع المرأة على أساس دوني بقيت أسبابه مكبوتة. أو الخوف منها وإقصاؤها عن الحياة الاجتماعية لأنها تذكرهم بعقدة الخصاء. الأساطير اليونانية جسدتها برأس ميدوس التي تحول كل رجل إلى جماد إن ما نظر إليها.

(**) Bergler, *La névrose de base.*

فهو يريد أن يحل محله. وبما أن الأب يعاكس رغبات الطفل في مجالات تربوية، ويحاول أن يضع حداً لنزواته تتكوّن لديه فكرة بأن الأب سيتصدى حتماً لمثل هذه الرغبة المحرمة دون أن يسميها(*)؛ وقد يكون فقدان الذكر هو القصاص الذي سيطاله نتيجة هذا الانتهاك. هنا تكمن عقدة الخصاء.

أمام هذا التهديد يصاب الطفل بارتباك شديد، وصدمة عنيفة، تضعه أمام خيارين: إما الحفاظ على استثماره النرجسي لذكره، وإما الاحتفاظ بتعلقه الشبقي للأم. وأمام هذا التأرجح ينتصر الرهان الأول إذا ما سارت الأمور سيراً طبيعياً، فيتخلى عن تعلقه الشبقي بالأم، ويحتفظ بذكره، وبما يمثل له من تجمع نرجسي. وهكذا يتماهى بالأب كنتيجة حتمية لحل عقدة الخصاء، ويدمج في ذاته سلطة الأب عبر تركيبة نفسية تمثل النواة الأولى للأنا الأعلى، ويصبح ما هو مانع خارجي مانعاً داخلياً، يؤمن استمرارية التحريم بارتكاب المحرمات وتناقلها من جيل إلى جيل. وكذلك يصبح الرقيب للأنا، يحاسبها على كل هفواتها أو حتى عن نواياها غير المعلنة، كما هو الحال في العصاب القهري، في مغبات النزوات المحرمة. وهكذا ينصرف الطفل عن تعلقه الشبقي بالأهل، فيجرد العلاقة من محتواها الجنسي. ويتسامى بها إلى مستوى المحبة والعطف والحنان. فيدمج هذه السلطات الأبوية في ذاته بعد أن يحولها عن غرضها الأولي، لكي تصبح تماهياً يؤمن له المودة المتبادلة، والعيش في وئام.

هذا هو المخرج الإيجابي لأوديب، أما عن المخرج السلبي يقول فرويد بأنه ينجم عن تشبث بالأم وابتعاد عن الأب، حيث يحاول التشبه بها، لكي يحصل من الأب الذكر التعويضي. وهذه تكون النواة لاضطرابات عصابية، وانحرافات جنسية مثلية. وفي كلا المخرجين: السلبي أو الإيجابي، تؤدي العملية إلى فقدان الذكر، ففي الإيجابي، يستغني عن وظيفة ذكره الجنسية، وهذا ما يسمى بالخصاء الرمزي (أي يحتفظ بذكره سالماً بعد أن يتم تعطيل وظيفته المحرمة)، فتكون العملية قد حولته عن المحرمات، ولا يبقى هناك مبرر لخوفه من التهديد بالخصاء، لأن هذا التهديد كان مرتبطاً أصلاً بتعلقه الشبقي المحرم بالأم. فانفصاله عن الأم، وتحويل الدوافع الليبيدية عنها، يؤمن له سلامة الذكر. وبعدها يدخل الطفل في حالة الكمود حتى البلوغ حيث

(*) ليس بالضرورة أن يسمى تحريم الام. هذا التحريم متواجد في اللاوعي(اللاشعور)، قد يطرق الباب ويلقى الجواب دون أن يصبح واعياً، لأن التحريم الاساسي للام انطلق منذ أن دخل الانسان في عالم اللغة: هنالك من يقول أن بناء اللغة والتحريم الأساسي ملازمان بعضهما البعض.

تعود التيارات الليبيدية إلى الظهور في اتجاهات مغايرة للسابق. أي تتحول عن غرضها الأساسي لكي تختار غرضاً جديداً خارجياً. ويقول فرويد: إن انحلال عقدة أوديب لا تتحمل الكبت، فهو يشدد على أنها تندثر كلياً، وتتطاير شظاياها في الهواء. وإذا ما حصل كبت معين فلأن العقدة الأوديبية لم تحل حلاً كاملاً. فتبقى في اللاشعور كي تظهر آثارها المرضية فيما بعد. وهكذا يتبين لنا في المخرج التالي أن تماهي الطفل بالأم يضعه في موقف سلبي تجاه الأب، فنتيجة هذا التماهي يفقد ذكره، ولكن مقابل تلقي ذكر الأب تعويضاً عنه على غرار ما يحصل للأم فهذا الموقف هو موقف إنكاري للتهديد بالخصاء من حيث إنه يحاول تجنبه عن طريق قلب الأدوار مع الاحتفاظ بالتعلق الشبقي بالأم، والتخلي عن الوظيفة الجنسية لذكره.

هذا ملخص ما قاله فرويد عن الأوديب، وعقدة الخصاء، والمرحلة القضيبية عند الطفل، فهذه العوامل الثلاثة مترابطة فيما بينها، وهي التي تميز المرحلة الجنسية عن المراحل السابقة (الشرجية والفموية). وخلافاً لما ورد عند المحللين اللاحقين بالنسبة إلى الأوديب المبكر، يؤكد فرويد أنه لا يحق لنا التكلم عن الصيغة الجنسية قبل دخول الطفل في المرحلة القضيبية؛ يعتقد بأن هنا قدرية لا يفلت المرء منها ولا بد من أن تفرض عليه الدخول في منافسة مع الأب، على غرار ما حصل لأوديب الملك قبل أن يبصر النور وتحدد مصيره مسبقاً. ولا يخفي بأن لهذا الأوديب صلة فيلوجنيتكية، تعود إلى تطور الإنسان البدائي منذ العائلة أو العشيرة الأولى. حيث كان الأب يتمتع بصلاحيات مطلقة، يملك النساء جميعاً، ويحرم على الأبناء الاستمتاع. الشيء الذي دفع هؤلاء إلى الثورة عليه، والتعاطف فيما بينهم للانقلاب عليه، وقتله(*).

ولكن حصيلة هذه الثورة كانت معاكسة لما كانوا ينتظرونه، فبدلاً من أن يستجيبوا، ويتقاسموا ما كان يحرمه الأب عليهم، امتنعوا عن هذه المكتسبات، وأصبحت تابو محرمات انطلاقاً من القانون الأول، أي الشريعة الأولى التي نصبوها مكان الأب المقتول، لكي تزيد من تحريمهم، وتكرس ذلك في قانون يخضع له كل الأبناء؛ من هذا المنطلق ربط فرويد ما بين الأديان الوثنية «الطوطم والتابو» (Totem et tabou) وما بين العقدة الأوديبية. وهو موضوع آخر تعرض لنظريات مختلفة ومتناقضة أحياناً.

(*) انظر كتاب Totem et Tabou.

نظرية لاكان في الأوديب وعقدة الخصاء

ينطلق لاكان من مسلمات بديهية لكي يتوصل إلى تصور معقد للذات اللاواعية (اللاشعورية)،وكيفية تكونها، والتعامل معها، سواء في الحقل النظري، أو في الحقل العيادي. فهذه الذات، إذا كانت المعبرة الوحيدة عن الحقيقة الكامنة في كل إنسان، يكون ابتعد كل البعد عن ديكارت الذي ركز الوجود حول الأنا الوجدانية، وعن النظريات البسيكولوجية التي جعلت من الأنا السبيل الوحيد للتعبير النفسي. وذلك انطلاقاً من اكتشاف فرويد،الذي اعتبر أن اللاشعور لا يخدعنا، ولا يقول إلا الحقيقة[1]، فالأنا قد تخدعنا عن أنفسنا، وتضللنا عن ماهية وحقيقة رغباتنا، نظراً للتماهيات المخيالية المتعددة التي تتلبسها، وتغيب عنا الرؤيا الصحيحة.

أولى هذه المسلمات: ما هي وسائل التحليل النفسي، وبماذا يتعامل المحلل مع المتحلل؟ وكيف بالإمكان فهم حصول التغيرات في البنية النفسية سواء كانت مرضية أو غير ذلك؟ الجواب عن ذلك، يقول لاكان: سهل، وبسيط، وبديهي. فالمحلل لا يملك إلا أداة واحدة لكي يتعامل مع مرضاه ويستنتج من خلالها، وهي اللغة، انطلاقاً من المبدأ الأساسي الذي اعتمده فرويد بدعوة المريض لنقل كل ما يدور في ذهنه حسب قانون التداعي الحر. فالتعامل هو لغوي فقط، والتأويل كذلك، وكل الأفكار، والتخيلات، والمشاعر، حتى الأحاسيس البدنية، هي تعابير لغوية والعارض الذي يتعاين لأجله المريض هو، في الأساس، عقدة لغوية، لأن حلها يأتي نتيجة للتأويلات التحليلية. والشيء المهم في الموضوع هو أن المريض عندما يبدأ بالكلام مع محلله يقول أكثر مما يعرف. وهذه المعرفة الإضافية تدخل حيز الإدراك عبر البنية اللغوية التي تكونه، أي من جراء سماعه لكلامه انطلاقاً من سماع الآخر له (أي المحلل).

وهنا يشير لاكان إلى أن ديناميكية التحليل تقوم على أساس العلاقة مع الآخر الكبير الذي يتجسد بوجود المحلل. وإذا أردنا أن نفهم ماهية اللاوعي(اللاشعور)، فما

---

(1) انظر حالة فتاة سحاقية.

علينا إلا أن نكشف عما يتحكم بعلاقة الذات بالآخر. وهي، كما يؤكد لاكان، علاقة لغوية منذ أن ارتبط الرضيع،كما بيّنا سابقاً، بطلباته من الأم. أي لا وجود لشيء ما خارج إطار اللغة، فكل التخيلات والأفكار هي تعابير لغوية يتداولها الإنسان في علاقاته مع الآخر لكي يعطي تعبيراً عن وجوده ورغباته. ولكن لهذه اللغة قوانين وقواعد لا يمكن تجاهلها أينما وجدت. الحاضر والماضي، والمستقبل، أو الأنا، والمخاطب (أي الأنا والأنت والهو)، والغائب. وهي ترتكز على عامودين: أفقي: ترابط المعاني فيما بينها بوصال مجازي. وعامودي تستخلص منه حسب الكناية. ومن هذا المنطلق وجد لاكان أن هناك تشابهاً كبيراً ما بين اللغة المتداولة واللاوعي (اللاشعور)؛ فما هو مجاز يصبح في اللاشعور تكثيفاً، وما هو كناية يصبح نقلة، وهذا ما أسهب فرويد في شرحه في كتابه تفسير الأحلام[1]. وتوصل لاكان إلى اعتبار اللاوعي (اللاشعور) «مركباً كاللغة»[*].

وليس التحليل النفسي إلا عملية لإخراج هذا اللاشعور من حيز الكبت إلى حيز الفعل عبر ديناميكية العلاقة المتمحورة حول التحويل (Transfert)، وذلك عبر تسلسل كلامي يحوي في طياته رغبات كانت إلى حد الآن في طي الكتمان، بل أكثر من ذلك، يعطي لمفهوم الذات، ولموقعية الأنا تصوراً بناءً فيه تجديد، وتحوُّلاً لصفتهما. فالإنسان لا يستطيع أن يعطي معنى لوجوده إلا عبر اللغة التي تعبر عنه، والتي تكونه. فهو تركيبة لغوية يتوخى من خلالها التعريف عن ذاته بكل رغباتها، وبالمقابل انتزاع رغبة الآخر بالاعتراف بها. وهذا ما يلخص العمل التحليلي، لأن الإنسان جاهل في أكثر الأحيان فيما يرغب، تائه في سراب التماهيات النرجسية التي تضلله نتيجة اختلاط الأمر عليه ما بين طلبه ورغبته.

غير أن الكلمات لا تتساوى فيما بينها، فهناك ما هو عابر لا يعني شيئاً بالنسبة للمتكلم، وهناك ما هو بارز يصعب قوله، ويؤدي في حال حصوله إلى مفترق تتوزع فيه معانٍ عديدة تعبِّر عن الذات نفسها. وهذا ما يميزه لاكان بتعبير «الدال»

(1) راجع الفصل السابع من كتاب «تفسير الأحلام»، ترجمة: مصطفى صفوان.
(*) structuré comme un langage أي اللاوعي مركب على شبيه اللغة.

(Signifiant) استعارة من علماء الألسنية. يفصله عن المدلول ـ دال/مدلول ـ الدوالي ـ حائط لا يمكن اختراقه. بمعنى أن أي دال آخر لا يمكن أن يفي المدلول حقه من التعبير. فهذا الفارق بين الدال والمدلول مستمر دائماً رغم حلول الدوالي الأخرى، عبر السلسلة الدالة. ويعطي مثالاً على ذلك في مقالين: الأول «الرسالة المسروقة»[1]؛ والثاني[2]: وقد أوضحناها في الفصل السابق عن السفراء. فالدال بحسب تعريفه هو ممثل بالنسبة إلى المدلول... بغض النظر عن المعنى، فهو بارز ومستقل عن الجوانب الأخرى، ولا يرتبط إلا بالتعريف بالنسبة إلى دال آخر، كما هو الحال «لما يسمونه عادة السفراء »، فيقولون مثلاً: ممثل فرنسا. ماذا يفعل هؤلاء السفراء عندما يبحثون فيما بينهم؟ إن كل واحد لا يلعب دوراً بالنسبة للآخر إلا بما تقتضيه وظيفته كممثل صاف، لا يدخل في الاعتبار أي معنى خاص به. عندما يجتمع السفراء لحوار ما، فمن المفترض أن يمثلوا شيئاً ما، لا يأخذ بعين الاعتبار أية خصوصية لوجودهم، وهي بالطبيعي متقلبة، تتعدى حدود شخصه، لكي يقتصر دورهم على من يمثلوهم على فرنسا أو انكلترا أو اميركا، إلخ. هذا هو تعريف استقلالية الدال.

حتى في حوارهم فإنه من غير المسموح أن ينقل إلا ما تقتضيه وظيفته كدال صاف، فهو ليس ملتزماً بأن يأخذ بعين الاعتبار حضور الآخر، كونه رجلاً ظريفاً أم لا... وكلمة ممثل (Représentation) هي ما وردت عند فرويد، يجب أن يؤخذ بهذا المعنى. الدال يجب أن يتقيد بهذا النص، فهو بالطرف المتناقض للمعنى.

فالدال إذن هو التعبير المميز الذي يدخل في عملية الاتصال بالآخر، وهو ما يكون الذات في بنيتها. يعني أنها مركبة من سلسلة دلائل تتشابك فيما بينها، وليس لها وسيلة للتعبير إلا عن طريق الفعل اللغوي. لأن الكلام المعبر والمليء، هو الذي يأخذ صفة الفعل . هذا ما يتأكد لنا في العمل التحليلي، بالمقارنة مع الكلام الفارغ الذي لا يقدم ولا يؤخر، إنما إذا اقترب المريض من الكلام المعبر نراه يرتج في داخله ويهتز كل عضو في أحشائه، ويرتبك لسانه، حتى إذا ما تمكن من إفضائه نرى

---

(1) J. Lacan , Les Ecrits.

(2) J. Lacan, Séminaire II.

بعد ذلك أن ما تفوه به كان له أكبر الأثر في تغيير نوعي في بنيته، لأنه أعطى تعبيراً صادقاً عن رغبة كانت إلى الآن في حكم المكبوت.

والسؤال هنا: ما هو موقع الأنا المخاطبة، وهل تعبر فعلاً عن مكنون الذات؟ أم أنها تضللها ـ كما هو الحال عند العصابي ـ عما تصبو إليه؟ فعندما أقول مثلاً: أريد كذا وكذا، هل يعني حتماً ما أريد، أو أنني أبغي من وراء ذلك رغبة أخرى، تكون الأنا قد احتلت مكاناً في الحوار على غير علم منها لتضليل الآخر؟ فالأنا هذه لا تحتل دورها الفعلي والمليء، إلا عندما تتمكن من أن تنقل بصدق رغبة الذات. فالعلاقة بالتحليل ليست بين الأنا المخاطب التي تنقل الطلبات المموهة، وأنا المحلل؛ إنما بين الذات اللاواعية (اللاشعورية) عبر قولها، والذات اللاواعية (اللاشعورية) المفترض إدراكها عند المحلل. فهذا التخاطب لا يدخل في العلاقة شخصين فقط، كما هو مفترض، إنما أربعة لكل دوره. وهو موضوع يتطلب بحثاً خاصاً.

ورفعاً لكل التباس يجب التوضيح ما بين الأنا المخاطب، والأنا الفعلي (Ego) التي خصها علماء النفس بميزات خاصة أصبحت فيما بعد محوراً لعلم النفس الحديث.

كيف نشأت هذه الأنا، وكيف تكونت؟ هذا ما لم يشر إليه علماء النفس. واعتماد فرويد لمفهوم الأنا لم يكن إلا من باب المجاز لكي يسهل فهم نظريته النفسية(*).

فهذه الأنا ليس كما يتصور البعض عضواً يخلق مع الإنسان، ينمو، ويتطور، ثم ينضج لكي يصبح مميزاً، ومخاطباً للآخر. بل هي نتيجة تصور يتكون عبر مراحل الخبرات والصدف والأحداث التي يمر بها الطفل. فإذا أخذنا على سبيل المثال عداً حسابياً معيناً «عشرة»، فنحن بحاجة لمعرفة بداية العد الذي أوصلنا إلى هذا الرقم. فلا بد عندئذ من طرح العملية التي طرأت وبشكل أساسي لكي يتم الانتقال من الصفر إلى الواحد، ومنه إلى الثاني. أما فيما يلي فالعملية تصبح متشابهة.

فالطفل قبل أن يخلق، ينتقل من اللاوجود إلى الوجود. كان في نقطة الصفر وأصبح فيما بعد في الآحادي. لا يمكنه أن يميز الآخرين كأعداد متتالية إلا إذا تمكن من عد نفسه كواحد مميز. وهذا العد لا يتوصل إليه إلا من خلال إدراكه لنقصانه، أي ناقص واحد، وهي عملية ترميزية لوجوده. فالرمز يعني غياب الشيء.

(*) Freud 2. Cinq essais de psychanalyse.

إذن، ولكي يتمكن من ذلك، لا بد من دخول عالم الرموز الذي يسبح به منذ ولادته. فهو كائن يتنقل من كونه كتلة من لحم ودم إلى إنسان يشار إليه باسمه، ويخاطبه الآخر بكل أمنياته ورغباته، عبر الدوالي الرمزية التي يلتقطها لكي يتعامل بها في التعبير عن وجوده. فبفضل مخاطبة الآخر له، واعترافه به ينتقل من نقطة الصفر إلى العد الأحادي للتماهي الأولي، وهذا ما يفسره لاكان في مرحلة المرآة التي تعتبر أساسية في تكوين الأنا. وتتطلب إيضاحاً أكثر مما ذكرنا سابقاً.

مرحلة المرآة[1]: كيف تتكون الأنا المخاطبة؟ ومن أين مصدرها؟متى يصبح الإنسان في عداد الآخرين يحاورهم من منطلق الأنا؟ لا بد من عملية نفسية يمر بها لكي تصبح الأنا مصدر قوله وفعله. هذا ما يجيب عنه لاكان في مرحلة المرآة. أي اللقاء الأول ما بين الطفل والصورة التي تعكسها له المرآة. واللقاء له آثاره البعيدة المدى، سواء على الصعيد الجسدي أو النفسي. ويترتب عليه تحولات مستقبلية في بنائه النفسي.

فالأنا محورها الجسد، كما ورد عند فرويد، وهذا الجسد لا يمكن إدراكه إلا عبر التصور الذي تعكسه المرآة ورؤيته للآخرين أمثاله. ولهذا الاكتشاف قاعدة بيولوجية، بالإضافة إلى آثاره النفسية. فالحمامة مثلاً يقول لاكان: لا تبيض إلا عندما ترى حمامة على شاكلتها مهما كان نوعها وجنسها. وكذلك الأرامش أمثاله. الأرمش لا يتم نضوجه وينتقل من حالة الوحدة إلى الجماعة، إلا بعد رؤيته للأرامش أمثاله.

فالأنا المخاطبة لا تتكون نواتها إلا بعد مشاهدة الطفل لصورته في المرآة، فهو يتماهى بها. ويكون هذا التماهي هو الأول الذي ينقله من حالة التجزئة الجسدية التي كان يغرق بها إلى حالة التوحد والكمال الصوري للجسد. وأفضلية هذه الصورة كونها تسبق نموه ونضوجه الجسدي. فهو يحقق عبر هذه الصورة التي يلتقطها سبقاً زمنياً يحقق له حداً فاصلاً بين فوضى التجزئة التي كان يتخبط بها، واكتمال يصبو إلى الوصول إليه. هذه الصورة المتمثلة أمامه، تصبح الأنا التي يتماهى بها، أي في نفس الوقت كركيزة في داخله، يسقطها شكلاً في الخارج ويحدد مكانه في الفضاء بين معالم الأشياء التي يكتشفها، والآخرين أمثاله الذين ينافسوه. وهي تمكنه أيضاً من احتواء مخاوفه الناجمة عن إدراكه لواقعه السابق المجزأ. والدليل على ذلك هو ما يتبين لنا في الخبرة التحليلية عندما يتوصل التحليل إلى تحريك الدوافع العدوانية

(1) J. Lacan, Les Ecrits (Stade du miroir).

الدفينة، فتظهر أحلام لأوصال الجسد المجزأة. أو ما يحصل عند الذهاني من شعور بانفصال أعضاء جسده عنه.

ويقول لاكان: «مرحلة المرآة هي مأساة من حيث إن الاندفاع الداخلي يجعل من انتقاله من العجز إلى التخطي حيث كانت الذات المأخوذة بوهم التماهي الفضائي، حدثاً يمكّن الهوامات التي تتتالى من صورة جسدية متناثرة الانتقال إلى شكل يمكن تسميته بعملية تمجيدية لتكامله».

هذه الخبرة التي يتعرض لها الطفل تمر بثلاث مراحل: تتزامن ما بين السنة والستة أشهر والسنتين.

المرحلة الأولى: تتميز باختلاط بين وجوده والآخر، فهو لا يميز نفسه، ولا يعرف حدودها. يعيش في حالة اندماجية مع الأم التي تؤمن كل حاجاته البدنية؛ ونظرته إلى الأطفال هي تصور ذهني لوجوده، يرى نفسه من خلالهم. فإذا بكى طفل بكى معه، وإذا زجر أو قوصص يشعر بأن ذلك يطاله، فينتابه خوف مفترض أن يكون من نصيب الآخر. وإذا حصل أن صادف صورته في المرآة، يتعامل معها على أساس أنها آخر، يكرر بشكل آلي الحركات التي يشاهدها، أو يقلد الآخر دون أن يميز بين نفسه وبينها. فهذه المرحلة الأولى يسودها تسلط المخيال على الواقع، ترهنه بصورة الآخر بحكم جبرية هذا المخيال. يتأكد ذلك في بعض الحالات المرضية للانفصام، إذ إن المريض يفقد تميزه لذاته، ويصبح مرتهناً خيالياً لصورة المتواجد أمامه، يقلده، يكرر حركاته بشكل عفوي دون أن يكون له إرادة في ذلك. أي يصبح مسلوباً بهذه الصورة التي تملي عليه تحركاته.

المرحلة الثانية: وهي أساسية، لأنها تمكّن الطفل من التمييز بينه وبين الآخر، ويكتشف أن الصورة التي يراها في المرآة ليست إلا صورته، فيتماهى بها لكي تصبح النواة الأولية للأنا المخاطب. ولكي يتحقق له ذلك لا بد من مرجع يعرفه عليها. فالطفل المأخوذ بهذه الصورة إلى حد الدهشة التي يرى بها آخر يلتفت إلى من وراء الأم أو أي راشد آخر، متسائلاً عن ماهيتها، فيأتيه الجواب بأن هذا أنت . فهذا الاعتراف مهم جداً، لأنه ينقله من الداخل المفكك إلى التقاط صورته في الخارج، مما يمكنه من تحديد موقعه الفضائي لكي يصبح أنا مخاطباً يسقطه على الآخرين، ويتعامل معه من باب طرف ثالث؛ لذا نرى الطفل في أول تعامله مع هذا التماهي

الذي يشير إليه باسم الغائب: وليد يريد أن يأكل، أو وليد مريض، وليد موجوع وهكذا ...

وهذه المرحلة تبدأ بالتماهي بالصورة، يشير بها إلى ذاته قبل أن ينقلها من الخارج إلى الداخل لكي تصبح الأنا المعتمدة في المخاطبة. فبدلاً من أن يقول: وليد مريض، يصبح قوله: أنا مريض. فإدراكه لهذه الصورة عبر اعتراف الآخر به، يؤدي إلى التماهي الأولي، ينقله من حالة التفتت والعجز إلى حالة التكامل والوحدة الكلية في الشكل(*).

وفي **المرحلة الثالثة**: بعد أن يدرك الطفل أن هذه الصورة صورته، يقوم بعملية السيطرة والتحكم بها: يداعبها، يغيبها ويحضرها حسب رغبته، وذلك ضمن شعور بالنشوة والنصر، مناقض تماماً لشعور اليأس والعجز الذي كان يسيطر عليه عندما كان في حالة التفتت. فهو يكون قد اقتحم هذه الصورة، والتقطها، وتحكم بها لكي يدمجها، ويعتمدها كمحور أولي للتعبير عن ذاته. لكن يجب أن لا يخفى علينا أن هذه العملية لا تتم إلا عبر النظر، أي عبر التصور المخيالي. فهي مرحلة يسيطر عليها الخيال من بدايتها. والأنا المتكونة تصبح مرهونة بهذا الخيال، مسلوبة به، لأنها حققت سبقاً وانتصاراً على واقع جسدي مفتت. والفارق بين الحالتين يستمر في كل تطلعاته المستقبلية، لأنها تعزز أنا مثالياً ومتكاملاً يصبو إلى تحقيقه انطلاقاً من نقص يلازمه مدى الحياة.

أولوية القضيب

يتبين لنا من مرحلة المرآة أن الطفل يتمكن من التماهي الأولي الذي يكون الأنا المخاطب، والذي يصبح وحدة قائمة بحد ذاتها، مرتكزها الجسد، فتحقق له الفصل بينه وبين الآخر، في نفس الوقت الذي يرى نفسه مرهونة به، لأن وجوده ضروري للاعتراف به، سيما وأن هذه الأنا ترتبط عبر الخيال في علاقة لغوية مع هذا الآخر في كل طلباتها.

وهذا التماهي الأولي يشكل نقطة الانطلاق لدخول المرحلة الأوديبية التي تشكل

(*) هذه المرحلة الثانية لا يمكن ان تتحقّق لو أزاحه الآخر الذي كان يتصوره لكي يحل محله. بداية علاقة الإنسان بالانا يقول لاكان انها علاقة ثنائية تتمحور حول قتل الآخر: أي صراع إما أنا وإما أنت. فهي إذن بارانويا لا يخرج منها الطفل كي يتصالح مع الآخر، قرينه، إلا بواسطة تدخل اللغة كطرف ثالث.

المنعطف الرئيسي في تحوله من إنسان مسلوب الإرادة، أسير الطلب، إلى إنسان راغب سوي في مجتمعه.

عقدة أوديب ليست أسطورة، فالإنسان يعيش تزامن الأحداث في حياته. وهي في الوقت نفسه ليست واقعاً، لأننا لم نر حتى الآن أحداثاً، تكرس هذا الواقع؛ بل هي قدر، لا بد أن يصيب كل من يصبح إنساناً وراغباً. العقدة الأوديبية هي مسيرة لاواعية (لاشعورية) تصيب الإنسان على غير علم منه. وحتى فرويد لم يكتشف عقدة الأوديب عنده إلا عن طريق استكشاف لاوعيه (لاشعوره) عبر الأحلام. هي إذا مسيرة تكون تنظيماً لمسيرة الرغبة التي تحرك الإنسان في منحاها القدري. يمر بها، ويطوي صفحتها لكي يولد آخر يختلف تماماً عما كان عليه في المرحلة الأوديبية . لها بدايتها ونهايتها، تعترض النمو الطبيعي لنشوء البشر، أي أنها تنقلهم من عالم الطبيعة حيث نشوء الحرية الكاملة لكل النزوات والشهوات والغرائز البدائية، إلى عالم الحضارة المرتكز على الكبت والتسامي بالنزوات بتحويلها عن أهدافها، وبفقدان الموضوع الجنسي الأساسي، والكف عن السعي وراء متعة جنسية إضافية. فالحضارة الإنسانية كانت ولا تزال وليدة هذا التحريم مما جعل الإنسان يفترق عن مسيرة الحيوان بالتفتيش عن سبل أخرى فكرية تحقق شيئاً مما فقده، وتعطي معنى لوجوده وللنقصان الحاصل عنده. وتمكنه من الارتقاء إلى مستوى جنسه، الذي يحدد به انتمائه.

فضل التحليل النفسي يعود إلى أنه كشف عن وجود هذه العقدة في اللاوعي (اللاشعور)، فأي خلل يطالها في تطورها لا بد أن يترك أثراً دائماً يترجم فيما بعد يسمى بالعصاب أو الانحراف. والتحليل كان يصبو منذ نشوئه إلى إعادة تصحيح هذا الخلل عبر عملية التحليل النفسي. وهذا ما كان محور اكتشافات فرويد في المرحلة الأولى .

وهذه العقدة الأوديبية كما سنرى هي مرحلة متممة للمراحل التي تكلمنا عليها، من حيث كان للنزوات دورها الأول في بزوغ الحاجة والطلب. فهي، كما قال فرويد، تنصهر، (أي النزوات) وتتخلى عن أغراضها الجزئية لتكتمل في نزوة جنسية موحدة تتمحور حول الفالوس ووظيفته. وهي ما تسمى بالمرحلة الفالوسية.

ولكن قبل أن ندخل في موضوع العقدة الأوديبية، يجب توضيح أهمية القضيب، وسبب تمحور العديد من مشتقات حياتنا النفسية والاجتماعية . فهنالك العديد من الرموز التي تشير إلى اهمية دور القضيب في أحلامنا، أو في حياتنا الاجتماعية،

انطلاقاً من التنافس على السلطة، والمال، إلى ما هنالك من طموحات مادية، وهوامات جنسية، وغيرها في مجالات عديدة بحكم الأساطير والأشكال الهندسية، والممتلكات، ووسائل القتال، والفن، والأدب، إلخ.

فمفهوم الفالوس في التحليل النفسي لا يمكن فصله عن الأب، ودوره العائلي، وموقعه الاجتماعي. فمجتمعنا هو مجتمع بطريركي، والتسلسل العائلي هو أيضاً تسلسل أبوي، حيث إن الامرأة تمحى من السجل العائلي لكي لا يبقى إلا اسم الأب.ويعود دور الأب إلى كونه يملك الموضوع الفالوسي دون غيره بالنسبة للطفل وعلاقته بالأم.

ولهذا الأب دور أساسي في تكون اللاوعي (اللاشعور)، وكما يقول لاكان، ليس مقصوراً على حضوره أو غيابه، أو هيبته وضعفه، إنما على اسمه. فاسم الأب مجاز، يشكل قاعدة في بنية السلسلة الدالة، يحوطه الكثير من الإبهام، كونه دخيلاً على علاقة الأم بالطفل، لا يدرك أهميته إلا من خلال تعريفها له. إذا ما كان هنالك شك حول الانتساب إلى الأب، فما من مرجع بيده سوى الأم[1]. فارتباط الأم بالطفل ارتباط عضوي، بيولوجي، لا يتناوله الشك أبداً[*].

إذن، ما هي أهمية الفالوس في البنية النفسية، وما هو الدور الأساسي لوظيفة اسم الأب، كونه، كما يسميه لاكان، مفترقاً بنيوياً له آثار بعيدة.

هذا ما سنأتي على شرحه انطلاقاً، كما بينا سابقاً، من اكتشافات فرويد، وصولاً إلى تأويلات لاكان لها.

المرحلة الفالوسية تشكِّل المنعطف الأساسي الذي يمهد للدخول في المرحلة الأوديبية، وتدخُّل اسم الأب وكما يسميه لاكان المجاز الأبوي (Métaphore paternelle)، يشكل بالمقابل، المدخل لعقدة الخصاء والمخرج منها في آن واحد باتجاه الارتقاء نحو تحديد جنسه، واعترافه بالجنس الآخر، ثم الزواج، والإنجاب، والتماهي بأبويته.

فحصيلة هذه العملية هي الخروج من المرحلة الأوديبية، واغلاق ملفها نهائياً إذا ما تمت بنجاح. أي كما يقول فرويد، عن الباخرة التي تغرق يبتلعها البحر مع كل محتوياتها، ولا يبقى شيء منها على سطح الماء. أي أن ما يحصل يندثر في حقل

---

(1) وحتى العلم البيولوجي الحديث غير قادر بشكل حاسم.

(*) إذا تناوب الانسان الشك يمكن ان يصنف باتجاه الأب، أمّا اليقين فهو دائماً إلى جانب الام.

اللاوعي (اللاشعور)، ويصبح في حكم التحول إلى تمثلات أخرى كالأنا الأعلى، ومثال الأنا والأنا المثالي، إلخ.

الفالوس يأخذ أهميته من أسباب بيولوجية من ناحية، ومن موقعه النفسي في العلاقة بالآخرين من ناحية ثانية. اكتشاف الطفل لذكره يأتي عبر الأحاسيس العصبية المتجمعة به، والتي تشعره إذا ما توصل إلى مرحلة النضوج، بلذة تفوق كل الملذات التي عرفها من المناطق الشبقية الأخرى. وهذا ما سماه فرويد بالعادة السرية الأولى[1]. ويكتسب عضو الذكر أهمية إضافية، من الموقع العلائقي مع الأم والأب والآخرين. فهو مميز لكونه طفلاً ذكراً، بصورة خاصة بالنسبة للأم. ويتولد عنده شعور بأن الاهتمام به، ناتج عن امتلاكه للعضو الذي يولد له أكبر الملذات. على غرار الثدي الذي يعتبر اهتمام الناس به ناجماً عما يملك من ثروة كبيرة. ويعمم الطفل، كما أوردنا سابقاً وجود هذا العضو على كل المخلوقات، فتحول الليبيدو عنده إليه، والاستثمار النرجسي الذي يوظفه، يقنعانه بما لا يملك الشك، بأنه لا يمكن أن يكون ناقصاً عند الغير.

الشيء نفسه صحيح بالنسبة للفتاة، فهي توظف بظرها اقتصادياً، ونرجسياً بالقيمة ذاتها. فمن هذا المنطلق قال فرويد: بأنه لا يوجد إلا ليبيدو فالوسية سواء بالنسبة للفتاة أو بالنسبة للفتى، والتمايز فيما يجعل الفتى يأخذ صفة الذكر، ويتماهى بجنسه، والفتاة صفة الأنثى، ولا يحصل إلا بعد المرور بعقدة الخصاء . ففي المرحلة الفالوسية لا يوجد ذكر وأنثى، فكلاهما يرضخان لأفضلية الفالوس وأسبقيته. وترجيح فرويد لهذا الموضوع وتعميمه، لم يتراجع عنه طيلة حياته. رغم كل الضغوطات والانتقادات والنظريات المغايرة التي تعرض لها من قبل تلامذته، وعلى رأسهم أرنست جونس. ويؤكد لاكان ذلك في قوله[2] «هذه الأرجحية لم يتراجع عنها فرويد أبداً .... يبقى الموضوع الفالوسي نتاجه الفكري، بالنسبة للاقتصاد الليبيدي، في موقع محوري، سواء للإمرأة أو للرجل. نجد انها بالفعل حالة أساسية، مميزة لكل ما تقدم به فرويد، وأصر عليه في نظرياته. فأرجحية الفالوس بقيت محورية دون أي تغيير،

(1) باعتبار أن ما يحصل في سن البلوغ ليس إلا العادة السرية الثانية، بعد أن تكون قد طويت في طي النسيان أو الكبت. ولكن الهوام الذي كان يحركها يستمر في المرحلة الثانية على غير علم منه.

(2) J. Lacan, Séminaire III, p. 351.

رغم كل التطورات التي حصلت لاحقاً في نظريته لكل المراحل المخططة للحياة النفسية».

فهذه النظرية[1] لم يتقبلها جونس، وبقيت موضع لغط في أوساط بعض المحللين. فهو يقول: إن الإنسان خلق رجلاً وإمرأة، وإن المرحلة الفالوسية ليست إلا موقعاً دفاعياً بمثابة العارض يعتمده الطفل في غياب إدراكه اللاواعي (اللاشعوري) لواقعه الجنسي. وتنطبق هذه النظرية بصورة خاصة على الطفلة. أما بالنسبة لعقدة الخصاء فقد اعتمد كلمة من مصدر يوناني (Aphanisis)، وهي تعني «زوال الرغبة الجنسية». وهذا الخوف من غياب الرغبة يتعدى في مفهومه الخوف الذي ينتاب الطفل من فقدان عضوه الذكري، سيما بالنسبة للفتاة، لأنه لا يوجد ما يبرر خوفها إذا كانت تعلم مسبقاً بأنها محرومة سلفاً من هذا العضو . وهذا بالإضافة إلى وجود العديد من الرجال الذين يلغون بشكل نهائي وظيفة عضوهم دون أن يلغوا رغباتهم الجنسية. فالخوف لا ينجم إذاً من فقدان الذكر، ولكن من فقدان الرغبة الجنسية عبر ذاتها. سنأتي على توضيح هذه المسألة عندما نتعرض لموضوع الأنوثة.

يجيب لاكان، بأن هذه المفاهيم الخاطئة ناجمة عن عدم فهم جونس لأبعاد النظرية الفرويدية لموضوع الفالوس. فالخوف من فقدان الرغبة الجنسية (Aphanisis) التي اعتمدها كمحور أساسي لتأويل عقدة الخصاء، ناجمة بالفعل عن اختلاط في التمييز ما بين الذكر (Pénis) والفالوس (Phallus). معالجته للموضوع أتت عن جهل بطبيعة الفالوس، ووظيفته، التي عممها فرويد على الذكر والأنثى. وجونس يرفض أرجحية الفالوس عند الأنثى، ولا يعتبرها محركة لعقدة الخصاء. ما تخشاه الفتاة ليس فقدان القضيب، إنما الخطر الذي يهددها في انفصالها عن موضوع الحب. وينتهي به الاستنتاج إلى القول بأن التطور الليبيدي يتمحور ليس حول الفالوس، كما يقول فرويد، إنما حول الـ (Aphanisis)، وهذا يعمم بالسواء على الرجل والمرأة.

ما خفي عن جونس، يقول لاكان، هو مرجعية الموضوع الفالوسي. لأن هذه المرجعية في عقدة الخصاء لا تمر عبر العضو الذكوري، إنما تعود إلى موقع الأب كوسيط بين الطفل وأمه، وبين الأم والطفل. فهو قد خفي عن أهمية نقصان الموضوع بسبب اختلاط الأمر عليه في التميز ما بين الحرمان والخصاء. الطفل يدرك بأن الأم

(1) E. Jones, Œuvre complètes.

محرومة من الذكر، وهذا يمنعها من أن تتصرف كما لو كانت تملكه، (أي كما يقال في التعريف التحليلي بالأم الفالوسية). اختلاط الأمر على جونس جعله يحصر موضوع الخصاء في نظرية الحرمان دون الأخذ بعين الاعتبار مفهوم النقصان في العلاقة الفكرية التي تربط الأم بالطفل والتي يتوسطها الأب كمرجع أساسي.

يقول لاكان[10] موضحاً: «لا يمكن اختصار هذه العناصر بسهولة وبساطة كونها مخيالية فقط. فما نجده في الخيال تحت شعار الأم الفالوسية ليس متجانساً، تعرفون جميعاً، ان عقدة الخصاء متواجدة في الحالة الثلاثية للأوديب. هذه الحالة لم يحصل لها التوضيح الكامل من قبل فرويد. لكن بفضل فعل استمرارها الدائم، فهي قابلة لتوضيح لا يمكن بلوغه إلا إذا اعترفنا بأن الطرف الثالث المحوري بالنسبة إلى فرويد، والذي هو الأب، يمثل عضواً دالاً غير قابل للاختزال تجاه أي نوع من الخيال المشروط».

هناك فارق كبير ما بين الذكر والفالوس. فإذا كان الأول يشير إلى عضو تشريحي، فإن الثاني لا يعني إلا رمزه. فالقضيب هو عنصر دال. والموضوع الفالوسي قبل كل شيء هو موضوع من حيث إن طبيعته تكمن بكونه عنصراً دالاً يميز الحالة الأوديبية.

أولوية القضيب بقيت سائدة في كتابات فرويد، منذ أن لمَّح إليها في كتابه«ثلاث مقالات حول النظرية الجنسية» وأتبعها فيما بعد في مقاله «التنظيم التناسلي الطفلي»1923 . ففي هذا المقال أكد بأن «الصفة الأساسية لهذا التنظيم التناسلي عند الطفل في الوقت نفسه،التي تميز التنظيم الجنسي النهائي عند الراشد. حصيلة كل ذلك بالنسبة للجنسين،هو أن عضو الذكر فقط هو الذي يلعب دوراً أساسياً، فلا يوجد أولوية للتناسل إنما هذه الأولوية تعود إلى أفضلية الفالوس»[11].

هذه الأفضلية تستمد أهميتها من التباين الجنسي التشريحي، وما يحصل من نتائج بالغة الأهمية على صعيد خيال الطفل. الطفل يدرك نقصان الذكر عند الجنس الآخر، ولكن العملية تتعدى عملية المشاهدة والإدراك إلى عملية فكر يلعب فيها المتخيَّل الدور الأساسي. يقول فرويد: «عندما يفهم نقصان الذكر بأنه ناجم عن الخصاء، حينئذ يجد الطفل نفسه أمام مواجهة تهديد الخصاء في شخصه، كون التطورات

---

(1) J. Lacan, Les Ecrits, signification de phallus.

(2) التنظيم التناسلي الطفلي ـ فرويد، 1923.

المتتالية المعروفة تغنينا عن إعادة سردها. نتقدم بالقول فقط بأنه لا يمكن إعطاء الخصاء حقه من التعبير إلا بشرط إدخال أولوية الفالوس في الحساب».

يتبين لنا من قوله هذا، أن أولوية الفالوس تتعدى بمفهومها الحدود المرسومة في التباين التشريحي بين الجنسين. فالنقصان يدخل مفهوم الفالوس من باب المتخيل الذي يؤدي بالضرورة إلى ترميزه من خلال علاقته بالآخر كونه موضع هذا النقصان. أي أنه ينتقل من ملاحظة وجود هذا النقصان عند الجنس الآخر إلى مفهوم مخيالي يعمم على مجمل العلاقة. من هذا المنطلق تتحول الملاحظة التشريحية للفارق الجنسي إلى عملية نقصان لموضوع ما، يتناولها المخيال، لكي يمحورها حول الفالوس كموضوع أساسي لعملية الخصاء، وينقله من الداخل إلى الخارج على أن الخصاء هو تهديد يأتي من الخارج. كذلك الفتاة التي كانت تعتقد بأنها تملك القضيب، ينتابها خيال أن الآخر (الأم) التي تشكو من النقصان تعتبر أن الأب هو المسبب الأساسي في انتزاعه منها. كما أن الطفل الذكر يخيل إليه بأن الفتاة كانت تملك القضيب، ولكن لسبب ما انتزع منها بواسطة تدخل خارجي. ويتبين لنا هنا كيفية تكون الهوام انطلاقاً من هذا المعتقد المخيالي. ولكن مسألة تأصل الفالوس في المخيال تبقى مرهونة بعملية رمزية تتبعها نتيجة تدخل المجاز الأبوي. كونه يحمل في طياته ما يرمز إليه المخيال من نقصان سواء بالنسبة للفتاة، أو بالنسبة للفتى. ويصبح بالنتيجة المدخل مشروعاً للمرحلة الأوديبية.

المجاز الأبوي، بنظر لاكان، مرتبط ارتباطاً بنيوياً بالمرحلة الأوديبية، حيث يمثل المدخل والحل المرتجى في آن واحد. والتعبير الذي يعطيه للعقدة الأوديبية يصر على اعتباره متمماً لما ورد عند فرويد في تحليله المنطقي. من حيث إن هذا «الاستيلاء الخيالي» ينعقد مع المجال الرمزي الذي يخرجه من حقل الخيال إلى عالم الرمز عبر العلاقة الثلاثية. فنحن من دون تدخل المخيال والرمز، لا يمكن أن نفهم حقيقة طبيعة أولوية الفالوس والعقدة الأوديبية. واللغط الحاصل حول هذا الموضوع عند بعض المحللين، كان نتيجة اختلاط الأمر عليهم بين دور المخيال ودور الترميز في تحديد موقعية الفالوس في العلاقة الثلاثية.

الفالوس هو مفهوم له طبيعته ووظيفته، وكما يقول لاكان[1] لا يمكن اعتباره

---

(1) Ibid.

هواماً، لأنه لا يقتصر على حدود المتخيل، وليس كما اعتقده البعض موضوعاً جزئياً داخلياً سيئاً أو جيداً حسب نظرية أبراهام أوميلاني كلاين، ليس هو بظر الفتاة أو ذكر الفتى، رغم أنه يرمز إليهما. لأن الفالوس حسب تعريفه هو «دال من حيث إن الوظيفة الملزمة به في اقتصادية الذات الداخلية في التحليل، يمكن أن ترفع القناع عن خفايا الأسرار التي يحويها؛ لأن الدال مخصص للكشف عن مجمل تفاعلات المدلول كون الدال يحددها بحكم وجوده كدال» .

فالدال القضيبي، كما سنرى هو محور بالنسبة لرغبة الآخر وتنفصل عنه عندما يتحقق له الإكفاء. فالرغبة هي ما بعد هذا الاكفاء، كون الرغبة دالاً لنقصان لا يمكن تحقيقه أو إشباعه فهي شرط مطلق لوضع حد للطلب. ويقول لاكان[1]: «هكذا فالرغبة ليست إشباع شهوة الحاجة في الإكفاء، ولا طلب الحب، ولكن الفارق الناجم من طرح الأولى للثانية، والتي تؤدي إلى ظاهرة الانشقاق نفسها». ويتضح لنا من خلال ذلك أن الدال الفالوسي يتحكم في العلاقة الجنسية لكونه محور طلب كل الأطراف باتجاه الآخر الكبير. ويلوح محورها في الأفق بقناع براق يجذب الطرفين معاً، ويتهيأ لكل واحد منهما أنه هو المحبوب لما هو عليه، غير أن هذا القناع البراق لا يخفي في الواقع إلا نقصاناً يطال الآخر الكبير نفسه. وإذا كان الطلب يدفع الرغبة في هذا الاتجاه، إلا أنه يتوقف عند طلب الحب. أما الرغبة فهي رغبة قضيبية يشير إليها الدال كناية عن نقصان وجود.

والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف أن هذا الدال الفالوسي الذي يكتسب هذه الأرجحية في إعطاء الحق للرغبة،تصبح له الأولوية في تأسيس الرغبة، وفي انشقاق الذات على نفسها ما بين دال ومدلول؟ هذا ما لا نفهمه إلا عبر تدخل المجاز الأبوي.

المجاز الأبوي

لماذا المجاز الأبوي؟ تتكون العلاقة بين الطفل والأم، كما ذكرنا سابقاً، على قاعدة تبادل المراسيل. فالطفل يتلقى العناية الكاملة من الأم من إكفاء حاجته، ولكن ما بعد هذا الإكفاء فطلبه هو طلب حب كما ذكرنا . وبالمقابل يتلقى الطفل مرسالاً

(1) Signification de phallus.

من الأم، يؤوله بأن إكفاءه ينجم عن الاكتمال الحاصل عنده، كونه يؤدي غايته في تكامل هذه العلاقة، بحيث إن الأول يملأ نقصان الآخر. من هذه القاعدة يدخل الأب كعنصر ثالث، ليقلب المفاهيم، ويحول العلاقة بين الطفل والأم من ثنائية إلى ثلاثية. له دوره وتأثير على مسار نمو الطفل، وإدخاله في المرحلة الأوديبية. ودور هذا الأب لا يقتصر على وجوده، إذ من الممكن أن تحصل حالة الأوديب في حال غيابه، كما أن العكس صحيح. فوجود أب متشدد، وصارم، ومانع لكل شيء، قد يؤدي إلى إلغائه بحكم النفي الحاصل لوجوده، نظراً لانعدام اعترافه برغبة الطفل وباستقطاب الأم نحوه . وهذا ما يحصل في حالة الذهان.

يستنتج من هذه المقدمة أن العمل المؤثر في هذه المرحلة ليس وجود الأب أو غيابه الفعلي، إنما اسم الأب ووزنه في العلاقة مع الأم وعبرها بالنسبة للطفل. فغيابه في رغبة الأم يؤدي إلى إلغاء دوره، وبالنتيجة إلى عدم اكتمال المرحلة الأوديبية. أما حضوره فيخلق بالضرورة طرفاً ثالثاً في العلاقة، يصبح مرجعاً للطفل يستطلع منه مخرجاً بعد أن يضع حداً للعلاقة الثنائية. فمن هذا المنطلق عني لاكان[1] باسم الأب المجازي، كونه دالاً مرجعياً استبدالياً يشكل المفترق الذي تتوزع منه الدلالات الأخر في تكون الذات، وخروجها من حالة الاستلاب إلى حالة الارتغاب. هذا ما سنأتي على شرحه في المراحل الثلاثية التي تمهد للدخول في المرحلة الأوديبية وما ينتج عنها من عقدة الخصاء المؤسسة للرغبة انطلاقاً من تماهي الطفل بجنسه، وبزوغ الذات إلى عالم الوجود.

المرحلة الأولى: يخرج الطفل قبل الولادة من اللاوجود إلى عالم الوجود. وهذا ما عنيناه سابقاً بنقطة الصفر. أي من الموت إلى الحياة. رالقدر يحتم أن ساعة الميلاد هي بداية العد العكسي نحو نقطة الصفر: البداية، عبر الحياة التي يفتش عبثاً عن معناها وغايتها ولا يكتشف في آخر المطاف أن نهايتها حتمية الموت حق قدر له منذ ولادته على غير علم منه.

وهو منذ ولادته ما فتىء يتعلق بموضوع حتى يفقده، ويفتش عن بديل عنه، ويتضح له في كل المراحل التي يمر بها بأن الموضوع البديل لا يحل مكان الموضوع المفقود، والفارق المتبقي بين الأول والثاني، هو البقية المتبقية التي تدفعه إلى

(1) J. Lacan, Séminaire III, La psychose, Seuil.

الاستبدال والتعويض؛ ولكن يبقى الفارق بين الأول والثاني بحكم المفقود غير القابل للتصور أو التجسيد، لأنه موضوع تعجز عن استرجاعه كل البدائل المستجدة.

وهكذا ينفصل عن رحم الأم، حيث كان يؤمن له الإكفاء من غذاء، ودفء، وطمأنينة، معزولاً عن كل الإثارات الخارجية[1] . فمنذ ولادته لا يفتأ الإنسان ينفصل عن مواضيع كانت محور حاجته وطلباته، ففي البداية عن المشيمة (Placenta) مورد غذائه، لكي يستبدله بثدي الأم، وفي مرحلة الفطام ينفصل عن هذا الثدي الذي يصبح كسابقه بحكم الموضوع المفقود. وكذلك في المرحلة الشرجية يواجه طلب الآخر بعد أن كان هو موضوع طلبه، بالتحكم في برازه. ويصبح هذا البراز موظفاً بأهمية ليست بعيدة عن المواضيع السابقة المفقودة، كل هذه المراحل تؤدي به إلى المرحلة الفالوسية، حسب تعريف فرويد، لكي يواجه مشكلة من نوع آخر ترتكز في قاعدتها على المراحل السابقة والتي تؤدي به في النهاية إلى خيار الاحتفاظ بالقضيب أو التخلي عنه عبر عقدة الخصاء. يقول لاكان في محاضراته اللاوعي «اللاشعور» إن المرحلة الأولى تتميز بتساؤل الطفل عن رغبة الأم. فما بعد إكفاء حاجته يصبو إلى نقصان الأم، ويحتل هذا المكان لكي يستقطب كل اهتمامها وإلغاء كل حاجة لها خارج وجوده. وهذا الآخر يعطيه لاكان مفهوم الكبير نظراً إلى أنه الوحيد الذي يرتهن به، ويعطي معنى لوجوده عبر تلبية حاجته، والاستجابة لطلباته.

ما هي رغبة الأم؟ يتساءل لاكان. رغبتها تنطلق من مفهوم حضاري، يضع الفالوس في أولوية الرغبة، لنقصان حاصل. في المرحلة الأولى يحاول الطفل أن يتماهى بموضوع هذا النقصان غير مكتف بالعناية، وإكفاء حاجته التي يحصل عليها. فهو يستحوذ على كل اهتمامها عبر التماهي بالفالوس، موضوع رغبة الام، وسريعاً ما يدرك أن وراء اهتمام الأم به يلوح الموضوع الناقص الذي يتعدى الطفل نفسه. ومرجعية هذا الموضوع لا تعود إلى الطفل إنما إلى الأب المفترض.

إنه يملك موضوع نقص الأم. وإذا ما تكاملت هذه الحلقة ما بين الأم والطفل، يغلق باب أمام تدخل الأب، وتصبح هذه العلاقة مصدر الانحرافات الجنسية، والذهان. أي أن الطفل يبقى سليب هذا التماهي بالفالوس، دون التمكن من الحصول عليه. يقيد من حريته ويصبح سجين التماهيات الانحرافية، من فتشية إلى غيرها، من

(1) وقد شبه فرويد هذه الحالة بالنرجسية التي تنتاب النائم. يغيب فترة زمنية شبيهة بالحالة التي كان بها في الرحم. أي ينقطع عن الإثارات الخارجية في شكل جنيني.

مسلك يقود إلى إنكار جنسه، بالتخنث (أي التماهي بالقضيب يتخفى وراء الألبسة النسائية).

ولكي نوضح هذه المرحلة الأولى من البنية النفسية، نجسدها بالرسم التالي:

المرحلة الأولى: العلاقة ما بين الأم ورغبتها اللاشعورية بالقضيب قبل ولادة الطفل:

الأم ـ ـ ـ ـ ـ الفالوس(نقصان) (البنية الحضارية المغايرة للخط الطبيعي).

الخط المتقطع يعني العلاقة اللاواعية (اللاشعورية) برغبتها بالقضيب.

بعد الولادة يتساءل الطفل: ما هي رغبة الأم، ما وراء حبها له، وعنايتها به؟
تصبح هذه العلاقة ثلاثية: الطفل الفالوس الأم

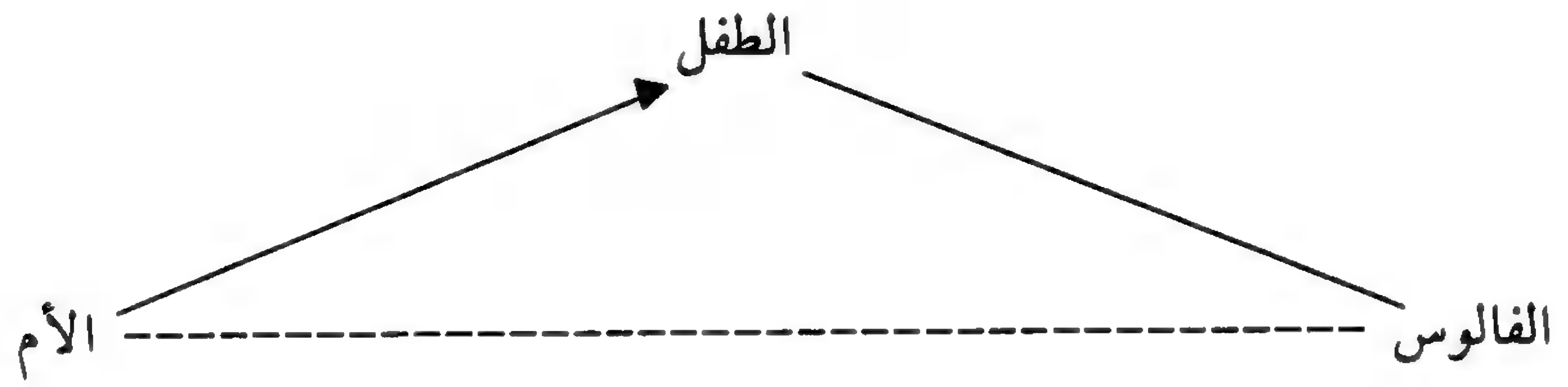

الطفل يتماهى برغبة الأم ـ والقضيب بموقع المنافس الذي يحاول عبثاً احتواءه عن طريق التماهي به.

المرحلة الثانية: الطفل يدرك بأن هذا الموضوع الذي تصبو إليه الأم يتعدى شخصه وحبها له. وأنه في حوزة طرف آخر، الأب، ومهما حاول أن يجذبها إليه فهو غير قادر على بلوغ اكتماله به. وهنا يدخل الأب بدوره الفعال الحاسم في اتجاهين: على صعيد الأم يحرمها من استكمال موضوع نقصها عبر الطفل، على اعتبار أن مرجعية رغبتها تعود إليه كونه الوحيد الذي يملك القضيب. وعلى صعيد الطفل يحرمه من موضوع رغبته، لأن توجهه إلى الأم كان نتيجة خطأ في تصوره. ولكي يخرج الطفل من هذا المأزق يحول توجهه من الأم إلى الأب. وهنا يكون مرسال الأب الموجه للطرفين معاً: حسب ما شدد عليه لاكان.

- إلى الطفل: أمك محرمة عليك ويستحيل عليك مضاجعتها.
- إلى الأم: مستحيل عليك إستعادة ابنك إلى أحشائك. تصبح العلاقة كالآتي:

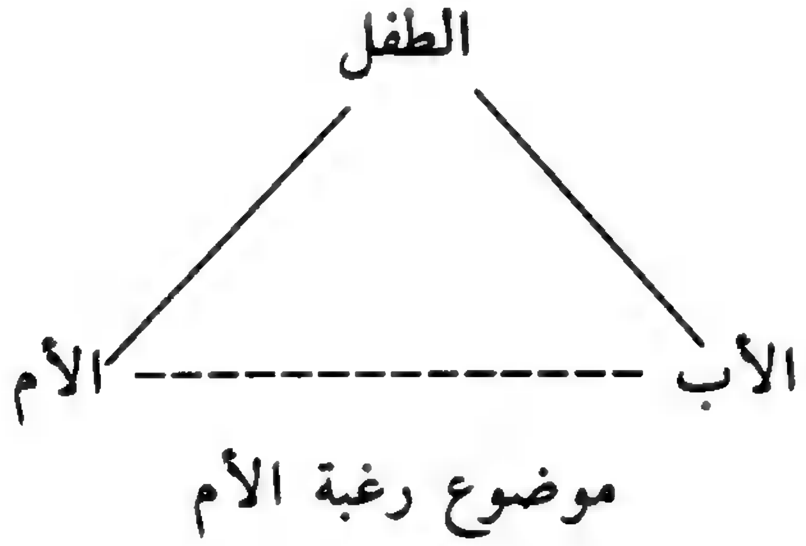

في هذا التحول يواجه الطفل لأول مرة قانون الأب (الآخر الكبير) في فرض سيطرته على رغبة الآخر (الأم).

وإذا ما رفض الطفل حرمان الأب للأم من القضيب، عندئذ يدخل في منافسة مع الغريم (أي الفالوس). وتطرح أمامه مسألة (To be or not to be) أن يكون الفالوس أو لا يكون. والجواب يأتيه من الأم بالتسليم، أو عدم التسليم، بقانون هذا الآخر، كونه موضع رغبتها أم لا. في هذه الحالة يكون الطفل قد دخل فعلاً مرحلة الأوديب.

المرحلة الثالثة: إذا ما تمت بشكلها الطبيعي، تكون قد حققت انحلال العقدة الأوديبية. تدخل الأب يبقى مشروطاً لكي يصبح فعالاً، بامتلاكه لموضوع الرغبة (الفالوس) ؛ فيتكرس بهذا الشرط التوجه نحو الزوجة، كونه يملك ما تصبو إليه. ووظيفته هنا تتعدى دور حرمانها من القضيب، كما هو الحال بالنسبة للأب المتسلط، إلى الوعد بإسعادها والحصول عليه. من هذا المنطلق يصبح الأب متميزاً عند الأم، ونقطة التحول في آن معاً بالنسبة إلى الطفل. كذلك الفتاة تتوجه إليه بغية الحصول على القضيب بعد خيبة أملها من الأم، والفتى يتوجه إليه بعد أن يكون قد رضخ لقانونه، فيتماهى به كي يصبح هذا التماهي منطلقاً لبزوغ مثال الأنا المتجسد بالأب وطموحاته.

هذه المرحلة تؤدي في النهاية إلى ولادة الذات اللاواعية، حيث أن عملية الأوديب تحصل على غير علم من صاحبها، كما هو الحال بالنسبة إلى أوديب الملك، الذي حدثتنا عنه الأسطورة ويمكن ترجمة ذلك بالتنظيم الأتي:

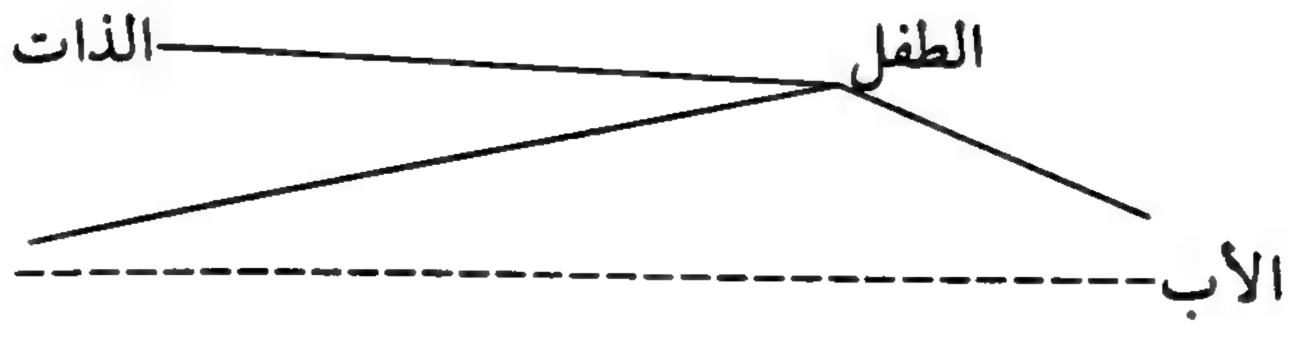

من هذا التنظيم المتمحور حول قانون الأب، واستجابة الأم له، استخلص لاكان (schéma)(*) التي من خلالها أوضح كيف يتكون اللاوعي (اللاشعور) بتبدل الأدوار الخارجية إلى تنظيم يخطط بنية الرغبة ضمن رموز ثابتة مهما كانت المواضيع التي تحل مكانها[1].

ويصبح، بمفعولها، القانون مؤسساً للرغبة، والعكس صحيح؛ وهو قانون داخلي يمكن الطفل من أن يصبح إنساناً راغباً، تتمهد له الطريق ليكون خلية عائلية تحت قانون العرف الاجتماعي المتمم له. وهذه العملية لا تستكمل إلا بفعل عقدة الخصاء.

عقدة الخصاء عند لاكان

إذا كان لعقدة الخصاء أهمية في تكوُّن الذات فإن ذلك يعود لعاملين أساسيين:

الموروث الأول: موقع الأب الاجتماعي، ودوره الموروث في التسلسل العائلي، من حيث إن المجاز الملتزم باسمه هو السائد في مجتمع أبوي للتعريف عن الفرد بالنسبة إلى المجموعة التي يتعايش معها. واسم الأب يحدد قانوناً يلتزم به على السواء كل من الذكر والأنثى في تناسلهما، سواء في خيارهما الجنسي ضمن عقد الزواج، أو بالالتزام المتوارث بالنسبة للتناسل الذي يتبعهما. وهذا القانون يعتمد بالدرجة الأولى على تحريم للإثم الأساسي في العلاقة الجنسية. أي أن الأم محرمة على السواء بالنسبة للفتى أو للفتاة. انطلاقاً من هذا التحريم تتوطد العلاقات الاجتماعية، والمصالح المتبادلة ضمن قانون سوي متعارف عليه دون أن يأتي الذكر عليه(**)؛ ودين يقترن به كل من يشهد النور على غير علم منه.

والثاني: هو الفالوس، كونه رمزاً يتعدى مفهوم العضو، ليشمل كل ما يرمز إليه من اشتهاء جنسي، أو سلطة، أو مال، أو أي موضوع آخر. ليضع حداً لمتعة مطلقة غير مشروطة. فالاستباحة تصبح تعدياً على عرف داخلي، ينظم تكوين الرغبة، ويدفعها في كل تحولاتها، انطلاقاً من استحالة العلاقة الجنسية المحرمة. الفالوس هو الموضوع الذي يستحوذ في لمعانه وبريقه الأنظار، ويؤسس الرغبة في تجاذب الأنثى

(*) schéma «l» سنأتي على شرحها فيما بعد.

(1) سنأتي على شرحها في فصل لاحق.

(**) يعتبر فرويد أن عقدة الخصاء إن لم يأت الذكر عليها في تاريخ الطفل فهي دائماً فعالة في الخلية العائلية الثلاثية، لأنها متوارثة وتتناقل عبر الاجيال. يستنتجها الطفل عبر محرمات الاب والقانون الذي يفرضه.

نحو الذكر، والذكر نحو الأنثى، ولكن في إطار نقصانه عند الفريقين، دون أن يتمكن أي منهما أن يجد البديل عنه في أي دال يستنبطه للتعبير عن ذاته.

عقدة الخصاء كانت في البداية توهماً خيالياً تطال الطفل في تطلعاته الجنسية، إلا انها، كما يقول لاكان،[1] ليست واقعية، ولكنها مرتبطة بالرغبة، ولا تقتصر إلا على العضو. وهذا يعني ان الرغبة تجتاز، من حسن الحظ، بعض المراحل، حيث إن القضيب يجب ان يدافع بالآتي: لا يمكن بقاؤه والحفاظ عليه، إلا بمقدار اجتيازه للتهديد بالخصاء.

ويبدو هنا أن لهذه الدمغة دوراً أساسياً في تكوين الرغبة، يتعدى كل التنظيرات حول مفاهيم الخصاء. فهذه الدمغة نجدها في كل مرحلة من مراحل نمو الفرد، سواء الختان، أو في سن المراهقة، أو في الطقوس المتبعة حسب تقاليد الشعوب وعاداتها. فهي دمغة تترك آثارها في كل مرحلة، لكي يحصد الإنسان، فيما بعد، نتائجها عبر تنظيم علاقاته الاجتماعية، والدين المترتب عليه سواء في كونه إبناً، أو اذا اصبح أباً فيما بعد تجاه أبنائه. وإذا كان للأب دوره الأساسي، كعامل في مسار الخصاء، إلا أن هذه العملية لا تتم إلا على صعيد الأم. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى دور القضيب كنقصان أول في حياة الأم تتمحور حوله رغبتها . فالفالوس صيغة مخيالية، يكتسب أهمية موضوعه من هذا النقصان بالذات. وهي نقطة التقاطع ما بين رغبة الأم ورغبة الطفل. وهذا ما سنأتي على شرحه في المراحل الثلاثية التي يجتازها الطفل، قبل أن يخرج منها كي يتعرف على جنسه أنثى كان أو ذكراً. المرحلة الأولى: تتميز بالتساؤل المبهم عند الطفل عن رغبة الأم. ويدرك بالضرورة سواء في تصرفاتها، أو من مدلول كلامها، أن موضوع رغبتها يتعدى الإكفاء الذي يمنحها إياه من خلال وجوده. وهذا الموضوع يأخذ بعداً مخيالياً كدال يمثل إطاراً لمثال فالوسي ينبع من نقصان أساسي يمكن أن يحقق إكفاءها. وهذه الرغبة تأخذ شكل الدال ككناية يتلقاها الطفل عبر المراسيل اللغوية التي يؤولها بحسب مدلولها غير المعلن. وأمام هذا الإدراك ليس عليه إلا أن يتماهى بموضوع رغبتها، ويحل مكانه، لكي يبلغ قمة الإكتفاء من إكتفاء الأم به.

---

(1) J. Lacan, Formation de L'inconscient, séminaire inédit.

فمن هذا المنطلق توصل لاكان إلى الاستنتاج بأن رغبة الطفل هي رغبة الأم(*). نشهد في هذه المرحلة أن أنا الطفل هي أنا تكرارية لمقولة الأم، أي أنه ملزم بها، ومتقيد بما تقوله، وبما تتمناه. فهي أنا مرتهن بموضوع رغبتها، وتحل مكانه، لكي تبلغ قمة الإكتفاء من إكتفاء الأم به. فهي أنا مرتهنة بموضوع كنايتها، يفقد خلالها الطفل كل عفوية لأنه أسير هذا التماهي بموضوع رغبتها، واستمراره في هذا المنحى يغيب عنه إدراكه لذاته، ويقيده بإرادة تسيره على غير علم منه، كما أنه يحد من نموه الذهني. وهذا ما يتبيّن على الصعيد العيادي، عند الأطفال المتخلفين نفسياً، والذهان المبكر. وهو بالضرورة مشروط بتطابق رغبة الأم على التماهي الطفلي بها. من حيث إن الإكفاء يصبح متبادلاً بين الطرفين. تدخل الأب يضع حداً لهذه العملية لكي يخرج الطفل من اللاذات إلى الذات. وهو ما ينقلنا إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: في هذه المرحلة يتدخل الأب كمشرع ومحرم. وانطلاقاً من مكانته في نفسية الأم، والأهمية التي يكتسبها في نظر الطفل. يقتصر دوره على التصدي، والحزم تجاه الدوافع المحرمة. لكن لكي يبقى دوره فعالاً يجب أن يكون وقع كلامه مسموعاً من الأم، فيصبح مرسالاً داعماً لدورها. والطفل في هذه الحال يدرك عجزه وضآلة دوره، وأنه أصغر من أن يتماهى بموضوع رغبة الأم، لأن هذا الموضوع يتعداه امتلاك الفالوس؛ الشيء الذي لا يستطيع أن يحققه لها بمجرد التماهي به. لأن هذا الفالوس، موضوع متعة الأم، هو بحوزة الأب فعلياً. مهما حاول أن يمنحها فإنه يبقى مقصراً عما يمكن أن يمنحها إياه الأب(**). في هذه الحالة تتطور العلاقة الثلاثية. فبدل أن تكون المنافسة محصورة بالفالوس، تصبح المنافسة موجهة إلى مالك الفالوس (أي الأب) أو أي رجل آخر.

انطلاقاً من هذا التحريم في اتجاهين، كما ذكرنا سابقاً، يتزعزع موقف الطفل من رغبة الأم، ويدرك أن هذه الأخيرة تصبو إلى ما بعد الطفل، إلى الحصول على رضى الأب لأنه محط اهتمامها ومصدر متعتها. وهكذا يخرج الطفل من واقع اللاذات إلى موقع الذات باتجاه الأب.

(*) المعادلة التي بناها لاكان: هي أن الرغبة هي رغبة الآخر الكبير.

(**) سيما أن الطفل يشعر بعجزه لمعادلة الأب، سواء بصغر قامته أو إدراكه لصغر قضيبه.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي تتميز بتغير دور الأب، فبدلاً من أن يكون محرِّماً ورادعاً، يصبح عطوفاً متسامحاً ومعطاء. فأمام ما يتعرض له الطفل، كما ورد عند فرويد، ما بين الحفاظ على قضيبه، أو الحفاظ على رغبته المحرمة لأمه، يتوجه الطفل نحو الخيار الأول أي الحفاظ على قضيبه، والتخلي عن موضوع رغبة الام مما يكسبه رضى الأب، والعيش بوئام معه. لذلك يسقط موضوع التنافس وتصبح وحدة الحال تدعوه إلى التماهي به، على أمل أن يقع خياره مستقبلاً على امرأة غير أمه، تسعده، وتشاركه المتعة الجنسية.

ويقول لاكان: إن هذا التماهي ليس شاملاً، بل يقتصر على ميزة من ميزات الأب، التي تصبح بمثابة الخصلة الموحدة بينهما، والنواة المكونة لمثال الأنا.

لنفتح الآن، بعد هذا العرض، صفحة على الحقل العيادي، لنرى كيف أن هذه النظرية هي المحور الأساسي الذي يدور حوله كل علاج بالتحليل النفسي. النظرية هي ترجمة للنتاج العيادي، وليس العكس، فخلافاً لما هو الواقع العملي في حقل علم الفيزياء، والكيمياء والرياضيات (حيث إن العالم ينطلق من معرفة علمية مسبقة لكي يجري تطبيقها على الأرض)، فالتحليل النفسي ينطلق من العكس، من خبرة داخلية لمس خلالها المحلل عبر تجربته الخاصة، هو رغبته التي تخوله بحق خوض زمام العمل التحليلي مع طالب العلاج، انطلاقاً من أن أية معرفة مسبقة، كما هو الحال بالنسبة للعالم، لا تخدم في تذليل المقاومة وليس له سوى انفتاحه على مقولة اللاوعي (اللاشعور) الذي يمهد الطرق للاشعور الطرف الآخر كي يدلي بدلوه عما كان مجهولاً حتى الآن. وهذا يؤدي حكماً إلى طرح عقدة أوديب والخصاء عبر التحويل الحاصل على المحلل، أي لا بد من استقراء ذاتي عبر الخطاب.

نعود فنستعين بمقالة مصطفى صفوان، حول البنيوية في التحليل النفسي[1]، لأنه يستعرض في القسم الثاني، المخصص لموضوع الخصاء، ارتباط الإنسان بموضوع الأم، فهي محرمة، كما يقول فرويد. والعلاقة هي علاقة موضوعية تعتمد بالدرجة الأولى على تحريم موضوع الأم كرغبة لاواعية(لاشعورية) تطال كل من أخضع نفسه لعملية التحليل، إذا كان العمل التحليلي يقتضي إخراج ما كان لاواعياً إلى حيز الوعي بالنسبة لهذه الرغبة المحرمة. فما حالنا أمام الأشخاص الذين يعبرون عن رغبتهم

---

(1) Qu'est-ce que le structuralisme? p. 263, Ed. Seuil.

المحرمة بشكل واع؟ فهل يعني ذلك أن طريقة تحليلهم مختزلة؟ يجيب صفوان بأن الواقع التحليلي يبين، خلافاً لما ننتظر، أن مقاومة المتحلل المفترض هي تعزيز الحواجز بينه وبين موضوعه المحرم، وإبعاده حتى فقدانه. ويتبين من خلال العمل التحليلي أن الخوف ينتاب المتحلّل كلما شعر بأن هذه الحواجز تنهار، وأن المسافة التي تفصله عن موضوعه المحرم أصبحت مهددة بالزوال؛ وهذا ما يترجم عملياً بالكف عن الكلام، فهو لا يتحمل هذا الشلل، لأن رغبته كإنسان، تكمن في كونه متكلماً لا يتوقف عن الطلب. وإبعاد موضوعه عن إكفاء طلبه، هو طلب مزدوج يتعدى الأول لكي يصبح الكلام دالاً ليس عن وجود إنما عن نقصان لوجود، كمنطلق أساسي لكل انسان راغب . وخير شاهد على ذلك، العوائق التي يصطنعها لكي تحول بينه وبين موضوعه، سواء الحب العذري، حتى الاغنية العربية في كل توجهاتها تشير إلى غياب المحبوب، واستحالة الوصول إليه، كشرط أساسي لموضوع الحب نفسه. لأن النقصان هو أساسي في تكوين الرغبة. فالحرمان من الأم ومن كل المواضيع التي كان يتعلق بها الإنسان في طفولته،لا تولد الخوف، بل مفاجأته بأنها أصبحت على همة احتمال امتلاكها، هو الذي يولد عنده الخوف. وهذا ما يعبر عنه لاكان بأن الخوف يكمن عند المنعطف الذي يشعر به الشخص بأن «النقصان بدأ ينقصه». ويقول صفوان[1] «بأن غياب الأم، وحضورها لا يخيفان الطفل، بقدر ما يخيفه وجودها الدائم،الذي يملأ نقصانه، ويسكته عن كل طلب آخر. فمن هذا المنطلق ينجم الخوف من الخصاء، ليس الانفصال عن موضوع رغبته المحرمة، إنما في كل مرة يتعرض بها لتجربة تكمن بها الأم المحرمة».

في الحياة العاطفية نجد العديد من الرجال، ومن النساء يفشلون في إقامة علاقات دائمة ومستقرة، رغم كل التجارب المتكررة التي يرتبط من خلالها المعشوق بحب جارف، يتمثل بـ (موضوعه المفقود) (اي المرأة المثالية). ويتبين لنا من خلال التحليل أن الفشل هو غاية في حد ذاته، لأنه كلما اقترب من موضوعه كلما شعر بأنه أصبح أسيره، وليس من طلب آخر ينشده. والتجربة تتكرر باخراجات مختلفة، تغيب عنه الرؤيا عن حقيقة رغبته. فإذا كانت الأم متمثلة في هذا الموضوع، وكانت سبباً في التعلق به، فغاية ما ينشده هو التحرر منه، وفقدانه، حتى يمكن رغبته من الانطلاق من جديد.

---

(1) Ibid, p. 164.

يتبين لنا هنا أن ما يضلل العاشق هو ازدواجية الطلب بالرغبة، (أي تغيب عنه رغبته أمام وعد القلب بسعادة محققة، التي سريعاً ما تصبح وهماً إذا ما حصلت على موضوعها). فالتأزم الناجم ما بين الطلب والرغبة، يسقط ـ بحكم الضرورة ـ الأول لكي تبزغ الثانية في تكرار مزدوج. وغاية التحليل النفسي هو إزالة الالتباس ما بين الطلب والرغبة، باعتماد الكف عن الإجابة عن أي طلب من قبل المتحلل، لكي يمهد الطريق أمام طلب جديد يعيد إخراج الرغبة بشكل آخر، عبر السلسلة الدالة التي تكونه.

يقول صفوان: إنه بقدر ما تكون الرغبة المحرمة في الأم سائدة، بقدر ما يكون أسير رغبتها ومشلول الإرادة بكل ما يبقى من حرية الاختيار نحو حصول على بديل للموضوع المحرم، وذلك انطلاقاً من هوامات، حيث يتمثل برغبة على غير علم منه. وكلما اقترب من هذا الموضوع، كلما زاد تأزمه بحيث يتحول طلبه إلى عكس ما بدأ، أي بتحصين الحاجز الذي يفصل بينه وبين الإثم.

إذا كانت رغبته هي رغبة الأم، فليس ذلك إلا بدافع أن يحقق محبتها له، أي يكون محبوباً منها ومفضلاً في آن واحد. هذا ما ينعكس في علاقته العشقية، كونه لا يرى في موضوع حبه إلا صورة الأنا المثالي بشكل خارجي، يستلب لبه، ويتعلق به بقدر ما يشعر أنه سيفلت منه . النرجسية المستثمرة لهذه الصورة المرئية، تتحكم به، وتأسره، لأنها تخفي موضوعاً آخر وعجزه أمام اكتمال المحبوب الذي يتهيأ له أنه يملك ما ينقصه. فهذه العلاقة العشقية هي علاقة نرجسية تستمد جذورها من الصورة الأولية، التي بقيت طي الكبت عندما تهيأ للطفل أنه يكون موضوعاً متمماً للأم. فهو لا يتصور أن لا يكون محبوباً منها، الشيء الذي يعمل له طيلة طفولته الأولى عبر الإغواء والاجتذاب، والتماهي في موضوع رغبتها. لكن يبقى عنده السؤال الأهم: هو أن رغبة الأم لغز لا يعرف فحواه. وحتى الأم لا تعرف شيئاً عن هذه الرغبة، لأنها تنطلق عن رغبة لاواعية (لاشعورية) تتمحور حول نقصان أساسي؛ وهذا ما دعا لاكان للإشارة إليه بالقول: بأن إدراك الخصاء لا يحصل إلا عند موقع الأم: كونها محرومة من الفالوس. الشيء الذي يتطلب أولاً وآخراً اعترافاً بنقصانها. وهو اعتراف مزدوج، لأنه يفسح المجال لدخول الأب كوسيط، بين الطفل والأم، كونه يملك هذا الفالوس كمرجع أساسي لموضوع رغبة الأم. وهذه الوساطة هي التي تمهد للطفل الخروج من عقدة الخصاء، لأنها تفصله عن الصورة النرجسية المتكونة في موضوعية جسده.

مثال شهرزاد وشهريار الملك

خير شاهد على ذلك هو ما وجدته في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. فشهرزاد أشبه بالمحللة النفسية الأولى التي تعكس، من خلال سردها للحكايات على شهريار الملك، ما يمكن أن يدور بذهنه من هوامات حول المواضيع التي تشغل بال كل رجل بعلاقته بالامرأة. فحديث شهرزاد هو حديث مرتجع لما كان يمكن أن يسرده شهريار أو أي رجل يخوض تجربة تحليلية، انطلاقاً من تأزم يسود العلاقة ما بين الجنسين، حيث يتساءل الرجل أو الامرأة عن كيفية التعايش أمام نرجسية فالوسية تحتل المكانة الأولى. التحليل النفسي كما تظهره شهرزاد عبر حكاياتها، ليس إلا وسيطاً ما بين الإنسان القلق وما بين عالمه المجهول. إن المتكلم يتوسط ما بين الإنسان والحقيقة المطلقة، فهو يعبر عنها نصفياً(*) دون أن يدركها بشكل مطلق، وهذه الوساطة تأخذ شكل سلسلة الدال، حيث تتمثل الذات على غير علم منها؛ وهي تتكون منذ أن أبصر الإنسان النور عبر الأحداث والمراحل التي خطت تاريخ حياته، فانعكست بتصور فكري لوجود ولرغبات تكونه وتسيره.

نرى أن شهرزاد لم تترك موضوعاً إلا وطرقته: الجنس، الحب المستحيل، الثروة، النفوذ، السلطة، الموت، القدر، إلخ. من المواضيع التي لا يفتأ الإنسان يبحث عن إجابة عنها.

وإذا كانت الأساطير، والفولكلور، والحكايات، والأمثال الشعبية، تتناقل من جيل إلى جيل، فليس ذلك إلا لأنها لاقت إستجابة في نفوس هذه الشعوب لأنها تمثل جزءاً من حقيقة نفسية مبطنة، يتلاقى الجميع حولها.

تقص شهرزاد على شهريار الملك، في الليلة (606)، حكاية جودر عبد الصمد المغربي. والحكاية تدور حول الاستلاب، بالموضوع المقتصر على تلبية الحاجات، من طلب السلطة والمال والجنس.

تقول شهرزاد: إن جودر وهو الأصغر بالنسبة لأخويه: سالم وسليم، كان المفضل والمحبب من والديه وخاصة من أمه. وهذا ليس بالعجب إذا ما ألقينا نظرة على الأساطير، فإننا نجد دائماً أن الأصغر هو بطل الأسطورة، ويعود ذلك إلى المكانة التي يحتلها في صدر العائلة كمميز بالنسبة للبقية المتبقية من رغبة الأم. اضافة إلى انه الاكثر تعرضاً للاضطرابات النفسية إن لم ينجح لأنه بقي رهينة الاعتماد على إخوته.

(*) يقول لاكان ان علاقتنا مع الحقيقة هي نصف القول، نصف لكي يقاربها والنصف الآخر لوجودها كمرجعية أساسية لكل متكلم، لذلك تبقى علاقتنا مع الحقيقة جزئية وليست مطلقة.

المهم أنه بعد وفاة الأب، يبقى جودر مع والدته، وينصرف الأخوان إلى تبذير تركة الأب. وعندما يقعان في الفاقة يلجآن إلى جودر، ويحتالا عليه لكي يبذر أيضاً ثروته، بالتواطؤ مع الأم.

يعمد جودر، لكي يؤمن رزقه وقوت والدته، إلى صيد السمك في بحيرة قريبة من النهر، وشاءت الصدف أن ينقطع عنه الرزق عدة أيام، يستسلم خلالها ليأس مضن، ويغرق في دين لا طاقة له به. وفي أحد الأيام، بينما هو يائس على شاطىء البحيرة، يأتيه مغربي ممتطياً بغلة، ويسأله ما إذا كان هو جودر بن عمر المغربي. وبعد التأكد من هويته، يطلب منه أن يقيده بحزام من حرير، ويرميه في البحيرة ثم ينتظر، فإن أظهر قدميه، يكون قد غرق ويتركه لحاله وإن أظهر يديه، يرمي الشبكة وينقذه. وفي الحالة الأولى يأخذ البغلة ويذهب بها إلى يهودي فيعطيه مائة دينار. وهكذا تتكرر المأساة مع الإثنين، إلى أن يأتيه الثالث وهو عبد الصمد المغربي الذي يشرح له سر هذه المغامرة.

فقال: «إعلم يا جودر أن اللذين غرقا أولاً أخواي، وأما اليهودي الذي يعطيك أجرك فهو الأخ الرابع، وكان والدنا قد علمنا حل الرموز وفتح الكنوز، والسحر، وصرنا نعالج حتى خدمتنا مردة الجن والعفاريت. ولما مات والدنا خلف لنا الكثير من الذخائر والأموال والأرصاد، حتى وصلنا إلى الكتب، فقسمناها فوقع بيننا اختلاف في كتاب اسمه أساطير الأولين، ليس له مثيل، ولا يقدر بثمن، ولا يعادل بجواهر، لأنه مذكور فيه سائر الكنوز وحل الرموز. وكان أبونا عبد الودود يعمل به، ونحن نحفظ منه شيئاً قليلاً، وهدف كل منا أن يملك هذا الكتاب النفيس حتى يتطلع على ما فيه. فلما وقع الخلاف بيننا، حضر مجلسنا شيخ أبينا الذي كان قد رباه، وعلمه السحر، والكهانة، وكان اسمه الكهين الأبطن، فقال لنا: هاتوا الكتاب، ثم أردف «من أراد هذا الكتاب فما عليه إلا أن يذهب إلى معالجة كنز الشمردل، ويأتيني بدائرة الفلك، والمكحلة والسيف والخاتم، فمن يملك دائرة الفلك يتحكم برؤية البلاد من المشرق إلى المغرب وهو جالس، بمجرد أن يوجه هذه الدائرة إلى المنطقة التي يريدها. ومن يملك المكحلة، فان اكتحل بها رأى كنوز الأرض. ومن يملك السيف فلا تقدر عليه جيوش الأرض مجتمعة. وأما من يملك الخاتم: فهو يتحكم بمارد اسمه الرعد القاصف، يلبي كل أمنياته، ويحكمه بالأرض طولاً وعرضاً».

وقص عليهم الشيخ أن أمنية والدهم فك اللغز، والحصول على كنز الشمردل، ولكن ما حال دون تحقيق غرضه، هو اعتراض أولاد الملك الاحمر الذين اختبأوا في

بحيرة قارون المرصودة، وأعلمهم أن الشرط الأول هو القبض على أولاد القارون المختفين في سمكتين، والشرط الثاني هو أنه لا يمكن فك لغز الكنز إلا على يد جودر بن عمر.

وأردف عبد الصمد المغربي قائلاً: والآن يا جودر، بعد أن عرفت، وقع اختيار القدر عليك، فإما أن ترضى بالعرض، وإما أن ترفضه، فإذا قبلت فسيكون لك ربح ومال وفير ينهي فاقتك ويؤمن لك رفاهية مستمرة . وإن رفضت فسأنصرف عنك.

ولما سأله جودر عن الدور المترتب عليه، أجاب المغربي: بأن عليه أن يمر بتجربة عسيرة، فإن تخطاها واجتازها فسيكون الحظ حليفه، وإن وقع في شباك أوهامها، فإنه لا بد هالك.

والتجربة تقتضي بالآتي: يذهب المغربي وجودر إلى بقاع فاس في المغرب بقرب نهر، يقرأ عليه حتى ينشف، ويظهر عندئذ في قاعه باب من الذهب. ويبدأ دور جودر في قرع الباب، ويقول المغربي معرفاً: عليك أن تنتظر برهة، وبعدها تعيد الطرق بشدة، فتسمع صوتاً يقول: «من يطرق باب الرموز وهو لم يعرف أن يحل الرموز». فقل: «أنا جودر الصياد، ابن عمر» وهنا عليك أن تمر بسبعة امتحانات، كل امتحان يتبين لك أنه خطر مداهم، يهدد حياتك. ولكن إذا ما تمالكت أعصابك واجتزته، فسريعاً ما يتبدد، ويتبين لك أنه لم يكن إلا وهماً.

ـ الامتحان الأول: يأتي رجل حاملاً سيفاً ويقول: إن كنت جودر فمد عنقك حتى أقطع رأسك. فمد عنقك ولا تخف، فإنه متى رفع السيف وضربك، وقع بين يديك، وبعد لحظة تراه شخصاً من غير روح، وأنت لا تتألم. واعلم إن خالفته إنه لا محالة قاتلك.

ـ الامتحان الثاني: تدخل في دهليز، وتطرق باباً، فيخرج عليك فارس وبيده رمح، فافتح له صدرك. فإذا ما رماك بالرمح وقع أرضاً ولم تصب بأذى.

ـ الامتحان الثالث: يخرج عليك آدمي وبيده قوس ونشاب، فافتح له صدرك. فإن رماك، وقع أرضاً جثة هامدة، وأنت بخير.

ـ الامتحان الرابع: يخرج عليك سبع عظيم الخلقة، يهجم ويوهم بالتهامك، فلا تخف وامدد له يدك، فإن حاول عضك وقع في الحال.

ـ الامتحان الخامس: يسألك عبد أسود عن هويتك، فقل له: أنا جودر. فيقول إن كنت ذلك الرجل فافتح الباب السادس.

ـ الامتحان السادس: يخرج عليك ثعبانان، فامدد لهما يدك، وإذا ما عضا عليها، يتبددان.

ـ الامتحان السابع: وهو الأصعب والأهم، فإنك ستواجه امرأة بشكل أمك، وعليك أن تطلب منها أن تتعرى، وهي بالمقابل ستراودك عن نفسك. ثم تتوسل إليك كي لا تكشفها،وتستعمل كل الألفاظ التي يمكن أن تخدعك، فلا تصغ لها، وأبعدها عن ذهنك، ولا تدع نفسك تنخدع وتتأثر بألفاظها؛ فإذا ما أصرت، وخلعت حتى تتعرى تماماً، حينئذ تتبدد كالدخان الذي كان يمنع عنك الرؤيا، وتكون قد حللت الرموز، وأبطلت الأرصاد، وقد أمنت على نفسك. فادخل تجد الذهب أكواماً داخل الكنز، فلا تعتن بشيء، وإنما ترى مقصورة في صدر الكنز وعليها ستارة، فاكشف الستارة يظهر الكهين الشمردل راقداً على سرير من ذهب وعلى رأسه شيء مدور يلمع مثل القمر هي دائرة الفلك، ومقلد بالسيف، وفي إصبعه خاتم، وفي رقبته سلسلة فيها مكحلة، فهات الذخائر الأربع وإنك ستعود سالماً.

ماذا نرى في حكاية جودر؟ يتبين لنا أنها تقع في صلب عقدة الخصاء. هذا ما أرادت شهرزاد إسماعه للملك شهريار بأن رغبة الرجل لا يمكن أن تأخذ مفهوماً إنسانياً في طلب المعرفة والعلم والسلطة إلا بالتحرر من رغبة الأم المحرمة، عبر الدلالات التي تخط مسيرتها لكي تصل بها إلى موضوع مثال الأب.

عبد الصمد المغربي يمثل الحلقة المحورية التي تنجح في اجتياز الهوام من بين الأخوة الأربعة، وفاقهم بالنسبة لتركة الأب، وتعدى حدود المال والرزق لكي يتعثر أمام كتاب المعرفة، حيث الشرط الأساسي للحصول عليه، هو فك لغز الشمردل، والمطلوب أن يواجه المصاعب والمخاطر، حتى المراهنة على الحياة أمام الغاية القصوى.

جودر ليس إلا حلقة محورية في السلسلة الدالة، يمر عبره الاجتياز من الرغبة المرتهنة بالأم، إلى الاقرار بالاعتراف بنقصان الأم كشرط أساسي لبلوغ الهدف المنشود. فما يطلب منه تنفيذه هو من صلب هوام عبد الصمد، أي إنه دال يمثله عبر الدلائل التي تشير إلى موضوع الخصاء في شكله الخيالي(*). طرقه لباب الكنز هو

(*) فإن ما ظهر في دال، تبدد وتلاشى معه لكي يظهر في دال آخر وهكذا تكون المسيرة التحليلية. ينتقل المتحلل من التماهي بدال كان قد غطى رغبته بطلب. وان ما تلاشى يسقط الطلب لكي ينتقل إلى طلب آخر كان إلى حد الآن في حكم المكبوت وهكذا يتحرر بالتدريج من مواضيع الطلبات التي كانت تبعده عن ذاته.

طرقه لباب اللاوعي (اللاشعور). يضيع ويهلك من لا يعرف فك ألغازه[1]. العقد تتوالى الواحدة تلو الأخرى حتى تبلغ السبع. وهو رقم مقدس ورد في الأساطير والأديان: العجائب السبع ـ أيام الأسبوع السبعة ـ خلق الله الكون في سبعة أيام ـ السموات السبع، إلخ.

جودر الدال الأساسي الممثل لعبد الصمد، هو بمثابة ورقة المرور التي تحقق له اجتياز عقدة الخصاء. يضعه أمام احتمالين: إما أن يتراجع فيهلك، وإما أن يواجه فيتبدد الخوف وينجو. تمر المخاطر الواحدة تلو الأخرى انطلاقاً من قطع الرقبة، وهو حسب المدلول الفرويدي، إشارة إلى التهديد الذي يطال الطفل في خوفه من فقدان القضيب. إلى التهديد بالرمح وما يعني ذلك من تحد ومنافسة للأب في مفهومه القضيبي. إما أن يستسلم في علاقة تقضي على مفهوم رجوليته، وإما أن يتخطاه فيتبدد وهمه.

كذلك الأسد: صورة نكوصية لما يدور في خيال الطفل عن الأب البدائي الذي يفترس أطفاله، نتيجة إسقاط للمرحلة الفموية التي يمر بها، حيث يهيمن هوام إدماج كل ما هو محبب له عن طريق الفم. الأسد حيوان رمزي، مجاز تتقاطع حوله معان كثيرة، القوة، الشجاعة، التهديد، إلخ. والفك على غرار الذئب هو الأداة التي تهدده من الخارج. ونرى أن الأطفال ينتابهم خوف من هذه الحيوانات المفترسة دون أن يكون قد شاهدوها ولو مرة في حياتهم، أو أنهم كانوا مهددين من كونها موجودة.

ويعود هذا الخوف، كما يشير فرويد في «حالة هانس» إلى عملية إسقاطية تستهدف الأب كمنافس، وتبغي إخصاءه. الشيء الذي يرتد عليه بعكسه، وهو خوفه من إخصاء الأب له. والحيوانات المفترسة هي بمثابة الصور المستعارة بالنسبة للأب المهدد، والخطر الذي يستعمل الفك والأسنان كأداة خصائية[*]، سيما أن علاقة الطفل بالفم تحمل في طياتها النقيضين: الحب، وتدمير موضوع حب في آن واحد.

وكان فرويد قد أشار إلى هذا الموضوع بأن التماهي الأولي بالوالدين يرتكز على العلاقة الفموية، أي إدماجهم عن طريق الفم. الشيء الذي يرتد عليهم بخوف معاكس، يخاف على قضيبه بقدر ما يشتهي احتواء قضيب والده فموياً، هوام تكلمت

(1) وهذا ما تشير إليه الخبرة إلى أن التحليل الذاتي صعب بل مستحيل لما يحيط ذلك من إيهامات نرجسية تضيع صاحبها عن غايته.

(*) هنا يكمن تصور الأب المخيالي المرتبط أساساً بالمحرم والتهديد بالخصاء، أو بالأب المثالي، انظر المصطلحات اللاكانية في آخر الكتاب.

عنه ميلاني كلاين في الأوديب المبكر، كون الأم تحوي قضيب الأب في أحشائها، كذلك ما يتواجد عند العصابيين من مخاوف حول المضاجعة، والتي تؤدي إلى عجز جنسي. وما يكمن وراء هذه المخاوف من تصور لفرج مسنن يهدد القضيب بالخصاء إذا ما حصل الإيلاج.

الأسد هو الدال الفكي لما يمكن أن يدور في خيال جودر كتهديد بالخصاء، إعطاؤه اليد ليس إلا تضحية بموضوع أقل قيمة حفاظاً على الموضوع الأساسي؛ ويبدو هنا أنه بمجرد المواجهة والصمود يسقط الخوف وموضوعه في آن واحد. وهذا ما تشهد عليه الخبرة النفسية في الأحلام عندما يحلم أنه يسقط من أعلى، أو ملاحق من قبل حيوان مفترس، أو أن شخصاً يطارده وهو حامل آلة حادة (سكين ـ فأس ـ حربة)(*) فيستيقظ مرعوباً ليطمئن نفسه إلى أن ما حصل لم يكن إلا حلماً. وإذا ما تابع حلمه، فسريعاً ما يتبين له أن الخوف الذي كان يلازمه قد زال.

الإنسان يخاف من خلال كل البدائل على الغرض الثمين الذي يملكه، وهو موضوع استثمار نرجسي كبير. فالقضيب يحتل في طفولته، وخاصة المرحلة القضيبية، هذه الإمكانية الأولية، ويتماهى به (Ferenczi) إلى حد أن الخوف على قضيبه يتعمم بشكل خوف على نفسه. عندما يسقط التمثل في هذا الهوام، يسقط الموضوع المرتبط به، ويصبح لا شيء بنظره، على غرار ما شاهدنا في تطور جودر. لكن السلسلة الدالة، تستمر لتشير إلى أنه إذا ما انكشف في تمثله بدال، فإنه لا بد أن يتمثل في دال آخر بعد أن يتلاشى الأول، فكلاهما مرتبطان في نظام لغوي متمثل في الكناية والمجاز.

جودر يمثل حالة العصابي أمام موضوع الخصاء، حيث يتساءل باستمرار عما يطلبه الآخر منه. من خلال هذه الهوامات المهددة يبدو أن المراهنة تتأرجح ما بين الحياة، أو خطر مواجهة الحقيقة. إما أن يعيش مهدداً، محروماً من معرفة الحقيقة، وإما أن يواجهها، ويدفع الدين المترتب عليه، والذي اقترن به على غير علم منه؛ لأن الحكاية تقول: بأن اختياره لفك الرموز كان سابقاً لمعرفة دوره. فهو أمام مواجهة هذا الغائب المجهول الذي يقلق ضمير كل متكلم، والمتمثل بالآخر الكبير ـ ماذا يريد منه ـ والجواب يأتي بشكل مرتد بأن وراء كل تساؤلاته تكمن معرفة لا يمكن بعد الآن أن يتجاهلها، ولا يمكن في آن واحد العودة إلى الوراء بعدما قرر السير في طريق المعرفة. والحقيقة تكمن في سر الأم ـ نقصانها ـ في الموضوع الذي يستقطب

(*) وهو هوام يحتوي على رغبة جنسية مثلية تهدد مفهومه لرجوليته.

رغبتها والذي يتمظهر في الأفعى، وهو كما يبدو لنا في الأحلام وتتحدث عنه الأساطير بأنه نذير شؤم ينجم عن الخوف والشعور بالخطر، ماذا يخيف؟ سوى التقاطع الحاصل بين ما هو نقصان في الداخل ولقاء في الخارج. فالأفعى في الأحلام ليست إلا بمثابة القضيب الذي ينكر نقصانه عند الآخر كي يظهر متمثلاً أمامه، وعلى مرمى نظره. فنقصان النقصان، حسب نظرية لاكان، هو المولد الأساسي للخوف؛ فما يريده ليس الحصول على الموضوع إنما إثبات نقصانه. وخير دليل على ذلك هو حالة الهروب أمام الأفعى، أو الأفاعي، التي تظهر في الأحلام، لأنها تمثل ما هو طلبه؛ أما رغبته فتكمن في إظهار انفصالها، كونها قضيباً لوجود ناقص، وبصورة خاصة عند الأم. هذا ما يواجه جودر في المرحلة الأخيرة، حيث تتراءى له الأم بشكل مغر، تراوده عن نفسه، فإما أن يتجسد بالفالوس الذي يتمم نقصانها، وإما أن لا يكون، وعندئذ تنحل الألغاز وتبدو الحقيقة مجردة أمام واقع حرمان الأم من الفالوس، الشيء الذي يخوله بلوغ اسم الأب، وما يعني ذلك من رموز تفتح أمامه آفاق المعرفة، والعلم، والثروة، والسلطة. ويبدو لنا أن اسم الأب متاخم لموقف الأم، فتتكشف الحقيقة لحرمانها مشروطة بوجود الآخر وراءها. وبمجرد إصرار جودر على كشف حرمانها للقضيب، تتبدد الأوهام، وتصبح الأم، صنيعة هذا الهوام، دخاناً يتبخر، ولغز يتفكك، لكي يظهر الأب الميت يورث حق ملكية أسراره لمن تخطى هذه التجربة المريرة بنجاح.

هذا ما حققه جودر لحساب عبد الصمد المغربي ضمن هوام الخصاء كاجتياز لا بد منه لكل من طرق باب الكنوز وعرف فك الرموز. وهو ما أرادت شهرزاد إسماعه للملك شهريار بأن علاقته مع المرأة لا تصبح سوية إلا إذا دفعت بتجربة الخصاء على أساس أنه لا يمكن أن يكون ذلك الفالوس الذي ينقص الأم؛ وأن معرفة حرمانها منه تمر عبر الأب كشرط أساسي لامتلاك الفالوس على قاعدة نقصانه. وهذا النقصان في الوجود هو الذي يجذب المرأة إلى الرجل والعكس صحيح. (سنوضحه فيما بعد).

يتبين لنا أن ترابط الهوامات الخصائية الواحدة تلو الأخرى في حكاية جودر مرهونة بموقع الأم كمدخل أساسي لحل عقدة الخصاء(*). والتجربة التحليلية لا تترك مجالاً للشك: الأم هي التي تدخل الطفل في النظام الرمزي،وما يتعلق منها في عملية الخصاء هو خسارته المتمثلة في الفالوس الذي كان يتوهم أنه بديله، والذي كان

(*) هذه المخاوف من الخصاء تدخل في حقل المخيال لأنه في الواقع لم يحصل أن أباً خصى ابنه. التحليل النفسي ينقل المتحلل من الخصاء المتخيل، مصدر العصاب، إلى الخصاء الرمزي.

يعتقد أنه يتمم لها وجودها. ولكن الحاصل أن هذا الوجود يبدو من خلال ضياع موضوعه، أنه نقصان يطال كلا الطرفين في آن معاً، نظراً إلى وجود قصر بيولوجي جسدي يحول دون المطابقة لما هو مطلوب من الآخر.

تتمحور علاقة الأم بالطفل حول موضوع متخيل ميزته أنه لا يوجد أي موضوع يطابقه في الواقع، مهما حاولت الأم حصر نقصانها في تكاملها مع الطفل.. كون هذا الأخير يدرك حتمية عدم المطابقة بين ما هو مطلوب وما يمكن أن يكون. الفرق يفتح أفق التخيل.

يعرف الطفل بحكم البديهية أن هناك نقصاً في وجود الأم، وأنه إذا كان موضع اهتمامها وعنايتها، فلا بد أن يكون جزءاً مما يتمم هذا النقص. ونظراً إلى أنها في موقع تلبي كل طلباته، ومصدر لاستمراره، يحاول، بشتى ما يتيسر له، أن يحول رغبته إلى موضوع رغبة الأم كي يتماهى به، وتصبح رغبته هي رغبة الأم نفسها. إلى أن يأتيه الجواب منافياً لما كان ينتظر؛ فالأم ليست حضوراً دائماً، فهي غياب وحضور في آن واحد، وعليه أن يكتفي به، الشيء الذي لا يحصل إلا إذا دخل نظام الترميز.

فهو أمام جدار يستحيل اختراقه وعبثاً يحاول أن يطلب منها هذا أو ذاك، إلا أن ما يحصل عليه لا يطابق ما هو محروم منه، أي موضوع رغبتها. والخبرة تبين أنه بقدر ما تحاول الأم وبشتى الوسائل، تحقيق طلباته، وحصر اهتمامها بتأمين حاجاته المادية، بقدر ما تشعره بالإحباط، لأن طلبه الأخير يتمحور حول الحصول على ما لا تملك، أي نقصانها أو حبها(*). إذا كان غيابها كاملاً فإن حضورها دائماً ناقص، مما يولد عنده حالة ارتباك وحيرة لا يمكنه الخروج منها إلا عن طريق الترميز، (أي الدال المرمز حضوراً لغياب يقتبسه، يؤسسه، ويكونه، ويمكنه من التحكم به في الاستعمال اللغوي) . ويقول صفوان: «أي عطاء مهما بلغ، وحتى لو كان الحب، لا يمكن أن يخفف من اعتماد الترميز».

فعلاقة الطفل بالأم، حتى لو كانت رغبته من رغبتها، ليست علاقة تكامل أو اتحاد. إنما يتوسطها نقصان يتواجد في كلا الطرفين مهما تعددت الأشكال، على غرار

(*) يقول لاكان عن الحب: أن يهب الحبيب ما لا يملك أي نقصانه.

ما عبّر عنه لاكان في تشبيهه في إناء الخردل ـ فإن وضعنا أحدهما مكان الآخر، نجد نفس الفراغ.

هذا ما يؤكد لنا أن العلاقة ليست مباشرة إنما يتوسطها الرمز الذي يشير إلى دلالة «الشيء» الغائب والذي من خلاله يدخل الطفل في نظام الترميز، ويصبح حلقة من السلسلة الدالة التي تكوِّنه، وتكوِّن تاريخية حياته بالإضافة إلى الأحداث التي تؤثر في مجرى سير الأمور. يدخل عالم اللغة . فبمجرد أن يتلقى منه الدال المشير إلى وجوده حتى نراه يتلاشى كي يتلقى دالاً آخر يمثله بالنسبة للدال السابق؛ وهكذا، كلما تطور ارتباطه باللغة كلما فقد السيطرة عما يمكن أن يقوله من جديد، بشكل أن هذا الجديد يأتي كتعبير لوجود آخر، يخلق انشطاراً في داخله بين ما هو معبر حاضر وما هو مغيب حسب الأجوبة التي يمكن أن يتلقاها من الآخر. يصبح الكلام عندئذ بالنسبة له ليس مجرد لفظ، أو نبرات صوت ضائعة، إنما دالات تعني في خلفيتها شيئاً غير ما يقوله مشيرة بذلك إلى دال يمثله في السلسلة الدالة المتواجدة عند الآخر (أي الأم في المناسبة). فالاتصال الكلامي يتمحور حول هذا النقصان المؤسس لانشطاره، والمتمثل في كبته لدال أساسي، لوجود لا يظهر إلا في حال النقصان بنظر الآخر(*). فمن دون هذا الدال لا يمكن للنقصان أن يأخذ حيز التعبير، إلى درجة أنه يصبح سبباً لهذا الانشطار (Spaltung). فأي موضوع واقعي كان ما كان، لا يمكن أن يؤدي حق وظيفته، لأن هذا الموضوع الواقعي المسمى أو المنظور، هو موضوع لأجل الطلب. ونقصان يستمد ظهوره من الأجزاء التي تنفصل وتسقط من الجسد، بحيث يصبح هذا الجزء الناقص دالاً يدخل في السلسلة الدالة لكي يضيع بها في تحولات مجازية ويصبح الجسد كتاباً مرجعياً لكل ما يرتبط بالملذات والنزوات، ترتسم عليه الدلائل المعبرة عنه وما يتصل به، بمثابة الآخر الكبير كونه مصدر النزوة في آن واحد.

ونلاحظ كما بينا سابقاً من خلال المراحل التي تكوِّن الذات، أن كل مرحلة مدموغة بجزء جسدي ينفصل، يقتطع منه، ويصبح الدال هو التعبير عن الجزء الضائع. ففي حالة الفطام، ينفصل الثدي عن جسم الطفل، كعضو كان يعتبره جزءاً منه، فيتأسس من خلاله الطلب الفموي، حيث يتمحور حول المزيد من اللذة . كمنطلق

(*) عندما يرزق زوجان طفلاً: يأتي وجوده من نقصان سبقه وحتى لو لم يكن مطابقاً. كذلك لا يدرك الطفل اهمية الأهل إلا بعد ان يدرك احتمال موتهم. اي نقصانهم بالنسبة لوجوده والدال المؤسس هو الفالوس الناقص مرمز (φ -).

للرغبة في مناشدتها الآخر الكبير كحقل يلمح بالاستجابة لفقدان الشيء (موضوع اللذة). في سياق هذا التحليل يدخل البراز، كجزء يسقط منه وينفصل عنه، مقابل دال يتوجه إليه في طلب من الآخر له، ويدخل في السلسلة الدالة بحكم العلاقة المترابطة بين الطرفين. (هذا ما شرحناه مفصلاً في الفصل السابق).

أما الفالوس، وإن كان لا ينفصل عن صاحبه، على غرار الثدي والبراز، إلا أنه يخضع لحكم العرض والطلب. فالطفل يحاول استقراء رغبة الأم، ويتوهم أنه إذا كان يملك القضيب، فلا بد أن يصبح موضوع طلب الآخر، وهذا ما يترجمه العصاب في هوام مقلق حول طلب هذا الآخر منه، ويدخل في السلسلة الدالة بحكم العلاقة المترابطة بين الطرفين . وهو هوام مشترك بين الرجل والمرأة. السؤال: che vuoi? ماذا يريد؟

حول هذا الدال الفالوسي يتمحور الدين الأساسي، باعتبار أن الإثم المحرم هو حد لا يمكن تجاوزه. والفالوس يصبح في هذا الاتجاه ناقصاً مفقوداً يحدو مفهوم الخصاء. وفقدان هذا القضيب لا يعني في الواقع انفصاله عن بدنه، إنما يأتي في سياق التقاطع ما بين رغبة الأم وطلبه، استنتاجاً لما هو موضوع نقصان الأم. والخصاء الرمزي لا يطال إلا القضيب المتخيل(*). بالنسبة إلى الفتاة، يجب أن تدرك أنها لا تملك ما لم يكن ملكها سابقاً. وبالنسبة للفتى لا تعود حق ملكية القضيب، واستعماله إلا بشرط الاستغناء عن استمرار تماهيه به ومعادلته، مع العلم أنه إذا كان نقص عند الأم، فهذا لا يلغي وجوده كموضوع واقعي، تتمحور حوله المتعة الفالوسية مع باقي النساء.

إذن الرغبة الجنسية تتمحور حول النقصان لهذا الوجود، أي حول استحالة إمكانية أن يكون القضيب ويملكه في آن واحد كما يقول لاكان. فلا بد إذاً من دمغة الخصاء كشرط أساسي لتسوية الرغبة الجنسية في اتجاهها السليم، حيث ينحصر الدين

(*) يشير لاكان في سيمينير «من آخر كبير إلى الآخر الصغير»، أن طلب المزيد من المتعة وهو ما يرمزه في موضوع ألف، يتوجه إلى حقل الآخر الكبير كدال أول. وعندما يصطدم هذا الطلب برفض الآخر الكبير في حال المحرم ينقلب من صفة الإجابة إلى صفة النقصان اي مزيد من المتعة (+) إلى نقصان هذه المتعة (-). كذلك بالنسبة للفالوس: اذا كان باتجاه المحرم يصاب بالصد ويتحول ذلك في حقل طلب المتعة إلى نقصان كدال اول يؤسس دال ثان كبديل وهكذا. ولكن دائماً على أساس نقصان الاول.
تحوُّل هذه العملية من ناقص (-) إلى زائد (+) يؤدي إلى العصاب ويكون ناجماً عن عدم اكتمال الخصاء الرمزي: يكتبه لاكان بصيغة φ-، أي فالوس ناقص.

الأساسي ليس في دفع أجزاء من جسده (كما نرى في بعض الأمراض النفس جسدية)، أو بأي بديل مادي (عصاب الفشل)، أو معنوي (إحباط عاطفي) يستنفذ من مقدرات الإنسان العصابي، إنما في استحقاق الدين الحقيقي الذي يختزل في استحالة تتوقف عندها الطلبات لتبزغ الرغبة انطلاقاً من نقصان لوجود لا يمكن أن يحققه أي غرض سوى بقاء استمراريتها إلى الأزل (يسميها لاكان خلود الرغبة)(*).

المرحلة الفالوسية تتميز في مواجهة هذا النقصان، سواء عنده، أو عند الآخر الذي يشكل موضع طلبه. وعلى هذا الأساس يقول صفوان[1]: «تصبح وظيفة الأب الواقعي وظيفة ممهدة. فهي لا تعني مناهضة القانون للرغبة، بمعنى الحد الخارجي لها فقط بمجرد أن ينزع حتى يحقق لها انفتاح الأبواب نحو الانصهار أو التكامل. فالذات تدين للأب بالاعتراف بوجودها حيث تتكون الرغبة، ولا يعني ذلك الاعتراف بعضو الذكر، إما بما يهيمن على حياته الليبيدية في المرحلة الفالوسية حيث تتأرجح الذات بين الوجود واللاوجود»[2].

وتأتي التسوية الأوديبية في سياق وقف الانجراف الحاصل في اتجاه الطلب غير المحدود. فأي جزء من الجسد يصبح موضعاً لاتمام نقص الآخر إذا لم يتحدد الاعتراف بأن هذا النقص متبادل عند الطرفين (أي المحلل والمتحلل)، وأن موضوعه الأساسي هو الفالوس. فمن هذا المنطلق يرتبط الإنسان بسلسلة دالة يكون أساسها النقصان المبدئي كما ذكرنا، من حيث إن أي دال آخر يأتي لكي يعبر عنه يبقى مرهوناً بالفارق بين الطرفين. وأي تطابق مستحيل وهو ما تعبر عنه استحالة الرغبة عند العصابي، بحيث إن أي عطاء أو تضحية لا تدفع عنه الدين الفالوسي المتوجب دفعه في إدراك نقصانه.

ويشمل ذلك الذكر والأنثى، كل منهما في اتجاه تحقيق جنسه، والتماهي به. فاشتهاء القضيب عند الفتاة لا يعادل الخصاء، رغم أنها تشكل العقدة الأساسية في

(*) خلود الرغبة زاه في وصفه كعملية نفسية عند الصوفيين تؤدي في النهاية إلى الاتحاد في ذات الخالق اي تحقيق وحدة الوجود (صدر الدين الشيرازي عن طريق العرفان).
نجد تشابهاً عند الصوفيين ما بين العرفان كمعرفة تجهل نفسها ولا يستطيع أن يدركها إلا في الصعود باتجاه الخط الرباني وما بين اللاوعي كمعرفة موجودة ولكن طالها الكبت ولا يمكن للذات ان تدركها الا عن طريق التحليل النفسي.

(1) مصطفى صفوان: البنيوية في التحليل النفسي.

(2) مصطفى صفوان: المصدر نفسه.

سير التحليل وإنهائه، فهي تعني ما تعني «إصرارها على احتواء القضيب رغماً عن الجميع، وضد الجميع» أمنية تفتح المجال أمام رغبة من دون حدود لكي تصبح عائقاً واستحالة للرغبة نفسها. لا تحدها إلا العوارض النفسية.

أمنية مشابهة تلزم الذكر في المرحلة الأولى للأوديب، التماهي بالفالوس، أي أن يحقق وجوده في ذلك الفالوس. فإما أن ينطلق بالتفتيش عن«السلاح المطلق» من دون هوادة، أو أن ينتقل إلى المرحلة الثانية من الأوديب، حيث يدرك ان ما يفتش عنه هو في ملكية الأب نظراً إلى أن الأم لا تجد اكتفاءها إلا في قربه، وهذا ما يمهد للمرحلة الثالثة من الأوديب، حيث يتبين له أن هذا الأب لا يملك في ذاته مصدر رغبته، إنما لكونه يحتوي نقصانه (أي أن الأب يُحرِّم ويستمد سلطته كونه خضع للخصاء الرمزي)، أصبح أباً. مرحلة أساسية لتسوية علاقته مع الآخرين. ومن دونه يصبح عرضة لكل المنزلقات الانحرافية المثلية(*).

وتحليل العلاقة مع الأم لا يقتضي الاستقصاء عن تاريخ الحب المكبوت، بل على العكس فالحنان المعبر نحو الأم، هو دليل صحة، وبرهان على تسوية العلاقات الأوديبية، شرط أن يكون قد تجرد هذا الشعور من محتواه الجنسي. وهذا ما يشير إليه فرويد بتحديده لمفهوم التسامي.

فالعلاقة مع الأم إذا كانت لا تزال مرتبطة بالعقدة الأوديبية، هي ليست أكثر من هوام. فنحن نعرف أن الذين يمارسون التحليل، يصرحون من دون التباس، أن الأم لم تعد تعني لهم شيئاً، ولكننا نعرف بالتجربة أنه إذا ما اشتهى أحدهم امرأة في أحد أحلامه، وسئل عما إذا كانت تذكره بامرأة يعرفها: نراه يجيب بالحال، إذا كنت تتصور بأنها تشير إلى أمي فإنني أؤكد بأن التشابه معاكس تماماً. وهذا النفي هو التأكيد بحد ذاته على أنها الأم (يؤكد فرويد ذلك في مقاله عن النفي كعملية مجاورة)(**)؛ ولكن المقصود أن ما يحققه الهوام ليس إلا على صعيد المخيال، المشهد الثاني، كما يسميه فرويد. والهوام هو ما يعبر عن الرغبة، كون الراغب محذوفاً (اي متخفياً)، أي يبقى بحكم المكبوت من خلال علاقته بالآخر. وهكذا لا يقتصر تحليل العلاقة بالأم، على استعادة ذكريات، أو تذكر أحداث، قد تكون أصلاً غير موجودة، إنما تتعدى ذلك لاستخراج الهوام المؤسس لهذه العلاقة، أي على

(*) الأب الذي يرتكب المحرمات سيما الاعتداء على أطفاله، يكون قد استقال من موقعه الأبوي وأصبح الطفل عرضة للانحرافات من دون رقيب ذاتي.

(**) انظر مقالة النفي لفرويد (La négation).

صعيد المخيال. وقد يأخذ ذلك حيز التحليل الفعلي عبر المسرح التحويلي، أي يصبح التحويل في مرحلة من المراحل بمثابة استحضار وترميز لهذا المكبوت المخيالي. ولكن لا يتم ذلك إلا بعد فكفكة كل التماهيات المكونة للأنا المثالي النكوصي، حيث ينظر إلى ذاته من زاوية التباهي على غير علم منه، مما يدفعه في اتجاه خاطىء، وأنه غير منظور من الآخرين. فالتمظهر شيء أساسي، حتى ولو كان قناعاً، لأنه يمثل في ذاته التقاطع بين ما يتصور نظرة الآخر إليه، وبين ما كان سبباً للتماهي في هذه الصورة.

وهذه الصورة حتى ولو كانت قناعاً يريد أن يخدع الآخر به، إلا أنها تشير إلى حقيقة تكونها الناجم عن التناقض المعبر عنه. ولا يتكشف إسقاط القناعات الواحدة تلو الأخرى إلا عبر التعبير الكلامي، والتعبير الكلامي الصحيح هو ما يمكنه من الانتقال من حقل المخيال إلى حقل الترميز. وهكذا فعقدة الخصاء تحمل في طياتها كل التوهمات والمخاوف المتعددة، لأنها تهديد متخيل، والانتقال من الخصاء المتخيل إلى الخصاء الرمزي لا يحصل إلا ضمن إدراك حقيقة حول مفهوم الفالوس في التكوين النفسي:

ففي آخر المطاف يظهر للمرأة أنه إذا كانت مرجعية وجودها تعود إلى الفالوس فهي تملكه في تماهي جسدها (جمال الجسد وجاذبيته، تعدو إلى هذا التماهي الذي ينقص عند الرجل). ويظهر للرجل أنه إذا كان يملك القضيب فهو لا يمكن أن يكون ذلك الفالوس. أي نقيض المرأة.

فهذا التأرجح ما بين ملكية القضيب وكونه، هو ما يعاني منه العصابي في كل مرة تطرح رغبته الجنسية في حقل العرض والطلب. ويفترض أنه لا يمكن بلوغ النضوج الجنسي إلا في حل إشكالية التماهي القضيبي الذي يدفع الرجل إلى التردد أمام عرض المرأة؛ فإذا ما أعار نفسه كمادة استهلاكية، فإنه يحتفظ بكونه القضيب الذي ينقص في وجودها فيعيش في صراع المد والجزر لأنه يرفض إدراك حقيقة نقصانه ـ كذلك بالنسبة إلى المرأة فإما أن تلجأ إلى السلوك الاسترجالي، أو أنها تزيد من مظاهر أنوثتها كي تضلل الآخر عن كونها رافضة لحرمانها من الفالوس.

في كلتا الحالتين يتبين أن فشل الأوديب يتمحور حول موضوع الفالوس وليس حول العضو التشريحي "الذكر"، ومن يملكه فعلاً. وهنا تبدو ميزة لاكان عن فرويد. وهذا الاستنتاج يولد حقداً دفيناً تجاه الأم كونها تحمله في أحشائها، وتارة تجاه الأب كونه يحمله ولا يعطيه. والحقد الدفين تجاه الأب هو من أهم المراحل التحليلية

التي توقف عندها المحللون ويترتب عليها نتائج مهمة في علاقة الشخص مع أقرانه، نظراً إلى ارتباطه بالحقل المخيالي لأنه يواجه رغبة الآخر الكبير منه.

يوضح صفوان هذه المسألة مستعيناً بقول لساد: «أعطني قطعة من جسدك تمتعني للحظة، واختر ما يحلو لك أية قطعة من جسدي»[1]. هذا ما يفتح باب حقل الاستمتاع، حيث يصبح الجسد مسرحاً له وعرضة لطلبات الآخر المتجزىء. وأي جزء منه يدخل في تركيبة هوامية، يصبح موضوعاً استمتاعياً في طلب من الآخر، وينقلب في الحالة الخيالية، إلى موضوع خوف، ديناً يؤديه له، أو مصدراً ليبيدياً للانجاب. ويستشهد صفوان بالنظرية الجنسية عند الطفل حول الولادة، التي يؤدي مضمونها إلى إلغاء دور الأب والدين المترتب له، بتحويلها إلى دال يشهد على شهوة طبيعية جامحة تكرس دوره في العلاقة الحبية المرتبطة بها.

كراهية الأب هي كراهية دفينة، تعود إليه من هذا الحقل المخيالي البعيد، لتتكرس في المنافسة الأوديبية، وإذا كانت هذه المنافسة تعزز هذه الكراهية إلا أنها لا تعطيها بعداً وتبريراً إلا من خلال الفالوس، حيث إنه يمثل مصدراً للمتعة والسلطة. فهو موضوع يستقطب كل اقتصادية الليبيدو كما يقول صفوان، علماً بأنه لا يطابق أي موضوع، وعندما تدرك الذات أن هذا الموضوع ليس أي موضوع، وأنه لا يوجد، يلتغي الفارق ما بين امتلاكه وعدم امتلاكه. ويسقط الصراع إلى أقل درجة ممكنة. وفي هذه المناسبة تستنفذ المنافسة كل المواضيع البديلة لكي تصبح في النهاية منافسة ودية، تتعدى واقع الأب ولكن ليلتقي به حول مثال الأنا.

والحرية التي يتمتع بها، هي حرية الاختيار. فالرغبة تصبح مصدراً لإسعاده، ولسعيه عندما يشعر أنها ملك اختياره، وليس بحاجة إلى الآخر للسماح بها. وهذه المرحلة تتطابق عندما يتغير موقعه بالنسبة للفالوس. فبدلاً من التأرجح بين الحصول عليه أو التماهي به، يصبح موضوعاً ناقصاً يترك فراغاً ما بين رغبته وموضوعها. فانطلاقاً من هذا النقصان تصبح الرغبة أبدية، وتتجدد باستمرار مهما كان الموضوع الذي يحقق طلبها. وهذا ينطبق سواء على الامرأة، أو على الرجل. بالنسبة للأولى، حسب تعبير لاكان «لا تملك القضيب من دون أن تكونه». وبالنسبة للثاني «ليس هو القضيب من دون أن يملكه». وهذه المرحلة كما يزيد صفوان: بأنها أساسية، ولا تتم

(1) مصطفى صفوان: المصدر نفسه.

إلا إذا استطاع الإنسان أن يدرك بأن الأب قد استوعب نقصانه، وأنه ليس مصدر رغبته بذاته. وما يعزز ذلك هو الاحتجاج الذي نسمعه دائماً بأن الأهل قد جنوا عليه، فلم خلقوه وهو ناقص؟ هذا الاحتجاج يحمل في طياته التعبير عن الكره الدفين للأب. وبأن الدين المترتب عليه هو أكبر مما يمكن أن يسد عبر العطاء، وأنه في الواقع دين إدراك لحقيقة النقصان كشرط أساسي أن كون الفالوس موضوع هذا النقصان.

ويقول صفوان: «إن اجتياز هذه المرحلة، وحده، يمكن الإنسان من التنحي عن الوهم الذي كان يتمسك به حول قدرته الواهية، والتي إلى حد الآن كان يعيش الانفصال عنها بمثابة خصاء متخيل».

والسؤال هنا: إذا كانت هذه الكراهية للأب مرتبطة بوجوده، فما هي الحال في حال وفاته حسب أمنيته؟ الواقع بأن المسألة تطرح بجدية مأساوية إذا ما حصل أن وفاة الأب كانت تلبية لأمنية المنافسة؛ لأنها تترك الإبن فريسة دين كبير، فالقانون يستمر فعله رغم موت الأب.

ويشير فرويد إلى ذلك في كتابه الطوطم والتابو حول الأب البدائي، أن الأولاد الذين توافقوا على قتل الأب، اتفقوا فيما بعد على تحريم ما كان سبباً في قتل الأب، ونصبوا الطوطم بديلاً عنه يخشونه، ويهابون انتقامه، ويقدمون له الذبائح والعطايا لكي يكفوا شره، ويسكتوا غضبه. فالقانون مرتبط بموت الأب، وإن استمر ويستمر، فليس إلا لأنه مقترن باسم الأب، كما يسميه لاكان، كعامل أساسي في تكوين اللاوعي (اللاشعور). يستخلص فرويد من ذلك بأن القانون يبقى قانون الأب في تحريم الإثم وإن ارتبط تاريخنا بقتله، فصلة الذات به هي حلقة لاواعية (لاشعورية)، من حيث إن الرغبة التي انبنت على أساس الأوديب ما بعد حدود الوعي، فالعكس صحيح كما يقول صفوان.

من هذا المنطلق تصبح كراهية الأب بمثابة كراهية الرغبة لكل من وجد نفسه أمام خيار «ما بين الفالوس والموضوع».

استمرارية الأنا الأعلى «Surmoi» في تعسفه، وفي تحكمه، وفي تقييد حرية الأنا وتحميلها الشعور بالذنب، ليس إلا تراجع الذات عن تحديد رغبتها. فالشعور بالذنب ينجم عن تخلف جرأتها في الرغبة، سيما أن ما يضللها هو التباس الطلب في مكان الرغبة.

التهديد بالخصاء هو ما يعمل بالخفاء عند العصابي ضمن الكراهية المتبادلة التي

تفرضها المنافسة مع الأب، سواء كان ذلك، كما يتبين في هوامات الطفل، من أمنية في زواله، في تمزيقه أو في إخصائه، فإنه يرتبط في كل الأحول باستحالة بلوغ موضوع الرغبة وباستمرارية تشبثه بالأم. الأوديب ليس أسطورة إنما بنية نفسية ترتكز بالدرجة الأولى على اسم الأب، وعودة المكبوت عند كل عصابي لا بد أن تكون مقرونة بالمجاز الأبوي، كدعوة إلى إدراك حقيقة وبزوغ رغبة ما.

استلاب الذات في الأنا(*)

لا بد للذات أن تتمخض في ترجمة موضوعية، تشير، ولو بالتلميح إلى أمنيتها ورغبتها. وترابط الأنا بالذات هو تشابك لا يمكن فصله. وهذا ما يؤكده فرويد في قوله: إن جزءاً من الأنا يبقى لاواعياً (لاشعورياً)، وإن الأنا الأعلى يحمل بأحكامه القاسية واللوامة على الأنا، انطلاقاً من معرفة مسبقة باحتواء هذه الأخيرة لرغبات محرمة. وهذا ما يدعو إلى اعتماد فرويد، ولاكان فيما بعد، مبدأ الانشطار (Spaltung) ـ أي أن الأنا منشطرة على نفسها في قسمين: وعي (شعوري) ولاوعي (لاشعوري)، منذ أن بدأ الإنسان يتكلم ويحاول التعبير عن حاجاته في الألفاظ الكلامية. وأول ما يلاحظه الطفل، أن للكلمة مفعولاً سحرياً بحكم تأثيرها على الآخر. سواء كان هذا التأثير سلباً أو إيجاباً. في هذا الانشطار يكمن ضلال الأنا في موضوع رغبة الذات(*)، فهي تتوه في أوهام تخدم مصلحتها على حساب الكبت لرغبات الذات، ويلعب الخيال دوراً في متاهة الأنا، حيث يفتح أمامها حقلاً تضل به عن ذاتها، وتتوهم إمكانية تعدي حدودها، تغذيها نرجسية نابعة من واقع نفسي يرفض الالتزام بالواقع الخارجي، ويبدو ذلك واضحاً في التناقض الحاصل ما بين مقولة التعبير ومقولة المعبر. وهذا يعود إلى أن الشخص منذ أن يبدأ الكلام يقول أكثر مما يعرف، والفارق ما بين المعبر والتعبير يعود إلى الانقسام الذاتي، كون الرغبات اللاواعية (اللاشعورية) لا تهدأ في محاولة الوصول إلى إمكانية التعبير على رغم مقاومة الأنا لها، مما يجعل الإنسان في حيرة من أمره، يتساءل عما يريد دون الإمكانية في تحديد

(*) يميز لاكان ما بين الأنا والذات اللاواعية. على اعتبار أن الأولى تتكون من التماهيات المخيالية والثانية تكمن في اللاوعي لتعبر عن واقع الرغبة المكبوتة. لذلك يمكن للأولى أن تضلل الثانية بفعل هذه التماهيات سيما إذا كانت نرجسية.

موضوع رغبته سوى الاستمرار في ضلال يخدع نفسه عبر تماهيات أنا المتكلم «Je»، في «استناد مواقع» خيالية توهمه، دون أن تحقق فعلاً رغبته الذاتية. وهكذا يدخل عبر مقولته في جهل تام عن موضوع رغبته.

يلعب اسم الأب دوراً أساسياً، بل محورياً، في انشطار الأنا وتكون اللاوعي (اللاشعور). وهو مرتبط منذ البداية بدخول الطفل عالم اللغة، سيما أنه يجد منذ أن تلقن لغة الأم على أن مرجعية هذه، وعلى غير علم منها، تعود إلى رغبة مجهولة مرتبطة أصلاً بالأب سواء كان حاضراً أو غائباً، لأن الأم ليست جهازاً متكاملاً يكفي نفسه بنفسه؛ فكلامها ومخاطبتها لطفلها ينبعان من نقص يعود بمرجعيته إلى وجود الأب على اعتبار أنه يحتوي الموضوع المسبب لرغبتها. وقد يتساءل الطفل عن رغبة الأم، ويتهيأ له من خلال تصوره النرجسي لذاته، بأنه يمكن أن يلبي طلب نقصها، أو أنه بوجوده يعطيها هذا الاكتفاء، إلا أنه يفاجأ بخيبة أمل كبيرة، وإحباط شديد بأن موضوع الرغبة هو في الطرف الآخر المتمثل بالأب. وإن تساءل عن دور هذا الأخير، فإنه لا يجد جواباً سوى أنه مشرع ومعطاء في آن واحد، يرتبط به موضوع رغبته سواء في الاعتراف به أو التعريف عنه أمام الغير.

فدور الأب يصبح دالاً محورياً يدخل في طلب تكوينه الذاتي كجهاز يؤسسه، مرتبط أصلاً عبر السلسلة الدالة في الكبت الأساسي (Refoulement originaire) الأولي المكون للاوعي (للاشعور). فالمدخل إلى ذلك، كما يقول لاكان، هو دخول الطفل في عالم اللغة، فهو لا يعرف ما يقول ضمن ما يلفظ، لأنه يقول دائماً أكثر مما يحدده اللفظ. وهو «شيء آخر» عما عناه في لفظه. وهذا «الشيء الآخر» الذي يرشح هو الأساس للاوعي (للاشعور) كونه يفلت من المتكلم، لأنه أصلاً كان منفصلاً عنه.

«فاللغة كما يقول لاكان هي شرط اللاوعي (اللاشعور)، فاللاوعي (اللاشعور) هو الحصيلة المنطقية للغة: لا يوجد بالفعل لاوعي (لاشعور) من دون لغة»[1].

فانشطار الأنا إذاً متاخم لولادة اللغة عند الطفل ولولادة الذات من اللغة، وهو بمثابة البداية التي تحدد الذاتية (Subjectif)، وذلك ضمن نظم تتكون عبر الدوالي لأن الدال رقم واحد يسقط في حكم الكبت، إذا ما تبعه اللاوعي (اللاشعور) (دال 2). وهو بمثابة المكبوت المؤسس لما يرتبط به من دوال أخرى ـ أي انطلاقاً من الدال

---

(1) Préface J. Lacan à Anika Rifflet - Lemaire, p. 14.

رقم اثنين المجاز الأبوي المرجع الأساسي لنقصان الأم المتمثل في رغبتها في الفالوس (الدال رقم واحد). وهكذا يصبح الخط الفاصل بين دال اثنين ودال واحد (د2 ــ د1) د1 خط تماس في نفس الوقت الذي يعبر عن استحالة خرقه، أو بالأحرى جمعهما.

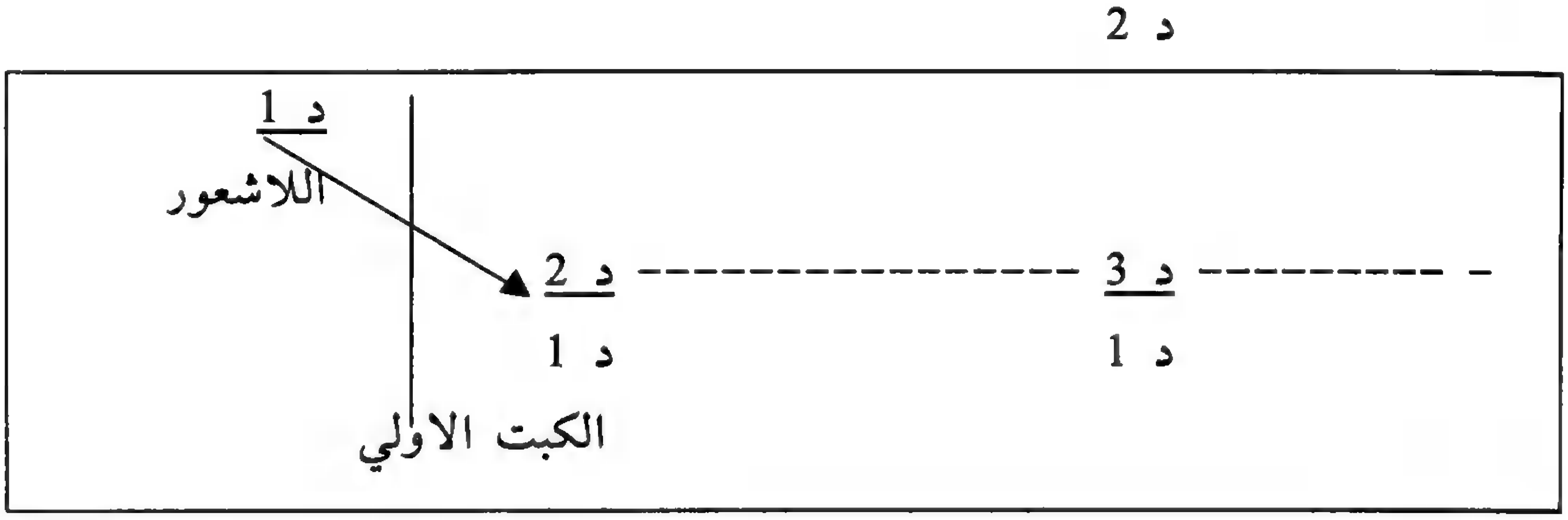

وهكذا يجد الطفل أن الصورة الأولية للتماهي الفالوسي التي نصبتها النرجسية في علاقته البدائية مع الأم مرتهنة بالمجاز الأبوي، كنقصان أساسي يدخل في تكوين اللاوعي (اللاشعور). وكل تسمية للأشياء تعبر عن رغبته تنبع من نقصان لهذا الوجود الذي أصبح في حكم المنفصل عنه، يؤسسه ويكونه. فهو مرهون به في كل تطلعاته على غير علم منه.

أي من خلال هذا الانشطار في الذات الناجم عن دخول اللغة، تتكون النواة الأولى للمكبوت الأساسي ومنه اللاوعي.

ويجب أن لا يغيب عن ذهننا بأن هذا الدال الأول، الفالوس (القضيب)مرتبط أصلاً برغبة الأم، كما ذكرنا سابقاً، وأن رغبة الطفل هي من رغبة الآخر، أي أن الفالوس (القضيب) كدال أولي هو أساس العلاقة بين الطفل والأم. وما دخول الأب على الخط إلا عملية قيصرية لإحباط هذه المعادلة: طفل= قضيب، لكي يجعل من النقصان عند الأم إلزاماً عند الطفل ويسقط من حسابه استمرارية هذا التكامل، فيصبح القضيب بمثابة نقصان مطعماً بدمغة الخصاء في تكوين اللاوعي (اللاشعور).

وكل هذه الدوالي التي تشير إلى رغبة الأم، تدخل في إطار التماهيات الأولية المكونة الدوالي الأساسي، أي بمثابة حجر الزاوية لبزوغ النواة الأولى للاوعي (اللاشعور).

وهذا ما أشار إليه فرويد في مقاله عن الكبت سنة 1915، عندما فنده في ثلاث عمليات:

1 ـ الكبت الأساسي.

2 ـ الكبت الثانوي المتعارف عليه، وهو ينجم عن الأول.

3 ـ وعودة المكبوت، وهي التركيبات المكونة في المحتوى اللاواعي (اللاشعوري) وهو ما يطالعنا به العمل العيادي في الظواهر التي تفاجئ وجداننا سواء أتت في الأحلام (الباب الملوكي)، أم في الأعراض، أم في النكات، وفي هفوات اللسان، والأفعال المغلوطة.

والملاحظ هنا أن الكبت الأساسي مرتبط أصلاً برغبة الأم وما يماثلها من تمثلات تعبر عنها. وهي نقطة استقطاب لكل نشاطاتنا الفكرية لأنها تجتذب كل الدلالات المتفرعة عنها، ودور المجاز الأبوي هو الوصلة الرمزية التي تخرج الطفل من هذا الارتهان الذاتي، وتجعل العودة مستحيلة، وتمهد له الطريق للخروج من وهم المتخيل لولوج عالم الترميز.

لا يعني ذلك أن العمل التحليلي عندما يبلغ نهايته، يلغي اللاوعي (اللاشعور) أي يستخرجه كمن يستأصل جسماً غريباً. فاللاوعي (اللاشعور) حسب تكوينه لا يُلغى، إنما يحل محل الأنا في تكوينها الجديد. . . فالمكتسب هو معرفة جديدة لمعرفة سابقة كانت إلى حد الآن في حكم المكبوت- وإدراكها لا بد أن يولد تغيرات في بنية الأنا.

ويبدو هنا حسب التعريف اللاكاني بأن الذات لا تسبب اللغة، إنما اللغة هي السبب في تكوين الذات. فأي تصور لذاتنا، فبأي شكل نريده أو نتمناه ليس إلا تصوراً لغوياً. هي كناية عن سلسلة لغوية لدوالي متشابكة فيما بينها ضمن النظام اللغوي المتمحور حول الاستعارة والكناية، لأن أي دال لا يجد معناه إلا إذا ارتبط بالدال الذي سبقه وبالدال الذي لحقه. وهكذا بمجرد أن تجد الذات تعريفاً عن وجودها في دال معين، نراها تغيب لكي تظهر في دال آخر وهكذا. مما يؤشر إلى تقدم العمل التحليلي.

سنحاول الآن توضيح صورة البنية الذاتية حسب ما ورد في الـ (Schéma L) عند لاكان، وهي كناية عن تصور يظهر به وهمية الأنا، لأنها منذ البداية تركيبة مخيالية

ناجمة عن مجموعة التماهيات الثانوية والتي تضللنا عن رغبتنا الحقيقية إذا ما تجاهلنا ارتهانها الأساسي باللاواعي (اللاشعوري).

مرحلة المرآة التي أتينا على ذكرها سالفاً تشكل النواة الأساسية التي تتكون منها الأنا ـ من اكتشافها يدرك الطفل بأنه موضوع منفصل عن أمه. في البداية كان يعيش في حالة اندماجية في جزء من جسد الأم ـ (الثدي)، إذ به يدرك كلية الأم، فيتعمم حبه من الجزء إلى الكل، وتصبح هذه العلاقة بينه وبين الأم ثنائية يتحكم بها المخيال في كل محتوياته الثنائية، من سادية إلى مازوشية، من عدوانية إلى حب اندماجي، ومن الطلب المطلق إلى اللاشيء. هكذا... يصبح الطفل شديد التأثر بالتغيرات التي تحصل عند الأم والتي تنعكس عليه مباشرة، نظراً إلى أنه حبيس هذه العلاقة المنظورة والتي تتمثل بثنائية اندماجية. مفهوم الأنا كاستقلالية ذاتية تشير إلى الجسد وما يملكه عبر وجوده في هذه المرحلة. ولا يمكن للطفل إدراكها إلا عن طريق الترميز، الخروج من استلاب المتخيل لدخول عالم الرمز: أي اللغة بكل تسمياتها؛ وكما يقول لاكان: «مأساة الذات في الفعل (Verbe)، تكمن في أنه يبرهن عن نقصان لوجود»[1]. فإدراكه لذاته لا بد أن يمر من خلال هذا النقصان، كشرط أساسي يمكنه من نقل النقصان غير المرئي إلى وجود مرئي يسعى إلى تحقيقه ولكن دون أن يعلم شيئاً عما كان يحركه من الداخل.

مأساة الفعل هي أنه قد يلبي حاجاته عبر الطلب، إلا أنه يبقى غامضاً بما يختص نقصانه[*]، وكلما تطور في امتلاك التعبير الكلامي كلما أدرك الفراغ في الآخر الذي يوجّه إليه الطلب، اعتبار أن ما يختص بنقصانه لا يستطيع الآخر إلا أن يجيبه بصمت نابع من نقصان في ذاته. فالأم مثلاً لا تستطيع أن تلبي كل طلبات الطفل، مما يجعله يدرك أنها ليست مطلقة في قدرتها، فيتبدد عنده وهم كان مأخوذاً به سابقاً.

البنية الذاتية تنطلق كما قلنا من مرحلة المرآة (أي اكتشاف الطفل لصورته) في الوهلة الأولى يعتبر أنها آخر، يداعبها كما يداعب طفلاً شبيهه: يبكي إذا بكى،

---

(1) Ecrits, p. 155.

(*) الموضوع الذي يحققه الفعل يظهر له أنه ناقص. هذه العملية تتكرر وتصبح تأسيسية حتى تطال وجوده ووجود الأم سيما عندما يناديها فتحضر: يميز ما بين اللامرئي والمرئي، وما بين النقصان والوجود.

ويضحك إذا ضحك، ويحاول أن يسيطر عليها، يغيِّب الصورة ويحضرها، بغية امتلاكها والتحكم بها. وهنا لا بد من تدخل الآخر (الأم) للتعريف عنها: فهي صورة مرئية تعرِّف عنه، فينسلب ويتماهى بها. ولا يتم ذلك إلا بواسطة الآخر، وعبر الآخر: تصبح نظراته هي المعرِّف المتبادل عن وجوده فعندما يعرف أن الآخر قد عرفه، معنى ذلك أنه تم الاعتراف بهذه الصورة التي تشكل ذاته.

فالطفل لا يدرك صورته إلا عن طريق إدراك الآخر لها بأنها تجسده عبر نطاقه. فهذه الصورة التي تشملها النظرة في حالة متكاملة لتكوينه هي النقيض بعد السيطرة على حركاته، لأنه لم يبلغ النضوج العصبي اللازم. وهذا ما فسرناه سابقاً.

تعود أهمية هذه المرحلة إلى كونها تولد عند الطفل صورة برانية مثالية مرئية، لذات ناقصة لم تكتمل بعد في الداخل. فهي إذاً حدث مسبق، يسبق نضوجه الفيزيولوجي، ويجعل من تطلعاته المستقبلية أملاً في تحقيقها. وهذا الفارق ما بين الصورة المرئية البرانية، والصورة الجوانية المتفتتة والغائصة في الفوضى، يبقى مستمراً، ويوظفه في كل المثالات التي يتمنى أن ترقى إليها الذات فيما بعد.

فالطفل إذاً، لا يرقى إلى بلوغ صورته إلا عن طريق الآخر الكبير(*) الذي يعترف بتماهيه بها، وأنها تمثله.

وهكذا يتلقى من نظرة الآخر الكبير له بأن الصورة التي يتفحص وجودها، هي أصلاً صورته. ونستطيع أن نستنتج من هذه الظاهرة، أن الصورة الذاتية وبداية العلاقة الذاتية، هي علاقة مخيالية لا بد أن تمر عبر الآخر. ويشدد لاكان على أن بنية الأنا هي في الأساس بنية مخيالية يقول: «بأن الأنا التي تكلمنا عليها، من المستحيل فصلها عن المرتهنات المخيالية التي تكونها من القدم حتى الرأس، سواء في نشوئها، أو في وضعيتها، أو حتى في وظيفتها الحاضرة لأنها تنطلق من آخر لأجل آخر».

وما علينا إلا أن نراقب الطفل في هذه المرحلة، فإننا نجد أن المواضيع التي

(*) اكتشاف مرحلة المرآة يظهر عاملين مهمين: الآخر الكبير الذي يعترف له بملكيتها ويصبح مرتهناً به طيلة الحياة، والآخر الصغير، قرينه: عندما يتهيأ له أن الصورة هي لآخر، تنتهي العملية بازاحة هذا الآخر وتؤسس الصراع الدائم ما بين الانا والآخر المؤسس لكل أشكال العداء والعنف إذا ما بقيت ثنائية. لأنها تختزل الوجود بصراع مميت إما الأنا وإما الآخر.

تكوّن أناه، مستمدة من الآخر، سواء كان شبيهه من الأطفال الذين يقاسمهم ألعابهم، أو من الراشدين حيث هو مأخوذ بهم نظراً لتفوقهم واكتمالهم الجسدي. فمجموعة هذه التماهيات المخيالية تكوّن الأنا في منطلقها نحو التعريف، وهذه العلاقة تصبح مضللة لأنه كلما توغل في التعبير الكلامي، كلما أدرك أن الكلام يعني أكثر مما يطلب . فطلباته الملحة نحو الأم ليست إلا دليلاً على ذلك، لأنها كلما لبّت طلباً كلما زاد إلحاحه في طلب آخر. فهي في حيرة من أمره، وهو في حيرة مما يطلب فعلاً. لأن طلبه النهائي هو طلب حب، تعريفاً لنقصان عن وجود. فالأنا عندما تكون مأخوذة في مواضيعها المتخيلة تكون في حالة جهل عما تريده الذات اللاواعية (اللاشعورية)، هذا ما يفرضه التداول اللغوي، لأن التعبير الزائد عما يحدده الطلب، يشير إلى المكان الذي ينطلق منه، وهو طلب اعتراف بوجود، كما هو تعريف عن هذا الوجود.

ونتيجة دخول الطفل عالم اللغة، يجعل الذات في حالة ارتهان بالأنا، كونها الوسيط بينه وبين الآخر. فهو لا يستطيع أن يعبر عن شيء ما إلا عن طريق اللغة، وما ليس له تصور لغوي يبقى في حالة اللاوجود.

وأراد لاكان أن يترجم هذه العلاقة في البنية الذاتية في صورة («L» Schéma «L») محاولاً إظهار أن العلاقة ما بين الذات والأنا، ليست علاقة مباشرة، إنما عبر التسلسل اللغوي المتمثل في مواضيع الأنا(*):

(الشبيه) أ--- ذ المحور الخيالي ــ اللاشعور ــ الآخر الكبير ـــ أ (الأنا ـ

سنحاول شرح هذه الرسمة تطبيقاً لما ورد: الآخر ---------- ذ (الذات اللاواعية)

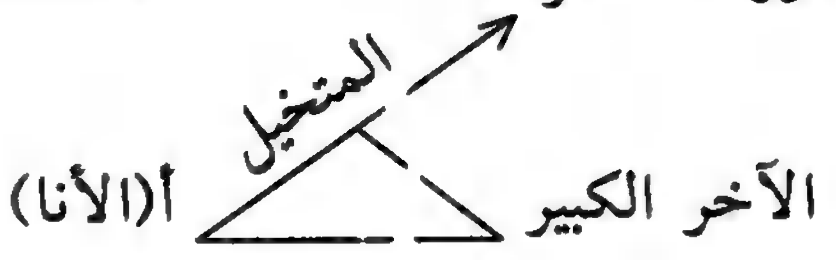

ذ: تمثل الذات في غيابها وبالشيء الذي لا تستطيع التعبير عنه إلا عبر خيوط الكلام المتشابكة، حيث تنطق بمعرفة كانت تجهلها.

انطلاقاً من هذا الوجود الغامض، لا تجد الذات سبيلاً للتعريف عنها إلا عن طريق الأنا (أ). وهو كما تبين لنا سابقاً، أن النواة لهذا التكون حصلت في مرحلة المرآة. حيث انتقلت الذات من الفوضى الممزقة، إلى التماهي المرئي في صورة

(*) أدين في هذا التوضيح إلى جويل دور في كتاب" كيف نفهم لاكان".

المرآة، ولكن هذه الصورة لا تتكون إلا عبر الآخر الشبيه ـ لأن الطفل في البداية لا يميز بينها وبين صورة طفل آخر شبيه، واعتماده لها كصورة نهائية له لا يأتي إلا في مرحلة لاحقة. ووجود هذا الآخر لا بد منه لكي يرتقي إلى التماهي في صورته.

ويصبح العكس صحيحاً. فاعتماده لصورته يمكنه كذلك من الاعتراف بالآخر شبيهه، ويتعامل معه على أنه جزء من الصورة الأولية التي أسرته، وهو ما نمثله بـ(أ)(*). وتبين لنا أن علاقة الذات بالأنا ليست مباشرة، بل يتوسطها الآخر الشبيه الذي تتركز عليه كل تماهيات الأنا المخيالية في علاقتها مع الآخرين. وهكذا يصبح المحور أ ـ أ هو المحور المتخيل، الذي يرهن الأنا في علاقتها بالآخرين. فالأنا في علاقتها بالذات لا بد أن تمر بـ أ' الآخر القرين، والذات لا بد لها في علاقتها بالأنا إلا أن تمر بنفس المحطة. وهكذا تتكون علاقة خطابية للتماهي: ما بين الآخر وذاته. وما بين ذاته والآخر. ويستعين لاكان هنا بالظاهراتية عند هيغل (الشيء من ذاته، والشيء لذاته).

أما الآخر الكبير: فهو يمثل المكان الرمزي: حيث يتلقى الطلبات، كونه المكان الأوحد الذي تحل به رموز الكلام، ويدرك المتكلم خلفية ما يريد. وصلة هذا الآخر الكبير بالذات هي صلة عبر حائط الكلام المتمثل في (آخر كبير ـــ ذات)؛ ولكن هذه العلاقة تصطدم بالمحور المخيالي الذي يربط الأنا بشبيهها المخاطب.

فكل مخاطبة من الذات لا بد أن تمر عبر المحور المتخيل أ ـ أ. ولكن ما هو هدف المخاطبة؟ ليس بالضرورة الآخر الصغير، لأن ذاتاً أخرى حقيقية تكمن وراءه، لأن الكلام إذا كان معبراً وصادقاً، لا بد أن يأخذ تفسيره الصحيح، ويبلغ التعبير المرسل معناه الحقيقي، هو افتراض موجود في كل مخاطبة. فنحن عندما نتكلم مع بعض: يتهيأ لنا أن الحديث يدور ما بين الأنا وأنا آخر، وإنما المقصود بلوغ مكان آخر متمثل بذات أخرى أصلية وصادقة. نرمي من وراء حديثنا مع الأنا أن الآخر يتلقى البلاغ ونستمد منها بالمقابل صدق ما نقول. وهذا ما يشير إليه لاكان في الكلام المليء الذي يعبر أصدق التعبير عن واقع نفسي للذات.

والعلاقة ما بين أنا وأنا أخرى مخيالية، فسواء الأولى أو الثانية كموضوع، لا

(*) استلهم لاكان هذه الفكرة من الشاعر ريمبو عندما قال: الأنا هو آخر: «le moi est un autre».

تعرف ما تقول. لذلك لا بد من طرف ثالث يعتبر مرجعاً رمزياً، تفك به رموز الكلام، ويصل المرسال إلى إجلاء غموضه. وهذا المكان الرمزي يتمثل في خلفية الأنا المتكلم وفي ما بعد الأنا الموجه إليها الكلام.

يحدد لاكان هذا المكان في الحقل الرمزي بالآخر الكبير كمرجعية ثابتة لاحتواء الحقيقة حتى ولو كان المخاطب كاذباً.

هذا الطرح يشكل المحور الأساسي لما يسمى التجربة التحليلية. لأن همّ من يرضخ لهذه التجربة، هو أن يتمكن من تحويل تعبيره من الكلام الفارغ الذي لا يعني أكثر من دردشة، إلى الكلام المليء الحقيقي الذي يعبر عن ذاته. ويفترض كي تنجح هذه العملية أن لا يؤخذ المحلل في مثاليات الأنا: أي مخاطبة أنا المريض لأنا الطبيب، بل يتعدى ذلك إلى أن ما يرمي إليه هو إبلاغه مرسالاً حقيقياً من وراء الأنا، من الذات الحقيقية، لكي يطال ما وراء أنا المحلل، هدفاً آخر متمثلاً في حقيقة تكمن في اللاوعي (اللاشعور) عند الطرفين. أي هنالك معادلة ما بين هذه الحقيقة والمكبوت.

أي ما وراء المحلِّل يوجد دائماً آخرون حقيقيون يوجه إليهم المريض حديثه، وهذا ما يتبين كلما تقدم التحليل إلى ظهور تحويل باتجاه آخر كان إلى حد الآن في حكم المجهول(*). والتحليل يهدف إلى كشف النقاب عنه، بإعطائه التأويل الصحيح الذي يمكنه من تبديد الوهم الذي كان يسيطر عليه في علاقته به في السابق. وهكذا كلما تقدم التحليل كلما استطاعت الذات أن تعبر عن حقيقة وجودها، أي رغبتها الأصلية، فتحل محل الأنا المخيالية، لكي تتبنى هذه الأخيرة ما كان مرفوضاً ومكبوتاً سابقاً. فتصبح الرغبة والعمل على تحقيقها من إنجاز الأنا في إخراج الذات من الجهل إلى معرفة سابقة . كما يقول فرويد: يحل الأنا في المكان الذي كان يحتله الهو سابقاً.

ومن خلال هذه النظرية تتبين استراتيجية تقتضي حسب قول لاكان: بأن كل عمل تحليلي يقتصر فقط على الأنا؛ سواء في دعمها إذا كانت ضعيفة أو بمخاطبتها، هو ليس عملاً تحليلياً إنما مجرد "حرتقة" لا يتعدى تأثيرها أكثر من عملية إصلاحية لتصحيح موقف الأنا المعوجة. بل على ضوء ما ذكرنا يذهب المحلل اللاكاني أبعد

(*) خلافاً لما كان يعتقد سابقاً، يستعرض المتحلل عبر التحويل على المحلل كل النماذج الأسطورية التي لعبت دوراً في تكوين تاريخه. وهو ما كان يسميه لاكان في الارخنة (historisation) الثانوية.

من ذلك أن يتعامل مع ما هو وراء الأنا أي الذات اللاواعية (اللاشعورية)، وأن ما يتلقاه من تأويل لا ينتظره من أنا المحلل، بل من المرسل إليه، أي آخر يكمن خلف الأنا، بكل ما يمثله من تركيبة لاواعية (لاشعورية).

واستراتيجية التحليل تقتضي تحديد موقعه من التحويل المتوجه إليه، وكل تحليل لا يأخذ هذا الموقع في الاعتبار، تكون نتائجه جانبية ولا تطال المريض في بنيته اللاواعية (اللاشعورية).

وعلى ضوء هذه الرسمة «L» «Schéma L»، يصبح مفهوماً كيف الأنا تتلطى في نماذج متكررة تعبر عن استلابها في المحور المخيالي، وتلغي أي اعتبار لوجود اللاوعي (اللاشعور). ودخولها في نظم التعبير اللغوي، لا بد أن يبرز الفارق ما بين الأنا المعبّرة والأنا المعبِّرة، وأن أي مفهوم قد يصل إليه المحلل لا يمكن أن يطابق الأنا المعبِّرة، لأنه في كل مرة تتحول هذه الأنا من ذاته في دال أول لكي تظهر في دال آخر .

والفارق بين الدال الأول والدال الآخر، هو الفارق الأساسي المتمثل في موضوع يسقط في المرحلة الأولى لكي يجدد الرغبة في المرحلة التالية. وهكذا كلما اقتربنا من هذا الموضوع، كلما زادت المقاومة، لأن الوصول إليه عبر التسلسل الكلامي لا يؤدي إلى كسبه إنما إلى خسارته، وفقدانه نهائياً؛ لأنه في الأساس كان بحكم المفقود، وأي موضوع بديل عنه كانت تتماهى به الأنا في مخيلتها، يتبدد لأن ما هو مفقود كان غير مرئي، ولا يمكن تحديده في أي موضوع آخر، والأنا في ضلالها كانت تتوهم إمكانية استعادته، ولكن ما يظهره التحليل هو تبديد هذا الوهم: عن طريق تحديد هذا الموضوع من كل الاستثمارات النرجسية. وما يكتسبه المتحلل من خيبة أمل وإحباط يتبعه ألم، يعوضه معرفة عن حقيقة أوهامه، وانطلاقة جديدة لرغبة تعبر عن ذاته، وتحل محل الأنا المخيالية.

---

(1) Joël Dor, Comprendre Lacan, Denoël.

Le transfert

التحويل

سنحاول توضيح موضوع التحويل الذي يشكل محوراً أساسياً في التحليل النفسي لأنه يعكس البنية اللاواعية (اللاشعورية) على الصعيد العيادي.

فالتحويل هو الموقع الأساسي الذي ينطلق منه المحلل والذي يتوجه إلى المتحلل، فمن دونه لا يوجد تحليل نفسي . وليس بالغرابة أن يعتمد المحللون على ظهور معالم التحويل قبل البدء في إعطاء التأويلات . فهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً في التركيبة النفسية من دون وجود عامل التحويل الذي يشكل كما يقول لاكان المسرح الأساسي الذي يمكّن اللاوعي الانتقال من الفكر إلى الفعل.

والسؤال الذي يطرح عندما يأتي طالب التحليل إلى المحلل هو: ماذا يريد منه؟ ما هو طلبه؟ أي بمعنى أن هناك طلباً موجهاً إلى المحلل، قد يكون: غير محدد في البداية، ولكنه يتكرر ويتوضح كلما اقترب التحليل من نهايته. وهذا الطلب إذا ما توجه إلى المحلل فمعنى ذلك أنه قد وضع في مكانة ما على الصعيد الهوامي تخوله تلقي هذا الطلب مع احتمال الإجابة عليه. وإن لم يجب المحلل على هذا الطلب،فهذا لا يعني أنه مرفوض. بل يجعله معلقاً مدفوعاً باستمرار إلى استعادة طرحه في مجالات أخرى، وذلك ضمن سلسلة التماهيات التي تكوّن الذات، والتي اختلط عليها الأمر على اعتبار أنها موجودة في طيات الهوام ولكن متخفية، انطلاقاً من أن هذا الهوام يعبّر عن رغبة لاواعية (لاشعورية) إذا ما توجه الطلب إلى الآخر: يعني أننا نضعه منذ البداية في مكانة معينة، تتحكم بحرية التصرف. وتحدد توجهات المحلل، ومواقفه، انطلاقاً من مفهومه وتفهمه لهذا الطلب. وهذا ما يفسر الاختلاف ما بين الموقع التحليلي والمواقع الأخرى، سواء في الحياة العامة أم في الحياة الطبية. فالمحلل

ارتبط بهذا الموقع من زاوية أنه راغب في تحمل أعبائه والقيام بمهمته، والسؤال موجه بالدرجة الأولى إلى رغبة المحلل.

التحويل هو المحرك الأساسي للتحليل، لأن المريض ينقل إلى المحلل مشاعر وهوامات تأخذ شكل الحاضر. أي تصبح معاشة ثم وجدانية . فالتوجه إلى المحلل دائماً توجه طلب، ينبع من ماض بعيد، من ذكريات منسية أو مكبوتة، ولكن استحضرت بفضل التحويل الحاصل.

فالتحويل في النظرية التحليلية هو المحور الذي انبنت عليه النظريات النفسية، وهو المكان الذي ينفذ منه المحلل إلى نفسية المريض الذي يمكنه من إحداث تغيرات علاجية.

والتحويل كلمة مستقاة من اللغة المتداولة، المصرفية والعقارية، وحتى المشاعرية. أي أصبح بملكية الآخر. أي بمعنى أنه أصبح يملك قدرة على التحرك بفعالية. وقد يكون ذلك لحساب المحوَّل إليه، ولفائدته. وهذا ما يشير إلى أن عملية التحويل هذه مرتبطة أصلاً بشرط أساسي وهو حيادية المحلل.

هذا لا يعني أن المحلل أصبح بمعزل عن تأثير التحويل عليه، فلا بد من التفاعل معه، وإثارة ردات فعل لاواعية (لاشعورية)، اتفق المحللون على تسميتها «بالتحويل المقابل»، ومن المفترض أن يكون المحلل مهيأ لمثل هذا الدور، والتقليل قدر الإمكان من انعكاسات التحويل بفضل تحليله الخاص وتخلصه من المقاومات الداخلية التي تحول دون إدراك ما يتفاعل عنده. وهذا ما سنأتي على توضيحه فيما بعد.

كتب المحللون الكثير من المقالات حول موضوع التحويل، فإن أجمعوا على أهميته في العلاج منذ بدايته حتى نهايته، فإنهم اختلفوا حول مفهومه وتفسيره، وكانت لهم آراء مختلفة، وحتى متباينة؛ وبقي مفهوم التحويل يحيطه الغموض والإبهام. وتغيب عن المحللين الرؤيا الصحيحة في تقويم النظريات النفسية، نظراً إلى أنهم خضعوا للتحليل، ولم يتسن لهم الانفضاض نهائياً من شباكه، والإفلات من تأثيره، حتى في تنظيراتهم، وممارساتهم العيادية؛ وخير دليل على ذلك الصراعات التي حصلت بين المحللين الأولين الذين كانوا يحيطون بفرويد، وكذلك الانقسامات التي حصلت حديثاً بين تلامذة لاكان، نتيجة الارتباط التحويلي بشخصيته المؤثرة.

والتحويل حسب التعريف التحليلي هو: عملية تتكشف من خلالها الرغبات اللاواعية (اللاشعورية) لأن المسرح التحليلي يصبح المكان الآني لاستحضار الماضي

ضمن الإطار الذي تحدده العلاقة التحليلية. إنه بمثابة تكرار لنماذج طفلية معاشة في حضور انفعالي[1].

فالتحويل، وإن كان ظاهرة إنسانية تميز الإنسان بعلاقته بالآخر، إلا أنها تأخذ في التحليل منحى خاصاً يتميز التحليل بها، ويبينها كظاهرة لا يمكن التغاضي عنها أو إنكارها، لأنها تحدد البداية والمسيرة حتى نهاية العلاج، والتأويلات، وكل ما يحصل من ردات فعل داخل العلاج أو خارجه. وهو يظهر الوجه اللاواقعي لتطلبات المريض من خلال هواماته، ومعتقداته الخاطئة التي كانت حتى الآن تتحكم بتصرفاته وبمسلكه على غير علم منه. وهذا ما حدا بالمحللين إلى التساؤل عن واقعية التحويل، نظراً إلى أنه تكوينة مصطنعة، أي صنيعة العلاقات التحليلية في إطارها المسرحي. هل التعلق الحبي أو حتى الحب الحاصل، شبيه بالحب الحقيقي أم أنه يختلف عنه؟[*] وهل هناك ما يبرر المشاعر السلبية التي تحمل البغض والكراهية تجاه المحلل، فإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية المشاعر وصحتها وواقعيتها، وعفويتها، فإنها مشاعر صادقة، وصحيحة، لا غبار عليها، تعبر عن واقعية الذات، وأما إذا نظرنا إليها من زاوية ارتباطها بالمحلل وبشخصه، فالموضوع يختلف والجواب عنه يصبح غامضاً.

فالمحلل هو ركيزة محور هذا التحويل، ولا نستطيع أن نحسم حياده بمعزل عما يخالجه من مشاعر مقابلة،أو مؤشرة قد تكون مهيئة وموجهة لمثل هذا التحويل في اتجاه معين. وأعتقد أن هذا الغموض الذي يحيط بظاهرة التحويل يعود إلى موقف المحلل ومشاركته اللاواعية (اللاشعورية) في تكوينه، كونه يظهر وجهاً من رغبة المحلل كانت إلى حد الآن في حكم المكبوت.

ولو استطعنا تطوير نظرية التحويل في مسيرة فرويد، لوجدنا انه فوجىء بهذه الظاهرة الغريبة، التي طالعته في بداية عمله التحليلي. وكانت بمثابة الكمين الذي يسقط به كل علاج، هذا إذا لم يأخذ التحويل موضع الجد، ويحاول المحلِّل تأويله تأويلاً صحيحاً. وحالة «Anna O» كما ذكرنا في (المقال الأول) كانت بمثابة مفترق الطرق التي دفعت برويير (Breuer) صديق فرويد إلى الابتعاد عن التحليل، نتيجة التحويل والتحاول المقابل.

وقد نتساءل أمام هذه الظاهرة وردة الفعل العكسية، التي جعلت بروير يتراجع

(1) Vocabulaire de la psychanalyse, p. 494.

(*) سؤال طرحه فرويد في مقالة حول التحويل العشقي في كتابه " تقنيات العلاج النفسي".

أمام متابعة العلاج، لماذا أخذ مأخذ الجد مشاعر مراهقة لا تتعدى الثامنة عشر من عمرها، وهو الطبيب الجليل المتمرس في الحقل العيادي؟ هل تكفي الإجابة عن ذلك بأنه وقع، بكل بساطة، في شباك جاذبية مريضة، وأصبح متيماً بها؟ أم أن السؤال يطرح من جهة Anna O. ما الذي حدا بها إلى اجتذابه وإفتانه، علماً بأنه لايتناسب معها، ففارق السن، ووضعه الاجتماعي والعائلي يحولان، دون السير قدماً حتى في تحقيق أهدافها؟

فما قدمته له يشير إلى طلبها ـ قدمت حبلاً وهمياً، (أي بطناً منتفخاً بالهواء)، فراغاً في جوفها ـ نقصانها. أما بروير فارتد خائفاً، فاقداً إمكانياته وقدراته في استيعاب وتفسير ما يحصل. العارض ليس موضوعاً مجرداً، بل يرتبط به مستهدفاً من خلاله، وهذا ما أدركه وما جعله في آن واحد متردداً. فهي تطلب نقصانه لكي يستطيع أن يعترف بنقصانها، بكونها امرأة دخلت في تصنيف التباين الجنسي. فإن حولت طلبها إليه في تحويل عشقي، ليس إلا لأنها وضعته في مكانة المعلم، المفترض العارف لما يمكن أن تشعر به امرأة وما يخالجها، وهنا يكمن السؤال والجواب في آن واحد.

وكذلك إذا نظرنا لفرويد من زاوية معالجته لحالة «دورا»[(1)]، نراه يشتم رائحة التحويل منذ البداية: عندما أبدت دورا اهتمامها برائحة السيجار، فالتحويل حسب تحديده كناية عن نقله، كما بيّن في تفسير الأحلام لرغبة لاواعية (لاشعورية)، إلى المواد التافهة المتبقية من أحداث نهار اليوم السابق[(2)]، يقول «المتمثل اللاواعي (اللاشعوري) غير قادر على إيلاج ما قبل الوعي (الشعور) بشكله الحالي، فهو لا يستطيع أن يؤثر إلا إذا تمكن من عقد صلات مع متمثل مبهم تافه من داخل ما قبل الشعور، يمكنه حينئذ من تحويل فعاليته إليه بعد أن يكون قد تلطى به. هذه هي حصيلة التحويل الذي توضح لنا العديد من الظاهرات المثيرة للحياة النفسية للعصابي». ولكن يبدو أن فرويد انتبه إلى ظاهرة التحويل التي تحدث من جراء لقاء المريض بالطبيب . ففي كتابه «دراسات عن الهستيريا» سنة 1895، ألمح إلى ما يمكن أن تحوله المريضة إلى شخص الطبيب من أحداث لاواعية (لاشعورية) كانت مكبوتة حتى الآن. وتصبح بالنسبة لها معاشة بدلاً من أن تتذكر مصدرها، وارتباطها بذكريات

(1) Cinq psychanalyses (Cas de Dora).

(2) تفسير الأحلام «فصل الشعور واللاشعور».

أخرى، نظراً إلى أنها في الأساس تمثل رغبة ممنوعة بقيت مكبوتة في حقل اللاوعي (اللاشعور).

وظاهرة التحويل كما بدت لأول وهلة في التحليل، مشجعة ومحركة للعلاج في الاتجاه السليم، ولكن سريعاً ما تبين له أنها وإن كانت عنصراً هاماً، فهي عائق في حد ذاته، يعزز مقاومة المريض، ويحول دون استذكار الماضي. وتوضحت هذه الفكرة عنده بعد خيبة أمله المتكررة في علاج التنويم المغنطيسي. من حيث إن المريض كان يبدي تحسناً وتعاوناً مع الطبيب ما دام هذا الأخير على علاقة معه، ولكن بمجرد توقف العلاج فإن كل الجهد الذي بذل، وكل التحسن الذي حصل يتبدد. هذا بالاضافة إلى العديد من المرضى الذين يقاومون منذ البداية،ويحولون دون استمرار العلاج. واعتبر فرويد أن التحويل ظاهرة مرضية يجب معالجتها كلما ظهرت بوادرها على أساس أن العارض يحمل في طياته تسوية ما بين نزوات ممنوعة، ودوافع مضادة.

وإن كان في البداية لم يعط هذه الأهمية للتحويل في دينامكية العلاج، خاصة عندما عالج حالة دورا، إلا أنه سريعاً ما عاد عن هذا التفكير بعد تجربة تحليلية خلال عدة سنوات. تبين له أن العديد من الحالات التي بأت بالفشل كانت نتيجة عدم فهمه وإدراكه لظاهرة التحويل في حينها. وهذا ما يشير إليه بوضوح في تحليل حالة دورا، من خلال الهوامش التي زادها فيما بعد.

فنحن نعرف أن حالة دورا باءت بالفشل رغم النتائج الجزئية التي حصل عليها في بداية العلاج.

والهدف من نشر هذه الحالة كان تعليمياً أكثر مما هو برهان على نتائج التحليل. كان همّ فرويد آنذاك التوجه إلى المحللين، وتعليمهم وإقناعهم، أكثر مما هو برهان على شفاء المرضى. هذا التحويل من فرويد إلى المحللين كان امتداداً للبقية المتبقية من تحويله الأساسي نحوFleisse - همه الأساسي الإقناع، وتجميع أكبر عدد ممكن من العاملين في الحقل التحليلي للذين يؤمنون بنظريته، فكانت صداقاته وعلاقاته متمحورة حول نظريات التحليل، ولا يتردد لحظة في الانفصال عن عضو ما رغم الصداقة التي كانت تربطه به إن ما تبين له أنه يخالفه في الرأي أو انحرف عن الخط التحليلي الذي رسمه. فتحويله على Fleisse استمر عدة سنوات حتى بعد الانفصال الذي كان مستهلكاً من قبل الطرفين، وكان من أسباب الانفصال أن نظرية العصاب أخذت منحى بعيداً عن العلم والواقع، أو على الأقل بعيدة كل البعد عما كان يفكر به فرويد.

وذكرى هذا الانفصال بقيت قابعة، كجرح لم يلتئم في نفسه إلى أن ظهرت إلى حيز الوجود بعدما تبين له أن الاستمرار مع يونغ أصبح مستحيلاً. ويذكر جونس أن فرويد بعد آخر اجتماع مع يونغ في Parc Hotel، أصيب بحالة إغماء، عللها فرويد فيما بعد بأنها دليل استمرار تحويله على Fleisse.

في حالة دورا: تطرق فرويد إلى حالة التحويل، واعتبر ان دورا فاجأته بالانقطاع عنه قبل ان يتمكن من السيطرة، وإدراك مغزى تحويلها نحوه. في البداية اعتبر انها وضعته في موضع الأب، ونظراً إلى تقارب السن كانت حذرة في علاقتها معه على غرار ما كانت تشعر به تجاه الاب، ولربما فكرت بأن هناك تواطؤاً ما بين الأب وفرويد، علماً بأنها كانت ترتكز منذ بداية العلاج على أنها جزء من صفقة ما بين الأب والسيد «ك»، أي أن هناك مقايضة، بأن يتغاضى الزوج عن علاقة زوجته، مقابل التنازل لها عن ابنته.

وهذه الصفقة، وإن لم تكن معلنة، ولكنها كانت قائمة بين الأطراف، لكل دور يلعبه؛ والحسبة تقوم على أربع قوائم.

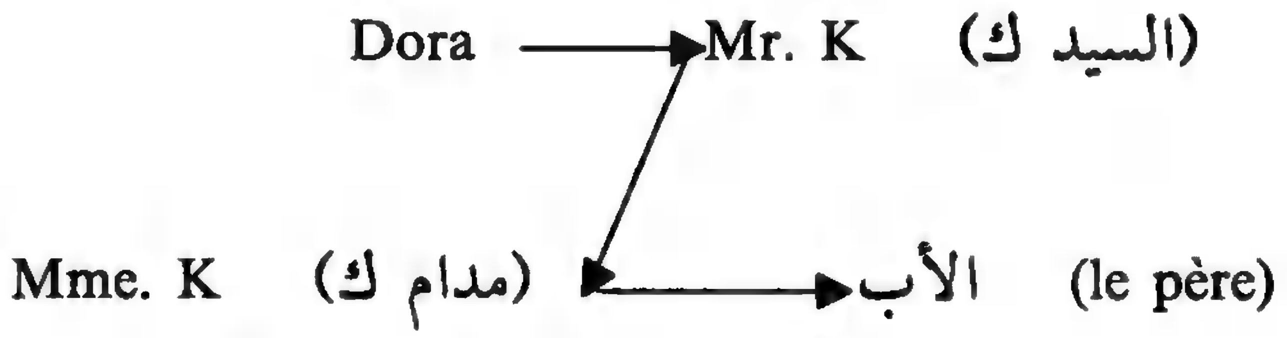

والشيء الذي لم يدركه فرويد في حينه: هو أن العلاقة التحويلية ابتدأت منذ زيارة الأب لفرويد: حيث إن مطلب هذا الأخير كان مغايراً لمطلب دورا، فالأب يريد أن يتأكد من اتهام فرويد له وأن تفكير دورا وهمي، ويريد منه أيضاً أن يقنعها بالإقلاع عن تلك الأساليب المسيئة بحق «Mr. K» أي لم يكن في نية الأب أن يصارح فرويد عما يحدث نظراً إلى أهمية الارتباط العاطفي بـ «Mme. K» وإخفاؤه لذلك ليس إلا رغبة منه في الاستمرار في العلاقة، وإعادة دورا إلى دورها الطبيعي كي تستمر هذه العلاقة.

فهكذا منذ البداية يبدو بأن الطلب التحليلي كان مهيأ للفشل نظراً إلى أن هذا الطلب انطلق من الأب بدل أن ينطلق من المريضة نفسها.فهي، نزولاً عند رغبة والدها، اتجهت نحو فرويد، من حيث إن تحويلها نحوه كان تحويلاً إحباطياً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما قاله لاكان عن الهستيريا، بأن رغبتها في النهاية هي "رغبة إحباط". فمنذ البداية ارتسمت علائم التحويل: وإذا كان الأب قد عقد صفقة مع

فرويد بأن يعيد دورا إلى طريق الصواب لكي يحتفظ بمدام «K» فهي ليست بعيدة أيضاً عن هذه الصفقة التي اتهمته بها، كونه رماها في حضن «Mr. K» لكي يحتفظ بمدام «Mme. K» وهذا ما لم يدركه فرويد في حينه، والذي كان يتحكم في سير العلاج لفترة معينة قبل أن ينتهي بمثل ما انتهت إليه العلاقة مع «Mr. K»، أي بالقطيعة.

فرويد اعترف بهذا النقص، ولكن إدراكه أتى متأخراً وناقصاً. فهو يقول[1]: «بأن التحويل كان يحمل في طياته توقف التحليل قبل أوانه، فأنا لم أستطع أن أتحكم في حينه بالتحويل، فتكاثر المواد التي وضعتها دورا تحت تصرفي شغلتني عن توجيه اهتمامي نحو أولى بوادر التحويل التي كانت تحضرها خفية من نفس المواد، كذلك الجزء الذي بقي مبهماً بالنسبة لي. . .».

العلائم الأولى للانقطاع عن التحليل ظهرت، كما يقول فرويد، في رواية الحلم الأول، أي: أبدت رغبتها بالامتناع عن المجيء عندما تكلمت عن ترك بيت «Mr.K». ويقول فرويد: بأنه كان يجب عليه في حينه أن يستنفر ويأخذ الحيطة لتدارك ذلك: "أنت الآن في حالة تحويل مشاعرك نحو «Mr. K» إلي. هل سبق ولاحظت في تصرفاتي ما يشير إلى نوايا سيئة على غرار «Mr. K»، سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة مجردة أو إلخ. من الاحتمالات التي قد تحصل في التحليل من جراء سماع كلام، أو موقف، أو نقل كلام».

المهم في الموضوع أن فرويد قد استخلص ـ وهذا ما سنعود إليه ـ بأن دورا وجهت إليه الصفعة نفسها التي وجهتها إلى «Mr. K». فهي قد وضعته في التحويل في هذا الموقع، وتصرفت على هذا الأساس، أي إعادة لما حدث مع الأول، ولكن بإخراج مختلف، فهي قد هجرت وصفعت «Mr. K» لأنه أعلن حبه لها، ولأنه اعتبر أن زوجته لا تعني شيئاً بالنسبة له. أما فرويد وإن انتبه إلى نوعية التحويل إلا أنه لم يدرك المحرك لهذا التحويل بهذا الاتجاه؛ وهذا اعتراف منه بالهامش الذي زاده سنة 1923. سنأتي على شرحه لاحقاً.

فدورا بدلاً من أن تتذكر، وهذا هو المطلوب في التحويل لاستعادة الحلقة المفقودة في النص حتى يكتمل المعنى، كانت تتحول إلى الفعل. فانقطاعها عن

(1) E. Jones: Biographie de Freud.

التحليل كان نتيجة هذا الفعل الذي يسمى Acting out(*) ـ أي ما هو مكبوت ومرفوض من قبل الطرفين يتحول إلى فعل: كما لو كان يأتي من الواقع.

والسؤال هنا: هل للمحللين دور في مثل هذا الانحراف؟ وهل كان بإمكانه تجنب ذلك؟ وهل بالإمكان منع حصول التحويل؟ فرويد يجيب عن جزء من الأسئلة في حينه، ولكنه لا يجيب عن القسم الباقي إلا بعد فترة زمنية من الممارسة والخبرات العيادية.

يقول فرويد بأن التحويل لا يمكن تجاهله، ولا يمكن منعه، فالتحليل ليس إلا وسيلة مصطنعة للكشف عنه وتوضيحه. وإن كان التحويل يشكل عائقاً وصعوبة قصوى في التحليل من ناحية تعزيز المقاومة، إلا أنه يشكل السلاح الفعال في يد المحلل الذي يمكنه في الوقت نفسه من حل الأزمة، إذا ما أحسن استعماله واستكشف في حينه المطبات التي يمكن أن يتعثر بها.

ويشير فرويد إلى أن انقطاع دورا عن متابعة التحليل كان نتيجة التحويل، لاسيما عندما يصل المريض إلى مرحلة تصبح فيها المشاعر السابقة، والنزوات المكبوتة، مركزة على المحلل، تطاله مباشرة من واقع العلاقة مما يجعل التعبير عنها صعباً، ومصحوباً بانفعالات قوية شبيهة جداً بالحالة الوجدانية المنسية، أي تصبح الآن معاشة في حد ذاتها ضمن الإطار التحليلي. ولا يستبعد في مثل هذه الحالات إذا كان المحلل غير متتبع لما يمكن أن يحصل: أن يوقف المريض العلاج، وفي أحسن الحالات أن يتغيب مؤجلاً ذلك إلى فترة لاحقة(**).

وهذا ما حصل بالنسبة لدورا: حيث إن فرويد فوجىء بإعلانها عن توقف العلاج قبل ساعتين: لأنه تغافل عن الإنذار الذي حمله الحلم الأول.

الحلم الثاني أتى بعد عدة أسابيع من الحلم الأول، وفيه إشارات عديدة إلى نوعية التحويل، وإشارة إلى توقف التحويل.

يقول الحلم: كنت أتنزه في مدينة لا أعرفها، أرى شوارع وساحات غريبة عني

(*) Acting out يعتبر نوعاً من المقاومة، يفضل المريض العقل على الاستذكار. لأن الاول يغيّبه ويغيّب مسؤوليته، أما الثاني فيطال الهوام المحرك الذي يتلطى به في اللاوعي.

(**) عادة عندما يقترب التحليل من الهوام المحرك والذي يطال المحلل بشخصه، تصبح الجلسات مضنية ومحرجة إلى درجة أنه قد يطلب توقيف العلاج لأن وضعه قد تحسن وزالت الأعراض. وهذا ما يسمى الشفاء بالمقاومة.

على إحدى الساحات أرى تمثالاً أدخل بعدئذ في بيت أسكنه، وأذهب إلى غرفتي حيث أجد رسالة من أمي.

وبما أني خرجت على غير علم من أهلي، فإنها لم تشأ أن تخبرني بأن والدي أصيب بمرض.

«الآن قد توفي وإذا شئت تستطيعين المجيء». أذهب إلى المحطة وأسأل أكثر من مئة مرة أين هي المحطة، وكانت الإجابة متقلبة: خمس دقائق. وبعدها أرى أمامي غابة كثيفة حيث أدخل وأسأل رجلاً ألتقي به: يقول لي«ساعتين ونصف بعد» (3 ساعات). «يعرض نفسه لكي يرافقني، أرفض، وأرحل لوحدي. أرى المحطة أمامي ولا أستطيع بلوغها». انتابني شعور بالخوف على غرار ما يحصل بالحلم عندما لا تستطيع أن تحرك ساكناً. وبعدها أجد نفسي في البيت. من المحتمل أن أكون قد انتقلت بسيارة، ولكني لا أعلم. أدخل البوابة وأسأله عن شقتنا «تفتح المشرفة على البيت وتقول لي: بأن أمي والآخرين قد أصبحوا في المقبرة».

الحلم كالرسالة: هناك مُرسِل ومرسَل إليه ـ كما يقول لاكان الآخر الكبير ـ يعيد طلباتنا سواء في الحلم أو خارجه بشكل مقلوب: أي إن عرض شخص ما أحبه على امرأة، يكون طلبه كي يصبح بالمقابل محبوباً منها - هو ما يسمى بحلم التحويل، أي موجه إلى فرويد، الذي هو بمكانة هذا الآخر، موقع الطلبات والتمنيات وإن كانت لا تتحقق(*).

تكوّن الحلم عند دورا في فترة كانت تفكر بها في الانقطاع عن فرويد، ونلاحظ هنا كل ما ورد من تفسيرات، ومواد غزيرة عن طفولتها، وكشف اللاوعي عندها تصبح ثانوية أن المهم ليست المعلومات هذه التي تكشف عن ماضيها إنما ما ارتبط بفعل اللاوعي (اللاشعور) بالمحلل نفسه (أي العلاقة به) بسبب التحويل.

فرويد قبل الحلم كان يؤكد لدورا بأنها تكبت في نفسها حباً دفيناً للسيد K وأنها تخاف من أن تبوح به، وأن الصفقة أصبحت شبه تامة، إذ يكفي أن توقِّع دورا عليها حتى يتم كل شيء. السيد «ك» يحب دورا، وهو مصمم على ترك زوجته. السيدة K تحب والدها، والأب لا يطلب غير ذلك إذ كان هدفه منذ البداية تحقيق هذه الصفقة. هذا بالإضافة إلى أن والدة دورا لم تعد تعني له شيئاً منذ فترة طويلة.

(*) عادة الحلم رسالة لها عنوان موجهة إلى الشخص الذي يسرد عليه. اذا كان الزوج يعني أن مضمونه اللاواعي يشير إلى طلبات لا يستطيع الوعي الإفصاح عنها. كذلك الأمر في حال التحويل.

هذا هو موقف فرويد قبل الحلم وبعده، بل إنه أكد لها بأن حبها للسيد «ك» لم يجد الفرصة المناسبة لكي يظهر ويتحقق فعلياً. ولكن يتساءل فرويد طالما أن القصة بهذه البساطة،وكل شيء مهيأ لها كي تنتهي نهاية سعيدة (Happy End)، فلماذا هذا التعقيد ولماذا هذا الغموض الذي عطل كل شيء، وجعل البنية المركبة من أربع قواعد:

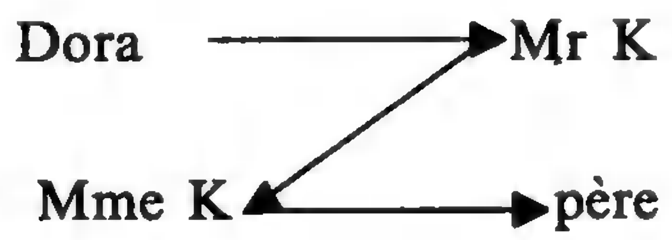

تنهار رغم كل فرص النجاح التي كانت مهيأة. فبعد حادثة البحيرة، تقول دورا: إن كل شيء تعقد، فهي أصيبت بانهيار عصبي، فكرت بالانتحار، رسالة وداع إلى أهلها، إنطواء على نفسها، تقلب في مزاجها يرافق ذلك ضغط كبير على والدها لكي يقطع علاقته مع العائلة «ك»؛ كل ذلك كان بعد حادثة البحيرة، والتي اقتصرت على جملة، وانفعال وصفعة: قال السيد «ك»: زوجتي لا تعني شيئاً لي وقبل أن يتابع كلامه تلقى الجواب بصفعة على وجهه ختمت المشهد.

فرويد كان في حيرة من أمره! إذا كانت دورا تحب «السيد K» فعلاً فما هو السبب الذي حدا بها إلى مثل هذا التصرف؟ سيما أنه وجد خاتمة هوامية تثبت هذا الاحتمال: من حيث إن دورا أصيبت بعارض زائدة دودية بعد تسعة أشهر، كما لو كانت أمنيتها الداخلية متجهة بدافع الندم، لو أنها استسلمت له لكانت الآن رزقت بمولود منه.

في الجلسة التالية قررت دورا وقف العلاج، وإنها فكرت بذلك منذ 15 يوماً. لا يخفي فرويد خيبة أمله بعد أن كان على وعد بأحسن النتائج، وبعد السؤال لماذا 15 يوماً (المهلة القانونية لصرف عامل من الخدمة) تبين له أن وراء ذلك قصة خادمة حاول «السيد K» مغازلتها ومضاجعتها، واستعمل بالمناسبة الجملة نفسها التي عرضها على دورا: بأن زوجتي لا تعني شيئاً بالنسبة لي. ولكن الفارق بأن هذا الأسلوب نجح مع الخادمة، ولكنه فشل مع دورا. تعززت افتراضات فرويد، للخروج من المأزق بأن رفض دورا أصبح منطقياً: فهي ترفض أن تعامل مثل الخادمة، وبحاجة إلى برهان أقوى على حبه لها إذا كان مصمماً، يرفعها إلى المستوى الذي يليق بها، وهنا يقول فرويد: بأن دورا أصيبت بخيبة أمل كبيرة نتيجة عدم تكرار

المبادرة الجديدة التي كانت بانتظارها. وهنا أيضاً يتوضح السؤال عن انتظارها 15 يوماً قبل أن تفضح السيد K سيما هنا إذا كان الانتظار انتظار أمل، أو وعد، أو بادرة جديدة، ترفعها إلى المكان اللائق وتفرق بينها وبين الخادمة، إلخ . نرى أن كل تفسيرات فرويد أتت فيما بعد بهذا الاتجاه.

واعتبر أن التحويل الحاصل هو بالفعل نتيجة نقلة لمشاعرها تجاه «السيد K» إليه (أي فرويد)، فهي تردد معه من خلال التحويل ما كانت قد فعلته بـ«السيد K». الانقطاع عن التحليل هو ضربة مباشرة إلى نظرية فرويد، والى كل ما كان يمنّي به نفسه من نتائج تعطي البرهان الواضح على صحة اكتشافاته. فدورا صفعته في هذا المكان الموجع على غرار «السيد K» الذي كان يمني نفسه بأسعد اللحظات من خلال تصريحه لها، وكانت الصفعة نفسية أكثر مما هي واقعية.

هناك تجانس ما بين موقف «السيد K» وبين موقف فرويد. وهذا ما جعل فرويد يشعر بنوع من التعاطف والتفهم نحو «السيد K» فأخذ جانبه، واعتبره شخصاً جذاباً لا بد من أن يكون زوجاً صالحاً لدورا، سيما أنها في الواقع تحبه، ولكن على غير علم منها، وهذا ما حاول الكشف عنه. وكانت النتيجة أن دورا نزعت الكرسي من تحته على غرار ما حصل لـ«السيد K»؛ فكلا الاثنين بقيا على الأرض من دون سند: أمام قهقهة الهستيريا وسخريتها. وكلاهما لم يفهما شيئاً عن الأنوثة. فسؤالها قد طرح في الحلم أكثر من مئة مرة: كان الجواب دائماً: التغيير بعد 5 دقائق .

وعندما يطرح السؤال أكثر من مرة معنى ذلك أن السائل لم يتلق الجواب، أو شعر بأنه غير مسموع. والمقصود هنا الجهة التي يتوجه إليها خطابها، وهو فرويد. فسؤال دورا المستمر: ما هي الامرأة؟ يعني تفتيشها عن الامرأة المثالية، لكي تتماهى وتسأل عن موقعها وعن رغبتها تجاه الرجل . والحلم يشير إلى هذا الاستلاب الذي حصل لها أمام لوحة ـ la Madona Sestine ـ دورا تبدو مأخوذة ساعتين ونصف أمام هذه اللوحة: تتساءل ما هو سر الامرأة؟ وماذا يحركها من رغبات؟ فدورا كما يشير وصف الحالة، مهتمة بجسدها وبتكوينها، للتعرف على أحاسيسها عن طريق امرأة أخرى تكون موضع إعجابها وحبها. فوصفها لجسد «السيدة K» بياضه ـ نقاوته، إلخ. وحبها وتعلقها بها يؤكدان هذا الاتجاه ـ فاهتمامها بـ«السيد K» لم يكن إلا انطلاقاً من اهتمامها بزوجته والتي كانت محور العلاقة: فهي التي تجسد مجاز الحب

الأبوي(*) - وحولها انعقدت وارتبطت كل العلاقات الأربعة. فهي العنصر الأساسي عن رغبة الرجل. «السيد K» بالنسبة لها لم يكن إلا صلة أو همزة وصل على صعيد تماهي ثانوي: يمكنها من موقعها التساؤل عن رغبة الرجل تجاه الامرأة. وماذا يريد منها؟

دورا كانت تجهل ما هي رغبتها، إذا لم تجد امرأة تتماهى بها لكي تتعرف عليها من خلالها. ومن دون هذا التماهي، وهي ظاهرة ثابتة عند الهستيريا، تجد نفسها في حيرة منه، وأمام نقصان لا تستطيع تحمل تبعاته؛ فهي تريد أن تبقى رغبتها بالرجل دائماً في حالة نقصان وتطلب منه أن يتحمل ذلك، لأن تلبية كل طلباتها تعني تجاهل هذا الرجل لهذا النقصان، مما يولد الخوف والقلق عندها. ويدفعها إلى الاحتجاج والعراك معه كونه لم يفهم ذلك.

وإذا ما تلقى فرويد نفس الصفعة التي تلقاها «السيد K»، فلا بد أنه ارتكب نفس الخطأ. وإن كان للتحويل من أهمية فلكونه دائماً إعادة لمواقف سابقة، لتركيبة هوامات، كانت إلى حد الآن فعالة وميكانيكية على غير علم من العصابي؛ وفي التحويل استحضار لها وإخراج في شكل واقعي، يمكن المحلل إذا ما أدركها في حينها أن يكشف عنها. وكما يقول فرويد في كتابه(1) عن مصير النزوة المتخفية في الهوام: فأمام الكشف عنها وإدراكها احتمالان: إما أن يتقبلها ويروض نفسه على قبولها كي تصبح جزءاً من الأنا يتعايش معها، وإما أن يرفضها بعد أن يجردها من كل فعالية، ويحول الطاقة المتمثلة بها إلى أهداف مغايرة ويستثمرها في أعمال بناءة، وهذا ما يسميه بالتسامي (Sublimation).

خطأ فرويد الذي اعترف به فيما بعد إذاً، هو أن دورا ضللته عندما جعلته يعتقد أنه يحتل في التحويل مكان «السيد K».

وكان التحويل المعاكس لفرويد هو دعم هذا الدور والسير في طريقه. ولكن من البديهي أن لا حاجة لدورا لإخفاء أو كبت مثل هذه المشاعر، سيما أنها تتهم والدها علناً بالتواطؤ لكي تقع في حب «السيد K».

(*) كان والد دورا يعاني، حسب فرويد، من عجز جنسي . وهذا ما يعني لدورا أنه لا يملك الفالوس الموعود. لكن عشقه لمدام K جدد الوعد والأمل لذلك أصبحت هذه الاخيرة ضرورة حتمية لبناء أنوثتها والتعرف عليها.

(1) Métapsychologie, (Pulsions et destin des pulsions).

يتبين أن شغلها الشاغل، والذي يكوّن كبتها: هو أنوثتها، تتأرجح في التماهي لكي تتساءل باستمرار: هل هي رجل أم أنثى؟ فـ«السيدة K» تمثل السؤال والجواب في آن واحد، فهي مستلبة مأخوذة بها على غرار اجتذابها أمام اللوحة «la Madona Sestine»؛ كل هذا تشير إليه في الحلم. فعندما تقول غابة كثيفة حيث أدخل اسأل رجلاً يقول لي: «ساعتين ونصف بعد. يعرض نفسه لكي يرافقني ـ أرفض وأرحل لوحدي...» فهذا الرجل الذي تصادفه في الغابة الكثيفة هو ما تسنه الطبيعة من قوانين، من أن الامرأة خلقت لكي تتمم الرجل،وهذ ما كان يعرضه فرويد باستمرار: من أن «السيد K» هو الرجل المناسب لدورا، ويكفي أن يرفع حاجز الكبت حتى ترتمي في حضنه. ولكن كما يظهر في الحلم أن دورا، أمام طلب الرجل مرافقتها، ترفض، وهو مرسال موجه إلى فرويد. من حيث إن رغبتها هي غير ما يشير اليه فرويد . فكل التداعيات التي حصلت كانت تعبر عن تساؤلاتها الجنسية حول الرجل والمرأة، وإن اهتمامها بـ«السيدة K» ـ هو نابع من اهتمامها بالقاموس الذي كانت تقرأ فيه حول الجنس، لأن حشريتها هي طلب معرفة، وليست معرفة مجردة. بل معرفة تمس رغبتها، جسدها، وأحاسيسها. فمن هذا المنطلق كانت «السيدة K» تمثل الأنا المثالي بالنسبة لها، فهي بحالة استلاب بالنسبة لها «أي السيدة K»: لأنها تمثل الامرأة المثالية وهي معرفة تجهلها. والتحويل، إذا تتبعنا خطى فرويد، أخذ هذا المنحى، فهي قد وضعته في نفس الموقع الذي وضعت به «السيدة K». فهو بمكان العارف، المفترض على الأقل أكثر منها حول الأنوثة. وتجاهل فرويد لهذا الموقع التحويلي هو الذي حال دون متابعة العلاج، على غرار ما حصل بالنسبة «للسيد K». فهذا الأخير لم يصدمها ويهدد البنية العلاقية:

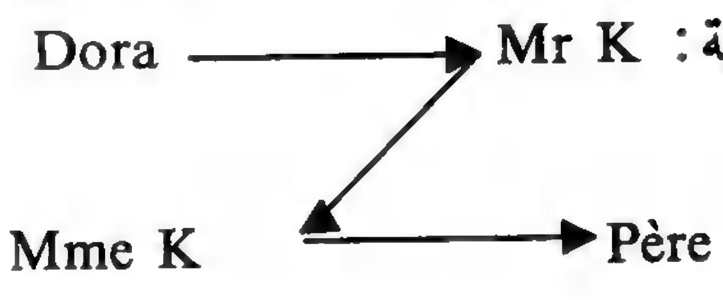

إلا بعد أن ألغى «السيدة K» من العلاقة التي أصبحت بحكم هذا الإلغاء ثنائية بدلاً من أن تكون رباعية. فإلغاء «السيدة K» هو إلغاء لمجاز رغبتها التي من خلالها تستقصي التعبير الواعد عن الحب الأبوي، وهذا ما يفسر التدهور الذي حصل فيما بعد. وفرويد أصر على تكرار هذا الموقف بتجاهله لموقعه التحويلي. فإصراره على أن التحويل هو من خلال «السيد K» يعني أنه أنكر الموقع الأساس وهو إلغاء «السيدة K». ويعترف فرويد بخطئه بهامش أضافه سنة 1923 ـ بأن تجاهله لموقعه التحويلي

هو تجاهل للتحويل الجنسي المثلي من دورا إلى «السيدة K»(*)، والتحويل يكرر إعادة مراحل ذكريات ومواقف، عن طريق الاستحضار عوضاً عن الاستذكار.

أي ما هو ذكرى يصبح بالتحويل فعلاً، يتبدد إذا ما كشف النقاب عنه وتم إدراكه. ولكن فرويد يقول: لا يمكن للمحلل أن يدرك موضوعاً مكبوتاً إذا لم يتيسر له فك عقدة كبته الذاتي، أي لا يمكن أن يدرك عند المريض ما يتجاهله في نفسه نتيجة الكبت الذاتي. وهكذا يعترف فرويد بخطئه بالنسبة لحالة دورا[1] فيقول: كلما ابتعد الزمن عن الطريقة التي أنهيت بها هذا التحليل، تبين لي أنني في الوقت المناسب، حب دورا المثلي «للسيدة K. . .» وهو المنحى اللاواعي (اللاشعوري) الأقوى. كان يمكن أن أدرك ذلك، لا يوجد شخص غير «السيدة K» قادر على أن يكون المنهل الأساسي لمعارفها الجنسية، والتي اتهمتها دورا، فيما بعد، بأن لها حشرية أكثر من اللازم حول هذا الموضوع. ومن الغريب أنها كانت على معرفة بكل المواضيع الجنسية المتداولة، لكنها تجهل مصدر هذه المعرفة. الحلم الثاني كان يمكن أن يكشف النقاب. ويتابع فرويد: "كنت أنشغل في علاجاتي السابقة للعصابيين، بسبب عدم إدراكي في حينه لاهمية الميول الجنسية المثلية، وهذا ما كان يضعني في حيرة كاملة".

انطلاقاً من هذه الخبرات الفاشلة اكتشف فرويد أهمية التحويل، واعتبره المحرك الأساسي في التحليل. فهو العقدة التي تتمركز بها المقاومة والحل في آن واحد. وقد كرّس دراسة كاملة لموضوع حب التحويل سنة 1915 ـ سنحاول توضيحها:

ورد ذلك في تقنية التحليل في مقالين، الأول: ديناميكية التحليل النفسي ـ سنة 1912[2]، والثاني ملاحظات حول الحب التحويلي سنة 1915[3]. وبين المقالين، مقال هام حول الاستذكار والإعادة والاستخلاص سنة 1914[4].

في المقال الأول يحاول فرويد التأكيد على أن التحويل هو ظاهرة إجبارية لا

(*) ظهور الحالة الجنسية المثلية عند العصابي، تختلف عما هي عند الانحرافي. فالأولى تعتمد على كبت وتجعل من الموضوع الجنسي (رجلاً أم أنثى) مثالا يحتذى. أما الثانية فمبنية على النفي للفارق الجنسي وهي نرجسية لا ترغب إلا ما يعكس صورتها بالكامل.

(1) ص (90) هامش، 1923.

(2) تقنية التحليل النفسي، ص50.

(3) المصدر نفسه، ص 116.

(4) المصدر نفسه، ص 105.

يمكن تفاديها منذ أن بدأ العلاج، وهي متواجدة في ظروف حياتية ثانية: في العلاقات العامة، في طريقة الحب، في الزواج، في الطب، إلخ. ولكن التحليل النفسي أوجد لها مختبراً اصطناعياً لكي تظهر بأقل ضرر ممكن نظراً لتحييد المحلل. فهو كما يقول: بعض المحللين دورهم أشبه بدور الجراح الذي يقوم بعملياته مطهراً من أي تلوث خارجي. فالتحويل الذي يظهر ويتمحور حول شخص المحلل، يتطلب منه التدخل لوضع حد لبعض الانفعالات، أو توضيحها وتأويلها، لنقلها إلى مستوى آخر. فمن هذه النقلة يرشح مكسب ليبيدي جديد يوسع حقل إمكانيات المريض والاستفادة من قدراته. وهذه النتيجة التي يتوخى الوصول إليها، تنطلق من نظرية اعتمدها فرويد، وتقول: بأن الدوافع الليبيدية التي تكوَّنت في تركيبة معينة من أثر انطباعات الطفولة، تنقسم إلى قسمين: قسم يتوجه نحو الشعور ويؤدي إلى انطباعات نفسية واعية، وقسم آخر يبقى لاواعياً (لاشعورياً) مكبوتاً يوظف في هوامات، ويصبح في حكم اللاوعي (اللاشعور) فاعلا يتحكم في بعض التصرفات وفي اتخاذ بعض المواقف التي تتكرر في أشكال مختلفة تغيب عن وعي الذات. وإجمالاً كلا القسمين الواعي (الشعوري) واللاواعي (اللاشعوري) من الليبيدو الموظفة يلعبان متآزرين دوراً موحداً في تكوين النوعية العلائقية التي تتكرر مع الأشخاص. والمحلل بحكم موقفه، هو الشخص المهيأ لكي تتمحور حوله الانطباعات التي تكونت منذ الطفولة. وهذه الانطباعات هي التي تحدد المسلك، والطباع، حسب النموذج الطفلي المكون للذات. فهذا النموذج مرتبط بنوعية معينة من الطلبات من حيث إن عدم الإجابة عنها في التحليل النفسي يجعلها تتكرر عبر سلسلة نكوصية مرتبطة بالكمية الليبيدية المتشبثة في مرحلة من المراحل الجنسية. والتأويل هنا يمكِّن المتحلل من وعيها وإدراكها، فيحرره من هذه المواقع المتخلفة، على غرار الفرقة العسكرية التي تكون قد تخلت عن المراكز الأولية كانت حبيسة فيها مواقع خلفية؛ فتحريرها من هذه المواقع، يمكنها من التحرك، والعودة إلى الخطوط الأمامية للقيام بواجبها. ويفترض أن يتم ذلك بنجاح، ودون مقاومة، ولكن التجارب التحليلية بيّنت، كما ألمحنا سابقاً، ان التحويل يستقطب المقاومة ويتحول في مرحلة من المراحل إلى حاجز يحول دون نجاح التحليل توقف فرويد عند هذه النقطة، وتساءل عن أسباب ظهور هذا التحويل في التحليل، واعتبر أن التحليل غير مسؤول عن ظهوره، فمن دواعي العصاب أنه يحمل في طياته أسباب التحويل.

أما فيما يخص تحوُّل التحويل إلى مقاومة، فهذا الموضوع بقي محافظاً على غموضه رغم كل التفسيرات التي حاولت توضيحه، باعتراف فرويد نفسه. إلا أن هناك بعض المعطيات التي يجب أن ندركها، وإن كانت لا تؤدي إلى حل المشكلة حلاً تاماً، فالموضوع أوسع من أن يعالج من جهة المتحلل فقط؛ فكما يقول لاكان «يجب أن يعالج وليس هنالك من مقاومة في التحليل إلا مقاومة المحلل نفسه». ولنا عودة إلى هذا الموضوع وعلاقته فيما يختص بالتحويل المقابل.

فالتحويل لا بد أن يؤدي إلى مقاومة تزداد كلما اقتربنا من النواة المرضية، أو العقدة الشبقية. وإجمالاً يستشهد فرويد بيونغ ليؤكد أن عملية انطوائية تحصل من قبل الليبيدو. أمام رفض الموقع التحليلي إعطائها الاشباع المباشر، عائد إلى مواقف نكوصية تستعين بها، وتستثمرها على الصعيد الهوامي، لكي تحصل على نوع من الاشباع. والذي يحصل أنه كلما حاول المحلل الكشف عن هذا الموقف تتجمع القوى كلها في مقاومة واحدة لدحض محاولته. ومشكلة العصابي أنه يوظف هواماته اللاواعية (اللاشعورية) أكثر مما يوظف الواقع، ولا بد أن هناك مكاسب جانبية من هذا الموقع أو ذاك إذا كان لا يحصل من الموقع اكتفاء ذاتي يعوض عن النقص الأساسي الحاصل من إحباط النزوة. وفي مثل هذه الحالة تقوى المقاومة بقدر ما كانت المكاسب الجانبية كبيرة ـ «المقاومة ترافق العلاج خطوة خطوة، وتترك بصماتها على كل فكرة، على كل فعل يصدر عن المتحلل، أي بمثابة تسوية ما بين القوى المتجهة نحو الشفاء والقوى المضادة لها». حسب قول فرويد.

فالتحويل يتكوّن من صلب العقدة (المرضية الأوديبية) وفي المرحلة التي يتم بها هذا التشويه ما بين المقاومة والعمل الاستنتاجي. يحصل التحويل ـ يقول فرويد ـ «عندما يتحول شيء ما من عناصر العقدة (كان موجوداً أصلاً بها) إلى شخص الطبيب، فيصبح بمثابة الفكرة التالية التي تشكل المقاومة، والتي تؤدي إلى توقف توارد الافكار»[1].

والسؤال هنا يأخذ اتجاهين، الأول، هل الفكرة بحد ذاتها تصبح مقاومة إذا ما انتقلت إلى الطبيب المعالج؟ أي بمعنى آخر هل أن هذه الفكرة التي كانت في السابق لا تجد أي صعوبة كي يتكلم عنها نظراً إلى كِونها مرتبطة بأحداث سابقة، أي لم يعد

(1) ديناميكية التحويل، ص 54 ـ 55.

لها ارتباط بالواقع الحاضر؟ أما الآن نظراً إلى أنها تطال الطبيب بوجوده، بنوعية العلاقة معه، فتصبح إذاً فكرة غائية، يدخل الطبيب طرفاً بها. هل يصعب عندئذ على المريض البوح بها؟. هذا سؤال. أما السؤال الثاني: فكما يوضح فرويد بالمقال نفسه، بأن هذه الفكرة المتحولة إلى الطبيب، أتت لتخدم المقاومة من حيث إنها توقف توارد الأفكار، وتستقطب أهمية خاصة تفوق كل ما حولها.

فانتقال الفكرة إلى الطبيب بنظر فرويد، أتت إذاً لخدمة المقاومة. والدليل على ذلك بمجرد تذليل هذه المقاومة، أي مساعدة المريض على البوح بهذه الفكرة والتكلم عنها، حتى تتدفق المواد الجديدة التي كانت متوقفة حتى الآن.

الجواب عن السؤالين ليس بالسهل إذا ما أردنا أن نتبنى اتجاهاً معيناً. فكلا الاتجاهين يساهمان في خدمة المقاومة، سواء أكان التحويل هو المقاومة بحد ذاتها أو أنه وسيلة تنصب عليها المقاومة لكي تعزز موقفها.

وإذا استقرأنا مقالات فرويد التي أتت لاحقاً، نجد أن التحويل ما هو إلا إعادة لبعض المواقف الطفلية التي كان يستعملها المريض كي يحقق بعض مطالبه، أو أن شخص المحلل أخذ بالفعل مكانة نموذج من النماذج الشخصية التي كان يتقرب أو يحاول الطفل اجتذابها، وكانت تربطه بها علاقة مزدوجة: الحب والمودة من ناحية، والكراهية والعدائية من ناحية أخرى. والواقع في التحليل أن كلا الاحتمالين يسببان مقاومة معينة ـ فالتحبب والاجتذاب لا بد أن يحملا في طياتهما بوادر تؤدي إلى دوافع شبقية ـ يصعب التعبير عنها سيما إذا ما انتقلت إلى شخص الطبيب. وهذا ما يندد به فرويد، بأن لا ينخدع الطبيب في المظاهر الحبية، وأن يمتنع عن إعطائها أي مبرر خوفاً من أن تؤدي إلى حب شبقي يصعب السيطرة عليه، أو حتى إكفائه، وقد يتحول فيما بعد إلى علاقة هيامية من نوع الهذيان الشبقي. فمطلوب منه أن يخفف من غلواء هذا الحب مع الاحتفاظ بالقسط الكافي كي يبقى كلامه مسموعاً.

إلى جانب هذا المنحى الحبي يوجد منحى عدائي متاخم له، وهو ما يسميه بالتحويل السلبي ـ نظراً إلى أن الأول هو التحويل الإيجابي؛ والثاني هو التحويل السلبي الذي يصبح بحد ذاته مقاومة وعائقاً يحول في بعض الأحيان دون متابعة العلاج، وقد يطيح بكل المكاسب التي تحققت فيه؛ وتدهم المقاومة هذا الاتجاه لكي تتخلص من الالتزامات التي يمكن أن تحصل إذا ما تخطى هذا الحاجز. ولكن ما بين التحويل السلبي والتحويل الإيجابي هناك تأرجح من حيث إن كلا الاتجاهين، في

تطرفهما، يستخدمان من قبل المقاومة وهذا ما أسهب فرويد في شرحه في مقاله: ملاحظات «حول حب التحويل».

يقول فرويد بأن الطبيب يتعرض لأن يقع المريض في حبه، ويصبح طلب إشباع هذا الحب ملحاً، ومستمراً بشكل أنه يغطي كل المواد اللاواعية (اللاشعورية)، فتتضاءل أهميتها أمامه. وأمام هذه الظاهرة يقع الطبيب في حيرة من أمره، سيما إذا كان قد اكتشف داخل ذاته أنه يشارك ضمناً هذا الشعور. فالموضوع عندئذ، يقول فرويد، يصبح أكثر تعقيداً لأن المطلوب ليس أن تقنع طرفاً بل طرفين، لكي لا يصلا إلى الطريق المسدود. وأمام هذه الظاهرة، لا بد من اتخاذ مواقف وإعطائه التأويل التحليلي المناسب. فطرح الموضوع من الزاوية الأخلاقية والالتزام المسلكي لا يعطي حلاً، وإلا لكان التحليل وسيلة من وسائل الإرشادات الدينية والأخلاقية. فالحب التحويلي، يقول فرويد، رغم أنه صنيعة عملية التحليل، إلا أنه لا يختلف بشيء عن الحب الحقيقي، وبطبيعة الحال فإن مطلبه النهائي الالتحام الجسدي، أي الإشباع الشبقي. ولذا يشير فرويد إلى أن رغم هذا التشابه، فعلى الطبيب المعالج ألا ينغرّ إذ لولا التحليل لما حصل مثل هذا الشعور. فالحب هو نتيجة التحويل، وليس جاذبية شبابه أو سواد عينيه. والخطأ كبير إذا ما وظف هذا الشعور في مكاسبه الغرامية. فالمحافظة على حياده، وتحديد ما هو مطلوب منه يشكل حجر الزاوية الذي يجب أن ينطلق منه؛ فهذا شعور عابر يترجم انعكاساً لحالة طفلية لا بد للطبيب أن يتفهمها، ويحاول السيطرة عليها، والإمساك بيد المريض كي يجتاز هذه المرحلة.

فالافتتان والانجذاب وسيلة وليست غاية في حد ذاتها، إفتان الآخر ليس لتحقيق مطلب معين، والتجارب التحليلية تفيد بأنه منذ بداية التحليل والمريض لا يفتأ يحاول اجتذاب طبيبه بشتى الوسائل، سواء الجسدية أو الاستعراض الفكري. وهذا الاجتذاب ذو حدين يخدم التحليل من ناحية استعراض المواد اللاواعية (اللاشعورية) في جو من الإلفة والمحبة، ومن الناحية الثانية يصبح عامل مقاومة من ترابط الاجتذاب والإفتتان مع الدواعي الشبقية المكبوتة كون الهدف والوسيلة يختلطان فيما بينهما لكي يصبحا موضوعاً واحداً ؛ وهذا ما يحصل في التحويل العشقي. ويجب ألا يغيب عن فكر الطبيب بأن الهيام التحويلي ليس هناك ما يبرره في الواقع، فهو عادة ما يكون من جانب واحد، ولا يقيم حق التقييم للطرف الآخر، وحتى المشاعر لا تبنى على أساس واقعي.

وهذا النوع من الهيام يمتد بجذوره إلى الطفولة الأولى، من حيث إنه يصبح تكراراً لمرحلة يكون قد مر بها المريض، ولفها فيما بعد النسيان والكبت. ودخول المحلل ضمن السلسلة، يجعله يستقطب المشاعر التي كانت مكبوتة، يصبح بحكم مكانه المتخيل قطباً هاماً تسقط عليه المشاعر المنسية. والتحويل قد يتطور إلى مقاومة بقدر ما أن هذه المشاعر، أو حتى المواقف التي يعاد سكبها على صعيده فتسقط عليه، تصبح على المسرح التحليلي فعلية وحاضرة، بدلاً من استذكارها فكراً وإدماجها في ذاته.

فهذا الفعل بدلاً عن الاستذكار يؤدي إلى اتخاذ موقف من المحلل ـ سواء كان حبياً أو عدائياً ـ لا يمت بصلة إلى المحلل بقدر ما هو إعادة لأحداث سابقة كانت تسيّر حياته في فترة من الفترات، أتى عليها النسيان. فبدلاً من استذكارها، يكررها فعلياً، كما يقول فرويد، على صعيد التحويل.(*)

والسؤال هنا: لماذا هذه الصعوبة في الاستذكار؟ ولماذا أصبح الفعل أوفر جهداً، وأفضل طريقة من الاستذكار؟ لماذا هناك تفضيل الفعل على استعادة الذكرى؟ أسئلة نطرحها ونأمل الإجابة عنها فيما بعد.

المحلل، يقول فرويد: عليه أن يفتح معركة على ثلاث جبهات: على الصعيد الشخصي، بألا ينزل عن المستوى المطلوب، على الصعيد الخارجي ضد أعداء التحليل، ثم على صعيد المريض الذي يقاوم الاعتراف بديناميكية النزوات الجنسية، والتحويل العشقي، أو الكرهي.

التحويل لا يجب أن يتعدى حدوداً معينة، سواء في الاتجاه السلبي أو الإيجابي، حتى لا يفلت منه زمام الأمر، ويصبح وعي المريض في حكم العواطف الجامحة التي قد تطيح بالعلاقة التحليلية وبنتائجها. وهذا ما قصده فرويد بكلمة تعبر عن موقف المحلل (La mentalité bienveillante) ـ أي الحياد الساهر على مصلحة المريض ـ فهو ليس مطلوبا منه أن يساند ويدعم اتجاهاً معيناً أو طرفاً في النزاع: إنما المطلوب أن يحافظ على موقف محايد حتى لا يصبح هو طرفاً في هذا الصراع. ومن هنا يصبح كلامه مسموعاً وله صدى لأنه فوق الأزمة. والمشكلة التي يقع بها المحلل هي أنه في التحويل السلبي يدخله المريض كطرف في النزاع، ويصبح من الصعب عليه أن ينقذ

(*) يقول لاكان: Le transfert est la mise en acte de L'inconscient.

شخصه، ويحيده عن الأطراف المتنازعة. وكل تأويل يصدر عنه، يفسر حتماً من زاوية الدور الذي أعطي له؛ وهذه العلاقة تؤدي إلى فشل العلاج وتوقّفه إذا اجتاحت كل عناصر الوعي التي تربط الأنا بالواقع، والتي لم تعد تميز ما بين المحلل في الهوام، وما بين المحلل في الواقع.

وأهم عنصر يتأكد لنا في التحويل، هو عنصر الإعادة، فكل النزوات والهوامات تتكرر باستمرار خلال التحليل، وهذا عامل ثابت اكتشفه فرويد في نظريته الثانية، التي تكلمت عن الإعادة وعلاقتها بالموت. وأول مرة تكلم بها عن الإعادة هو في الحديث عن لعبة (FOR-DA) محاولة للدخول في حقل الرمزية. لعبة استنبطها طفل هو حفيد فرويد كان يعاني من غياب أمه كل صباح . فاستنبط هذه اللعبة كي يتمكن من التحكم بغياب الأم وحضورها عن طريق الرمز: البكرة، وكنا قد أتينا على شرحها سابقاً.

بهذه اللعبة، يقول فرويد، دخل الطفل عالم الرمز، وأن التكرار يهدف إلى استعادة خبرة ما، سيما إذا كانت مؤلمة، كي يتمكن من السيطرة عليها واحتوائها عن طريق الترميز.(*)

فالإعادة من أصل بنية النزوة ومن ضرورات حتميتها تعيد نفسها في كل مرة بإخراج جديد بفارق عن سابقتها، الشيء الذي يغيب الرؤيا ويعطل إدراكها في محتواها الحقيقي. وقد يكون الترميز هوالمحاولة الذهنية التي تمكن الذات من احتواء النزوة، والسيطرة عليها، وإدخالها في عالم التعبير المتداول والذي يخرجها من حلقتها المفرغة. والنزوة كما عبر عنها فرويد في«ما وراء علم النفس» هي كناية عن التمثيل الفكري للحاجة الجسدية، وهي من طبيعتها ـ إن كان محتوماً عليها الإعادة ـ أن تكون مكفوفة بالنسبة للوصول إلى غايتها. وهذا ما يجعل تحولها إلى نشاطات أخرى ممكنة، الشيء الذي دفع فرويد إلى التكلم في التحليل عن موضوع التسامي، ومن هنا انطلق المبدأ الأساسي الذي تكلمنا عنه في الصفحات السابقة من أن كل إشباع عشقي في التحليل، يعطل عملية التحليل، ويؤدي إلى توقفه، لأنه إذا كان هدف النزوة التحويلية الأول الإشباع العشقي، بالالتحام الجسدي، فمعنى ذلك أنه قد أقفل الباب على أي تحولات متسامية للنزوة. فالتحليل لا يأخذ أهميته ويستمد ديناميكيته في التحويل، إلا من خلال الإحباط، أي يحول دون أن تصل النزوة إلى

(*) يتأكد لنا ذلك في عصاب الصدمة: يكرر المريض استعادة المشهد المصدم سواء عن طريق العوارض أو الأحكام كي يتمكن من احتوائها عن طريق نقلها من حيز المخيال إلى حيز الترميز.

الإشباع عبر التحويل. فهي من خلال هذا الكف، تنطلق في اتجاه آخر، قد يكون نكوصياً في مرحلة من المراحل، ولكن لا بد من أن تتحول إلى تطلع نحو الأفق الواقعي، وإلى تصريفها في عمليات بناءة مشروعة.

فالإعادة إذاً هي من خصائص النزوة التي يظهرها التحويل فتتكرر من خلاله مواقف سابقة، وذكريات كانت إلى حد الآن في حكم الكبت، وكانت تسيِّر الشخص على غير علم منه. وقد كتب فرويد مقاله في هذا الموضوع سنة 1914، حيث تساءل عن عملية الاستذكار وأهميتها في العلاج، فتبين له، خلافاً لما كان يعتقد في السابق عندما شدد على الصدمة النفسية سنة 1897، بأن الموضع المهم ليس الذكريات بحد ذاتها؛ إنما الأهم ما يكون حول هذه الذكريات من أفكار، وبصورة خاصة من هوامات أصبحت فيما بعد جزءاً من البنية النفسية في تكوين اللاوعي (اللاشعور)، تتحكم في تصرفات الشخص وتولِّد أعراضه. فعندما يتساءل المريض عن ماهية أعراضه التي يشكو منها، يتبادر إلى ذهنه أنه رغم عدم وجود أي مبرر لها، فهو لا يفتأ يكررها، أي بمثابة هوام على ارتباط بشبكة دالة تعود مصادرها وتكوينها إلى الطفولة الأولى.

وهذا التكرار لا يقتصر على صعيد النسيان أو على حذف الارتباط الواعي (الشعوري) بين الذكريات، (كما هو الحال بالنسبة إلى الهاجسي) إنما يتعدى ذلك إلى التكرار في الفعل والمواقف التي تظهر للمتحلل في التحويل. ويعطي فرويد مثالين على ذلك: بأن المريض قد ينسى بأنه كان متطاولاً على مكانة الأهل، وغير منصاع لطاعتهم، ولكن يظهر ذلك بمواقفه وأفعاله في التحويل، بأن يتغيب عن الجلسات، أو يحاول أن يحرج المحلل في مواقف، لكي يخالفه الرأي، أو يبين فشله وخفة رأيه، أو أنه قد ينسى الشعور بالخجل، وبالدونية التي كانت تصاحب نشاطاته الجنسية المكبوتة، والتي كان يخشى من اكتشافها. فيبدي خلال التحويل شعوراً بالخجل وبالدونية من المحلل، ويتصرف تجاهه كما لو كان يقوم بعمل مخز يخاف على نفسه من اكتشاف الغير له.

فالمريض منذ بداية التحليل يحمل في تصوره الطريقة التي سيرتبط بها في التحليل، ونوعية التحويل الذي سيتكون، كذلك موقفه وتصوراته التي ستظهر عندما يبدأ التحويل في البزوغ تدريجياً. فالآلية في التكرار تحمل في طياتها التحويل، ويقول فرويد في مقاله: «نلاحظ بأن التحويل ليس إلا جزءاً من الإعادة، وبأن الإعادة هي

التحويل لماض منسي، وهذا التحويل لا يقتصر فقط على شخص الطبيب، إنما يشمل كل المجالات للمرحلة الحاضرة».

فالمريض، بدلاً من أن يتذكر، تحت تأثير المقاومة يكرر ما يأتي من مصادر المكبوت، الذي يلون شخصيته، يكرر كل مكنوناته (مواقفه غير الملائمة، تصرفاته المرضية، إلخ). وكذلك كل عوارضه.

ويلاحظ فرويد بأن التحويل إذا ما استأثر بكل مشاعر المريض، وأصبح المصدر الوحيد لتأويلاته ولرغباته ولتحركاته، وهذا ما يحصل عادة، فإن هذا التحويل يستقطب كل الأعراض المرضية، التي تصبح ثانوية. وما كان يشكو منه المريض في السابق يبدو أنه قد تبدد. والواقع أنه يجب أن لا نقول بأن التحليل قد حل المشكلة، إنما كل ما فعله أنه بدَّل مشكلة بمشكلة أخرى؛ أي استبدال العصاب، بتحويل العصاب. وهنا يقول فرويد: التحويل مرض في ذاته، ولكن الفرق بينه وبين المرض الحقيقي: هو أنه يتمحور حول شخص المحلل، المفترض مكانه أن يكون في مستوى فهم الأمور وتطورها، لكي يبدأ في حل عقدة هذا التحويل تدريجياً، أي أنه في المرض الأول ليس لنا أي حيلة للتأثير، وتغيير الأمور. أما في العصاب التحويلي، فنملك على الأقل الوسائل التي تمكننا من التأثير على سير الأمور، وفكفكة العقدة التي كانت مكبوتة. من هذا المنطلق بدأت ملامح التحويل تطغى على هيكلية التحليل النفسي. من حيث إنه أصبح يطلب من المحلل أن يكون قد خضع لعملية تحليل تعليمي وتخلص من العقد التي كانت مكبوتة ليتمكن على الأقل معرفة ما يدور في اللاوعي (اللاشعور). فلا يمكن للمحلل أن يحل عقدة ما، وهو لا يزال يعاني منها، وكل مقاومة لا يمكن تجاوزها إذا كان لا يزال في المقابل مقاومة يعاني منها المحلل نفسه.

وإذا ما بلغت المقاومة ذروتها، فقد يحصل عدة ردات فعل لا يمكن حصرها إلا من خلال تتبع التحليل؛ وهذه المقاومة لا يمكن فهمها إلا من خلال التحويل، من حيث إن هذا الأخير يصبح المسرح، حيث ينفذ اللاوعي (اللاشعور) إليه لكي يظهر ما هو مكبوت. وما هو مكبوت حتى الآن يصبح فعلاً على التحويلي.

والمقاومة، كما قلنا، قد تأخذ أشكالاً مختلفة: إما المغالاة في المشاعر، كما رأينا سابقاً، في الهيام العشقي، الذي قد يكون تضليلاً لما يخفي وراءه؛ فالمغالاة في الحب قد تكون خوفاً من الخصاء، وتمويهاً له، حتى لا يأتي البحث في مضمونه

التاريخاني. وإما التحويل الكرهي، الذي يصبح موضع تبرير لإنكار المكتشفات اللاواعية (اللاشعورية)، وقطع الطريق أمام استمرار هذه الاكتشافات التي تهدد الأنا في تركيبتها الحاضرة. فليس من الغريب أن يؤدي هذا التحويل الكرهي إلى توقف التحليل، ونسف كل المكتسبات التي حصلت حتى الآن. فما هو ذكريات وأحداث سابقة، يصبح فعلاً يتردد في التحويل كما لو كان حدثاً حاضراً. ويقول فرويد: (كلما كانت المقاومة كبيرة، كلما كان الفعل يستبدل الفكرة («الاعادة»). وإذا تمكن التحويل من احتواء هذه الأفعال التكرارية فإن المحلل يستطيع حلها عن طريق التأويل. ولكن في بعض الأحيان يحصل الفعل خارج الإطار التحليلي؛ الشيء الذي يجنب المريض مواجهة ذلك في التحويل وهذا ما يسمى «Acting out» أي الفعل الخارجي، أي أن ما يرفض استذكاره، أو البوح به في التحويل، يتحول إلى فعل خارجي يشكل عقبة في سير التحليل(*). أو أنه ينقل إلى الحقل الخارجي المسرح التحويلي الذي كان مفترضاً أن تلعب عليه الأحداث بشكل محدود. وهذا ما حدا بفرويد، في بداية الأمر، إلى الطلب من المتقدمين إلى التحليل، الامتناع عن أخذ أي قرار حاسم يغيِّر مجرى حياتهم (كاختيار شريكة حياة، أو طلاق، أو ترك مهنة أو الانخراط في مواقف تورطه فيما بعد) باعتبار أن أخذ هذا القرار لا بد أنه وليد الحالة التحويلية التي يعيشها؛ وبمجرد أن تتبدد هذه الحالة فإن مسببات القرار تزول، والتورط يصبح عندئذ بمثابة مقاومة تحول دون نتائج التحليل التي يمكن أن يحصل عليها(**).

والمحللون في الوقت الحاضر يترددون كثيراً قبل أن يحذِّروا المريض من أخذ قرار. لأنه لا يمنع في بعض الأحيان أن يكون القرار صائباً، وبمحله، وأن الفرصة السانحة لا يمكن أن تعوض فيما بعد. لذا ارتأى الكثيرون منهم، أن تدرس كل حالة على حدة، وأن تسأل في حينها، مع الأخذ بعين الاعتبار الواقع الخارجي، والحالة النفسية التي يعيشها المريض من خلال التحويل؛ وقد لا يكون احتياطاً خاطئاً إذا ما

(*) عادة ما يحصل إذا واجهت مريضة عقبة في تحويل حبها إلى المحلل فتنقل ذلك إلى الوقوع في حب آخر خارج التحليل، وتحاول أن تنهي تحليلها. ويجب في مثل هذه الحالة تناول هذا الحب الخارجي كما لو كان جزءاً من التحويل والتعامل في تأويله على هذا الأساس.

(**) على ضوء تطور سير العلاج من بعد فرويد، وبتأكيد من لاكان: أقلع المحللون عن هذه التوصيات على اعتبار أن لا فرق بين الخارج والداخل فكلاهما يشكلان جزءاً من الاطار التحليلي، لا سيما أن الواقعي قابل للترميز كما هو الحال بالنسبة للمخيالي.

نبَّه المحلل مريضه لمثل هذه القرارات، حين يجد عنده ميوعة وخفة في أخذ القرارات وتورطاً سريعاً وغير مدروس يغيِّر مجرى حياته العاطفية والعملية ويصبح سبباً في تفاقم مشاكله. يقول فرويد: «بالطريقة التي نتعامل فيها مع التحويل، نجد الوسيلة الرئيسية لكي نضع حداً لهذه الآلية التكرارية، ونحولها إلى وعي واستذكار».

المهم في الموضوع هو إدخال هذه الاندفاعات الخارجية إلى حيثية التحويل حيث يسمح لها التحرك ضمن إطارها الصحيح، لكي تكشف لنا عن التأزمات المرضية الكامنة وراءها.

فالتحويل، كما يشير فرويد، هو حالة وسط ما بين المرض والواقع الخارجي، وعبره يتم الاتصال بالاتجاهين. فهي وإن كانت كما شبهها فرويد نفسه بأنها حالة مصطنعة، وظاهرة مرضية، إلا أنها تشكل مرحلة من مراحل الحياة، يعيشها المريض بواقعية إلى أن تأخذ حدها النهائي.

ولكن رغم كل المحاولات والتأويلات التي تطال المقاومة، هناك حالات يستمر بها التحليل دون تقدم محسوس، وتظل جامدة، مبددة كل جهد يبذل من المحلل ومن مريضه؛ وهذا ما تناوله فرويد بعد عشرين سنة في مقاله «تحليل انتهى وتحليل لا ينتهي»؛ واعتبر أن التحليل يصطدم بصخرة كتلك الصخرة التي عبثاً يصطدم بها الموج ويتبدد، وعبثاً يحاول أن يزحزحها. وهذه الصخرة هي بمثابة عقدة الخصاء التي تشكل عقبة رئيسية في التحليل، وكل تحليل لا يطال هذه العقدة، ولا يحاول حلها، هو تحليل مرحلي غير ثابت، ونتائجه غير مضمونة الاستمرار. وهذا ما سنتناول شرحه:

التحويل يطرح أمام المحلل وأمام المتحلل فرصة يجب أن لا تفوَّت، لأن لها دوراً هاماً في مسيرة التحليل، وهذه الفرصة هي إمكانية إعادة البناء. وفرويد يطرح هذا الموضوع بوضوح في مقاله «إعادة البناء في التحليل»، ويعتمد في تقويمه على أنه إذا كان هدف التحليل مساعدة المريض على استذكار أحداث ماضية واستعادة السيطرة على مشاعر كانت مكبوتة بحكم الماضي، إلا أن هناك ذكريات وأوضاعاً نفسية، لا تأتي إلى عالم الإدراك بشكلها الماضي: فهي تأتي بصورة متقطعة، ضمن زخم من المواد المجزّأة، سواء عبر الأحلام أو الهوامات، وبصورة خاصة نوعية التحويل المعاش. فهذه المواد، إذا أخذت على حدة، قد لا تؤدي المعنى المطلوب، بل تبدو دون معنى، مقطوعة الصلة عن المفهوم المنطقي لصيغة معينة. لكن إذا جمعت ضمن صلات الوصل بينها، واستكمل جمعها بشكل تصبح معه قطعة متماسكة المعنى

والمضمون، يمكن أن تظهر لنا أنها جزء من تاريخ المريض كان مفصولاً حتى الآن؛ بحيث إن فصله أفقد الجزء المتبقي من تاريخها معناه الحقيقي. والكبت هنا قد يكون طاول ليس المواد التي تدفقت أمام المحلل، وإنما صلة الوصل فيما بينها، (أي المعاني التي تربط فيما بينها)، فإن اكتملت الصورة بإعادة تركيبها من جديد على غرار puzzle، تبين لنا أنها متجانسة، وتمثل قطعة هامة من تاريخ المريض، وهذا ما يقتضيه عمل المحلل، فهو مخول ليس التأويل فقط، وإنما إعادة بناء لجزء من تاريخ المريض عبر المواد التي تتهيأ أمامه.

فالتحويل يلعب دوراً هاماً في تهيئة هذه المواد، إنه المسرح الذي تتكرر عليه الانفعالات التي تكونت في الطفولة. فهذا التكرار يحصل بعفوية، وبطريقة معاشة، على غير علم من المريض.

وهنا يميز فرويد ما بين التأويل وما بين عملية البناء. فالتأويل يطال جزءاً من المواد، (ورود فكرة، أفعال مغلوطة، هفوة لسان، إلخ). أما البناء فهو تجمع لعدد من المواد، مرتبطة فيما بينها لأداء معنى واحد. بشكل أنها إذا ما تحقق التقاؤها، نجد أنها تُخرج لنا جزءاً من تاريخ المريض، كان إلى حد الآن مجهولاً. ويقول فرويد بأنه لكي نتأكد من صحة هذا العرض في البناء، لا يكتفي المحلل بإجابة المريض بأنه موافق على ما قيل، أو رفضه لذلك، بل يتأكد ذلك من خلال توارد الأفكار والأحلام التي تتبع، كاستحضار ذكريات جديدة لم تؤكد حتى الآن، وورود أفكار وهوامات، يمكن أن تؤكد لنا ما إذا كان البناء صحيحاً أو أتى جانبياً. ويشير فرويد إلى الأخذ بعين الاعتبار الموقف التحليلي. فإذا كان سلبياً فإن المريض يرفض ذلك جملة وتفصيلاً، وإذا كان إيجابياً فإنه قد يتقبل ذلك، رغم أن البناء لم يكن صائباً. فردة الفعل على ذلك، وما سيرد في الجلسات اللاحقة، هو الذي سيؤكد لنا صحة أو خطأ البناء.

ويؤكد فرويد بأن الكبت الذي طال العديد من الذكريات والنزوات هو السبب في افتعال العوارض والكف، وأنه لا يمكن الاستدلال على ذلك عن طريق التلميحات والمواد التي تقدمها الأحلام. ولكنه يشدد بصورة خاصة على أن التحويل يقدم لنا المواد بشكل صاف دون مواربة، وذلك عن طريق نقل المشاعر إلى المحلل، أو التصرف تجاهه بمسلك كان قد تناساه في طفولته.

فالتحويل له إمكانية استعادة هذه الروابط العاطفية التي كانت منسية حتى الآن.

فالتحويل هو الذي يمكن من عملية البناء، لأنه يظهر، بشكل عفوي تجاه المحلل، مشاعر ومواقف ومسلكاً عبر مواد متعددة كانت مكبوتة حتى الآن. فانطلاقاً من هذه المعطيات يستطيع المحلل أن يقوم بعملية البناء التي تمكنه من استخراج قطعة من الماضي كانت منسية حتى الآن.

ولكن يبدو أن رغم كل الجهود التي تكلم عليها فرويد لتذليل الصعوبات التي تعترض التحليل، وبصورة خاصة تلك المتجسدة في التحويل، يبقى هناك صعوبات لا تحل، أو يصطدم بها التحليل، كالموج الذي يرتطم بالصخور، وهذا ما سماه بصخرة التحليل، حيث تتراجع كل الجهود أمامها. وتكلم عن هذا الموضوع كما ذكرنا بإسهاب في مقاله عن نهاية التحليل ـ وهو مقال كتب سنة 1937 (أي في آخر حياة فرويد)، وهو يلخص مجمل تجربة فرويد في هذا المضمار، وما توصل إليه من نتائج إيجابية، وما يعترض التحليل من صعوبات؛ ويترجم المقال تجربة فرويد بواقعية، بعيدة كل البعد، عن التفاؤل المسرف الذي رافق انتشار التحليل في أميركا. فالمقال بمثابة وصية إلى المحللين لكي يضعهم أمام الإنجازات التي تحققت، والصعوبات التي لا تزال تعترض طريقهم، لكي يضع على عاتقهم مسؤولية متابعة المسيرة، وتذليل ما تبقى من العقبات. وأهم هذه العقبات النواة السلبية التي تكمن في التحويل، والتي تبقى فاعلة كالنار تحت الرماد إذا ما انتهى التحليل دون التمكن من اقتلاعها وإظهارها؛ وإنها قد تكون سبباً في تعطيل النتائج الإيجابية التي حصلت حتى الآن، وبولادة أعراض جديدة، لم تكن في الحسبان.

ويأتي فرويد على ذكر حالتين من هذا النوع. الأولى: حالة «رجل الذئاب» الذي انتكست حالته بعد عودته من روسيا مهجراً فاقداً ثروته وأملاكه. والثانية: حالة فيرينيزي الذي اتهم فرويد بالتقصير نحوه، كونه لم يحلل النواة السلبية تجاهه. الشيء الذي حدا به إلى اتخاذ مواقف مغايرة، ومعادية لفرويد في نهاية علاقتهما الودية. فالتحويل يبقى العقبة الرئيسية في إنجاز نهاية التحليل.

ويخلص فرويد، في مقاله هذا، إلى أن حجر العثرة، أو الصخرة التي يتعثر بها المحلل هي عقدة الخصاء عند الامرأة والرجل: فالامرأة تحاول جاهدة، وتضع كل العراقيل، حتى لا تتخلى عن هوامها في«شهوة امتلاك القضيب». فهي تبقى مصرة، وبإلحاح، على احتجاجها ومطالبتها بالقضيب. وقد تتخذ مواقف معاكسة تؤكد إصرارها على هذا الطلب، وعدم تخليها عنه. والرجل من ناحية ثانية، يجد صعوبة في

تقبله لسلبيته، في حال استسلم لإرادة رجل آخر. فهو يشعر بمثل هذه الحالة بأنه مهدد بالخصاء وبأنه سيتخلى عن رجوليته؛ علماً أن فرويد يقر بالازدواجية الجنسية سواء عند الامرأة أو الرجل، على الصعيد النفسي. فكلاهما يحمل في طيات بنيته النفسية عنصراً أنثوياً وعنصراً ذكروياً، دون أن يخل ذلك في توازنه النفسي. فتقبل هذا العنصر المعاكس هو الدلالة على نجاح التحليل، والوصول إلى الوضع النفسي السوي، الذي يمكن كل فرد من العيش بتوازن واستقرار مع الجنسين. فقبول ارتباطه بالغير هو مقياس لتقبل الآخر بأنه يختلف عنه.

وهذه الصخرة لا يمكن الالتفاف حولها، وتخطي الحد الأخير الذي حدده فرويد، وفك عقدتها، إلا بواسطة الاجتهادات «اللاكانية» التي أتت متممة للخط الفرويدي ولكن بمفهوم، ومعطيات جديدة. وتختصر بالتمييز ما بين القضيب كعضو تشريحي وما بين الفالوس كمفهوم مخيالي.

فخاتمة التحليل بقيت معضلة بصورة خاصة عند المحللين، على اعتبار أن التحليل ليس علماً كبقية العلوم، ينتقل من شخص إلى آخر عبر المعرفة، بل هي معرفة مكونة للذات، لا يمكن إدراكها إلا عن طريق البصيرة الداخلية، التي تنقل الذات من حيز اللاوعي (اللاشعور) المكبوت، إلى حيز الوعي (الشعور). وهذه النقلة هي نوعية ومميزة لكل ذات. الأمر الذي وضع أمام المحللين صعوبة قصوى في تحديد هذا الإنجاز العملي الذي يمنح العامل في الحقل التحليلي صفة المحلل أم لا.

وكانت آخر حلقة في هذا المضمار عملية «المرور» (La passe) التي استنبطها لاكان، والتي كانت في رأيه السبيل الوحيد للتأكد من المتحلل بأنه قد أصبح فعلاً محللاً، وأدرك ماهية اللاوعي (اللاشعور).

والنتيجة لم تكن ناجحة، مما أدى في النهاية إلى فرط المدرسة اللاكانية، وتوزعها إلى عدة تجمعات مستقلة. وهذا ما يتطلب بحثاً جديداً.

التعيين أو التماهي

IDENTIFICATION

قبل الخوض في هذا الموضوع الشاق، علينا أن نحدد موقفنا من الترجمات لمعنى «Identification» التي وردت في مصطلحات «فرويد» الألمانية، وأصبحت ركناً من أركان الإنبناء النفسي. وقد حدت الترجمة الأصلية بكثير من المعرِّبين إلى اعتناق مفردات متعددة اختلفت فيما بينها في أداء المعنى الأصلي لهذه العملية النفسية التأسيسية.

والاختلاف الجذري يعود إلى إمكانية إيجاد المعنى الذي يؤمن المفهوم اللاواعي (اللاشعوري) لما يحصل في تركيب الإنبناء النفسي.

وقد اخترت من الترجمات التي وردت إلى حد الآن اثنتين: الأولى، خاصة بالأستاذ مصطفى صفوان في ترجمته لتفسير الأحلام، وهي التعيين: من فعل عيَّن: أي وضع نفسه مكانه وعبَّر عنه، والثانية، التماهي: وردت في ترجمات العاملين في حقل علم النفس في الجامعة اللبنانية.

والواقع أن كلتا الترجمتين، وما سبقهما، لم تؤد واحدة منهما إلى إعطاء المعنى الأصلي لكلمة Identification، بمعنى أن تشمل في معناها كل العمليات النفسية الواعية (الشعورية)، واللاواعية (اللاشعورية) المميزة لهذه المهمة.

وإن وقع اختياري على ترجمة صفوان، فليس إلا لأني وجدتها الأقرب إلى المحتوى النفسي للعملية اللاواعية (اللاشعورية)، رغم أنها لا تعطي التعبير الكامل لعملية Identification باعتراف منه. هذا بالإضافة إلى أن استعمال كلمة تعيين يشترط عدم استعمالها في المجالات التي لا تؤدي التفسير النفسي تجنباً لكل التباس.

ويبرر صفوان ترجمته بما يأتي[1] «وإذا أردت أن تمثل للعلاقة التي يراد التعبير

(1) راجع: تفسير الأحلام. ترجمة مصطفى صفوان.

عنها بمثال مألوف قلنا: حين نرى رجلاً انتزعته شخصية نابليون عن نفسه انتزاعاً» جزئياً (وحينئذ يكون الأمر غروراً، أقل وأكثر) أو انتزاعاً كلياً (وحينئذ يكون جنوناً)، فإننا نعرب عن ذلك بأن نقول حيناً: إنه «فاكر نفسه نابليون»، ونقول حيناً آخر «عامل نفسه نابليون».

وهذه الحرية في اختيار إحدى العبارتين دليل على أننا نشعر بأن العلاقة المراد الإعراب عنها، بين المجنون ونابليون، هي علاقة ذات وجهين: وجه معرفي: (اعتقادي) وهو الذي يبرز حين نقول: فاكر نفسه (وهي معرفة هي في الوقت نفسه ضلال) . ثم وجه معاش وهو الذي يبرز حين نقول: عامل نفسه(وهو فعل في الوقت نفسه خيال). وهنا نلاحظ كيف ينطبق الفعل الأوروبي بمعنييه على هذه العلاقة بوجهيها جميعاً أحسن الانطباق. أما بالعربية فلم نجد خير من قولنا: إن المجنون قد «تخيل ذاته نابليون».

ويتابع صفوان فيرفض الترجمتين الموضوعتين من قبل: التقمص والتوحد. الأولى لأسباب مجازية، والثانية لأسباب لغوية: «تقمص فلاناً» أو توحد به، يجعلنا نفهم عادة أنه يحاكيه محاكاة شديدة، على حين أن «فرويد» نفسه يفرق فيما يلي، تفرقة قاطعة وصريحة، بين التعيين الذاتي بالمعنى التحليلي، وبين العملية السيكولوجية المعروفة باسم التقليد. والحق هو أن التقليد عملية تتم بين طرفين مكونين من قبل هما المقلِّد، والمقلَّد، في حين أن التعيين الذاتي هو العملية أو العلاقة التي تتكون الذات بها وفيها.

«وبعبارة سبينوزية: فإن فكرة التعيين الذاتي فكرة تضعنا في مستوى الطبيعة الطابعة أو المكونة، لا الطبيعة المطبوعة أو المكونة، ويجب إذ تفهم في هذا المستوى، وأن ذلك عينه هو الذي يجعل فهمها عسيراً غاية العسر على غير المحللين، فليس مثل المحلل يدرك في وضوح العلم، قول الشاعر: (Je: est un autre) ـ تفسير الأحلام.

أما بالنسبة لكلمة تماهى: فهي مستخرجة من هوية (Identité) وماهية: في أصلها الفلسفي. أما الفعل تماهى، في التماهي: فهذا لم يرد في المعاجم العربية، مما يؤكد استعماله من قبل الفلاسفة أو الأدباء. فلذلك بقي معناه محصوراً في الجماعة التي أدرجته.

وهذا لا يعني أن كلمة تماهي لا تؤدي نفس الخدمة، وأعتقد أنها تحدد وجهاً

من أوجه العملية النفسية الخاصة بالماهية والهوية. وهذا ما قد يجبرنا على استعمالها في بعض الحالات عندما لا تؤدي كلمة تعيين، التعبير الصحيح.

أول ما ظهرت كلمة تعيين (Identification) في مؤلفات «فرويد» كانت في كتابه «تفسير الأحلام»، عندما تكلم عن العارض الهستيري في حلم «السالمون المدخن». وسريعاً ما تعمم هذا المفهوم على عملية نفسية بالغة الأهمية تتكون من خلالها الذات، وهذا ما دعاه إلى الحديث عنها بإسهاب في دورها في عقدة أوديب والخروج منها، وكذلك في التكوين النفسي عندما خرج بنظريته الثانية. وهذا ما سيأتي الحديث عنه مفصلاً.

فالعارض الهستيري أول ما لفت نظر «فرويد» . ويتأكد لنا ذلك من خلال حلم «السالمون المدخن». فقد حاول من خلال هذا الحلم تحديد أهمية هذه العملية في تورية الرغبة عندما تحل محلها رغبة خاصة بشخص آخر لكي تعبر عنها دون أن تكشفها إلى الحالم. وعرض من خلال ذلك التعيين الهستيري وأهميته في توليد العارض.

فالتعيين كما يقول «فرويد» لحظة بالغة الأهمية في ميكانيكية الأعراض الهستيرية: «فهو الذي يمكّن المرضى من أن يعربوا بأعراضهم، لا عن خبرات أنفسهم فقط، بل عن خبرات عدد كبير من الناس فوق ذلك، حتى لكأنهم يتألمون بواسطته نيابة عن جمهور بأكمله من الناس، ويملأون بمفردهم أدوار الرواية جميعاً».

وهذا ما يبيّنه لنا الحلم «السالمون»[1] عندما تتعين المريضة برفيقتها لكي تظهر رغبتها في عدم الاكتفاء. لأن العكس، أي الاكتفاء، يؤدي إلى ظهور الهيلة. فيتبين لنا من وراء ذلك أهمية التعيين في توليد العارض. لأنه، كما نعلم، فإن أهم صفات العارض هي الابتعاد عن الخوف الداخلي وتجنبه. والتعيين عملية شاملة عند كل المصابين بالهستيريا، يكمن وراء كل ظاهرة عرضية. ويبين فرويد في المناسبة الفارق المميز ما بين التعيين والتقليد. فالأول عملية لاواعية (لاشعورية)، تحصل على جهل المريض في نتيجتها، والثاني مسلك وجداني يختلف عن الأول. ويقول «فرويد»: لو كانت هذه النتيجة تستطيع أن تبلغ الوعي (الشعور)، لأمكن أن تظهر الهيلة (الخوف) (Angoisse) وتوفر على المريضة معاناة مثل هذه النوبة؛ ولكنها قد تكونت في منطقة

---

(1) سوف يرد الحديث عنه فيما بعد في سياق النص.

نفسية مغايرة، بل تمثلاً قائماً على ادعاء علة مماثلة، إنه يعرب عن فكرة «ما فارق» ويتعلق بعنصر مشترك يظل باقياً في اللاوعي (اللاشعور).

التماهي أو التعيين إذاً عملية لاواعية (لاشعورية) (بحسب تحديد صفوان) يقصد منها غرضين: الأول أن تعبر عن شيئين في شيء واحد، أي تعريف عن الأول بالآخر بعد أن يحل محله. والثاني،أن تجعلهما في حكم هذا التعريف.

ويشير صفوان في تحديده إلى: «أن الأمر لا يتعلق بالطبع بمعرفة تدركها المريضة أو المريض، وتحللها، أي معرفة تنطبق بها، وتجعلها موضوع قول، بل الصدق أن نقول: إن هذه المعرفة هي التي تملك المريضة وتؤسسها وتضلها عن حقيقتها». وللهستيريا مكانة خاصة في التحليل النفسي واكتشافات فرويد: فهي الباب الأول الذي انفتح أمامه على مصراعيه ليدخله إلى عالم اللاوعي (اللاشعور).

لذا فإنه أول ما تعرض لبحث موضوع التعيين كان عن طريق عارض الهستيريا، وإمكانية فهم تركيبه، وكنهه ومعناه الذي خفي عن عامة الأطباء في عصره. وهكذا كرس، بالاضافة إلى التنويه الذي أتينا على ذكره في تفسير الأحلام، قسما كبيراً من مقالة «التعيين أو التماهي». وتبين له أن العارض الهستيري مبني على إمكانية التعيين من حيث إن الغاية اللاواعية (اللاشعورية) هي دائماً المحركة والمسيرة في اختيار صيغة العارض على جهل من المريض.

ويميز فرويد في سبيل ذلك ثلاثة أنواع من التماهي:

الأول: تماهي الهستيريا في والدتها، اعتباراً منها أنها أصبحت موضوع كرهها، وتود أن تحل محلها قرب والدها، تتماهى بعارضها المؤلم (وجع بطن ـ أو آلام العادة ـ أو أي مرض يطرأ عليها) ـ اعتباراً منها أن الحلول محل والدتها يقتضي قبل ذلك العذاب، فحاجتها إلى الألم مقترنة بحاجتها إلى والدها كرغبة محرمة. وهذا يعود إلى أن شعورها مصاب بالازدواجية: الحب من ناحية والمنافسة والكراهية من ناحية أخرى. والتماهي والتعيين في عارض الأم يخدع الرغبة المبطنة للشعور الثاني.

الثاني: تماهي الهستيريا بالموضوع المحبب إليها، أو صديقتها، التي تفضي إليها بأسرارها، كما ورد بعارض «دورا» «البحة» تعبيراً للتيار الشبقي الذي يربطها بالموضوع.

وفي كلتا الحالتين يخضع تكوين العارض لعمليتين:

أ ـ اختيار الموضوع الليبيدي الذي يستقطب التيار الشبقي.

ب ـ التعين (التماهي) بهذا الموضوع: أي بصفة من صفاته أو بخط من خطوطه المميزة، حيث إن الدواعي المرتبطة بهذا الخط تبقى خفية ومحصورة في اللاوعي (اللاشعور).

الثالث: وهو الموضوع الشائع في المجتمعات النسائية، سواء في النوادي، أو في التعازي، أو في المدارس الداخلية.

فموضوع التعيين قد يكون شخصاً عزيزاً أو مجهولاً تتماهى به الفتاة اقتداء بصديقتها لأسباب خفية خاصة بها تبقى سرية ولاشعورية. ويتبين لنا إن سنحت الفرصة في تحليلها، أن هناك معرفة لاواعية (لاشعورية) بما يساور الشخص الآخر المتعين به.

وعملية التعيين في تكوين العارض لا تقتصر فقط على الهستيريا، بل تلعب دوراً فعالاً وهاماً في أمراض عدة، منها السوداوية،حيث تتعين الأنا بالغرض المفقود،وتصبح عرضة لهجمات الأنا الأعلى، تتلقى منه التأنيب والتجريح، حتى دفعها إلى الفناء أي الانتحار. وكذلك تلعب دوراً في الشذوذ الجنسي المثلي، وهذا ما سنأتي على ذكره.

ولكي ندرك فهم عملية التعيين (التماهي) وأثرها في نشأة هذه الأعراض لا بد من استعراض فعاليتها وأهميتها في تكوين الذات، منذ بدايتها حتى اكتمال انبنائها، والعوارض المرضية في حد ذاتها ليست تحولات معبرة على الصعيد الرمزي لهذه التركيبات البنيوية التي خرج بها الفرد من العقدة الأوديبية، وهذا ما سنأتي على إيضاحه أيضاً بإسهاب.

في نظر فرويد هناك ثلاثة مصادر للتماهي:

المصدر الأول: تتعلق الأنا بالغرض المفضل، الأب أو الأم. وترتبط به ارتباطاً شبقياً. تتعين (تتماهى) وتتشبه به وتنشد إلى الحلول مكانه.

ويصبح مثالاً: تحذو حذوه وتقتدي به.

المصدر الثاني: بدل أن تتماهى الأنا في الفرد المختار والمحبب ـ تتعين (تتماهى) في غرضه الليبيدي ـ وبدلاً من أن تريد أن تكون مثله وترغب في الحصول عليه. فتعين الذات بخصلة من خصالها تدمجها في بنيتها (التعين الفالوسي، أو التعين بالأم بالنسبة إلى الذكر). سنفصّل ذلك عندما نتكلم عن اللواط. ويتبين أن التماهي

يأخذ موضع التيار الشبقي الذي يتحول عن طريق النكوص إلى غرض للتماهي.

المصدر الثالث: التعين يحدث دون أن يكون هناك ارتباط شبقي، أو اختيار ليبيدي تجاه الشخص الذي يتشبه به. وهذا يلعب دوراً هاماً في تكوين العارض. وهذا يعني التقاء ما بين الأنا وأنا الآخر المختلفة من حيث إن صلة الوصل بينهما تبقى مكبوتة. ووراء هذا التماهي يلعب الذنب دوراً مبنياً كما ورد الإيضاح عنه بالنسبة إلى عارض الهستيريا.

ويقول فرويد في مقاله المشار إليه (Identification)، بأن عملية التماهي مرتبطة بتعلق حبي، فالطفل الصغير يرتبط في البداية بعلاقة حبية متساوية ما بين أمه ووالده، فيحب كلاهما دون أن يخلق له ذلك أي مشكلة ذاتية.

وهكذا تصبح الأم مسرح المنافسة بينه وبين الأب تؤدي به إلى صراع لاشعوري مزدوج:

الأول: شعور بالحب والعطف يؤدي إلى أمنية التماهي به لكي يصبح مثله أو على غراره.

الثاني: شعور بالكراهية والمنافسة: مبني على رغبة في إزاحته والحلول مكانه.

ويستنتج من هذا العرض أن عملية التماهي لا ترتبط فقط بالشخص الذي تحبه. ولكن بأسباب حددتها سابقاً من كون هذا الشخص تريد في آن واحد إزاحته والحلول مكانه. واعتقد أن هذا الوجه الأخير هو الذي يضفي على هذه العملية طابع التحريم والتشريع في وظيفة القانون. وفي حديث فرويد عن «الطوطم والتابو»، نراه يأتي على ذكر القبيلة الأولية على اعتبار إن الأب كان يتمتع بالسلطة المطلقة على الأملاك، والنساء، والرجال. مما أثار ثورة الأبناء فاتفقوا على قتله والإطاحة به.

والغريب أن نتيجة هذه الجريمة الأولى كانت على عكس ما يتوقعه الأبناء، فما كانوا يتمنون استباحته في حياة الأب والحصول عليه: أخذ طابع التحريم، وظهر في تشاريع أصبحت مقدسة، تصيب اللعنة كل من يتجاوزها. أي حصلت الإزاحة. أما الحلول مكانه بقي فارغاً ممنوع على أي كان سوى القانون الذي يعين هذا الفراغ ـ انتهاك هذا المكان الفارغ يؤدي إلى الأحكام الديكتاتورية.

المقصود من هذا المثال ليس الحقائق التاريخية أكثر مما هو استعراض لهوام

مشترك ومؤسس في تكوين الأديان الوثنية والتشريع والنظم لحياة الإنسان وتطورها الحضاري.

ومن الشروط الرئيسية لعملية التماهي هو أن يكون الموضوع المتماهى به غرضاً مفقوداً ارتبط به دافع عدواني، يدعو إلى إزاحته والحلول محله، أي كما لو كانت عملية امتلاك الغرض ودمجه في ذاته (Appropriation) على غرار العملية البدائية للمرحلة الفموية (Phase orale). فالتعيين إذاً منذ البداية له صفة ازدواجية، يقول فرويد«مرتبطة في أن واحد في التعبير عن الحب نحو الموضوع، وفي الرغبة في إطاحته والحلول محله. كما لو كان التماهي إنتاجاً للمرحلة الأولى، أي المرحلة الفموية لأول تنظيم ليبيدي منذ كان الإنسان يستحصل على الغرض الذي يرغبه عن طريق أكله، أي بمعنى إزالته[1].

إذاً، أهم ما يميز التماهي إنطلاقاً من التعلق العاطفي بالمحبوب هو أن يحصل عليه أي يمتلكه (يدمجه) كي يصبح مثله، يتشبه به ومثالاً للمستقبل يحتذى به. وما كان خارجياً فترة من الفترات يصبح داخلياً عن طريق الإدماج. وهكذا يصبح هذا المثال الأعلى الخارجي داخلياً يحدد مسلكه وتصرفاته، يحاول التقرب منه، والاقتداء به للحصول على رضاه، والشعور بالطمأنينة الداخلية، وبقدر ما يتقرب منه يشعر بالسعادة، كما بقدر ما يبتعد عنه يشعر بالندم والذنب مما يولد عنده الألم النفسي.

وتعتبر هذه الخطوة في التماهي الأولي في الأم والأب بداية الدخول في المرحلة الأوديبية، التي يخوض الطفل من خلالها صراعاً نفسياً عميقاً لا يخرج منه إلا بعد أن تكون قد تكوَّنت في ذاته الأسس الرئيسية لانبنائه النفسي. وموضوعاً جنسياً يستقطب القسم الأكبر من التيار الشبقي الذي يساوره في هذه المرحلة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ نفسر الشذوذ الجنسي في حالات التخنث، أي (Homosexualité) على أنه انحراف في عملية التماهي، فبدلاً من أن يتماهى الطفل الذكر بوالده لكي يحوز على إعجابه، ومن خلال ذلك على إعجاب والدته (على اعتبار أن الأم مرتبطة بالاستمتاع الجنسي بهذا الأب صاحب القضيب) نراه يأخذ

(1) Essais de psychanalyse, P127.

اتجاهاً سلبياً مغايراً فيتماهى بالأم، ويتصرف تجاه والده كما لو كان موضوعاً جنسياً يود الحصول عليه. ويصبح التماهي بالأم النقطة الرئيسية التي تدور حولها تصرفاته المخنثة. فتماهيه بالأم يترجم رفضه وإنكاره لنقصها (أي أنها لا تملك القضيب)، كون الأم هي موضع اكتشاف الحقيقة بالنسبة للفارق الجنسي الذي يميز ذاته ويحمله هويته الجنسية. وهو من خلال ذلك يطلب من الآخرين، الذكور، أن يعاملوه كما لو كان يعامل من قبل أمه، عسى أن يعوض عليه ذلك ما رفضه من حقيقة نقصها. وإجمالاً لا يتوصل الطفل إلى هذا الانحراف التكويني إلا بتواطؤ الهوام اللاواعي (اللاشعوري)، ومؤازرتها، لأنها تمثل الرافض الأول لخصائها. ومحاولتها إبقاء الابن في حوزتها في شكل تماه فالوس، وبالمناسبة تبسط عليه حمايتها كي لا تلزمه الإذعان لسلطة الأب؛ وهذا ليس إلا ترجمة لرفض الأول ويصبح بالمناسبة موقف الطفل موقف تحد لسلطة الأب استناداً إلى وهم الأم، وفي تحايله على هذه السلطة والإفلات منها يحاول الحصول على مكاسب نرجسية أهمها الإفلات من ضريبة الخصاء الرمزي[*].

ونشير، تأكيداً على ذلك، إلى الحالة السحاقية التي أوردها «فرويد» في مقاله[1] والتي يرشح بها الانبناء النفسي لمثل هذا الانحراف. وبها يتبيّن التحدي المطروح في وجه الأب كون حبها المثلي ما هو إلا دليل إنكار لسلطته التي لم تعوض عن حرمانها: بمعنى أن هناك شخصاً يستطيع أن يحبها لأجْل ما لا تملك (أي امرأة أخرى). وفقدانها هذا الشخص يعني انهيار البنية النفسية.

الحالة تشير إلى فتاة في سن السادسة عشرة من عائلة محترمة، تميزت بالترف والرفاهية. الفتاة تقع في حب امرأة ناضجة لها خبرة جنسية واسعة، جميلة ويحيطها الكثير من المعجبين والمعجبات. وفي يوم بينما كانت تسير برفقة هذه الامرأة التقت بوالدها الذي مر دون أن يخاطبها بعد أن ألقى نظرة تعني الازدراء والاستنكار مما

(*) التماهي بالأم يحتله في موقع يحقق صورة متكاملة لا ينقصها القضيب كما هو الحال في الواقع. وهنا يتبين لنا النفي للفارق الجنسي : العملية المميزة للانحراف.

(1) حالة فتاة سحاقية.

حدا بالسيدة أن تقول لمتيمتها الصبية: انتهى كل شيء بيننا. فما كان من الفتاة إلا أن رمت نفسها من أعلى جسر على خط القطار. فهذا التحدي من الأب لم يلقَ قبولاً عند محبوبتها، انهارت بنيتها النفسية ولم تجد وسيلة للخلاص إلا عن طريق درب النكوص، أي بأن تتماهى ذاتها بالطفل الذي يولد أو يسقط، كما لو كانت في نفس الوقت هي المولدة والمولودة، وهذا ما أرادت أن تعنيه في محاولة انتحار هي في حد ذاتها ولادة جديدة. بمعنى أن السقوط يأخذ مفهوم الولادة (يقال في اللغة العربية أسقطت الامرأة أي أجهضت). وكذلك في الالمانية.

فالتماهي بالأب بالنسبة إلى الطفل الذكر يمثل المخرج الوحيد السوي الذي يستطيع عن طريقه التخلص من عقدة أوديب. والتماهي بالأم بالنسبة إلى الفتاة يمثل الباب المقابل. ولذا فالانحرافات الجنسية لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء التغيرات والتقلبات التي تحدث في عملية التماهي.

ويقول «فرويد» بهذا المعنى: «عندما تتحطم عقدة أوديب، يصبح الطفل في حكم المضطر إلى التخلي عن أمه كموضوع جنسي. وفي هذه الحالة ممكن أن يحدث احتمالان: إما أن يتماهى بأمه، وإما أن يعزز تماهيه بوالده. والاحتمال الأخير هو الذي يمكّنه من أن يصبح من بين السويين، ويمكّنه في نفس الوقت من الاحتفاظ تجاه أمه بشعور الحنان. وعندما تنتهي عقدة أوديب تبرز الصلابة في طبعه الذكري. كما أن الفتاة في حال تحطم عقدة أوديب تتماهى بوالدتها وتكون نتيجته أن يتثبت عند الفتاة العنصر الأنثوي.

ويتبين لفرويد أن الأنا، خلافاً لما يفكر علماء النفس السابقون، ليس جهازاً قائماً في نفسه، مستقلاً، يعمل على انفراد وبحرية. فهو مرتبط بالآخر وبطلباته منه وإليه كون الرغبة هي رغبة الآخر كما بينا في نظرية «جاك لاكان»[5]. فالأنا يتكون من العمليات النفسية، فينمو ويكتسب خبرة، ودلالة، في كل مرحلة يمر بها. فعملية التماهي تساهم في تأسيس الأنا وانبنائها على الشكل الذي يصبح دلالة تدل على الذات بالنسبة إلى ذات آخر. وفرويد يسير في هذا الاتجاه عندما يقول: «إن الأنا

---

(1) Essais de psychanalyse, p. 201.

(2) سيمينير

مركبة من تماهيات ثانوية. ففي كل مرة يواجه الأنا غرضاً يتوجب عليه التخلي عنه لكي يعوض عن فقدانه بأن يدمجه في تركيبه عن طريق التعيين بصفة من صفاته كي تصبح قسماً منه». إجمالاً يرضخ انتقاء الموضوع للدوافع الشبقية اللاواعية (اللاشعورية) التي تختلج في ذاته وتتطلب دائماً الإشباع. والأنا في حد ذاتها تعاني من هذه التيارات التي لا تملك تجاهها حيلة تتوقاها أو تكبتها. وهكذا عندما تضطر تحت ضغط الروادع الخارجية من أن تتخلى عن غرض معين، أن تلجأ إلى عملية التماهي لكي تدمج في تركيبتها صفة من صفاته، تعوض بها على اللاوعي (اللاشعور) ما فقده. ويزيد فرويد: «يمكن أن يصبح هذا التماهي الشرط الذي من دونه لا يتمكن "الهو" من التخلي عن هذه المواضيع».

ويضاف إلى هذه العملية عامل التسامي الذي يلعب دوراً في تجريد الموضوع من غايته الجنسية، ويرتفع به إلى مستوى رمزي يمكن أن يصبح أداة يتعامل بها مع العالم الخارجي، ويعزز بالمناسبة الاستثمار الجنسي الثانوي.

فالأنا في مفهوم «فرويد» كما تناوله فيما بعد «لاكان»، ناتجة أولاً وآخراً عن هذه التماهيات المخيالية التي تكونها، وتصبح صلة الوصل بين الذات والعالم الخارجي[1]. فالانسجام الذي يحصل ما بين العديد من هذه التماهيات هو الذي يؤمن السلامة النفسية للسويين. وتضاربها فيما بينها يؤدي إلى التأزم والصراع النفسي، وإلى حالات العصاب[*].

واكتشاف الطفل (حسب نظرية لاكان) لصورته في المرآة يمثل المهد لكل التماهيات التي تحصل فيما بعد (أي التي أتينا على ذكرها). فهذه الصورة يكتشفها الطفل قبل المرحلة الكلامية (ما بين 6 ـ 18 شهر). وتأثيرها العميق بما تحدث من تغيرات وتحولات في ذاته تنبع من صدمة الاكتشاف. فهو بعد أن كان غارقاً في التجزئة الجسدية، ولا يملك أي فكرة موحدة، أو منسقة عن جسده ويعاني من عدم اكتمال جهازه العصبي الذي يزيد من ارتباطه الحياتي في كل حاجاته بالآخر، يكتشف في هذه الصورة ذلك الآخر، الأنا، المتكامل والمتناسق في شكله الجسدي، والسابق لنموه الفكري والحركي.

---

(1) J. Lacan, Séminaire I.

(*) ظهرت حالة في أميركا وتفشت كالوباء: وهي ما تسمى بسيندروم لشخصيات متعددة. كل مرة يتماهى المريض بشخصه وتنقطع علاقته بالتماهيات الأخرى. فيخال نفسه تلك الشخصية نفسها. هذا النوع من التماهي مميز للبنية الهستيرية.

ويحصل من خلال هذا الاكتشاف ارتقاء تصحبه الغبطة والنشوة، أي نشوة النصر على الضعف والعجز الحركي والالتزام الفموي الذي يفرضه وضعه الطفلي. ففي هذه الصورة سيرتقي الطفل إلى مفهوم الأنا في شكلها الأول قبل أن يدخل منهج التماهي بالآخرين كون اللغة تسنح له الفرصة لاكتساب الصفة المميزة للذات . ويقول «لاكان»: هذا الشكل الذي يتماهى به كأنا مثالي، إذا أردنا إدخاله في منطق معروف، يصبح المنطلق لكل التماهيات الثانوية، حيث نعرف أهميتها في التوزيع الليبيدي السوي. المهم في الموضوع في وضعية الأنا، أنها قبل أن يتأكد شكلها الاجتماعي، تكون قد انطلقت من منطلق مخيالي، لا عودة بعده للشخص. ويتأكد أن كل محاولاته اللاحقة لتحليل اكتماله تبقى دون هذه الأنا المثالي، ويتبين له باستمرار التناقض ما بين هذه الأنا والواقع . فهذه الصورة للجسد ليست إلا سراباً يسبق نضوج سيطرته وإخراجاً لشكل مكون لذاته وليس بواقع حاله المكون.

وعلق «جاك لاكان» أهمية كبيرة على مرحلة المرآة، على اعتبار أنها تمثل المرحلة الأولى التي يتم من خلالها التماهي بهذا الشكل الخارجي للجسد، فيستأثر به بعد أن يخرجه من حالة التمزق البدني، والعجز الحركي؛ ويحقق له وحدة في وظائفه تسبق واقع حاله. الانفعالات العفوية التي تصاحب هذا الاكتشاف ما هي إلا دليل على أهميته؛ وسريعاً ما تتعمم هذه الصورة في شكلها المثالي على الآخر الراشد الذي يسبقه في نضجه، وفي تكامل نموه الحركي الذي يحقق حاجاته في حرية تبرز عجزه وارتباطه. وتدخل الأنا في علاقة مع الآخر شبيهة كمثل يقتدى به، ويرنو للارتقاء إلى مستواه. يتماهى به كلما سنحت الفرصة لاستكمال نضوجه والتطور عن طريق الادماج حتى يؤمن نضجه، أو يزيد من تجميل هذه الأنا.

ومن البديهي أن يطرح السؤال الآن عن علاقة عملية التماهي بعقدة الخصاء، وما ينتج عن ذلك من الانبناء النفسي وتكوين الأنا المثالي.

كنا قد ذكرنا أن الأنا تتكون من خلال التماهيات الثانوية المخيالية التي تصادفها في خلال نشأتها، مما حدا «بجاك لاكان» إلى التأكيد على أن وظيفة الأنا هي منذ البداية وظيفة مخيالية (Fonction imaginaire) فالأنا هي جزء من الهو في البداية، تتكون تدريجياً، كما يقول فرويد، ويحصل التمييز دون أن تنقطع صلة الوصل بينهما؛ باعتبار أن الثاني ما هو إلا امتداداً للأول. وهذا الانفصال (Ich Spaltung) يحصل

عندما تظهر صفة المخاطب في تلزيم أفعاله وممتلكاته: أي يتبين ما له، وما لغيره (تدخل الأنا في لغة المخاطب بعلاقتها مع الآخر: شربت ـ ضربت ـ لعبت ـ قلمي ـ دفتري، إلخ).

وحسب تعبير اللغويين، يظهر الخط الفاصل ما بين الدال والمدلول $\frac{\text{دال}}{\text{مدلول}}$.

فحسب تحديد «لاكان» «الذات هي ما يمثلها الدال بالنسبة إلى دال آخر». أي بتفسير آخر: هذا الدال الذي يمثل الذات لا يتم إلا عن طريق التماهي. في آخر المطاف، لا يبقى من الإنسان إلا إسم العلم الذي يخط على قبره، آخر أثر للغائب. أو في الحياة العامة عندما نعرِّف عن شخص لمحناه فنستدل عليه بالصفات البارزة (القصير ـ الطويل ـ الأسمر ـ البدين ـ الأصلع ـ المشورب، إلخ. أو بصفات خلقية أو مهنية. . .)[1][*]. من الصفات التي تدل عليه والتي عيناه بها ليس ذلك إلا للتعريف عنه. فتصبح دوالي مميزة له في حال غيابه تشير إليه وتحل محله.

فالعديد من هذه التماهيات تصبح الجهاز المكون للأنا في علاقتها مع الآخر. وعن طريقها يتم للشخص التعبير عن ذاته، وربط الصلات المتعددة مع مجتمعه، فللتماهي وظيفة سوية تؤمن توظيف الطاقة الليبيدية وتمكِّن الإنسان من الدخول في علاقة مع الآخر، كي يصبح بإمكانه تحسس مشاعر الغير، فيعمل له كما لو كان يعمل لنفسه. من هذا التماهي بالآخر تبزغ المشاعر الانسانية.

كنا قد ذكرنا سابقاً أن التماهي ما هو إلا عملية تعويض ناتجة عن فقدان غرض معين، كانت تربطه بالذات صلات عاطفية أو ليبيدية وثيقة. أي أن فقدان الغرض يمثل في حد ذاته الدافع إلى التماهي كي يمكن الفرد التعويض عن طريق إدماج صفة من الصفات بالأنا يخاطب بها الآخر. ويستدل على ذلك في قصة حفيد «فرويد» مع البكرة: التي كنا ذكرناها سابقاً. كان يقذف بالبكرة بعيداً ويقول: قريب (أي اقتربي) ثم يستعيدها إلى جانبه ويقول: بعيد (أي ابتعدي). الغاية من هذه اللعبة هو استرجاع السلطة التي تتمتع بها والدته، فلا يكون عرضة لبعدها وقربها ساعة تشاء أي أن تصبح المبادرة في إطار سيطرته. فيرتقي إلى المستوى الرمزي، ويخرج ذاته في وحدة

(1) مصادر أسماء العلم كلها دالات خلقية أو مهنية تميز بها الأب المؤسس.

(*) الملاحظ أن هذا المميز يصبح فيما بعد دالاً صافياً مجرداً من معناه الأصلي لكي يؤسس أسماء العائلات.

موضوعية، يحركها ضمن لعبة من اختياره تمكنه من السيطرة عما يفقده في واقع الحال.

وهكذا نراه يعين ذاته بالبكرة، ويأخذ مكان الأم كي يستأثر بمبادرة إبعاده واستجلابه. يقلب المعادلة من كونه مسيطَراً عليه، إلى كونه مسيطِراً عن طريق الترميز.

وفي نظر «لاكان» فإن هذه البداية هي الخطوة الأولى التي مكنت الطفل من دخول عالم الرموز عن طريق تماهي رغبته برغبة الآخر (أي الأم).

والتجربة التحليلية في دراسة الأطفال: هي أن طلب الطفل لم يكن في مرة من المرات مقتصراً فقط على الاكتفاء والحرمان، بل يتعداه دائماً طلب لغياب، أو لحضور. وهذا ما تجسده العلاقة الأولى بالأم، والتي استوفينا شرحها في الفصل الثاني.

فطلبه لحضور يسبقه غياب، يجعله يتماهى بأمه كوحدة عددية ناقصة يدل عليها بزائد واحد تمثل ذاته في جدول تعدادي: هذا ما تظهره لعبة (FOR-DA).

فالتماهي بالآخر هو الطريق الوحيد للتقدم واكتساب الخبرات كون الآخرين يدخلون في المنهاج التعدادي عندما تصبح الذات وحدة إيجابية ابتداءً من ناقص واحد. وهذا ما يعبر عن رغبتها. وهكذا تتكون في مفاهيمها وأحاسيسها المكتسبة حتى تبلغ مستوى النضوج. وفي كل مرحلة تتعين بغرض محدد، لا بد أن تشعر بفقدانه على غرار مثل حفيد «فرويد»؛ وتستعيض عن الغرض المفقود بصفة من صفاته تدمجها فتصبح جزءاً من تركيبها. وهذا الإدماج، كما بيَّن «فرويد»، لا يمكن أن يحصل إلا بعد أن يجرد الغرض من صفته الشبقية الواردة من اللاشعور. أي كما ذكرنا عن طريق الارتقاء تصبح هذه الإشارة أو الصفة، الدال السامي لمدلول جنسي شبقي بقي مكبوتاً في اللاوعي (اللاشعور) (وهذا ما يسمى بنجاح الكبت كعملية سوية). مما يتيح للخط الحاسم أن يدخل ويفصل ما بين الدال والمدلول. وهذا الدال يدخل كحلقة في سلسلة الدوالي كي يمثل الذات في وضع من أوضاعها على اعتبار أنها بإدماجها له تكون قد تماهت به لتخاطب دالاً آخر. وهكذا انطلاقاً من هذه المعطيات يحدد لاكان الدال: «الدال هو الذي يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر»(*).

ونجد البديل لذلك في نظرية «فرويد» Ich Spaltung، أي انقسام الأنا ما بين واعي (شعوري) ولاواعي (لاشعوري).

ولكي نبين التطورات التي تمر بها الذات في مراحل نموها إلى أن تصطدم

(*) أي أن الذات لا تظهر إلا بسبب الفارق هي نتيجة التباين بين د1، ود2.

بالعقدة الخصائية المؤسسة، لا بد لنا من الاستعانة بمقال قيم ورد في مجلة «Silice» ـ العدد 5 الناطقة باسم المدرسة الفرويدية لباريس. حيث استطاع الكاتب أن يبيِّن ارتباط التماهي المؤسس للذات بعقدة الخصاء، وهي التي تؤمن لها عن طريق التماهي بالأب الارتقاء إلى المستوى الإنساني الذي يمكنها من مخاطبة المجتمع.

يتبع الكاتب خطين واتجاهين معاكسين: الأول نكوصي، ابتداء من العارض الذي بدلالته يقود إلى الأم، والتشبث بخطاها الشبقي المحرم. وفي آخر المطاف: نزعة الموت.

والخط الثاني ارتقائي، وهذا ما سنأتي على تفسيره.

يقول الكاتب: إن من أهم صفات العارض النفسي هو تكراره، فلولا ذلك لما اتخذ الصيغة المَرَضية، وأصبح عائقاً يستنفذ النشاط النفسي.

والتكرار حسب نظرية «فرويد» الثانية يقود دائماً إلى نزعة الموت. أي العودة إلى حالة سابقة كان يستمتع بها بالإخلاد إلى الراحة المطلقة، والتي تكون في آخر المطاف حالة الركود، أي حالة الجماد التي سبقت انبعاث الحياة. وهذا ما تشير إليه التعابير المتداولة عن التراب، والمشتقة منها التربة (نهاية الأحياء). الأرض ـ الوطن ـ الأم(*).

ربط «فرويد» في تحليله ما بين مبدأ اللذة، وما بين نزعة الموت. والأطفال كما نلاحظهم توّاقون إلى تكرار ألاعيبهم لما تولد عندهم من لذة. ولكن إذا ما تعدى هذا التكرار حداً معيناً انقلب إلى نزعة هدامة، تفجر اللعبة نفسها. فوراء كل محاولة تكرار حنين في العودة إلى حالة سابقة.

فالطفل لا يترك أمه إلا مرغماً، ينتابه دائماً الحنين بالعودة إلى حضنها، إلى الرحم (الجنة المفقودة) حيث كان يؤمن له الدفء والغذاء والراحة والطمأنينة (Etat d'extase). وآخر المطاف ما بعد الأم، العودة إلى حالة الركود، أي نزعة الموت الكامنة وراء دوافع التكرار.

والمحلل النفسي يتصدى لهذا العارض، ومن خلال فتح الأفق التعبيري الكلامي الذي يتيح الفرصة للمحلَّل كي يعيد النظر في مواقفه على ضوء ما يتكشف أمامه من حقائق لاواعية (لاشعورية) مكونة لذاته.

(*) التكرار كما نعرف يفتش استعادة المتعة الأولية في الدورة الأولى، ولكن كلما تكرر نقص جزء من هذه المتعة وفي آخر المطاف يصبح التكرار مولداً للعنف لأنه يكون استنزف المتعة المتعلقة. هذا ما نشهده عند الطفل عندما يحطم لعبته بعد أن استهلكها. كذلك العارض.

فالمحلل منذ البداية يلعب دور المفترض عارف، ومن هذا المنطلق يعطي تفسيراته التي تنقل العارض من دائرة التكرار المنغلقة، إلى صعيد أوسع يتلقى منه معاني جديدة، وتنفتح أمامه آفاق واسعة تخرجه من عزلته العقيمة.

ويستنتج مما ورد،أن المحلل يغلق باب العودة إلى حالة سابقة، والتي كما حددناها، في بعدها المتخيل: العودة إلى الأم.

فبتفسيره ومعرفته، يلعب دور المحرم، لأن العارض، رغم ما يسبب من آلام نفسية، فهو مورد لمتعة مجهولة، وإلا لما كانت هناك مقاومة؛ وتشبث المريض به يعود إلى استثمارات نرجسية ثانوية تكونت في مراحل نشأته.

ويبدو لنا أن التجاهل اقترن بالمتعة والمعرفة في التحريم. وما قول أوديب الملك: «ليتني لم أعرف ذلك» إلا تأكيداً لهذه المعرفة الهائلة التي قلبت كل مقاييسه عندما نقلته من دور المتجاهل والمتمتع بالمحرمات، إلى دور العارف بحقيقة لم يعد بإمكانه تجاهلها. وبالمناسبة انتهاكها.

فالمعرفة والتحريم يمثلان إذاً هدفاً مزدوجاً لا يمكن الاستغناء عنهما أو تفريقهما في التحليل.

ويتبين لنا أن هناك تشابهاً ما بين دور الأب ودور المحلل. فالأب يمثل بالنسبة إلى الابن الرادع الخلقي والمحرم الأول. فهو الذي يسد أمامه طريق العودة إلى الأم. (فالأب معرفة تنطق بها الأم لأنها الوحيدة المؤهلة لتعرف عنه، وهذه المعرفة هي في نفس الوقت محرمة ومشرعة. باعتبار أن الابن يكتسب اسم الأب، ويصبح المعرف الشرعي عنه)، كما في أوديب: الآن بعد أن عرفت لا يمكن أن تستمر الأمور كما لو كنت لا أعرف.

والأم هي التي تسمع الابن كلام الأب، عندما تظهر بأنه يمثل مرجعها الأساسي في تكوين البنية العائلية. وهذا يفترض أولاً وآخراً أنها وضعت نفسها في استحالة امتلاك الطفل لها. عزت نفسها بوجود الأب عندما يغادر هذا الطفل الذي كان يملأ حضنها، ويعوض عن نقصها. وهذا الارتقاء لا يمكن أن يحصل إلا إذا استطاع الطفل أن يتماهى بوالده الممثل للسلطة التشريعية والمحرمة. فلذلك يفترض التماهي إزاحة الأب على الصعيد المخيالي(*)، والاستعاضة عنه بالأب الرمزي الممثل للشريعة الأولى، على غرار ما ذكرنا للقبيلة البدائية (Totem et tabou). فلذلك نراه يدمج في أناه الأعلى كل الممنوعات والمحرمات التي كان يرددها والده عليه.

(*) يتبين لنا أن ما ذكره فرويد عن الأب البدائي للعائلة الأولى، هو بمثابة هوام وليس أسطورة، يتمثل في بنية تكوين الذات.

فهذا التماهي بالسلطة المحرمة (الأب الرمزي) يقترن بمفهوم الخصاء كرادع لاواعي (لاشعوري) للتعلق الشبقي بالأم.

ويصب في هذا الاتجاه: الحنين إلى الأم، والتشبث الشبقي نحوها، الدافع التكراري المميز للعارض المرضي، بمعنى أنه محاولة للعودة إلى حالة سابقة: الموت كحالة ركود نهائية.

الخوف من الخصاء مرتبط بالرغبة المحرمة. وإذا ما استطاع الطفل أن يتخلص منها يزول مبرر خوفه من فقدان قضيبه. وهو خوف له ما يبرره من خبرات مر بها في مراحل تطوره. فكما أن هناك عقدة خصاء قضيبية، نجد أن هناك ما يعززها من مراحل انفصالية عاشها الطفل على الصعيد الولادي والفموي والشرجي.

لذلك، وكي نتفهم عقدة الخصاء، وعمق تأثيرها الجسدي والهوامي لا بد لنا من استعراض سريع لهذه المرحلة التي إن ارتبطت في المرحلة القضيبية ظلت في الخط الخلفي النكوصي سهلاً ترتد إليه، وتغذي الهوامات المنبثقة منه.

في المرحلة الأولى: (أي الولادة) يحصل مخاض، سواء بالنسبة للإبن أو بالنسبة للأم فهي تجربة خطرة تُصدِم برأي Ferenczi. فالطفل يخرج من عالم الدفء والراحة والطمأنينة إلى عالم الحرمان. وبالنسبة إلى الأم فالولادة تترك فراغاً تحرك عندها عقدة نقصها إن لم تكن وجدت لها حلاً سابقاً[1](*). فيحتل الوليد منذ البداية مكاناً تمثيلياً بالنسبة للفالوس يتماهى به وهو ما نسميه بالتماهي الفالوسي. مما حدا «بفرويد» إلى إطلاق معادلته المشهورة: (Phallus = enfant). وإرضاء لأمه يتعين برغبتها (أي يصبح (رغبة الرغبة) خاضعاً لها).

وفي المرحلة الثانية ـ الفطام ـ يرتبط الطفل خلالها بعلاقة فموية مع الأم، ولا يميز ما بين جسدها ككل، وما بين ثديها، وعندما يحصل الفطام يسقط هذا الثدي من حسابه ككل ويصبح موضوعاً جزئياً (Objet - partiel) يدخل في صميم بنيته النفسية كمولد للرغبة. وهذا ما أتينا على تفصيله سابقاً.

---

(1) الانهيار النفسي، والاكتئاب الذي يصيب النساء بعد الولادة، هو خير دليل على أهمية الصراع الحاصل من انفصال الجنين عن الأم.

(*) الملاحظ أن الأم النفسة التي تصاب باكتئاب حاد بعد الولادة يعود إلى كون هذا النقصان لم يطله الترميز. فانفصال الطفل عنها لزم في مخيلتها صورة بتر قطعة من جسدها.

والأم تصبح وجوداً وغياباً مركزاً على هذا العطاء. فالثدي ينحصر إلى أثر ذكروي، أي الجزء المتبقي عندما تشبع الحاجة.

وتتتابه في هذه المرحلة هوامات مخيفة من جراء تعينه بالغرض الطيب، من حيث إن الغرض السيّئ يسقط على الأم مما يشعره بأنه ملاحق ومضطهد، أو مهدد من قبل الآخرين حسب نظرية ميلاني كلاين: نتيجة لتماهيه الشرجي، (التماهي بالغائط).

وفي المرحلة الثالثة: يدخل الطفل عالم رغبة الآخر عن طريق الترويض، فالأم تطلب منه، وتتوسل إليه، لكي يرخي عضلاته الشرجية ويعطيها الغائط. فيشعر عند هذا الطلب الموجه إليه بالسلطة والتحكم بالآخر عن طريق فتح وإغلاق الفتحة الشرجية. وهكذا يقول «لاكان» تقترن رغبته لأول مرة برغبة الآخر.

وانفصال كتلة الغائط يولد عنده الشعور بفقدان غرض عزيز، على اعتبار أنه يأخذ أهمية كبيرة بنظر الآخر (الأم). فقلقها، وانتظارها، وانفراجها عندما تحصل على ما تريد، يفتح أمام الطفل حقلاً جديداً يطرح في مجاله طلباته؛ فهو يراقب، ويتحسس كل ما يحدث عندها، ويدرك معنى هذا الغرض المفقود الذي يمهد الطريق فيما بعد لمفهوم الخصاء على اعتبار أنه لا يميز الفرق ما بين الكتلة الغائطية، وما بين القضيب. فكلاهما يحتلان قطعة من جسده ممكن أن تنفصل عنه.

وسريعاً ما يتبين له، عندما يدخل المرحلة القضيبية، التهديد الذي يلحق به عندما يكتشف فقدان العضو الذكري عند الفتاة، مما يعزز مخاوفه السابقة.

يزداد هذا الخطر جدية بالنسبة له عندما تنشأ عنده الرغبة المحرمة بامتلاك الأم وإزاحة الأب.

ولذا لا يبقى له مخرج إلا بالتخلص من هذه الرغبة للحفاظ على قضيبه، والتمسك بالأب، أي التماهي به وهذا ما سنأتي على تفسيره.

فلعقدة الخصاء دور في تكوين الأنا حيث تتم أهم عمليات التماهي. وهي في الواقع عملية لاواعية (لاشعورية) تتأسس من خلالها الذات على غير علم منها. وقد تم لـ«فرويد» اكتشافها عن طريق العمل التحليلي.

قلنا إن الأنا تتكون من تماهيات متعددة بأغراض جنسية ترد من الهو، فتدمجها في تركيبها بعد أن تكون قد جردتها من صفاتها الشبقية: أي ارتقت بها إلى مرحلة التسامي.

يقول «فرويد»[1] بما يختص مثال الأنا: «. . . فوراء مثال هذا الأنا يتراءى أول، وأهم تماهي حصل مع الفرد: هذا الذي يخص الأب في عهد ما قبل تاريخه الخاص. فهذا التماهي يكون حصيلة ونهاية التركيز على غرض: إنه تماه مباشر، وسابق لكل تركيز على موضوع معين».

ويأخذ هذا التماهي طابع العداوة عندما يدخل الطفل المرحلة الأوديبية: فيتماهى بوالده لكي يأخذ مكانه ويزيحه من طريقه. وبما أن شعوره تجاه هذا الأب لا يقتصر على العداوة والبغض فقط، لأنه مرتبط به سابقاً بالحب والعطف والحنان. فلذلك لا يمكن أن يبقى هذا التماهي بشكله دون أن يرتد عليه بردات فعل عكسية تحاسبه وتحدد من مسلكه، لأن مثل هذا التماهي، وما يحمل في طياته من دوافع جنسية محرمة لا بد أن يلقى الردع. وهذا ما تزكيه عقدة الخصاء والخوف منها.

وهذه السلطة بعد أن تكون برانية تصبح جوانية بفضل التماهي، وتتمثل بالأنا الأعلى على حد قول فرويد[2] «علاقتها بالأنا لا تقتصر على توجيه النصيحة، كن هكذا مثل أبيك، ولكن تفرض عليه التحريم: (لا تكن هكذا) أي كأبيك: بمعنى لا تفعل كل ما يفعله، فهناك أشياء عديدة من حقه فقط». ويتبين من قول فرويد أن المؤشر الأول لمفهوم القانون والإذعان له هو رغبة الأب.

فاقتصاص الأنا الأعلى من الأنا هو في الواقع مدعوم لاواعياً (لاشعورياً) بالتهديد بالخصاء. فالأنا الأعلى يعامل الأنا بنفس المنهج الذي كان يعامل به الطفل من قبل أبيه إذا ارتكب إثماً. وإذا ما تعدت قسوته وشدته الحد المعقول يصبح تركيبة مرضية. وفي هذه الحال يكون الحساب عسيراً «لأن الأنا الأعلى على علاقة بالهوامات اللاواعية (اللاشعورية) التي قد يحاسب لأجلها على غير علم منه. وهذا ما تثبته الدراسات التحليلية للعصابيين عندما يعانون الأمرين من أفكار قهرية، وما تخلق في نفوسهم من عذاب نفسي».

وتوصل «فرويد» في اكتشافه إلى التأكيد على أن الأنا الأعلى هو في الواقع الوريث الشرعي لعقدة أوديب. وبفضله تتم عملية الكبت بعد أن تتحطم العقدة، فهي منذ نشأتها إلى نهايتها تبقى لاواعية (لاشعورية). فالتماهي باسم الأب يكون في الحالة السوية الحل لها الذي يمكن الأنا من السيطرة على دوافعها الليبيدية، ويخلق مقابلها

(1) Essais de psychanalyse, p.200.

(2) Ibid, p.203.

استثمارات معاكسة تتكون من روادع خلقية ترفعه إلى المستوى الاجتماعي والأخلاقي المتعارف عليه.

وهذا ما يجعله يُقبل فيما بعد على التعاليم الأخلاقية والتربوية بدافع التماهي بمثال الأب.

يقول فرويد[1]: «تعتمد المشاعر الاجتماعية على التماهي بأفراد آخرين من مجموعة يجمعها نفس مثال الأنا». ويقصد «فرويد» من وراء ذلك أنه بحكم هذا التماهي التأسيسي لا يبقى خيار إلا اعتناق مثل والده، فهو على دينه يرضخ لتقاليده، ويتبنّى قيمه الاجتماعية والتربوية، وينضم إلى المجموعة التي يصبح فرداً منها سواء كانت قبيلة أو وطناً. فيساندها وتسانده ويدعمها وتدعمه ويدافع عنها كما تدافع عنه. فكل أفراد المجموعة مرتبطين بوثاق واحد هو مثال الأنا. وما التفافهم حول زعيم أو قائد يشد وثاقهم حوله، إلا كونه يجسد مثال الأنا حيث يصبح الضمانة لمحبة عادلة يتقاسمونها.

فارتباطه في مثال هذا الأنا الذي يستحوذ على الجماعة ما هو إلا امتداد لارتباطه بكناية اسم الأب الذي يكونه، فمحبته له هي التي جعلته يتماهى به ويتحول عن رغبته المحرمة، على اعتبار أن الأب بحكم ملكيته للفالوس جعل الأم في موقف المتأرجح المرتبط به، يغمرها بحبه معوضاً بذلك عن نقصها واقتناعها بحرمانها من ملكية الفالوس التصوري. فالطفل يتخلص من موقفه الملتزم بالأم أي من تماهيه الفالوسي ليدخل في بوتقة الأب ويتماهى بخصلة من خصاله الحميدة يتميز بها لكي يصبح على غراره. مقابل ذلك يتخلى عن هوامه في امتلاك أمه، ويتحول برغباته إلى استثمارات أخرى انطلاقاً من هذا النقص الذي بقي في نفسه، والذي أصبح المحرك لانطلاق رغباته والتعبير عنها في مجالات ميدان الحياة العامة. ويتبين لنا أن استحالة هذه العلاقة الجنسية الأولية: هي أساس في بناء المجتمع وقيمه الإنسانية. وفي هذا النقصان تبدو اللغة كعامل مؤسس للترميز تنقل الإنسان من حالة الحيوان إلى حالة الارتقاء الإنساني.

حلم السالمون المدخن:

أريد أن أقيم مأدبة عشاء، ولكنني لا أجد سوى قليل من سمك السالمون

---

(1) Ibid., p.217.

المدخن. أفكر في الخروج لكي أشتري شيئاً ما، ولكني أتذكر في عصر يوم الأحد، وأن جميع المحال مغلقة. فأحاول الاتصال ببعض الموردين ولكن التلفون كان معطلاً. وعلى ذلك لا أجد بداً من النزول عن رغبتي في إقامة مأدبة العشاء .

إذا كنت تدعي أن الحلم تحقيق رغبة فهذا الحلم لا يحقق رغبتي.

الزوج: البدانة، التداعي ـ ورغبته بالامتناع عن الولائم. شكل وجهه المعبِّر، ورفضه للرسام.

الزوجة: معاكستها لزوجها، ورفضها أن يغريها بالكافيار حتى تبقى تعاكسه.

الصديقة: تحوز على إعجاب زوجها، ولكن مشكلتها أنها نحيفة، وزوجها يفضل الأجسام المليئة، طلبت منها أن تعزمها . طبق الصديقة المفضل السالمون المدخن. تحرمها منه كما تحرم نفسها من الكافيار.

تحقيق رغبتها هي تحقيق حرمانها.

السؤال ماذا تريد هذه الامرأة: كافيار. ولكن هذا ما لا نريده.

الحلم يأتي تلبية لصديقتها بإقامة وليمة عندها.

ماذا يشغل الحالمة: هذا الزوج الذي لا يشبع ولا يحب إلا الاستدارة. الامرأة تماهي ذاتها بالرجل، والسالمون المدخن يأتي في موضع رغبة الآخر.

القسم الثاني

الأنوثة في التحليل النفسي

مقدمة عن موقع الأنوثة

عندما نستغرق في قراءة قصص ألف ليلة وليلة، يتبين لنا أنه منذ البداية إلى النهاية تتوالد القصص، الواحدة تلو الأخرى، مرتبطة ببعضها بشكل يشعرنا رغم تعدادها أنها ترضخ لقانون واحد يسيرها، وتستهوينا وتشوقنا أكثر فأكثر على غرار شهريار الملك زوج شهرزاد. فتوالد القصص يأتي في نفس المستوى الذي توالد به ثلاثة أبناء حيث استطاعت شهرزاد أن تفرض على زوجها أمراً واقعاً جديداً يغير أسلوبه ونظرته إلى النساء، ويشفيه من عقدته.

فهذا الحديث المشوق، بما يحتوي من قصص مختلفة، رغم تنوعها، والابطال الذين لعبوا دوراً هاماً بها، يعبر في نهاية المطاف عن رغبة شهرزاد في فرض واقع أنوثتها كامرأة لها طابع إنساني يختلف عن الامرأة ـ الغرض الجنسي الذي يسقط بعد استهلاكه. فهذه الأساليب الملتوية، والقصص المختلفة، التي أتت على لسانها، تعبِّر في الواقع عن حديث الأنوثة، لأن الأسطورة شاءت أن يكون نطقها على لسان شهرزاد، للتعبير عن الرغبة الأنثوية في ملتوياتها، وتقنعها، وفي تحايلها، لكي تدرأ خطراً يهددها باستمرار، لأن البوح برغبتها يعرضها لمخاطر لا يمكن حصرها. وقد يكون ذلك، حسبما يتبين من البحث التحليلي، مرتبطاً بتكوينها الجنسي، كون أعضاءها مغايرة، خلافاً لما هو الحال عند الرجل: حيث إن بروز أعضائها يبقى بعيد الإدراك فيما يختص بموضوعها. فعمقها هو عمق الجسد بما هو مجهول في تكوينه وفي قدره، لا يمكن إدراك واقعه إلا بتصور مستمر لا يطال بعده الأخير.

وخطورة رغبة المرأة لا تكمن فقط في طلبها، إنما في تأويل الرجل لها، وما يستهدف من جسده؛ وهي منذ البداية، بالنسبة للرجل، موضوع مبادلة بينه وبين الرجل: سواء في سوق النخاسين، أو في العلاقة الزوجية، حيث إن القران يعقد ربما بين الصهر والأب، وليست الابنة إلا كناية عن موضوع المبادلة. وإذا طالعنا العادات البدائية والشرقية، منذ أن كانت الفتاة تُوأد عند مولدها في بعض القبائل العربية إلى

أن أصبحت لها شخصية مستقلة تحاكي الرجل في كثير من حقوقه، نجد أن الهاجس الأساسي في قمع حرية المرأة، يكمن في خوف أساسي عند الرجل. فالمواضيع التي تدخل في ملكيته، لا يمكن الحفاظ عليها إلا في قمع الرغبة لها. فهي ما دامت في إطار الحاجة والطلب، تبقى مرتهنة به، ملتزمة في الانصياع لرغبته وتلبية أوامره: ولكن إذا ما حصل أن رغبت، فإن ذلك سيشكل خطراً لا مفر منه، لأن احتمال تحول موضوع الرغبة إلى شخص غيره، يضعه في موقع خطر، لأنه يحبط كل الاحتياطات التي مارسها طيلة الأجيال لكي يحول دون رغبة المرأة، ويحصر وجودها فقط بالتزامه به عبر الطلب والحاجة فقط. فقفص الحريم الذهبي في العهد العثماني، والعباسي، وغيرهما، هو خير دليل على الملكية. حيث كانت الامرأة موضع تبادل امتلاكي، تغرق في كل مباهج الحياة شرط أن تبقى في هذا القفص الذهبي، أي تمتنع عن التعبير عن حرية رغبتها(*).

وخوف الرجل من استقلال رغبة المرأة عن رغبته، جعله يسقط عليها كل الأخطار الناجمة من هكذا موقع: فهي المسؤولة عن خروجه من الجنة، في المفهوم الديني؛ وهي المسؤولة عن انتشار الأمراض في الأساطير اليونانية (صندوق بندور)؛ وهي المسؤولة عن شرف العائلة إذا ما تلطخ بسبب انزلاقها، حسب التقاليد والعادات الشرقية، وهكذا فكل هذه المواقف تشير إلى أن الرجل يعاني من خطر داهم يتمحور حول رغبة المرأة وموضوعها.

ونشير في المناسبة إلى تناقض ظاهر في موقف الرجل في هذا الموضوع: فالمرأة بصورة عامة إن كانت زوجة، أم عشيقة (أي تدخل في إطار موضوع جنسي) تختلف تماماً عن المرأة المتمثلة في الأم، حيث ينصاع الابن لها ولرغبتها بدرجات متفاوتة ـ إلى حد التقديس ـ فالسلطان العثماني مثلاً كان يخضع قصر الحريم إلى مراقبة شديدة، لدرجة أنه كان يضع بين الامرأة والامرأة مخصياً، كي يحول دون بزوغ أي رغبة جنسية سحاقية بينهن: ويخضع حاشيته وآلته الحاكمة إلى نظام مراقبة كي تبقى كل موارد البلد تصب في قصره، ولحساب ملذاته الخاصة، ووزع العيون المراقبة في كل مكان كي لا يفلت من إرادته أي مسؤول أو متمرد. ولكن يبدو لنا من خلال بحث لكاتب فرنسي(1): إن هذا السلطان الذي كان يسيِّر هذه العيون، والأجهزة

(*) خطر رغبة المرأة على الرجل انه لا يستطيع أن يضمن امتلاكها.

(1) Alain Grorichard, La structure de sérail.

المراقبة لحساب ملذاته، يخضع الحريم لقمع، ويتحكم بهن كي لا تخرج أي رغبة عن إرادته. كان هو في المقابل يخضع لإرادة عليا تتحكم به، ويبدي تجاهها الالتزام المطلق: يركع أمامها، ويقبِّل يديها، ويعتبر رغبتها أمراً لا بد من الالتزام به. وهذه السلطة، كانت تتمثل بالسلطانة الأم المتربعة على عرش غير مرئي، يحكم، ويتحكم ويملي إرادته على الجميع من وراء الستار.

والسؤال يطرح هنا بالنسبة للرجل الشرقي المعاصر هو الآتي:

هل المرأة الشرقية التي خرجت من سجن الحريم، لكي تواجه الرجل لأول مرة برغبتها الأنثوية، بمعزل عن الخطر والكبت الذي رافق تطورها خلال أجيال عديدة؟ هل استطاعت أن ترفع الرجل الشرقي إلى المستوى الذي يؤهله، لكي يتقبل هذا التطور دون أن يعيد النظر في تركيبته؟ وهل يمكن أن يكون لهذا الآخر رغبة وأمان بمعزل عنها، دون أن يهدد ذلك مفهومه لرجولته، ومكانته الاجتماعية. وهل يمكن أن ينتقل من موقف الراغب جنسياً بالمرأة إلى موقف المتفهم لحياتها الجنسية؟

فلكي نتمكن من محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بد لنا من التحليل النفسي، وبكتابات فرويد حول الموضوع، فلربما مكَّن ذلك من إلقاء بعض الأضواء على موضوع يعتبر من أصعب المواضيع النفسية والتي سماها فرويد: بالمحيط الأسود، الذي يصعب على المرء خوضه، واستكشاف قاعه. فالمرأة لغز، لا يمكن فك بعض رموزه دون إعادة النظر في المواقف التي فرضها الرجل عليها على مر الأجيال. وعلى القارىء العربي أن يأخذ علماً بهذه الاكتشافات النفسية، سواء اقتنع أو أخذ موقفاً متفهماً أو مغايراً منها، وحتى رافضاً؛ إذن الغاية من بحثنا الوقوف على مفهوم التحليل النفسي لموضوع الأنوثة، ولذلك سنستعين باكتشافات فرويد حول الموضوع، والنقاش الذي أثارته نظرياته الجديدة لأن، كما سيتبين لنا، آراءه واجهت موجة عنيفة من المقاومة لتفهم الأنوثة حتى عند المحللين أنفسهم. فلذلك نجد أن فرويد واجه صعوبة شديدة في حمل زملائه على تقبل نظريته الجنسية حول الإمرأة، سواء نشأتها أو تكوينها. ونقول منذ البداية إن عامل المقارنة على أساس (Passif - Actif) لا يصلح كنقطة للتعريف بالموضوع، وهذا ما حاول فرويد دحضه على اعتبار أن الأفكار المسبقة حول حصر الأنوثة بالسلبية، والرجولة بالفعلية، فكرة خالية من الصحة، يشهد على ذلك عوامل عدة عضوية ونفسية.

ونكتشف أن وراء هذه الأحكام المسبقة عوامل نفسية تكمن عند الرجل، لا تخلو

من الأهمية، لأنها تعكس مفهوماً معيناً تكوَّن عند الرجل منذ نشأته الأولى، وأصبح الإسقاط هو الوسيلة الوحيدة لكي يتمكن من الحفاظ على مفهومه النرجسي لرجولته[1].

في القائمة العديد من الدراسات، والنقاشات، التي يتوجب علينا خوضها أو تفهمها لكي نلم بشيء من الموضوع. ولا يخفى علينا أن موضوع الأنوثة كان موضع اهتمام الكثيرين من العاملين في الحقل النفسي والاجتماعي، في السنين العشر الأخيرة، حيث نجد اختلافاً في الرؤيا حسب ما يكون صاحب الدراسة رجلاً أو امرأة. فالمرأة تتهم الرجل بأنه لا يحق له التكلم على الأنوثة اعتباراً منها أن الموضوع لا يمسه مباشرة، ورؤيته تأتي دائماً منحازة. والرجل يتهم الامرأة بأن نقاشها للأنوثة ينطلق دائماً من خلفيات اجتماعية، وأنتروبولوجية، تجعلها دائماً في موضع المطالب بعطل وضرر لقاء التعسف والكبت الذي عانت منه على مر الأجيال.

ونشير بالمناسبة إلى أن هناك كميناً تقع فيه بعض النساء، من كون رؤيتهن للأنوثة تأتي بحكم مواقف متماهية بالرجل، فتترجم بمطالبة إعطاء الإمرأة حقوقاً تتساوى بها مع الرجل .

فيكون موقفها غير مختلف عن موقف الرجل انطلاقاً من إنكارها للأنوثة الذي يترجم بصورة معاكسة محاكاتها للرجل، أي تضع نفسها في موقف معادٍ يغيب عنها جوهر الموضوع.

ونشير منذ البداية إلى أن موضوع القضيب هو المحور الذي تدور حوله الأبحاث كما سيتبين لنا فيما بعد، وهذا ما سيجعلنا نتوقف عند خصائص الأوديب عند الفتاة، وكيفية تخطيه هذه العقدة التي هي بمثابة المدخل إلى الأنوثة على ضوء الطريقة التي تنحل بها.

ورغبة منا في توضيح الأمور، سنستعرض نظرية فرويد في الموضوع، وبعدها نظرية أرنست جونس، ومن ثم النظريات التي تلت سواء في خط فرويد، أو في خط جونس، أو ما اختلف عنهما معاً.

ونشير بالمناسبة إلى أن دراسة التحليل النفسي تتم عبر ما ورد في الأدب والفن، وتستوحي من الشعراء والأدباء عبر ما كتبوا وعبروا عن تصورهم للأنوثة.

---

(1) هذا المفهوم النرجسي نجده يتجسد بصورة واضحة في الحديث عن الحب في «الوليمة» لأفلاطون، من حيث أنه حب نرجسي يتجسد بذاتية الرجل وتكوينه، ويضع المرأة في مرتبة ثانية.

الميزة الجديدة في اكتشافات التحليل النفسي أنها انطلقت من تأمل المحلّلين، وما أكسبهم إياه العمل العيادي اليومي، حتى أصبحت النظرية إلى حد ما مطابقة لمواصفات العمل العيادي.

والمأخذ الوحيد على التحليل، أنه يتعاطى مع صنف معين من البشر يقتصر على المرضى.

فلذلك لا يجوز تعميم ذلك على الأصحاء. ولكن في الواقع ما من عارض إلا وكان يحمل في طياته حقيقة يعبر عنها على غير علم من الذات. والأعراض المرضية في مفهومها العام ليست إلا نتيجة مغالاة لأوصاف موجودة عند كل السويين. فاكتشاف حقيقة في عارض معين هي في حد ذاتها شاملة على سائر البشر. وهكذا الأمر بالنسبة للعقدة الأوديبية، باعتبار أن هذه العقدة، وما تخفيه في طياتها من تقصير العمل الجنسي، كانت المنطلق لكل العلاقات الاجتماعية. ولولا هذا الإحباط لما كان هناك مجتمع، وعلاقات اجتماعية. فدوام هذه العقدة عند العصابيين، واكتشافها، مكَّن التحليل من تعميمها على سائر البشر.

نظرية فرويد

القواعد الأولى للأنوثة وتكوّنها، وصفها فرويد في كتابه «ثلاث نظريات» سنة 1905 . ولكن سبق ذلك إشارات لنظريته عن الأنوثة، في الكتابات السابقة، وبصورة خاصة، عبر تطور نظرية التحليل النفسي. فيجب أن لا ننسى أن اكتشاف التحليل النفسي متاخم لتطور فهم فرويد للإمرأة، لأنه، كما نعلم، عبر الهستيريا وعوارضها تمكّن فرويد من اكتشاف التحليل الذي جرّه إلى التحليل الذاتي. نقطة الانطلاق لاكتشاف اللاوعي (اللاشعور)، وتأثيره في الحياة السوية والمرضية.

فاللاشعور كان نتيجة هذا التعامل مع الامراة من حيث أن عوارضها كانت إحدى المظاهر المقنعة للأنوثة. فنزع الأقنعة الواحد تلو الآخر يؤدي، بالضرورة، إلى اكتشاف حقيقة لا مهرب منها. فالمرأة هي موضع هذه الحقيقة بالنسبة للرجل. وهذا ما حاول فرويد اكتشافه في الوقت الذي تراجع فيه زميله بروير (Breuer).

المرأة ليست موضع درس يمكن أن يتناوله الرجل بتجرد. فأي تقدم في هذا المجال لا بد أن يطال الرجل نفسه، في بنيته النفسية، ويؤدي إلى تغيرات في مفهومه

لنفسه ولرجولته. وهذا ما حدث في الواقع لفرويد، لأنه عبر الهستيريا استطاع فرويد أن يكشف معالم اللاوعي (اللاشعور)، وتمكن من التقدم في تطوير نظريته.

فمدخل التحليل النفسي هو الهستيريا التي أصبحت مقولة يتناولها الرجل أو الامراة إذا ما أخضع نفسه للتحليل النفسي، مهما كانت بنيته النفسية، حسب تعريف لاكان.

الهستيريا جرّت فرويد إلى عالم الجنس ليكتشف مكنونه عبر الدلالات التي إن دلت على شيء، دلت على أن الجنس هو خطاب يؤدي بالضرورة إلى تحديد الفارق الجنسي: أي اكتشاف الخصاء كعقدة أساسية ولكن ليس بمفهومها التشريحي المؤسس، بل عبر الهوامات والنظريات الجنسية التي تكونت خلال الطفولة: حيث يتبين الفارق الأول ما بين المعرفة والحقيقة.

فمعرفة الإنسان لعملية الفارق الجنسي والبيولوجي بين الرجل والامرأة يحول دون تورطه في مزالق موقفية تبين عكسية هذه المعرفة. وهذا لا يحول دون المثلية الجنسية، أو الانحرافات المختلفة، لأن الحقيقة تكمن في اللاوعي (اللاشعور) وهي ما تعبر عن الذات الراغبة اللاواعية (اللاشعورية). أي موضوع التحليل النفسي الذي توصل إليه فرويد.

سنبدأ بعرض بعض أفكار فرويد حسبما وردت ضمن التسلسل الزمني الذي، كما نلاحظ، تعرض لترميمات عديدة قبل أن يضع البصمة الأخيرة في مقاله «الأنوثة»، سنة 1932.

ثلاث نظريات في الجنس ـ سنة 1905

منذ البداية اعتمد فرويد حجر الزاوية الذي لم يحد عنه فيما بعد: الوحدة الجنسية عند الذكر والأنثى، وهي أول نظرياته حول الجنس في تكوين الأنوثة أو الرجولة. كلا الطرفان أنثى وذكراً يعتقدان بأن لهما عضواً ذكرياً (القضيب بالنسبة للذكر والبظر بالنسبة للأنثى). ويتهيأ لهما أن العالم تكوَّن طبقاً لتصورهما، أي يجهلان في آن واحد وجود الفرج. فالمظاهر الجنسية بالنسبة للفتيات الصغيرات: ذكروية صرف.

فالفرج لا يوجد له تصور على الصعيد النفسي، لأن البظر يأخذ مكان الصدارة على حساب باقي الأعضاء الجنسية الخارجية. وهكذا يمر الفتى والفتاة في ثلاث مراحل أساسية بالنسبة لممارسة العادة السرية: الأولى من الرضاعة، والثانية في سن الرابعة (أي المرحلة الأوديبية)، والثالثة في سن المراهقة.

في المرحلة الثانية يمر الفتى في تصور نتيجة ملاحظته، أن الفتاة ينقصها القضيب. ويعتقد أن يكون ذلك لسبب ما، فيخاف أن يطاله القصاص ذاته في حال رغب في شيء محرم. والفتاة الصغيرة: تتصور بأنها مخصية، وتنطلق الرغبة عندها في أن تكون ذكراً. القضيب موجود عند الذكر في الواقع وموجود في المتخيل عند الفتاة عبر التميز.

يؤكد فرويد في هذا الكتاب أن عقدة الخصاء متواجدة عند الجنسين، وأن اشتهاء (تمني القضيب) القضيب يميز تطور الفتاة. فإلى حدود المراهقة لا تتميز الفتاة عن الفتى. والتفرقة بين الذكر والأنثى غير واردة.

في مرحلة المراهقة، تظهر الفوارق: عند الفتى الانتصاب في القضيب، وإيلاجه في الفتحة الشرجية. عند الفتاة يحصل الكبت للوظيفة الجنسية البظرية، وبالمناسبة كبت أيضاً للمظهر الذكروي المرتبط. ويكتشف الجنسان الفرج ووظيفته.

وفي هذا الكتاب لم يوضح فرويد أهمية العقدة الأوديبية، وارتباطها بالخصاء، ولكنه أكد على العلاقة المحرمة مع الأم.

ويستخلص فرويد أول مسلمة من المسلمات التي سيتناولها في مقاله فيما بعد وهي أن الوحدة الجنسية القضيبية تطال الفتى والفتاة على السواء: ولا يوجد إلا جنس واحد هو الجنس الذكروي حتى سن الرابعة عندما تصطدم الفتاة بعقدة الخصاء: تظل الفتاة تعتقد بأنها فتى مخصي وتجهل بالمقابل وجود الفرج.

قبل التوصل إلى هذه النتيجة، حاول فرويد التعمق في البحث عن المرحلة ما قبل ـ الأوديبية، على اعتبار أن هذه المرحلة أساسية في تكوين الأنوثة وآثارها على مجرى حياة الامرأة، كونها تتعدى بكثير ما يحصل عند الطفل الذكر. وباعتراف فرويد نفسه، لا يخفي الصعوبات الناجمة عن هذا الموضوع، لأنه كما يقول: قلما توصل التحليل إلى هذه المرحلة عند النساء. فلذلك كل ما يمكن أن يقوله، ليس إلا أضواء على جوانب محددة، مع الاعتراف بأن هناك جوانب أخرى لا تزال غامضة كونها تقاوم الانصياع للتحليل.

والمحور الذي ركز عليه فرويد: هو المتمثل ما بين الأم والابنة، وما يتخلل هذه العلاقات من مشاعر متناقضة معقدة في طبيعتها، مما جعل الخوض في الموضوع شديد الصعوبة، ولذلك كرس لهذه المرحلة دراستين مهمتين: الأولى: عن الحياة الجنسية الأنثوية، 1931 .

الثانية: الأنوثة سنة، 1932.

أما المرحلة القضيبية: والشهوة القضيبية (Penis - Need): فهي المحور الأساسي للمرحلة الأوديبية ـ متممة للمرحلة السابقة ـ ولا يمكن فهمها إلا على ضوء النتائج الناجمة عن المرحلة الماقبل أوديبية.

ولكي نسهل عرض أفكار فرويد حول الموضوع سنتناول في بحثنا: آراءه في الأنوثة بصورة عامة، ثم الانتقال إلى تفحص ما توصل إليه عن تطور «المرحلة الماقبل أوديبية»، لكي نستعرض في فصل لاحق المرحلة الأوديبية وما هي نقاط التقارب والتباين بينها وبين الطفل الذكر.

في مقالة الأنوثة[1] يتناول فرويد بحثه للموضوع من جانبين: الجانب التشريحي والجانب النفسي، وينتهي إلى القول لا من الناحية التشريحية، ولا من الناحية النفسية، نستطيع أن نثبت بالتأكيد تحديد الأنوثة بشكل من الأشكال. فموضوع الازدواجية الجنسية (وهي فكرة ورثها من صديقه فليس وظل يؤمن بها حتى بعد انفصاله عنه) يتحكم بالجنسين. فما من رجل يخلو من بعض المواصفات الأنثوية، وما من امرأة تخلو من المواصفات الذكورية، والتمييز بين الرجل والامرأة قائم بتغلب نسبي لقسم من الأوصاف على الأخرى، من حيث إن هذه الأخيرة تبدو جانبية في حال اكتمال النمو في هوية جنسية مميزة.

من الناحية النفسية: هناك كما يقال سلوك ذكوري، وسلوك أنثوي، وإن هذه الأوصاف المطابقة لتحديد الجنس لا تخلو من أحكام مسبقة منها ما هو إيجابي يطابق الوصف الذكوري، ومنها ما هو سلبي يطابق الوصف الأنثوي ولكن فرويد يذكر، بأن كثيراً من الحيوانات تكون الأنثى فيها أشرس وأقوى من الذكر. وحتى في العلاقات الجنسية نجد أن الحيوان الأنثى من حشرات وغيرها يأخذ الموقف الإيجابي. وحتى مفهوم الأنوثة وتربية الأطفال ليست مقتصرة على الإناث، فكثير من الحيوانات الذكور تكرس أوقاتها للعناية بصغارها. وحتى في مفهوم آخر، عناية الأم بالطفل، وإرضاعه هو بحد ذاته بمثابة عمل إيجابي فعال بعيد عن السلبية.

وفي الحياة الاجتماعية نصادف كثيراً من الرجال سلبيين في حياتهم لا يجدون الانسجام والراحة إلا برفقة نساء مترجلات في تصرفاتهن.

(1) S. Freud, La féminité.1932.

ولكن فرويد يستدرك أن مفهوم السلبية لا يعني أن الامرأة تخلو في طبعها من جنوح نحوها، وحتى العمل في سبيل هدف سلبي لا يخلو من الإيجابية والفعلية.

هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وضع المرأة الاجتماعي، وما يفرض عليها من انطواء على ذاتها، وكبت لدوافعها العدوانية، والاقتصار على الأعمال الجانبية؛ كل ذلك جعلها تستثمر هذه العدوانية في نزوات مازوشية أصبحت في حد ذاتها صفة مميزة لأنوثتها، وهذا لا يمنع أن نصادف كثيراً من الرجال يحاكون الامرأة بمواصفات مماثلة.

يستعرض فرويد هذه المقدمة لكي ينفض يده ويصبح في حل من الأحكام المسبقة التي تميز بين المرأة والرجل، سواء كانت تشريحية أو نفسانية، ففي كلتا الحالتين يتبين لنا عدم صحتها، وإن اختلاقها وتعميمها كانا نتيجة التطور الانتروبولوجي أكثر مما هما مطابقان لواقع الحال.

ولكن فرويد لا يخفى عن نظره ازدواجية الجنسين: الشيء المميز للحياة الطبيعية، خلافاً لما هو سائد في عالم الجماد. ولذا نراه يأخذ الموضوع منذ بدايته، فإذا كانت الازدواجية شيئاً مشتركاً بين الطفل الذكر والأنثى، فما هي العوامل التي تطرأ وتحول دون إدراك التمايز المتعارف عليه بين الجنسين، فنقول مثلاً إن هذه امرأة وهذا رجل.

ويتبين لنا أن هذا المنعطف الكبير يحصل قبل سن البلوغ، رغم المقاومة التي يصادفها.

فالطفلة الصغيرة لكي تكتمل أنوثتها، يتوجب عليها أن تمر بتطورات صعبة ومعقدة، أكثر مما هو عند الطفل الذكر.

ولكن بالنسبة لفرويد، وهذا ما اختلف به بصورة رئيسية مع زملائه المحللين، تمر الطفلة بنفس المراحل الأولية التي يمر بها الطفل الذكر. فالاختلافات الجزئية التي لو لوحظت في الفترة الأولى من الطفولة تبدو فيها الطفلة أكثر وداعة، وأقل غطرسة، ومتقبلة بسهولة للنظافة والسيطرة على وظائفها الشرجية؛ كما أنها تبدي ذكاء وإقبالاً على العالم الخارجي، تفوق ما يلاحظ عند الطفل.

ولكن كل هذه الصفات تبقى نسبية، ولا تشكل في حد ذاتها صفة جنسية تميز الطفل الذكر عن الأنثى، فكلاهما كما يقول[1]: «يبدو أنهما يمران في المراحل

(1) المرجع نفسه، ص 155.

الليبيدية الأولية ويتجاوزانها بنفس الطريقة» فالطفلة لا تختلف عن الطفل بدوافعها العدوانية السادية. وفرويد لا يميز بين النشأة الليبيدية الذكروية أو الأنثوية. فبنظره، هناك اندفاعات ليبيدية قضيبية واحدة مشتركة عند الطفل الذكر والأنثى. ولا تميُّز بينهما بما يختص بالاستمتاع. فالفالوس لا يقتصر بنظر التحليل على عضو الذكر، فهذا الأخير ليس إلا صفة من صفاته التشريحية في المرحلة التي تسبق انتصابه وهذا ما يشير إليه لاكان (∅-) على اعتبار أنه ناقص على السواء، عند الامرأة والرجل. ولا يتواجد بمفهومه الفالوسي إلا في العلاقة الجنسية.

من هذا المنطلق يعتبر فرويد: أن الفتاة والفتى: هما رجلان صغيران، حتى تمر المراحل التي تميزهما عن بعضهما. فالفتى يداعب ذكره، ويحصل من خلال ذلك على متعة كبيرة، وكذلك الفتاة تداعب بظرها وتحصل على نفس المتعة، باعتبار أنها تجهل المهبل في هذه المرحلة.

وصراعها مع الذكر لا يبدأ إلا بعد أن يتأكد لها أنها لا تضاهيه، وأن كل الهوامات التي كانت تغذي هذا الاتجاه، يتبين فشلها فيما بعد. فلذا نراها، على أثر خيبة أمل كبيرة، تتحول عن استثمار هذا الموضوع الشبقي، لكي توظف المهبل تدريجياً. هذا التحول يعتبر منعطفاً كبيراً تتركز عليه نتائج هامة في تكوين أنوثتها. فالطفل الذكر يستمر في توظيف قضيبه دون حاجة إلى هذا التحول.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، هناك تحول آخر ترضخ له الفتاة، فهي في البداية تشارك الطفل في تعلقه بالأم، ولكن في مرحلة تالية، تستبدل الأم بالأب وتشهر لها العداء، مع أن الطفل الذكر يستمر في محبة أمه حتى خروجه من عقدة الأوديب.

فالفتاة كما يقول فرويد: «مجبرة على أن تغير الموضوع الشبقي (البظر) وتتحول عن موضوع (الأم)».

والشيء الذي نبه عليه فرويد هو أن هذه العلاقة الأولية مع الأم بقيت غامضة، أهملها التحليل لأسباب تعود إلى عدم تمكنه، في تلك المرحلة من التعمق بتحليل الامرأة، والوصول بها إلى هذه المرحلة. ولكن يبدو أن فرويد رغم اعترافه بهذا النقص يؤكد أن هناك نقطتين استنتجهما من خلال تجربته وهما:

أولاً: إنه بقدر ما يظهر تعلق الفتاة بحب والدها بقدر ما كان هذا الحب يتصف بالوله والعشق نحو الأم مسبقاً.

ثانياً: إن فترة التعلق بالأم بقيت دون التقدير الذي تستحقه. ففي أكثر الحالات

تستمر حتى سن الرابعة أو الخامسة، وحتى في مرحلة النشاط الجنسي. وألمح إلى أن الفتاة التي تبقى في تعلق عشقي بالأم دون أن تتمكن من الانتقال إلى حب الأب، لا يتسنى لها إقامة علاقات طبيعية مع الرجل.

من هنا يؤكد فرويد على أهمية المرحلة الماقبل الأوديبية عند الفتاة، ويعلق عليها أهمية كبيرة في تفهم سيكولوجيا الامرأة. ولكن لا يغيب عن باله الصعوبات التي تعترض الكشف عن هذه المرحلة نتيجة الغموض الذي يحيط بها، والكبت الذي يكتنفها، ويضيع معالم اكتشافها.

ويعترف فرويد بأن ما توصل إليه من نتائج ليس إلا من دواعي الاستنتاج والتخمين: ولذا نراه يتوصل إلى الافتراض بأن هناك صلة ما بين هذه المرحلة والتعلق بالأم فيما يختص بمصدر الهستيريا.

وإن حالات البارانويا عند الامرأة مرتبطة بهذه المرحلة.

فعلاقة الفتاة بالأم ترتبط بهوامات تستمر حتى سن الرشد، ونكتشف فحواها عن طريق العمل التحليلي.

يتحكم بهذه العلاقة شعور ازدواجي حبي وعدواني، أو سلبي وإيجابي في آن واحد: وبحسب المرحلة التي تمر بها، تأخذ الطابع الفموي، أو السادي الشرجي، أو الفالوسي. يتكون خلالها ثلاثة هوامات، تلعب دوراً كبيراً في توجيه مسلكها:

الأولى: رغبة الفتاة بأن ترزق ولداً منها (أي تحمل) أو أن تنجب منها ولداً. وهو عامل مميز للمرحلة القضيبية. في كلتا الحالتين هنالك نفي لحرمان الأم من القضيب أو حرمانها كأنثى.

الثاني: هوام التسمم والاضطهاد الذي يهدف إلى القتل، وهي نواة البارانويا، مصدر العلاقة الأولى مع الأم، كون الفتاة بحالة سلبية تامة تجاه الأم، وبما أنها لا تكفيها من العناية وعطاء الحليب، تقلب هذا الإحباط عليها بمشاعر عدوانية، ثم ترتد بشعور معاكس من جهة الأم التي تصبح بحكم عملية الإسقاط مضطهدة لها بدلاً من العكس.

الثالث: وهو إغواء الأم. التحليل النفسي كان يركز على الشعور المحرم بين الأب والفتاة، وإغواء الأول للثانية، الذي كان سبباً في تخلي فرويد فيما بعد عن النظرة الصدامية للعصاب، واكتشاف الهوام كبديل لواقع لم يحصل. ولكنه لم يعط

الأهمية الكافية للعلاقة الإثمية بين الطفلة والأم. ففرويد[1]: في تاريخ الماقبل أوديبية عند الفتاة هوام الإغواء، ولكن في هذه المرة يرى أن الأم هي الغاوية.

ونحن نلاحظ أن علاقة الفتاة بالأم في هذه المرحلة هي علاقة مثيرة، من حيث إن الالتصاق الجسدي، والإثارة التي تحصل عن طريق اللمس، والعناية، تولّد هوامات شبقية، يطالها التحريم والكبت فيما بعد، ولا يمكن اكتشافها إلا عن طريق التحليل، لأن الاقتراب منها يولد عند الامرأة هلعاً يوقظ هوامات بدائية مرتبطة بها.

وعندما سئل فرويد عن السبب الذي يدعو الفتاة إلى التحول عن أمها، بعدما كانت متشبثة بها ـ أجاب[2]: «بأن العملية ليست تغيير موضوع (أي الأب بدل الأم)، ولكن تحوّلاً حقيقياً يحصل تحت راية الكراهية. وهذه الكراهية تكون في بعض الأحيان قوية إلى درجة أنها تستمر طيلة الحياة».

ما الذي يحصل حتى يتحول هذا الحب إلى كراهية؟ لا يمكن أن نتصور أن يتخلى شخص ما عن موضوع حبه، إذا لم تتغير الصفة التي تربطه بهذا الموضوع. والكراهية للأم هي وليدة الطلب. من حيث إن هذه الأخيرة، التي تحتل مكان الآخر المتكامل، تلبي كل طلبات الطفل من عناية وغذاء ودفء. ولكن يبدو أن طلبات الطفل لا تقف عند هذا الحد، لأن هذا الآخر الكبير هو في حد ذاته ناقص، وأن الصورة المتكاملة التي يسقطها عليه ليست في الواقع إلا وليدة النرجسية التي يحاول عبثاً تحقيقها. فاصطدام هذه الصورة النرجسية المتكاملة لأناه مع الآخر الناقص (الأم)، تولد عنده الكراهية والنفور مكان الحب والولع. لذا يردد فرويد، أن الطفل بصورة عامة، يتذمر بأنه لم يأخذ القسط الكافي من الحليب، أو أمه لم ترضعه بما فيه الكفاية، وانتزاع الثدي يرافقه دائماً شعور عميق بالاحباط يتحول فيما بعد إلى كراهية لعدم إشباعه بما فيه الكفاية.

كذلك ولادة أخت أو أخ يحرك في نفسه الشعور بالغيرة، ويرى في هذا المولود الجديد غريباً أتى لكي يخلعه عن عرشه، ويقاسمه مكاسبه المستحقة، والأم،عادة، هي المسؤولة الأولى، لأنها ولدته من ناحية، ومن ناحية ثانية جعلته يحتل مكانه في حضنها. فالأم متهمة بالخيانة بحقه، وهو الذي حمّلها كل آماله، يراها الآن تتحول

(1) المرجع نفسه، ص 158.

(2) المرجع نفسه، ص 159.

عنه، وتكرس اهتمامها إلى هذا المولود الجديد؛ سيما أن الطفل لا يعرف الحلول الوسط، فهو دكتاتوري، وأنانيته لا تعرف الحدود. وإن أخلّت الأم بتلبية طلبه، تنفجر عنده دوافع البغض والكراهية. والفتاة تختلف عن الولد عندما تصارع العقدة الأوديبية (Penis - Need)، فكل الطلبات غير المشبعة سابقاً كان يمكن ألا تؤدي إلى هذا التحول المهم، لو لم تصب في خزان الطلب الرئيسي، وهو الفالوس . خيبة أملها تتضاعف عندما يتأكد لها أن أمها ليست بأحسن حال منها، فهي أيضاً لا تملك القضيب لكي تمنحها إياه؛ وهذا الطلب كان مدعوماً سابقاً بهوام الأم القضيبية . وهو الآن ينطلق من إدراكها لنقصها، مع التمنّي بأن أمها ستعوّض عليها ذلك كما هو الحال بالنسبة إلى أخ لها ـ فهي إن كانت قادرة على إعطاء أخيها قضيباً، فلا بد من أن تعوض عليها ذلك. وهذا الهوام مزدوج في تعميمه: فنقمتها على أمها تتضاعف من ناحيتين: الأولى، لأن الأم ولدتها ناقصة، محرومة من هذا القضيب الذي تركز عليه اهتمامها؛ والثانية، لأنها خلقتها على شاكلتها ناقصة. فصورة الأم المتكاملة، التي أسقطت عليها كل هذه الهوامات النرجسية في البداية، تواجهها بعد إدراكها للحقيقة نقمة وعداء بمستوى الحب الذي كانت تكنّه لها سابقاً.

ويترتب على هذا الإدراك نتائج هامة تؤثر في مجرى حياتها، وفي تطبع أخلاقها. فأولاً: يتولد عندها شهوة القضيب، وتتطلب المساواة، سيما بعد أن أدركت أن الآخر الذكر يملكه. وأن مطلب الفالوس هو محور كل طلب، انطلاقاً من التركيبة الاجتماعية التي تعطي للرجل الدور الأول والحقوق المميزة.

ثانياً: من هذا الباب تدخل مرحلة عقدة الخصاء، فهي تختلف عن الطفل الذكر الذي يدرك أن هناك أناساً لا يملكون القضيب، أي تنشأ عنده فكرة أن هذا العضو يمكن أن يملك أو لا يملك، ويعزز هذا الهوام التهديدات التي كان قد تلقاها على أثر ممارسته العادة السرية .

فالباب الذي تدخل منه الفتاة عقدة أوديب، يقول فرويد، يخرج منه الفتى، وهذا يتطلب شرحاً وافياً سنأتي على توضيحه لاحقاً. ولكن يجب أن نؤكد حسب تعاليم فرويد المستوحاة من اكتشافات التحليل النفسي، أن شهوة القضيب هي عامل مؤثر وفعال في بنيتها النفسية، ويقول إن أكثر الحالات التحليلية للنساء يكمن وراء طلبها، للحصول على القضيب، أو ما يعادله في الحقل الرمزي من مهن حرة، أو فكرية تضاهي بها الرجل.

فإذا بالفتاة تكتشف الخصاء (تكتشف أنها تختلف عن الطفل الذكر)، وتكتشف أنها بالمقارنة مخصية، وأن وضعها مشابه لوضع أمها ـ فهذا الاكتشاف لا يتم تقبله، وإدراكه، إلا إذا رافقه انهيار للهوام الأولي حول امتلاكها للقضيب، والذي تتفرع منه هوامات جانبية عديدة تصب في نفس الاتجاه: منها أن البظر سيكبر وسينمو، خاصة إذا ما عزز ذلك رؤية قضيب في حالة الذبول ثم في الانتصاب يكبر وينتصب. أو أن القضيب الذي تفتش عنه هو في الداخل. إلى ما هنالك من هوامات تعتمد على آثار ذكروية شرجية وفموية حول وجوده أو امتلاكه.

أمام هذا الاكتشاف، يقول فرويد[1] يترتب على الفتاة، ثلاثة طرق:

1 ـ الأول يؤدي إلى الكف الجنسي أو العصاب.

2 ـ والثاني إلى تغيير مسلكي، أي في تكوين عقدة الرجولة.

3 ـ والثالث إلى تكوين الأنوثة السوية.

المخرج الأول: تتمسك الفتاة بعقدة الفالوس، ولكن عندما تدرك التباين الجنسي بينها وبين الذكر، تهمل العادة السرية التي كانت موجهة نحو الأم وتتحول عنها، لأنها تشعر أنها مصابة في كبريائها، والأم هي المسؤولة الأولى، على اعتبار أنها منحت القضيب للأخ وحرمتها منه.(*)

وسريعاً ما تكتشف أن باقي النساء محرومات من هذا القضيب وبالمناسبة الأم. فتعلقها بهذه الأخيرة كان مبنياً على أساس أنها أم قضيبية، وهنا يظهر بوضوح ما كانت تضمره لأمها من بغض وعداء انطلاقاً من خيبة أملها الأساسية. فبعد أن مارست العادة السرية التي كان يغذيها هوام الأم، تنصرف عنها نظراً لاحتقارها لهذا العضو الضئيل، البظر، إذا ما قورن بعضو الذكر. وفرويد يعلق أهمية كبيرة على هذه المرحلة.

ورغم انصراف الفتاة عنها، نجد أن لها جذوراً عميقة في تكوين المسلك والتصرفات الاجتماعية، وحتى اختيار الزوج والعشيق؛ وبالإجمال التحول عن البظر، يصحبه كبت لكل النشاط الجنسي المرافق له، ويكون من نتائجه كبت لرغبات جنسية

---

(1) المرجع نفسه، ص 166.

(*) هذا الفالوس هو مؤسس ولا يظهر في البداية إلا بشكل نقصانه (∅-) يرمزه لاكان بدال 1 يتبعه دال 2. الدال الأول يطاله الكبت ويحل الثاني بديلاً عنه. موقع الانوثة يعتمد بالضرورة على نجاح أو عدم نجاح عملية الكبت لدال 1.

عميقة، تترجم على الصعيد العيادي ببرودة جنسية، وتحولات إلى أعراض انقلابية(*).

وعندما تتوقف الفتاة عن العادة السرية، تسقط من حسابها قسماً كبيراً من توظيفها الفالوسي، وهكذا تتحول من فعاليتها إلى سلبيتها؛ وهذا التحول يكون محوره الأب.

ولكن لماذا الأب؟ كما تبين لنا فإن الفتاة أصيبت بخيبة أمل مزدوجة من خلال علاقتها بأمها: أولاً، كونها لا تملك القضيب فهي مشوهة، إذا ما قارنت نفسها بالذكر. ثانياً، إن كل النساء لا يملكن القضيب، وبصورة خاصة أمها ـ فتوجه طلبها الرئيسي إليها كان مصدره دواعي قضيبية.

لذلك يسقط من حسابها، أهمية أمها بالنسبة إلى مطلبها. ومن ناحية ثانية تنهار الصورة النرجسية التي كان محورها الفالوس المتخيل. انطلاقاً من شهوة القضيب هذه تحصل تغيرات بعلاقات الطفلة، فبدلاً من أن تتوجه طلباتها نحو أمها لكي تعوض عن هذا النقص، تتوجه الآن نحو والدها، على اعتبار أنه يملك هذا الفالوس، وهذا يعني أن أمها أصبحت موضوع هذا النقصان، لأنها بدورها أيضاً تتوجه إلى الأب لكي يعوضها إياه، وهكذا بدلاً من أن تكون الأم عنصراً مسانداً للفتاة، تصبح منافسةً لها، وحاجزاً مانعاً دون استفرادها بالأب. ويتدعم هذا الاتجاه إذا صدف أن حبلت الأم، فيتهيأ لها أن الأب هو الذي وهبها هذا الولد؛ وهكذا تحل فكرة أمنية الحصول على ولد من الأب، بديلاً عن هوام الحصول على الفالوس. وهذه المعادلة الرمزية كان فرويد قد أوردها في كتابه: ثلاث نظريات في الجنس، أي: الفالوس،و الغائط والطفل.

وفرويد يميز ما بين هذا الهوام الأوديبي، والهوام ما قبل الأوديبي، والذي يعني تمني الفتاة الحصول على ولد ليس إلا بدافع التماهي بالأم. فلذا نراها تتحول نحو جمع (الدمى)، بدافع غريزي من ناحية، وبدافع التماهي بالأم، أي تكرر على الدمية ما كانت أمها تفعل بها، يعني أنها تعين الدمية مكانها، وتأخذ هي دور الأم. وهذه البادِرة مهمة جداً في تكوين ذاتية الطفل، سواء كان ذكراً أم أنثى، على اعتبار أن هذه اللعبة هي مدخل نحو عالم الرموز.

(*) ما يميز العارض الهستيري في الاقلاب حسب أقوال القدماء (Hyppocrate) أن الرحم يحتل مكان دال 2 البديل عن الفالوس، وعندما ينتقل في بدن المرأة، يوظف طاقته الشبقية في عضو من الأعضاء، يعطل وظائفه ويترجم عادة بأعراض تسمى "بالاقلاب الجسدي".

فلعبة الدمية هذه، لا تأخذ مفهوم طلب الأب، إلا بعد أن تتكون شهوة القضيب. وتستمر عندها حتى بعد أن تتكون أنوثتها ـ ونرى الأم تمتلىء غبطة وسعادة، عندما ترزق طفلاً ذكراً. فهذا الأخير لا يملؤها فرحاً إلا بمقدار ما يعوض نقصانها الأساسي عن طريق التماهي به. كما حصل وذكرنا بالنسبة للمؤشر الأول للعبة الدمية.

وهكذا كما يقول فرويد: تدخل الطفلة المرحلة الأوديبية عن طريق ارتباطها بالموضوع الجديد: الطفل = فالوس[1]. ويميز فرويد، بين ما يحصل عند الطفل الذكر، وما حصل عند الطفلة. فعند الأول: عقدة الخصاء هي المؤشر الذي يمكنه من الخروج من عقدة أوديب. فخوفه على حرمانه من قضيبه يجعله يتحول عن الأم كغرض جنسي، ويستعيض عنها بأمنية الحصول على زوجة تحل محلها. وبزوال الرغبة المحرمة بالأم، تزول الأسباب التي تجعله مهدداً بالخصاء. ويقول فرويد في أحسن الحالات يتكون عند الطفل الأنا الأعلى الذي يرث كل معطيات عقدة أوديب، (أي أن ما كان تحريماً خارجياً، يصبح تحريماً داخلياً يقتدي به ويتحكم بمسلكه الاجتماعي). أما بالنسبة للفتاة: فاكتشافها للخصاء يكون في حد ذاته الباب الأساسي المدخل للدخول في المرحلة الأوديبية. أي أن اكتشافها لخصائها يجعلها تتحول نحو الأب طالبة التعويض، وعندما يصبح الأب مطلباً لها، تصبح الأم بحكم الضرورة منافسة.

فالمرحلة الأوديبية يقول فرويد: هي شاطىء الأمان الذي تخلد إليه، هرباً من هذا الواقع القاسي. فلذا لا يتوفر للفتاة نفس الشروط التي تدفع الفتى للخروج من العقدة الأوديبية. يقول فرويد: إنها تستمر معها فترة طويلة من الزمن حتى إلى ما بعد زواجها، وإذا ما تخلصت منها فخلاصها لا يكون إلا جزئياً؛ وعلى هذا الأساس يبين فرويد نظريته أن تكوين الأنا الأعلى عند الفتاة لا يصبح بنفس الصلابة، ولا يتحلى بنفس القسوة الرادعة التي نشاهدها عند الفتى. وهذا كما ورد يعود إلى عدم اكتمال حل العقدة الأوديبية.

المخرج الثاني كما ذكرنا أمام إدراك الفتاة لعورتها، نقصانها، أي خصائها: هي أن تتكون عندها عقدة الرجولة.

أمام هذا الواقع الذي ترفضه، نراها تتبع طريقاً تغالي فيه بمظاهر الذكورية،

(1) المرجع نفسه، ص 177.

فتستمر في العادة السرية البظرية، وتحاول بشتى الوسائل التماهي بالأم الفالوسية، أو بالأب. ونتوقف هنا لحظة عند هذه الفقرة. الأم، كما قلنا، تلعب دوراً هاماً في اكتشاف الطفل لحقيقة الخصاء. وعندما نقول الأم الفالوسية، لا يعني ذلك أن الفتى، أو الفتاة يرى للأم قضيباً(*).

فالفكرة بحد ذاتها هوام يتكون من موقف الأم، سيما إذا كانت هذه الأخيرة ترفض خصاءها، وفي مثل هذه الحالة تتحول مثلاً إلى أطفالها لكي تعوض عن النقص الذي لحقها؛ وتدخل معهم في علاقة مكتملة يُستثنى منها الأب بدوره الخاص جزئياً أو كلياً(**).

وهذا ينعكس في تصرفاتها: تتحكم بالطفل، أو حتى تتخذ مواقف تتحدى بها هذه السلطة، فاستقلالية الأم عن الأب تنبع من رفضها لأن يكون مطلبها التعويض عن نقصها بما يتمتع به الأب من امتلاك القضيب. لذا، بدلاً من أن تتحول الفتاة بطلبها إلى الأب لكي يعوض عن هذا النقص، نراها تتمسك بهوامها على اعتبار أن الأم هي محور هذا الطلب.

وإن استمرت الفتاة في هذا الاتجاه، فمن الممكن أن تتحول بنيتها النفسية نحو الجنسية المثلية أي السحاق، وهذا لا يعني أنها لا تمر في مخاض المرحلة الأوديبية. فالسحاقية، كاللواطية تمران في المرحلة الأوديبية، والتحول الشاذ ليس إلا ردة فعل لانحراف طرأ على حل هذه العقدة.

وهذا ما يؤكده فرويد نفسه في كتابات عدة قد يأتي الحديث عنها عندما نتفرغ لدراسة السحاق.

المهم في الموضوع أن فرويد، وإن استشهد باكتشافات بعض المحللات مثل (السيدة برينزفيك)، فليس ذلك إلا ليؤكد على أهمية المرحلة الماقبل الأوديبية والتي تبقى بنظره المنطقة الغامضة في فهم الأنوثة.

وهنا يؤكد فرويد أن الطاقة الجنسية في الأساس لا تعرف التمييز الجنسي: فهي على السواء في خدمة الرجولة والأنوثة. وإن التحول الذي يشهده، والذي جعل من الامرأة إنساناً هامشياً، ناتج عن تصور الرجل لهذا المسلك عبر التاريخ، وأصبحت

(*) انطلاقاً من هذا الفارق التشريحي للقضيب: يتكون في المتخيل ما يعادله أي الفالوس. ويظهر عندئذ الفارق ما بين الواقعي والمتخيل والرمزي.

(**) الأم التي ترفض نقصانها وتتعامل مع طفلها على أساس أنها لا تزال تتمسك بهوام "امتلاك الفالوس".

الامرأة بحاجة إلى الكبت أكثر من الرجل لكي لا تظهر بعض الدوافع المماثلة. ومن هنا، يبيِّن لنا فرويد أن المرأة أكثر نرجسية من الرجل. فالتركيز على جسدها، وإظهار محاسنها، أو إظهار بريقه ما هي إلا عملية تعويضية عن النقص الأساسي.(*)

فالامرأة تتماهى بجسدها بالفالوس. ويصبح لمعانه المحرِّك لرغبة الرجل بامتلاكها، وفي هذا الامتلاك تكمن رغبتها بالرجل، من حيث إن العملية تعني في حد ذاتها إبقاء هذه الرغبة معلقة، كي يضحي على معبدها بما يعادل المراهنة. لذلك نرى دائماً أن رغبة الامرأة تكمن بالرفض المشروط، ورغبة الرجل بالعطاء المشروط (أي أن تبقى له وحده).

ويعود فرويد في آخر المقال لكي يشدد على أهمية نقص القضيب معتبراً أن هذا النقصان هو المحرك لكثير من المواقف، ومن دونه يصعب فهمها. وعلى هذا الأساس يفسر بعض مسالك النساء في الخياطة، والتطريز، والحياكة، معتبراً أن الدافع لذلك هو نسج شبكة حول العضو الجنسي لإخفاء معالم النقصان.

كذلك في اختيار الزوج: الاختيار الذي يعتبره دائماً يرضخ لدوافع لاواعية (لاشعورية) تسيطر على قرار الفتاة. فعادة اختيار شاب أحلامها تتحكم به رغبة من أن هذا الفتى يمثل، أو يقترب من المثال الأعلى الذي طالما تمنت أن تكونه (خيار نرجسي). أو في الحالة التالية، يكون الاختيار نابعاً من تشبيهه بوالدها لأسباب ذكرت سابقاً، فيأتي هذا الخيار على صورة هذا الأب (بالشكل، بالموقف، بالصوت أو بأي صفة تمثله) أو على صورة أخ كانت قد تعلقت به، ويحقق لها ذلك التحدي الأكبر ضد الأم.

وعندما يتم الزواج نرى أن هذه العلاقة تتم بمرحلتين: الأولى قصيرة، ويأخذ الزوج مكان الأب، على الصعيد الهوامي، وتكرر على مسرحه كل ما كان محور طلبات عند الأم. وفي المرحلة الثانية يحل الزوج محل الأم وتحاول أن تكرر نفس المواقف التي كانت تربطها بأمها. والطلبات التعجيزية ما هي في تخيلها إلا النقصان الفالوسي من حيث إن نقمتها على أمها تعود في الدرجة الأولى إلى كونها ولدتها

(*) عندما يقول لاكان "ان المرأة غير موجودة" . يعتمد على الكبت المؤسس الذي يطال المرأة الأولى التي كشفت هيلة الخصاء للرجل. ولذلك حصل ما يسمى "بممثل المتمثل". المتمثل طواه الكبت وهو المرأة الأولى. أما الممثل هو المرأة التي نتعامل معها والتي تأخذ أشكالاً مختلفة حسب مقاييس الجمال في كل عصر.

ناقصة، ومحرومة من القضيب الذي طالما اشتهت الحصول عليه. فكثير من الخلافات الزوجية، تضع الزوج في حيرة من أمره، وفي عجز من تحقيق طلبها. ولا يستقر الزواج وينعم الطرفان بالسعادة والتفاهم إلا بعد أن تكون الزوجة قد قطعت هذه المرحلة الأخيرة. وقد يساعد على ذلك ولادة مولود، يغيِّر مجرى حياتها، ويربطها بعلاقة مجردة من الازدواجية، تعطيها الاكتفاء الذاتي، وتخفف من حدة عقدة نقصان الفالوس، على اعتبار أنها تتماهى بأمها وتحمل المولود الصغير كل أمنيتها ومثالها الأعلى. أي بأن تعوض ما عانته منه من خيبة أمل، وحرمان، واعتزاز بنفسها.[*]

وهناك جملة غريبة لفرويد يقول[1]: «بأن السعادة الزوجية لا تتحقق طالما لم تنجح الامرأة في جعل زوجها في مكانة الابن، وتتصرف نحوه بشكل أموي»، وهنا لا يأخذ فرويد بعين الاعتبار موقف الرجل، وهل تتهيأ له دائماً الأسباب التي تجعله يرضى بأخذ مكانة الابن بالنسبة للزوجة؟ وهل يحقق ذلك دون أن يفجر عنده بقايا الأوديب، ويصبح ارتباطه بالزوجة مقروناً بالشعور بالذنب، مما يحول دون الاكتفاء الجنسي؟ ولكي نتفهم جملة فرويد لا بد من العودة إلى مقاله حول الحياة العشقية عند الرجل، في كتاب: «La vie sexuelle et amoureuse chez l'homme» PUF.

يعود فرويد في آخر مقاله للتأكيد على على أهمية الأم في التكوين الأنثوي للفتاة. وهذه الأهمية تنبع من ارتباطها الأول الماقبل الأوديبي، حيث إن علاقة الفتاة بالأم هي علاقة تماهي وحب، رغم وجود الدوافع الكرهية المكبوتة. ومن ارتباطها الثاني في المرحلة الأوديبية، نظراً إلى كون الأم موضع كراهية ومنافسة، تتمنى زوالها لكي تحل محلها قرب الأب. ولكن في كانت الحالتين لا يزولا زوالاً تاماً، بل تبقى آثارهما وتأثيرهما مستمرة فترة طويلة من حياتها. فالمدخل إلى الأنوثة، هو في الأساس التماهي بالأم، حتى تستطيع أن تجذب الرجل إليها.

ويقول فرويد: إن هذا اللقاء بالرجل يبقى دائماً ناقصاً، لتفاوت نفساني في تطور كل منهما.

فما لا يحصل عليه الزوج يحصل عليه الابن على أكمل وجه في علاقته الأولى التكاملية مع الأم.

---

(1) المرجع نفسه، ص 176.

(*) تمثُّل علاقة الأم بطفلها الذكر النموذج الأكمل لأي علاقة إنسان بإنسان. الحب متبادل ولا يشوبه شائبة. ولا تصاحبه أية ازدواجية: أي الحب ـ الكراهية المميزة لعلاقة الأب بالإبن.

أما الوجه الاجتماعي للامرأة، فيتناوله فرويد بإسهاب، ليلمّح إلى أن الامرأة أقل قدرة على التسامي، وهي في طبعها لا اجتماعية، منكفئة على عائلتها التي تحول دون توسيع هذه الدائرة، ونظريتها إلى العدالة والتساوي، تأتي غالباً منحازة. يعود ذلك إلى أن عقدة شهوة القضيب، وهي المحور الأساسي كما لاحظنا منذ بداية المقال حتى آخره، تحول دون الاكتفاء الذاتي، وتعتبر رغم كل ما تمنح من تعويضات أنها مغبونة، وأن طلبها الأساسي يعود باستمرار إلى طرح نفسه كلما سنحت المناسبة. أي حسب تعريف لاكان د2 الذي يحل محل د1 لا يوازيه ويبقى دونه، مما يضطره إلى الانتقال إلى بديل آخر أي د3 وهكذا...

فرويد يعترف بأنه لم يعط تفسيراً شاملاً وكاملاً لتكوين الأنوثة، وأن ما ورد ليس إلا لقطات، أو مقتطفات حول الأنوثة.

شهوة القضيب

كنا قد لاحظنا أن فرويد وضع شهوة القضيب عند الفتاة في وسط اهتماماته لكي يتوصل إلى القول: بأن التحول الذي يحصل عندها، سواء في اتجاه العصاب، أم في اتجاه الأنوثة المتكاملة، يمكن تفهمه ومصدره في هذا المحور الأساسي. وهذه النقطة، كما سنرى، كانت موضع نقاش بين معظم المحللين الذين اشتغلوا في هذا الموضوع. وكانت مصدر خلاف فيما بينهم، ولكن رغم كل ما ورد من اعتراضات بقي فرويد على موقفه، وداعماً لنظريته. وهذا ما سنأتي على بحثه في مقاله: «الحياة الجنسية عند الامرأة، 1923».

قبل أن نتناول هذه النقطة: سنحاول استقصاء مصدر فكرة أهمية القضيب، سواء كان ذلك في وجوده عند الفتى، أم نقصه عند الفتاة.

والفكرتان مترابطتان فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً: فالطفل الذكر لا ينتابه الخوف من فقدان القضيب إلا إذا ما تبين له أن الجنس الآخر، مميز بفقدان هذا العضو. والفتاة لا ينتابها فكرة التشويه، والشعور بالنقص، إلا بعد أن يتبين لها أن الذكر يتمتع بوجود هذا القضيب الذي أصبح، بحكم التكوين الاجتماعي، موضع فخر واعتزاز لدى الأم وكأنه محور العائلة.

وكما نعرف، فإن هذا العضو يأخذ أهميته ابتداء من المرحلة الفالوسية، فيسلط عليه الطفل اهتمامه، ويوظفه بالقسم الأكبر من طاقته الليبيدية. فهو المركز الشبقي

المثالي، يستحوذ على كل أحاسيسه، ويحيطه بأهمية فائقة. وهو المحور الذي تتكون حوله أكثر الهوامات قياساً إلى ما يجده من استمتاع يفوق كل الاستمتاعات السابقة، من فموية أو شرجية.

فلذا يصبح الرصيد النرجسي لهذا العضو يفوق كل الأعضاء. فالخوف عليه يوازي الخوف على حياته، وأية فكرة تهدد وجوده، تصبح مصدر خوف لا يطاق. وهو ما سماه فرويد «خوف الخصاء» (Angoisse de castration).

انطلاقاً من هذه النقطة، يبني الطفل حوله كما يستعرض فرويد في مقاله «ثلاث نظريات حول الجنس» 1908.

النظرية الأولى: إن هذا العضو معمم على كل أفراد البشر، ولا يمكن أن يتحمل الطفل معرفة أن هذا العضو ينقص عند البعض . وهكذا عندما يكتشف عن سبيل الصدفة عند الجنس الآخر نقصان هذا العضو، يتبادر إلى ذهنه مباشرة، أنه موجود، ولو كان بحجم صغير، ولا بد أن يكبر وينمو مع نمو الفتاة. فمصدر هذه الفكرة هو الإنكار في حد ذاته لما يؤكده نظره، لدحض الواقع الذي يمكن أن يتهدد رصيده النرجسي. ويتأكد لنا ذلك في كثير من الحالات التحليلية، وحتى مراقبة الأطفال مباشرة، عن طريق الهوامات التي تتكون حول فكرة الامرأة الفالوسية. ومما لا شك فيه أنه إذا لم يتهيأ له تخطي الشعور بالقرف، والاشمئزاز، من رؤية عضو المرأة وتقبل الحقيقة، نراه يجنح في بنيته نحو الشذوذ، وتصبح الامرأة موضع خوف، ونفور، وإحجام لرغبته، والرجل غرضاً جنسياً يثير مشاعره الشبقية على أساس نرجسي(*).

من هذا الباب لا يفرِّق فرويد بين الذكر والأنثى، فالهوام نفسه يجمعهما في معتقد واحد، حيث تتم المعادلة الموجودة أصلاً ما بين القضيب والبظر. فالفتاة ترفض أيضاً، أن تكون ناقصة ومشوَّهة، ولذا ينشأ عندها الهوام نفسه من أن هذا العضو الصغير، لا بد أن ينمو معها، فتتساوى مع الذكر. وهو إنكار يعبِّر في حد ذاته عن رفض لنقصها؛ وهذا ما يجعلنا نؤكد أن ما يعنيه فرويد من هذا الهوام المشترك هو الإقرار بأن المرحلة الفالوسية هي واحدة، ومشتركة ما بين الذكر والأنثى. وإن أعطت الفتاة أهمية لهذا العضو فإن ذلك يعود لسببين:

(*) هذا ما يحدث إذا ما جنح التكوين نجد الجنسية المثالية. يصبح اللواطي في هذه الحالة يشعر بالاشمئزاز من أعضاء الجنس الأنثوي. يصل إلى حد الكراهية والعنف والإلغاء. لأن خياره الجنسي يصبح على شاكلته، مما يضمن له صورة نرجسية متكاملة.

الأول، الاستمتاعات التي تحصل عليها من ملامسته ومداعبته، كون وجوده بشكل أكبر عند الذكر يولد في نفسها الغيرة، نظراً إلى استنتاجها من أن كمية الاستمتاع مرتبطة بالحجم، فإن كان أكبر يكون الاستمتاع كذلك.

والسبب الثاني، هي نظرة الآخر، أي التكوين الاجتماعي الذي ركّز على هذا العضو، وربط به الكثير من الامتيازات التي يتمتع بها الذكر. فوجوده هو اعتراف بالتفوق، وموضع افتخار واعتزاز، سيما أن اسم الأب وضمانة استمراره في النسب مرتبط أصلاً بمن يملك القضيب منذ الولادة.

ولذا كما يقول فرويد(ص 21): " يمكن الملاحظة بسهولة أن الفتاة تشارك أخاها، تماماً، ويتكون عندها أهمية كبيرة لهذا العضو من جسد الرجل، ولكن هذا الاهتمام سريعاً ما تتحكم به الشهوة».

والملاحظ أن العمل الثاني ما بين الفتاة والفتى، هو أن هذا الأخير يجهل وجود الفرج، كما هو الحال عند الفتاة عندما تركز اهتمامها على البظر، فالفرج لا يوظف شبقياً إلا بعد المضاجعة الجنسية.

ولكن هذا لا يمنع من وجود دوافع غريزية يتوقف عندها الطفل، سواء من وظيفة القضيب، أو من وجود لاواعي (لاشعوري) للفرج. وإحدى الظواهر التي نصادفها، هي انصراف الفتى إلى الثقب بالتكسير، وإدخال آلات أو إصبعه في الفتحات التي يصادفها.

النظرية الثانية: تتكوَّن من هذا الفهم الأخير الناتج عن جهله لوجود الفرج والرحم، من أين يأتي الطفل؟ فالإجابة تأتيه عن طريق الاستنتاج، فتتكون نظرية بأن الطفل يخرج من الفتحة الشرجية كما هو الحال بالنسبة للغائط. من هنا أتت المعادلة على صعيد الهوام: غائط= قضيب=طفل.

النظرية الثالثة: تدور حول السؤال الآتي: كيف يتم الجماع بين الأب والأم؟ الجواب يأتيه من مصادر عديدة، سواء استنتاجية أو ملاحظات واقعية، وتتكون عنده الفكرة أن الجماع هو عملية سادية يتحكم بها العنف. فعملية الحب هي عملية عنفية، ومما يؤكد له ذلك هي بعض الملاحظات، أو المشاهد، سيما إذا كانت الأم باردة في طبعها، تتذمر من العلاقات الجنسية، أو صدف أن شاهد بقع دم ناتجة عن العادة الشهرية مما يؤكد له صحة نظريته.

المهم من هذا الاستعراض الوصول إلى النتيجة الثالثة: الفرق ما بين المعرفة والحقيقة الداخلية. فالمعرفة لواقع الحال، سواء التشريحي المميز لكل جنس أو الفعلي حول العلاقات الجنسية؛ هذه المعرفة لا تغيِّر شيئاً من الحقيقة الداخلية التي حصل أن تكونت في الطفولة الأولى سواء عند الفتاة أو الفتى: فلكل منهما نظريته الجنسية المبنية على الهوامات، والتي يكمن مصدرها في الرغبة اللاواعية (اللاشعورية) المكبوتة.

هذه العلاقة الجنسية هي التي تتحكم في تكوين بنيته النفسية، وفي مسلكه الجنسي فيما بعد. فلكل ذات نظريتها الجنسية التي تتميز بها، وهذا هو الموضوع الذي يكشف عنه التحليل النفسي.

لنستعرض الآن كيف تتكون العقدة الجنسية عند الفتاة قبل أن نخوض في غمار المرحلة ما قبل الأوديبية. فهذه الصعوبة، يعترف فرويد، أنه قلما توصل التحليل إلى خوضها نظراً إلى الكبت العميق الذي دفنها في أغوار الذات. لذا يقول: إن كل ما توصل إليه ما هو إلا مقتطفات ندر أن تشمل كل التطور الأنثوي عند الفتاة.

ففي مقاله: زوال العقدة الأوديبية، يوضح فرويد البرهان باليد[1]: كيف تتحطم العقدة الأوديبية عند الفتى أمام صخرة الخصاء. فاكتشافه للخصاء الذي يحدده، يحدد له الخيار: إما الأم، أو الاحتفاظ بقضيبه. وأمام هذا الخيار، يتجه بدافع الحفاظ على نرجسيته وسلامة قضيبه، بالعدول عن الأم كغرض جنسي. وهكذا تنتهي مرحلة الازدهار الجنسي التي عرفها في السنين الأولى، كي ينصرف، عن طريق التحولات السامية، إلى تجريد دوافعه من أغراضها الجنسية المحرمة، ويوظفها في النشاط الاجتماعي. هذا ما يسميه لاكان بالخصاء الرمزي الذي يضع حداً للخصاء الخيالي. فالخصاء الرمزي هو تجريد ونبذ الصفة الجنسية المحرمة، والتحول بها، فيما بعد، في سن الرشد، نحو أغراض جنسية مغايرة. أي اختيار امرأة بعد العدول عن أمه.

وهكذا، كما يقول فرويد: تصبح الأنا الأعلى الوريث الشرعي لعقدة أوديب، أي ما كان خطراً خارجياً ينبهه، وينهاه عن المنكر، يصبح بحكم هذا التحول داخلياً يفعل

(1) S. Freud, La vie sexuelle, p.121, PUF.

فعله، دون أي تدخل خارجي. وهو وريث لسلطة الأب من ناحية، وللعرف الاجتماعي من ناحية ثانية؛ على اعتبار أن الأول ممثل للثاني في المرحلة البدائية.

فإذا ما قلنا، إن اكتشاف الفتى للفارق الجنسي، كما ذكرنا في البداية، هو الذي يصور له عقدة الخصاء، ويصبح ما شاهده، أو لمحه، خطراً يتهدده، وعلى أساسه يبني استنتاجه، وبالنهاية يجعله يخرج من عقدة أوديب، فما هو الحال بالنسبة للفتاة؟ لاسيما أنها تكتشف بأنها مخصية، وليس من خطر يتهددها، لأن ما يمكن أن يهدد الفتى هو تحصيل حاصل بالنسبة لها.

فهي تعرف وتدرك أنها محرومة من هذا القضيب، وأن هذا نصيبها: هكذا ولدت، وأن قسماً كبيراً من النساء وبالأخص والدتها، يشاركنها هذا الحرمان. فما هي النتائج المترتبة من خلال إدراكها لهذه الحقيقة الجسدية؟ هل تسلك طريق الفتى، أم أن مصيرها النفسي المترتب يختلف باختلاف تكوينها، أي النهج الذي تنتهجه أنوثتها؟

يجيب فرويد: إذا كانت عقدة الخصاء هي المخرج الوحيد الذي يمكّن الطفل الذكر من الخروج من العقدة الأوديبية، فبالنسبة للفتاة يمثل الخصاء المدخل الذي يدخلها في هذه العقدة. يتساءل فرويد ويجيب في آن واحد: رغم الإبهام والغموض اللذين يحيطان بتكوين الأنوثة فإن الجنس الأنثوي يعرف، كما هو الحال عند الفتى، عقدة أوديبية، وأنا أعلى، وفترة ركود.

كذلك الفتاة فهي بالتأكيد تمر بمرحلة قضيبية وعقدة خصاء، حتى ولو اختلفت عما يصادف الطفل الذكر.

في البداية: تتصرف الفتاة كالفتى، بأنها تملك القضيب، وبديله هو البظر، الذي تأمل عندما تكتشف الفرق بالحجم، بأنه سينمو ويكبر مع نموها. ولكن سريعاً ما تتبدد هذه الفكرة أمام واقع الحال، ويصبح ما هو مفخرة، موضع خجل وحياء، وخيبة أمل، وشعوراً بالحرمان. فهي تتصور بأنه كان لها قضيب وحرمت منه بفعل الخصاء.

"انطلاقاً من هذا الموضوع نجد مدخلاً للبحث في موضوع المازوشية الملازم لكل امرأة، على اعتبار أن هذا الحرمان مقترن بارتكاب ذنب يجب أن تعاقب عليه، فالمازوشية قد تكون بفعل هوامي عن طريق إيلام النفس لدرء الخطر الأساسي المهدد بالخصاء".

الفتاة تفترض، اقتراناً بهذا الاعتقاد، أن كل النساء يملكن قضيباً بحجم الرجل. ولا يتأكد لها وهم هذه الفكرة إلا بعد أن يحصل التشابه بينها وبين أمها. وهذا ما

سنعود إليه في بحثنا عندما يطرأ التحول الرئيسي الذي يحصل في تطورها: من أمها إلى أبيها.

ولكن الفتاة، خلافاً للفتى، أمام اكتشافها لهذا الواقع التشريحي، لا تستطيع أن تتقبل الفكرة. فأملها باستحصال القضيب يبقى الدافع الذي يحرِّك رغبتها في هذا الاتجاه. وهكذا في تحوُّلها من الأم إلى الأب في طلبها، فليس إلا نتيجة اكتشافها بأن هذه الأخيرة التي تشاركها هذا المصير، غير قادرة أن تعوض عليها، سيما إذا ما تبيّن لها في الوضع السوي أن الأم تتجه في طلباتها نحو الأب. وأن هذا الأب هو الذي يؤمن المتعة في علاقتهما الجنسية.

وهنالك سبب آخر، فاستخفاف الفتاة بواقعها الجسدي، وشعورها بالضآلة، يتعمم على كل النساء، وبالأخص أمها. أمام هذه الأسباب، تنصرف عن الأم، وتتحول إلى الأب بدافع التعويض والمنافسة. ولذا فعندما تدرك أنها لا تستطيع الاستمتاع بقضيب الأب، كما هو الحال عند الأم، تتجه نحو المعادلة المعروفة. فالوس= ولد.[*]

ويصبح طلبها ولداً من الأب، هو الدال الثاني الذي يعوض عن نقصها. وهكذا يقول فرويد[1] فالرغبتان المتجسدتان في الحصول على فالوس وعلى طفل، تبقيان راسختين في اللاواعي (اللاشعور) وتساعدان على تحضيرها حتى تصبح امرأة في دورها الجنسي المستقبلي.

أمام هذه المعطيات يعترف فرويد بأن العقل يعجز عن توضيح بعض المتناقضات. وأن ما توصل إليه غير كاف وغير مرض، لأنه يحمل الكثير من الغموض في طياته. وهذا ما سيحاول توضيحه في مقالين رئيسيين هما:

1 - Quelques conséquences psychologiques (La vie sexuelle, PUF).

2 - Sur la sexualité féminine.

ولنبدأ بالمقال الأول: حيث يلقي فرويد بكل ثقله الفكري على اكتشاف الفارق العضوي بين الفتى والفتاة. فعلى هذا الفارق تترتب نتائج نفسية هامة. فاكتشافه يؤدي من جهة الفتى إلى اكتشاف الخصاء كتهديد يلاحقه في كل تصوراته، وتصبح العقدة التي يتمحور حولها كل الجدل فيما يختص الامرأة بصورة خاصة، وكذلك مفهومه للأنوثة بصورة عامة. من هذا الباب نرى، إذا حاولنا البحث، أن الكثير من المواقف

(*) فالوس= د1 ولكن ناقص يفتح المجال لد2 بديل ولكن غير كافٍ.

(1) المرجع نفسه، ص 127.

التي اتخذها الرجل، سواء في اضطهاده للإمرأة (*)، أو في اختلاق شتى الوسائل لإخفاء معالم جسدها، كان من أجل الإبعاد عن ذاكرته صورة الخصاء التي كانت تهدده والتي كانت متجسدة بها. وإقصاء النساء في الأزمان الغابرة وحتى الحاضرة، عن مجتمعات الرجل مع تعليل ذلك بشتى الأفكار العقلانية، ليس ذلك إلا تبريراً تجاه الوسائل الدفاعية التي اتخذها الرجل لحماية نفسه من آثار صدمة الخصاء (**). وكانت الفكرة السائدة إذا اجتمع رجل وامرأة، كان الشيطان ثالثهما. فما هو هذا الشيطان؟ وما هي وظيفته وكيف يخاطب الإثنين معاً؟ وإذا سألنا هذا الشيطان لوجدنا أنه الممثل الشرعي لعقدة الخصاء، وما ينتج عنها من شهوة جنسية قد لا يستطيع الطرفان التحكم بها. فالرجل لا يستطيع أن يحتمي من التهديد بالخصاء إلا بتقبل نقص الامرأة والأم بصورة خاصة، على اعتبار أنها المسرح والمكان الذي تدور عليه هذه العقدة الأوديبية، ولذا فالاعتراف بنقص الأم يجب أن يتعدى هذه الرغبة بالتخلي عنها، مما يجرِّد دوافعه نحوها بمحتواها الجنسي، لكي تصبح علاقته معها محبة، ووداً، وحناناً.

فعلاقة الرجل بالامرأة يتحكم بها هذا الوجه المخفي: التهديد بالخصاء. والشيطان: هو الرغبة الجنسية، أي الاغراء كون هذه الدوافع تقفز إلى مسرح العلاقة لتخفي ورائها الخوف الكامن. فإذا كانت الامرأة ناقصة، فإنه يستطيع أن يعوِّضها عن ذلك بعلاقة جنسية، عن طريق امتلاكها لقضيبه، وهذا الالتحام الناتج عن المضاجعة، يمحوان الفارق المهدد ولو لبرهة.

ولذا فكل علاقة يتحكم بها الإغراء الجنسي، إذا ما لم يستطع الرجل أن يسقط هذا الحجاب ليكشف عن الصورة الإنسانية للامرأة، أي يرضى بتكوينها، والاقتناع بأنوثتها، دون أن يثير ذلك في نفسه الخوف أو القلق أو النقيض، أي الإغراء. والمعادلة التي نصادفها في الحياة العامة. أي أن الامرأة معادلة للجنس، ما هي إلا إحدى النتائج المترتبة عن هذا الموقف الأساسي.

قد يؤدي هذا الخوف الناتج عن اكتشاف الفارق الجنسي عند الفتاة في نظر

(*) اضطهاد الرجل للمرأة يعود إلى بداية اكتشافه لعقدة الخصاء والتهديد الذي لحقه بسبب نقصانها، وذلك منذ بداية تاريخ البشرية.

(**) يعتبر فرويد أن أهم صدمة يصادفها الإنسان في تاريخ حياته هي صدمة الخصاء. وتأتي بعدها صدمة اكتشاف موته عن طريق موت الآخر.

فرويد[1] إلى أحد احتمالين: إما القرف والاشمئزاز من هذه المخلوقات المشوَّهة، وإما الاحتقار والتعالي عليها.

وبهذا الفارق الجنسي بين الفتى والفتاة: نجد إذا كان المخرج بالنسبة للفتى هو الخروج كما ذكرنا سابقاً من العقدة الأوديبية، فإنه بالنسبة للفتاة هو المدخل الذي تدخل منه إلى هذه العقدة؛ والذي، كما نعرف، يؤدي إلى شهوة القضيب، التي انطلق منها فرويد كي يبني نظريته حول الأنوثة.

فالفتاة، كما يوضح فرويد[2]، منذ اللحظة التي يتأكد لها فيها هذا الفارق، تحكم وتقرر، وهذان الحكم والقرار يمران بثلاث مراحل فكرية.

أولاً: ترى عضو الفتى: بحجمه الكبير.

ثانياً: يتبين لها نقصها: فهي الآن تعرف أن هذا العضو ينقصها، ولا تستطيع تجاهل هذه المعرفة.

ثالثاً: سريعاً ما تشعر باشتهائها هذا العضو والحصول عليه.

فانطلاقاً من هذه المرحلة الأخيرة تبدأ الرحلة الطويلة في اشتهاء القضيب التي تكوّن العقدة الذكرية عند الفتاة، أي تعمل كل جهدها على محاكاة الرجال، تريد أن تصبح مثلهم وتضاهيهم في امتلاك وهمي. فهذا الأمل بالحصول على القضيب، يصبح مطلباً لاواعياً (لاشعورياً)، يلاحقها فترة طويلة من حياتها إذا لم تمكِّنها الأحداث من وضع حد له. أو في حالات أخرى، تستعمل وسيلة الإنكار، أي تتجاهل هذا النقص عندها، وتعمل كما لو كانت لم تأخذ علماً بذلك، مما يؤدي في النهاية إلى ولادة عصاب نتيجة المواقف المتصلبة .

وفي حال أن المرأة لم تستطع أن تضع حداً لملاحقة غرضها، فإنها لا تكف عن شهوتها في القضيب التي تتمثل في كثير من المواقف المسلكية. وهكذا يتضح لنا مفهوم الغيرة كصفة خاصة عند الامرأة. أو بشعور دائم بالدونية، وحاجة مستمرة إلى التعويض.

في منتهى المطاف، يوضح فرويد في مقال On bat un enfant ـ ولد يُضرب. وهو هوام وجده عند كثير من الفتيات: وأن مصدر هذا الهوام هو غيرة من أخ لتملُّكه القضيب، اعتبار إن هذا الطفل= (قضيب) المضروب ـ المداعب يعبر عن اعترافها

(1) (2) المرجع نفسه، صفحة 127.

بالعادة السرية المتاخمة للمرحلة القضيبية. وكثيراً ما نصادف هذا الهوام، سواء في غيرة الفتيات من الصبيان، أو من صراع في الحياة الزوجية كون الزوج يصبح منافساً، تنصب عليه النقمة نتيجة امتلاكه القضيب وحرمانها منه.

وهناك عامل ثالث ناتج عن هذه القناعة التي ترسخت عند الفتاة كونها محرومة من القضيب، فتتحول عن حبها لأمها، بعد أن كانت هدفاً لاندفاعاتها الحبية وتعلقها العاطفي. والسر يكمن، كما يقول فرويد: في أن هذه الأم تتحمل مسؤولية نقصها، لأنها دفعتها إلى الحياة غير مجهزة تجهيزاً كاملاً بأعضائها الجنسية. ومما يعزز هذا الاعتقاد هو إذا ما رزقت الأم بطفل ذكر، أولته اهتمامها، وأغدقت عليه محبتها، بعد أن تكون قد تحولت عن ابنتها.

والعامل الرابع الناتج عن شهوة القضيب، وهو الأهم بنظر فرويد، لما يترتب عليه من نتائج هامة في تكوين الأنوثة، هو موضوع العادة السرية. فالفتاة حساسة جداً بالنسبة لهذا الموضوع، سيما أن علاقتها بها علاقة عميقة الجذور تعود إلى المرحلة الفالوسية، أي المرحلة التي كان يسود فيها الاعتقاد بأنها تملك القضيب على السواء مع بقية أفراد البشر. كما لو أن بظرها هو بمثابة قضيب قائم بحد ذاته. وغالباً ما ترتد الفتاة مشمئزة من هذه الممارسة بعد أن يتبين لها الفارق الجنسي بينها وبين الجنس الذكري. فشعورها بنقصها يرتد عليها بالاشمئزاز والاحتقار لهذا العضو الصغير (البظر)، فيسقط من اهتمامها، كما يسقط القسم الكبير من التوظيف الذكري لهذا العضو؛ وإذا لم يسقط هوام العادة السرية، نراه في التحليل يستمر، مولداً الخوف، ويصبح هاجساً يلاحقها باستمرار.

والكبت الذي يشمله، يشمل أيضاً القسم الكبير من النشاط الجنسي الذكري الذي كان يمثل المرحلة الأولى للنشاط الجنسي عند الفتاة.

ودافع الفتاة على العادة السرية، يستمد قوته من الشعور بالتذلل نتيجة هذه المنافسة التي وقعت فيها، وكانت من نتيجتها أنها أصبحت تنافس الذكر بعضو، تبين لها فيما بعد صغره وقصوره.

فلذا كان لا بد لها حتى لا تضل من أن تخرج من هذا الكمين وتكف عن منافسة الذكر، أن تخرج من هذا الكمين.

ويستنتج فرويد، أنه كان بإمكان الفتاة ألا تصل إلى هذه القناعة المضللة لو

فهمت الفارق الجنسي التشريحي الذي، إن ما تحقق اكتشافه يمكنها التخلص من دوافعها الذكرية، والتوجه نحو الأنوثة الصحيحة.

ولكن، كما ورد في السابق، فإن التخلي عن البظر كبديل للقضيب، لا يعني أنها تخلت عن شهوتها لهذا القضيب بمفهومه الفالوس؛ فهذه النزعة تلاحقها فترة طويلة من الزمن وتستمر حتى في حياتها الراشدة. لذا نراها تتحول إلى الأب، تدافع عن مكانتها، وتطلب مقابل الفالوس بديلاً عنه يدخل في حكم المعادلة المعروفة: فالوس = ولد. فهي تأمل من والدها أن يمنحها طفلاً على غرار ما حصل لوالدتها. وفي حال تحولها عن هذه الرغبة، تتماهى في الأب، وتستمر في هذا الاتجاه فترة من الزمن إلى أن تتمكن بحكم الأحداث الخارجية أن تستعيض عنه بتعويضات جانبية.

على كل، فالمهم في الموضوع، أن هذه المرحلة القضيبية التي سبقت العقدة الأوديبية لا تتحطم إلا بفعل اكتشافها للفارق العضوي بينها وبين الذكر. فإقرارها لهذا الخصاء كواقع حال، هو الذي يمكّنها من الدخول في المرحلة الأوديبية؛ خلافاً للذكر الذي بحكم التهديد بهذا الخصاء يتمكن من الخروج من الأوديب.

فللعقدة الخصائية عند الامرأة أثر هام: أولاً في الحد من دوافعها الذكرية، وثانياً في تحويلها وتشجيعها إلى اكتشاف أنوثتها. ويخلص فرويد إلى القول: بأن الفارق الذي يكمن في هذا القسم من التكوّن الجنسي عند الرجل والامرأة هو نتيجة طبيعية للتميز بين الأعضاء الجنسية، ومن الموقف النفسي الملتزم به، ويختصر الموضوع بإظهار الفرق ما بين التهديد بالخصاء وما بين الخصاء الحاصل.

وهكذا يؤكد فرويد على مرحلة القضيب التي تمر بها الفتاة، والتي، هي بحكم أولويتها، تستأثر بكل التوظيفات الليبيدية. وباكتشاف الخصاء الحاصل فعلاً، يصبح الأوديب بعقدته تركيبة ثانوية، كان مدخلها الخصاء.

ويبدو أنه إذا كان زوال العقدة الأوديبية عند الذكر هو نهائي وشبه تام في المرحلة الثانية من الطفولة، باعتبار أن الأنا الأعلى قد يصبح وريثه الشرعي، فإن الحال يكون مختلفاً عند الفتاة لأن تحطم العقدة الأوديبية لا تزال عملية نجهل مصيرها. فهي لا تتحطم ولكن يشملها الكبت، والتخلي عنها تدريجياً، ولكن نتائج تأثيرها في حياة الامرأة تستمر بشكل كامن؛ مما حدا بفرويد إلى الاعتقاد بأن غياب الصرامة الأخلاقية، وارتباط مسلكها الخلقي والأخلاقي بجذور عاطفية يعود إلى عدم تحطيم العقدة الأوديبية. وهذا ما يفسر الليونة في أحكامها العرفية، ومن ميوعة

شعورها بالعدالة، والنقص في قرارات حاسمة، واستخفافها بما يفرضه واقع الحياة، بالإضافة إلى كونها قابلة للتأثر بالغير في أكثر القرارات التي تتخذها.

وإجمالاً: فإنه لا يوجد مثال أنثوي، أو مثال ذكري صرف فكل مثال يتواجد به مزيج من الأنوثة والفحولة(*) ـ ولذا لا يمكن أن يؤخذ إلا من الناحية النظرية.

(*) نظراً لأولوية الفحولة في المجتمع البطريركي، لا تجد المرأة أي حرج في إظهار رجولتها بل تتباهى بأنها أخت الرجال. أما الرجل فإنه يجد العيب الكبير بإظهار جزئه الأنثوي، فلذلك نراه يخفي ذلك بكثير من الحذر ويشدد عليه الكبت، ويواجهه بالمزيد من مظاهر الفحولة حتى نخاله يتمخطر.

نظريات المحللين المتجانسة
مع نظرية فرويد

سنستعرض الآن، في مرحلة أولى، النظريات التي أتت من قبل محللين، جلُّهم من النساء، وكانت متقاربة، أو داعمة للنظرية الفرويدية. وبعدها نستعرض النظريات المخالفة، والتي سببت انقساماً في الموقف التحليلي، لأن الرأي المخالف في هذا المجال لا يمكن أن ينفصل عن موقف المحلل من تحليله الخاص، ومن المقاومة التي يمكن أن يبديها إزاء اكتشافات لا يستطيع أن يتقبلها. وهذا لا بد أن ينعكس على طريقة عمله العيادي، وعلى خط تنظيره لهذا العمل. أستعرض في المناسبة موجزاً لأكثر الآراء شيوعاً في الميدان التحليلي ومن اشتهروا في المرحلة ما بعد الفرويدية.

(1) جانين لمبل دي كروت (J. Lampal - de - groot)

تقول: إن الفتى والفتاة في المرحلة الأولى يتساويان في المسلك الذكوري، وحتى في النمو النفسي فإنهما ينموان بشكل مشابه. التعلق بالأم واحد. فالفتاة كالفتى تتمسك بالأم، وتريد الاحتفظ بها لوحدها عنوة عن الأب، الذي يصبح في مفهومها «منافساً أول» في الموضوع.

وعندما تكتشف الفارق بينها وبين الصبي، تصاب بالشعور بالدونية. وتتوهم بأنها كانت تملك قضيباً ولكنها حرمت منه بسبب دوافعها المحرمة تجاه الأم.

عقدة الخصاء تؤثر على الفتاة بنفس النسبة التي تؤثر بها على الفتى. تولِّد عندها جرحاً نرجسياً نتيجة للدونية التي تشعر بها، وتحول أيضاً دون تحقيق رغبتها تجاه الأم.

في كلا الحالتين تؤدي عقدة الخصاء إلى انحلال الأوديب عند الطرفين (بالنسبة للفتاة، أوديب سلبي). أما الخصاء فهو تهديد للفتى، أما بالنسبة لها فهو أمر واقع محتوم.

يحصل تطور بالنسبة للعلاقة الليبيدية مع الأم، فبدلاً من أن تتماهى بها، تتجه نحو الأب (المنافس السابق) التعويضي، حتى يمنحها طفلاً بديلاً للقضيب المحرومة منه وتتبلسم جروح نرجسيتها عندما تدرك أن أملها سيتحقق يوماً ما: علماً بأن الرجال لا يحبلون، والمرأة هي الوحيدة القادرة على أن تضع طفلاً.

في نفس الوقت يتبدد تشبثها بالبظر، فتقلع عن العادة السرية، وعن المنافسة الذكرية.

في حال الأوديب السلبي، تبقى الفتاة متمسكة بالأم، وانحلال الأوديب لا يكون نهائياً، وتنكر أيضاً واقع الخصاء. وقد تعود إلى وضع نقوصي سابق ـ (منافسة الذكر وتحدي الأب بعد أن تكون قد أصيبت بخيبة أمل منه) وفي أقصى الحالات قد يؤدي هذا الوضع إلى المثلية الجنسية.

وغالباً ما يكون الإنكار جزئياً، فتتجه إلى نشاطات خارجية، مهنية أو اجتماعية، تنافس بها الرجل، وتتحول في نفس الوقت عن جنسيتها. في أحسن الحالات تقيم علاقات مع رجال، ولكن من خلال برودة جنسية، لأن غرضها الكامن يبقى الأم.

ج. لمبل دي كروت، توافق على نظرية فرويد حول موضوع الخصاء، ولكنها تعتقد بأن تكوينه ثانوي لأنه يسبقه أوديب سلبي مطابق تماماً لما يحصل عند الذكر. لأن مصدره التهيج البظري وموضوعه كان الأم.

يبدو لنا من نظريتها التي ظهرت قبل مقالة فرويد عن الجنسية الأنثوية: بأنها تحمل أولى بذور لمفهوم المرحلة الجنسية الماقبل الأوديبية التي طورها فرويد فيما بعد.

مساهمة في حل مسألة الأنوثة، 1933

التباين بين الرجل والامرأة يكمن في التناقض بين الفاعلية والسلبية. الفاعل هو المرء الذي يسعى وراء الفعل الجنسي ويكتسبه، والسلبي هو الذي يستسلم إلى آخر. فهذه الفاعلية والسلبية ليست مقتصرة فقط على الحقل الجنسي، بل كما يقول فرويد معممة على الحقل النفسي في كل مجالاته، فانطباع سلبي يتلقاه الطفل يوقظ عنده ميلاً لكي يتحرك فاعلياً. في الحب نجد نفس التضاد، فالرجل يحب والامرأة تترك نفسها لكي تحب.

الرجل السوي يتخطى جروحه النرجسية، والسيطرة على عقدة الخصاء، لكي يحقق علاقة موضوعية واقعية.

عدوانيته توظف في غزو المرأة، وفي التسامي؛ ميوله السلبية تكون مرتهنة لميوله الفاعلة.

أما الامرأة السوية فهي سلبية في حياتها الجنسية، أما ميولها العدوانية فترتد عليها داخلياً بشكل مازوشي. فأحداث حياتها من فض عذريتها، إلى الولادة يوقظ الألم بحسب قول هيلين دوتش.

المرأة السلبية تظهر القليل من عدوانيتها نحو الخارج في مجالات الحياة.

تتساءل «إذا كان هناك ليبيدو واحد للمرأة وللرجل فلماذا يتباين موقفهما ضمن سلبية وفاعلية».

في المرحلة الأولى من الحياة تكون الفتاة متساوية مع الفتى في فعاليتها تجاه الأم وعندما تتحول عن الأم ما هو مصير النشاط الفعال الذي كانت تتمتع به حتى الآن؟ فهي أحبت أمها بشكل فعال ودخلت المرحلة الأوديبية (5 ـ 6 سنوات)؛ عندئذ تتحول نحو الأب بعدما كانت علاقتها معه على غرار علاقتها مع باقي أفراد البيت (تارة ودية وتارة عكسية حسب مزاجها الآني).

والسؤال، ما الذي حدا بها لكي تتحول من الأم إلى الأب؟ وتجيب تأكيداً على ما قاله فرويد بأن خيبة الأمل، وجروحها النرجسية نتيجة استنتاجاتها بحرمانها من القضيب على غرار الأم، تجعلها تسحب رصيدها النرجسي منها، وتحوِّله نحو الأب لكي تحبه بشكل سلبي .

فالتباين النفسي بين الفتى والفتاة لا يتحقق إلا عندما يكتشفان الفارق الجنسي التشريحي.

فالفتاة تصاب بخيبة أمل نتيجة عدم وجود القضيب عندها. الشيء الذي كان يبرر امتلاك أمها. ولذلك تسقط عندها الميول الفاعلة، وترتد عدوانيتها من الخارج لكي يوظف جزء منها في الداخل، ضمن هوامات مازوشية.

تتساءل ج. لمبل: ماذا أعطى التحليل النفسي من جديد لكي يشرح الحياة البيولوجية الآتية؟

الحياة الجنسية الذكرية تتحقق بواسطة ميول فاعلة، والحياة الجنسية الأنثوية بواسطة ميول سلبية.

المرء يستطيع أن يترك نفسه تتلقى الانطباعات والتهيجات الآتية من الخارج: في مثل هذه الحالة يكون سلبياً. وعندما يحاول أن يرتد إلى العالم الخارجي كي يقتحمه،

ويسيطر ويحقق أغراضه به، يكون في وضع فعال. وهكذا بالنسبة للطفل، فالانطباعات الجنسية الأولى يتلقاها بشكل سلبي، ويحاول فيما بعد أن يكررها على المواضيع الخارجية بشكل فعال، وعندها يصبح فعالاً إذا كان أحد المواضيع هوامه.

لكي تدعم نظريتها، تستعين ج. لمبل بالعلوم البيولوجية، كون السلبية والفاعلية تختزلان في عملية المضاجعة: عندما توضع البذرة في رحم المرأة تتلقاها البويضة بشكل سلبي. عادة في حقل الأنوثة عندما توجد المرأة مع الرجل تتصرف بشكل سلبي ولا يكون لها مكان للفاعلية.

الامرأة، حيث أنوثتها طاغية لا تحب، لكن تترك نفسها تحب. فالنساء اللواتي يحببن الرجل بشكل فعال، يتمتعن بصفات فحولية، والحب الذي توجهنه نحو الطفل هو من النوع الفعلي الذي يدخل في صفات الرجولة ـ وهكذا تكون الامرأة بموقع رجولي عندما تهتم بتربية الأطفال بحكم غريزتها.

والأمهات الطيبات، هن الأمهات المتبلدات جنسياً. لأن الليبيدو غير المستعملة هي التي توظف في أغراض يكون هدفها الفاعلية.

أما بالنسبة للأنا الأعلى: فهو بحاجة إلى توظيف الميول الفعالة والعدوانية. «ولكن الامرأة السلبية ذات الأنوثة النموذجية لا يوجد عندها أنا أعلى».

خلاصة: التباين بين الرجل والأنثى، يأتي من باب السلبية والفعالية.

(2) هيلين دوتش (Hélène Deutch)

سيكولوجية الامرأة وعلاقتها بالوظيفة الإنتاجية

هيلين دوتش: عرضت آرائها في كتاب من جزأين، تحت عنوان سيكولوجية النساء.

تبدأ هيلين دوتش: بتحديد مسيرة تطور الفتى بالنسبة إلى الفتاة: فالفتى، منذ المرحلة الفالوسية، يتابع مسيرته في هذا الاتجاه إلى أن تتكون عنده العقدة الأوديبية، ثم انحلالها وتفككها، لكي ينصرف فيما بعد إلى العلاقات السوية مع امرأة من اختياره. في هذه المسيرة لا يحيد المرء الذكر عن خط المرحلة الفالوسية التي بدأ منها.

أما الفتاة، فإن انطلقت من نفس المرحلة، فعليها أن تغيِّر في فترة ما لكي تتحول عن المرحلة الفالوسية ليحل محلها اكتشاف الفرج (أي اكتشاف أعضاء جنسية جديدة).

الرجل بالنسبة لدوتش: «يدرك المرحلة النهائية من نموه عندما يكتشف وجود الفرج خارج جسده، وتأخذه عندئذ رغبة إيلاجه بشكل سادي».

أما المرأة، فيتوجب عليها اكتشاف فرجها في جسدها. «اكتشاف يرافقه انصياع مازوشي للقضيب، لكي يصبح هذا الأخير الدليل نحو هذا الينبوع الجديد للذة».

فلليبيدو الجنسية للمرأة نحو الرجل جذور بدائية تعود إلى المرحلة الفموية. في الطفولة تكون المعادلة في اللاوعي (اللاشعور)، ما بين القضيب والثدي. وهذه المعادلة تتماشى بشكل متواز مع النظرية الفموية حول العلاقات الجنسية (Fellatio) الخاصة بهذه المرحلة، وحول الهوامات الفموية للحبل. والقضيب في مرحلة لاحقة السادية ـ الشرجية، يفقد خاصته الفموية ليصبح عضو السيطرة. والعلاقات الجنسية تفهم كأنها سادية. والطفلة تتماهى: إما بشكل فعال بالأب، أو بشكل مازوشي بالأم.

هوام الحمل في تلك المرحلة هو «الطفل الشرجي». الشرج يلعب دوراً سلبياً على غرار الفم في المرحلة الفموية.

الثدي، والقضيب، والغائط لهم أيضاً دور فعال. وهكذا تتمهد الطريق نحو الاستثمار السلبي للفرج، (أي الفتحة الثالثة عند المرأة). ولكن الازدواجية الجنسية تعاكس هذا التحول إذا احتفظ بقسط كبير من الليبيدو، مما يجعل التحول من القضيب إلى الفرج أمراً صعباً إنما في الواقع لا يأخذ الفرج دوره الشبقي إلا بعد ممارسة علاقة جنسية.

الطفلة توزع استثمارها الليبيدي على أنحاء الجسد، وانطلاقاً من هذا الجسد ككل، ومن البظر بصورة خاصة، يتم التحول نحو استثمار الفرج. يشكل القضيب المحرِّك لهذا التحول، على غرار ثدي الأم المالىء لفم الطفلة، ويتحول توظيف الليبيدو إلى الفرج، وهكذا يصبح الفرج البديل للفم في وظيفته السلبية للمص.

أما بالنسبة للبظر، فإنه يفقد نشاطه القضيبي، والامرأة (من خلال فرجها) تستعيد هذا النشاط عبر التماهي في قضيب قرينها.

وهذا التماهي على الصعيد الوظيفي للفرج بالقضيب، كونه جزءاً من الجسد، يمكِّن المرء من تخطي صدمة الخصاء.

هذا الوضع الاستقبالي الذي يتميز به الفرج، على غرار الوضع السلبي بالنسبة لاستقبال الثدي في الفم، وما يحصل من ردات فعل مزدوجة، نتيجة الفطام: يمكِّن الفتاة من تخطي صدمة الفراق والفطام.

كل الأفعال المتاخمة للوظائف الأنثوية تمكّن المرأة حسب هيلين دوتش، من تخطي العديد من الصدمات.

الازدواجية الجنسية، (Bisexualité) أو«البظر ومشتقاته الذكرية»، تشكل عقبة في الوصول إلى الأنوثة السوية.

خلاصة: النموذج الأصلي لجنس المرأة، هو المرحلة الفموية. الفرج يبقى مجهولاً إلى أن تكتشفه عن طريق الجماع ـ قضيب. دليل النشاط الجنسي والوظائف التوليدية، تبقى غير منفصلة عن بعضها، وتمكّنها من تخطي العديد من الصدمات . البظر ليس له سوى دور إكفافي.

معنى المازوشية في الحياة النفسية للمرأة، (1930)

«هدف هذا المقال هو البحث في كيفية تكوين الأنوثة. وأعني في ذلك تركيبة «سلبية ـ مازوشية» تتعمم على مفهوم الأنوثة في الحياة النفسية للامرأة». حسب قولها.

لا تختلف هيلين دوتش في رأيها عن فرويد في مرحلة الخصاء، عندما تكتشف الفتاة الفارق الجنسي وتتكوَّن عندها «شهوة القضيب». فهي تبادل هذا التمني برغبة الحصول على طفل من الأب. وهكذا تدخل في عقدة أوديب. أما بالنسبة للنزوات الشبقية الفعالة المتمحورة حول البظر، تحاول هيلين دوتش إعطاءها مفهوماً خاصاً. فالنزوات الذكورية ـ النرجسية في امتلاك القضيب تتحول إلى طلب موجَّه إلى الأب بإخصائها، وذلك عن طريق الإغتصاب. وهكذا تتحرك «السادية ـ الفعالة» إلى «مازوشية ـ سلبية».

تتمحور حياة المرأة حول مثلث مازوشي:

خصاء ـ اغتصاب ـ ولادة. وهذه المعادلات ملازمة لمرحلة من مراحل نموها. مرحلة عقدة الخصاء.

البرودة الجنسية تحصل من الميول المازوشية. والتماهي بالأب يمكن أن يؤدي إلى موقف انطوائي أمام مخاطر التماهي بالأم بشكل مازوشي. وحتى اختيار الموضوع الجنسي يخضع لهذه الحاجة المازوشية، من حيث إنّ الإشباع الجنسي لا يتم إلا إذا رافقه، أو التزم بمازوشية لا يمكن تجاهلها.

كثير من النساء لا يعرفن الرعشة، ومع هذا نجد أنهن يقمن علاقات اجتماعية جيدة، ويقمن بواجباتهن المنزلية، وتربية أطفال على أحسن ما يرام. وفي حال الجماع يبدون سعيدات بالعطاء من حيث كونهن منبعاً للذة الرجل؛ ويعتبرن أن العلاقات

الجنسية لا أهمية لها إلا بالنسبة للرجل. هذا النوع من النساء أصبح في حالة الإنقراض، وبدأ يحل محله نوع آخر عصابي من حيث إنّ البرودة أصبحت مرتبطة بعقدة ذكورية.

وتقول دوتش: «لم يكن باستطاعة المرأة أن تتحمل عبر التاريخ عبء تهميشها في المؤسسات الإجتماعية، نظراً لضعف إمكانية تساميها من جهة ومن الإشباعات الجنسية من جهة أخرى، لو لم تجد في عنصر الحمل والولادة التعويض الرائع لمثل هذا القهر».

فالمازوشية الأنثوية هي نتيجة التحول من الخارج إلى الداخل للنزوات البظرية الفاعلة التي تفتح الباب نحو الأنوثة، لكن بسبب الخوف الذي يطال الأنا في يقظته، تصبح مصدراً للبرودة الجنسية.

حول موضوع البرودة الجنسية، (1960)

موضوع البرودة هام، انطرح في مجالات عدة، طبية واجتماعية وأنتروبولوجية وتضاربت الاراء حوله، سواء في تحليله أو في علاجه.

وتقول دوتش: «بأنها فوجئت باتساع موضوع البرودة الجنسية عند الامرأة، وبخيبة أمل في نتائج علاجه. ووجدت أن الكثير من العصاب الشديد يتحسن دون أن يظهر أي تقدم، في المقابل، على صعيد هذا الموضوع، وتبين لها أن هناك نساء ذهانيات، ونساء عصابيات ومترجلات ومع ذلك يتوصلن إلى الرعشة الجنسية، بالمقابل هناك نساء مكتفيات، أمهات ناجحات، وسعيدات في حياتهن، لا يتوصلن إلى ذلك دون أي تذمر».

تتساءل دوتش عما إذا كان الفرج: هو عضو اللذة الجنسية أم أن مهمته الرئيسية هي الإنجاب، على اعتبار أن البظر هو الذي يستأثر بالأحاسيس الجنسية منذ الطفولة الأولى، والتحول من البظر إلى الفرج لا يتم إلا بملامسة العضو الجنسي الذكري له.

والسؤال يطرح بطريقة معاكسة: فبدلاً من أن نتساءل ما سبب برودة الامرأة، يجب أن نسأل كيف يتيسر لتلك الامرأة أو لغيرها الرعشة الجنسية؟ أي تطرح دوتش عامل البرودة عند المرأة: كما لو كان عاملاً طبيعياً وسوياً بحكم تطور الجنس البشري.

وتعتبر أن للفرج مهمة سلبية استقبالية، مرتهنة بالقضيب، يرافقه في تقلصاته واسترخائه، في حركاته الذهاب والإياب. وعند غالبية النساء اللواتي لا يعانين من

اضطرابات معينة، فالعمل الجنسي يقتصر على استرخاء في الفرج ضمن نهاية سعيدة.

وتقول إن الرعشة الجنسية التي ترافق العمل الجنسي إذا ما حصلت، يعقبها أحلام مخيفة. أما الاكتفاءات التي تحصل من جراء استسلام الفرج إلى عملية استقبال سلبية تولد ارتياحاً، ونوماً هادئاً، نتيجة التفريغ الجنسي الملائم. «وتقول إذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية الأخيرة، كون اللذة الجنسية مقتصرة على وظيفة الفرج الاستقبالية ـ السلبية مع ما يرافق ذلك من استرخاء. فإننا سنجد عندئذ أن قليلاً من النساء مصابات بالبرودة الجنسية. فمصدر الاضطرابات الجنسية يكمن في الطلبات الملحة، وفي تحقيق الرغبة الجنسية عبر الإشكال الخاصة. وطموح من هذا النوع يعطل الوظيفة السوية للفرج».

وتتوصل إلى النتيجة التالية: إن الرعشة الجنسية هي صفة ذكورية، وأن قمة الشهوة ليست من صفات الأنوثة. وإذا ما انوجدت، فهي تتمحور حول البظر وليس على الفرج الذي ينحصر دوره في وظيفة الإنجاب.

المرحلة الماقبل أوديبية

ركزت برنزفيك بصورة خاصة على المرحلة الماقبل أوديبية.

عقدة الأوديب لا تقتصر فقط على التعلق بالأم أو بالأب، بل متمثلة بصورة خاصة بالحالة الثلاثية، فالمرحلة ماقبل الأوديبية، تكمن في علاقة ثنائية: التعلق بالأم من كلا الطرفين، طفل أو طفلة، قبل أن يدخل الأب في العلاقة بشكل مزاحم.

عند الطفل: المرحلة ما قبل الأوديب قصيرة المدى، فسريعاً ما يدخل في الأوديب، وتأتي بعدها عقدة الخصاء التي تحطم الأوديب.

عند الفتاة: المرحلة الماقبل أوديبية،تتحول إلى التعلق بالأم، واتخاذ الأب كمزاحم، كما هو الحال عند الفتى. ولكن اكتشافها للخصاء يدخلها في الأوديب الإيجابي. وتصبح سلبية تجاه الأب، ومنافسة للأم.

وعلى غرار فرويد: تعتبر أن الفتاة ذكر في البداية سواء في ميولها، أو في أغراضها. فهي سلبية وفعالة في آن واحد. وعندما تصل إلى المرحلة القضيبية (الإيجابية)، فالمرأة السوية لها ميل في البقاء.

فمقاومة الأوديب الأنثوي لانحلاله يدخل في حساب تكوين الأنا الأعلى الأنثوي أو الذكري.

الفتاة لها عضوان جنسيان وموضوعان (البظر والفرج- والأم والأب) ـ أما الفتى فما عليه إلا أن يغير موقفه تجاه موضوع الأم من سلبي إلى فعال. أي له عضو واحد- ولا يغير موضوعه: الأم.

حتى الثلاث سنوات، الطفل لا يميز بين الجنسين، فاهتمامه مركَّز بصورة خاصة على أعضائه الماقبل جنسية (شرجية ـ فموية ـ سمعية ـ نظرية وغيرها).

الطفولة تقع تحت تأثير عاملين متضادين: فعال وسلبي ـ قضيبي ومخصي. والمراهقة تقع تحت تأثير عاملين مرادفين: الرجولة والأنوثة.

السلبي والفعال: في بداية الطفولة: الطفل يكون سلبياً، وكل تطور يحصل في اتجاه الفعالية يكون نتيجة التماهي بالأم. وهكذا يلعب الطفل دور الأم ليس بالنسبة للآخرين فقط بل كذلك بالنسبة لها.

دور الأم في هذه المرحلة دور فعال وليس أنثوياً: على اعتبار أن الأعضاء الجنسية لم تدخل في حسابه بعد، فجميع المخلوقات تتمتع بنفس التكوينة.

البشر مقسمين إلى قسمين: قضيبي ومخصي: يكتشف الطفل الخصاء عند الفتاة، في البداية كان يتهيأ له أن الأم تتمتع بقضيب. واكتشافه في النهاية لخصاء الأم، يدخل في حسابه إمكانية حصول نفس الشيء له، فيرتد ويحطم الأوديب.

الطفل السوي يتخلى عن تعلقه بأمه، وهكذا يفلت من الخصاء. أما العصابي، لا يستطيع التخلي عن تعلقه بالأم، ويبقى خطر الخصاء يتهدده بأشكال مختلفة، فإما أن يختلق الحلول الوسط (العوارض) المرضية ـ وإما أن يقلب المعادلة لكي يسلم من الخصاء فيأخذ الأب موضع حبه، ويدخل في الأوديب السلبي.

في البداية تقول: إن الطفل سلبي تجاه الأم، ولكن في تطوره الطبيعي تنقلب هذه السلبية تدريجياً إلى فعالية تجاه الأم. هذه الفعالية مميزة أكثر وأكثر لنمو الطفل على الطفلة. التماهي هو فعالية الأم هو أول التماهيات، فسريعاً ما يكسبه ذلك نوعاً من الاستقلالية تمكِّنه في النهاية من التخلص من الأم.

وفي مقالها، تعيد ماك برنزفيك طرح فرويد لموضوع انهيار الأوديب وحله. وتكون الأنا الأعلى عند الطفل.

وكذلك بالنسبة لاكتشاف الفتاة لخصاء الأم ـ وتكوُّن أنوثتها: يتبين أن نظريتها مطابقة لنظرية فرويد، حيث إن الفتاة تصاب بخيبة أمل كبيرة، وتتحول من الأم إلى الأب لكي تعوض عن حرمانها من القضيب.

أما بالنسبة للأنوثة والرجولة: فهذه لا تتميز بشكلها السوي إلا في سن المراهقة، عندما تستيقظ الدوافع الليبيدية، وتأخذ شكل تصور إيلاج في الفرج .

هذه المرحلة تتميز بالتوهم الذي يسيطر على الطفل بأن المخلوقات مكونة مثله، وبصورة خاصة الأم؛ فهي تتمتع بقضيب مثله: الأم القضيبية: وهذه التسمية تعني الأم المتسلطة القوية، القادرة على كل شيء، والتي تملك كل الصفات القيمة.

والعادة السرية يكتشفها الطفل عن طريق عناية الأم بجسده. في هذه الفترة يتمنى من أمه أن تلامس أعضائه الجنسية. وفي فترة لاحقة تظهر عنده حشرية اللمس ومعرفة أعضاء أمه. والمشهد الأولي أن ما تصوره أو شاهده، يشكل الهوام الأساسي في العادة السرية.

وهذا الاهتمام بالعلاقات الجنسية بين الأهل، متاخم لعقدة الأوديب. ويجب أن لا ننسى أن فقدان المعرفة، بالتباين الجنسي في هذه المرحلة، يخلق هواماً حول المشهد الأولي بأن العلاقات الجنسية قائمة على شكل علاقة فموية أو شرجية أو قضيبية.

في هذه المرحلة يجهل الطفل وجود الفرج، وبالمناسبة الإيلاج. فلذلك تنحصر دوافعه الجنسية في هوام الملامسة المتبادلة.

تمنِّي الحصول على ولد، هو هوام مشترك عند الطرفين. وقبل مرحلة «اشتهاء القضيب» وذلك بالتماهي بالأم القوية.

وأما «شهوة القضيب» فلها جذور نرجسية وموضوعية، فالطفلة تتمنى أن تملك القضيب لكي تملك الأم. ولكن تتخلى عن هذا التعلق بعدما تكتشف بأن بظرها لا يحل محل القضيب وبدون قضيب لا يمكن أن تنجب.

تعتبر برنزفيك أن النشاط الجنسي عند المرأة يتعرض للكبت والقمع أكثر من الرجل، وهذا ما يدفعها إلى كبت جنسيتها ـ وعدم التباهي بها ـ . والعقدة الرئيسية التي تمثل نقطة تحول في نموها الجنسي، هو اكتشاف الخصاء عند الأم، الشيء الذي يولِّد عندها كراهية مضاعفة نحوها إضافة إلى أنها خلقتها من دون قضيب مما يدفعها إلى التوجه نحو الأب.

هناك العديد من النساء لم يتم نموهن الأوديبي بعد، ويبقين متعلقات بالأم بشكل مرضي، ويصعب عليهن الاختلاط، أو معاشرة الرجال.

وتتكلم عن الأوديب السلبي عند الطفل فتقول: بأن الطفل قد يتعلق بالأب بشكل سلبي على غرار تعلق الفتاة بأبيها، لكي تتلقى منه القضيب كتعويض. وقد يكمن سبب هذه النواة السلبية في عوامل تكوينية. ولكن بصورة خاصة يلعب العامل النفسي الدور الأساسي. وهو عدم قدرة الطفل على تقبل خصاء الأم. أو أنه يتماهى بالأم المخصية، وينتظر بشكل سلبي ومثلي استقبال القضيب من الأب.

أخيراً الشيء المميز عند فرويد: هو أن الرغبة في الحصول على ولد تسبق شهوة القضيب، وهذه على علاقة بوضعية الأم المتسلطة: أما اشتهاء القضيب فله جذور موضوعية مرتبطة بتعلق الفتاة بالأم.

نظريات المحللين المغايرة لنظرية فرويد حول جنسية الامرأة

لعب العامل الجغرافي دوراً في تكوين النظريات. فأصبح هناك مدرسة ڤيينا التي يترأسها فرويد، ومدرسة لندن الانكليزية التي يترأسها جونس وميلاني كلاين. وباعتقاد جونس أن الواقع الجغرافي، واختلاف اللغة ساهما في عدم الاتصال بين المدرستين. إضافة إلى قلة الاجتماعات المشتركة. مما حدا بكل طرف أن يعمل لوحده دون المشاركة في البحث للوصول إلى مفهوم مشترك.

الواقع أن الخلاف يتعدى عامل الجغرافيا واللغة، لكي يطال المحلل في موقعه الفكري، ومن المستوى الذي وصل إليه في تذليل المقاومة الداخلية. فموضوع الخصاء ليس بالموضوع الجانبي، إنه محور يدور حوله التحليل، ويمثل العقدة الرئيسية في بنية الذات. وهو، كما يقول فرويد، الصخرة التي تتحطم عليها الأمواج دون أن تزحزحها. ومقاله الذي كتبه في آخر حياته «تحليل منتهٍ وتحليل غير منتهٍ» ـ أتى تعبيراً عن الصراع الدائر في الأوساط التحليلية حول مقاومة المحلل التي تشكل العقبة الرئيسية في سير التحليل، وتتحكم في التنظير الذي يصبح أشبه بوسيلة دفاعية كان يمكن أن تتبدد لو طالها التحليل الذاتي. وهذه المقاومة عانى منها فرويد في صراع عنيف مع المحلّلين في تمرير نظريته حول الجنسية الأنثوية. ويتبين أن عقدة الخصاء هي الصخرة الكامنة وراء هذه المقاومة.

ونكتفي هنا بتلخيص نظريات ثلاثة محللين اشتهروا بمواقفهم المتميزة والمغايرة للنظرية الأنثوية لفرويد:

1- كارين هورني (Karen Horney)، 1932 ـ الخوف من الامرأة

تبدأ كارين هورني في الحديث عن الخوف الأسطوري المتحكِّم بالرجل تجاه الامرأة منذ نشوء الإنسان. وهذا الخوف يأخذ تعابير أسطورية متعددة: الساحرة، العجوز الشمطاء، بنات البحر، إلخ. أو في رموز الماء والبحر، وهي ترفض التفسير الذي أعطاه فرويد حول خوف الرجل من البكارة (تلبية لرغبات لاواعية (لاشعورية) في إخصاء الرجل). تقول إن لهذا الخوف مصدراً أعمق وأبعد.

مصدره الأم، لأنها في فترة من الفترات تكون موضوع رغباته العدوانية وذلك في مرحلة الطفولة الأولى. وتتمكن الأم من السيطرة عليه بحكم تأديبه ومعاقبته مما يولد عنده إحباطاً. والطفل يدرك بحداثته، أمام امتلاك ذكره بأن للأم عضواً استقبالياً مهيأ لذلك ومتمماً له. (هذا الإدراك ينمو شعورياً أو لاشعورياً).

لكن نظراً لصغره ولضآلته، يشعر بالدونية والعجز أمام الأم، وأنه غير قادر على النفاذ إليها. فأمام هذا العجز بالقصر، تنتابه رغبات عدوانية عنيفة للثأر منها، في نفس الوقت الذي نفذ فيه إسقاط عدوانيته على الأم وعلى فرجها ينتابه على أثر ذلك الخوف. وهكذا يسحب الليبيدو عن الفرج، يستعيد النرجسية القضيبية، ويكبت بالمناسبة معرفته لوجود هذا الفرج. أي كبت معرفته بالفرج ناجمة عن خوفه منه.

ولكي يعوض عن فشله أمام الأم ويبدد مخاوفه، ويستعين بحلول متعددة منها:

إما أن يجعل من الموضوع مثالاً لا يستطيع بلوغه، وإما أن ينزِّله إلى الحضيض، ويقلِّل من أهميته؛ وإما أن ينصرف إلى تجميع عدد ممكن من النساء، أو يبتعد عن لمس الامرأة (كما يحصل في الموضوع المثلي). وإما أيضاً أن يعمم احتقاره على جنس حواء بصورة عامة.

وتنتهي هورني إلى القول: بأن تجاهل الفرج المزعوم ناتج عن خوف أمام الأم بسبب إسقاط دوافعه العدوانية والجرح النرجسي المتاخم للرغبات الأوديبية.

فالنرجسية القضيبية تحصل بشكل ثانوي كردة فعل. هذا فيما يختص بالطفل.

أما بالنسبة للامرأة: فتخصص لها كارين هورني مقالاً سنة 1932 تحت عنوان «إنكار الفرج».

في هذا المقال تحاول أن تجيب عن هذا السؤال من الزاوية الأنثوية وليس من الزاوية التقليدية المعتمدة من قبل الرجل. فهي تحاول أن تبرز بوضوح مخاوف الامرأة المرتبطة بعضوها الجنسي.

وتبدأ مقالها في دحض آراء فرويد القائلة:

1 ـ بأن على المرأة السوية أن تنقلب على ميولها الذكورية في مرحلة من مراحل نمو أنوثتها (العادة الشهرية، الجماع، الحمل، الولادة، وسن اليأس).

2 ـ السحاق عند المرأة أكثر من اللواط عند الرجل. لأن النكوص يؤدي عند الامرأة حتماً إلى الجنسية المثلية.

3 ـ الأمومة حسب فرويد، هي تعويض أو بديل، وليست تلبية لدوافعها الغريزية.

4 ـ تتميز حياة الامرأة بكاملها بالشعور بالحسرة.

كارين هورني ترفض هذه المعطيات، وتعتبر أن الطفلة أنثى منذ ولادتها، ليس كما يتصور فرويد عند البلوغ. ومقابل اشتهاء القضيب عند الفتاة يوجد رغبة الحصول على طفل عند الولد. وهذه الرغبات لا تلغي المواقف المتجانسة مع التكوين الجنسي عند الطفل تميز ما بين الرغبات المبكرة والتي تظهر من دون خجل، والرغبات من نفس النوع والتي يشملها الكتمان.

أما بالنسبة لمعرفة الفرج المبكرة، فهي تستشهد ـ على غرار روزين ميلير ـ بأطباء الأطفال، بوجود عادة سرية فرجية عند الطفل في الأشهر الأولى من الحياة؛ بالإضافة إلى هوامات ممارسة العادة السرية عند الطفلات الصغيرات وأحلامهن التي تؤكد وجود معرفة غريزية للفرج.

وعلى ضوء هذه المعطيات تفسّر البرودة الجنسية عند الامرأة بأنها ناتجة، ليس كما يعتقد فرويد، عن عدم تمكن انتقال الإثارات الجنسية من البظر إلى الفرج، بل ناتجة عن مسألة الكبت التي تطال الإثارات الفرجية.

والفتاة تتعرض لمخاوف نتيجة وجود دوافع خصائية باتجاه الأب مرتبطة بالإحباط الأوديبي، وهذه المخاوف شبيهة بما يتعرض له الفتى مع الاحتفاظ بفوارق مميزة:

ـ خشية من تفاوت الحجم ما بين قضيب الأب وعضو الطفلة، فالطفل يخشى من سخرية الأم أمام ذكره الصغير وبالمقابل تخشى الفتاة أن تدمر نتيجة الجماع الأوديبي.

ـ العادة الشهرية والولادة، وفض البكارة، والإجهاض، تؤكد المخاوف الحميمة عند الطفلة.

ـ والشيء الذي يؤكد مخاوفها هو كون أعضائها مخفية عن النظر خلافاً للطفل الذي يطمئن إلى سلامة ذكره بمشاهدته وملامسته. وهي نقطة مهمة تدعو إلى الغموض

والتستر الذي يحيط بالرغبة الأنثوية وهكذا يستخلص من نظرية كارين هورني بأن الطفلة تخشى من التعديات المدمرة التي يكون هدفها داخل جسدها.

تكبت نزواتها بالفرج، وهكذا تحوّلها إلى البظر، العضو الخارجي والظاهر، ليس إلا لأسباب دفاعية.

2) ميلاني كلاين (Mélanie Klein) التحليل النفسي للأطفال، 1932

حاولت ميلاني كلاين إزالة الغموض عن موضوع الخصاء عند الفتاة، وما يترتب على ذلك من خوف يعادله خوف الفتى من الخصاء.

وكانت قد بدأت بشرح أدائها حول هذا الموضوع في مقالها، 1928 «المراحل الأولى للنزاع الأوديبي» وهو الخوف الأساسي عند الطفلة المتعلقة بداخل جسدها.

وهي تركّز منذ البداية على الإحباط الفموي الحاصل من الأم فتتجه نحو ذكر الأب، تحاول استبداله بالثدي، عن طريق الالتهام الفموي؛ وفي نفس الوقت تتدخل الدوافع الجنسية تجاه ذكر الأب لكي تلعب دورها. فهذا التحوّل الاستثماري من ثدي الأم الممتع إلى ذكر الأب، يمثّل النواة للنزاع الأوديبي المبكر. ولكن يتبين لها أن الأم تحتفظ بذكر الأب بجوفها، وهكذا تحوّل هجماتها السادية إلى جسد الأم محاولة بذلك انتزاع الغرض المشتهى. وفي المقابل ينتابها الخوف من أن ترتد إليها هذه الهجمات السادية، وتدمِّر أعضاءها الداخلية.

ميلاني كلاين تجد أن هناك تقارباً بين نظريتها ونظرية فرويد، حول موضوع الخصاء. فالفتاة ترتد على أمها بكره شديد لأنها لم تمنحها ذكراً. كذلك: الفتاة تكره الأم لنفس الأسباب، ولكن بدل أن يكون طلبها للقضيب لأسباب نرجسية، كما يقول فرويد، فهي تعتبر أن هذا الطلب يرضخ لحاجات ليبيدية.

فالأوديب لا يتكوَّن عند الفتاة بطريقة غير مباشرة، إرضاء لميول ذكروية، ولكن يتكوَّن مباشرة تحت تأثير عوامل غريزية ـ أنثوية. ويتبين أن نظريتها مطابقة لنظرية كارين هورني. إضافة إلى أن الرغبة الفموية لامتلاك قضيب الأب تصبح النموذج الذي تأسّست عليه الجنسية الفرجية لاحتواء القضيب.

وتفسِّر هذا الاتجاه، بأن القضيب موظف بقوة سحرية، يمكنه أن يلبي كل النزوات المثارة بسبب إحباط الأم للشهوة الفموية. إضافة إلى أن قضيب الأب يمكن أن يصبح موضوعاً عدوانياً حاداً بسبب الإحباط الذي يفرضه، وبالمقابل ترتد هذه

العدوانية المتوجهة إليه، ويصبح ذكر الأب خطراً وشرساً ومهدِّداً لها عن طريق الإسقاط.

اندماجية هذا العضو الذكري في الذات يكوِّن الأنا الأعلى الأبوي والسادي المقترن به مما يجعل من هذا الأنا الأعلى مرعباً.

والطفلة انطلاقاً من نزواتها الأنثوية الاستقبالية، تعمل على الاحتفاظ بقضيب الأب وإدماجه في داخلها، أي الموضوع الأوديبي. فانصياع الطفلة لأبيها المندمج في ذاتها يعزز من قوة الأنا الأعلى، الذي يزيد قسوة عما هو عند الطفل.

التناقض الوجداني للقضيب المندمج في ذاتها، يمكن أن يدفع الطفلة، ولاحقاً الامرأة إلى تعدد العلاقات الجنسية، سواء كانت واقعية أو هوامية، كي تفصل ما بين الذكر الطيب، وتحارب الذكر السيّئ المتواجد في الداخل.

العلاقة الجنسية هنا تقتصر على تبديد الخوف، ويمكن أن تكون وظيفة هذا الفعل هي عملية اختبار(*). وبسبب نزواتها السادية تخشى الطفلة من أن تتحطم، أي حسب تعبير جونس تخشى أفانيزيس (Aphanisis) الجماع يمكن أن يطمئن الامرأة سيما إذا اقترن ذلك بولادة طفل سليم وقدرتها على إرضاعه الحليب الطيب. اختيار الجنس عند المرأة يتوقف على طريقة معالجة مخاوفها الطفلية. يمكن أن تختار ذكراً طيباً لكي تهدىء من مخاوفها المناطة بجسدها. المتعة التي تحصل عليها من العلاقة الجنسية تتعدى مفهوم الإشباع الليبيدي الذي ينادي به فرويد، بل يتعدى في نفس الوقت إلى تهدئة خوفها الداخلي كي يفتح المجال أمام علاقات غرامية ثابتة وأكثر إشباعاً.

إذا كان القضيب المندمج في ذاتها سيئاً فعندئذ لا يمكن اختبار الواقع إلا عن طريق قضيب مؤذ قد يهدم إدماجاتها السيئة. وتتوصل ميلاني كلاين إلى الاستنتاج بأن المازوشية الأنثوية ما هي إلا ارتداد للسادية أي ليست ضدها، ولكن ضد المواضيع السيئة المندمجة في ذاتها. اختيار الواقع من هذا الباب يؤدي إلى نشاط جنسي قسري. ولكن إذا لم تستطع احتواء خوفها الداخلي فإن ذلك قد يؤدي بها إلى البرودة الجنسية؛ لأن مخاوفها على الأنا تصبح، إلى درجة ما، مقترنة بالقضيب الخارجي

(*) بعض النساء يرفضن العلاقات الجنسية بعد الزواج، وتبقى البكارة كما هي، لأن الإيلاج يدخل من باب الهوام المتخيل، بأن فض البكارة سيؤدي إلى تفجير الجسد، وتصبح العلاقة الجنسية مرادفة للخوف من الموت.

وعلاقته بالقضيب الداخلي المخيفين. عندئذ تتحرك في هذه المناسبة كل النزوات الهدامة.

الهجمات التي توجِّهها الطفلة إلى جسد الأم تنمِّي عندها شعوراً بالذنب يدفعها إلى العديد من الأفعال الإصلاحية، التي تصبح بمثابة الأرض التي تنمو عليها جذور الأنثوية المتسامية.

وهكذا تحاول أن تتوقى ردة الفعل الانتقامية عندما تخشى ارتداد ساديتها الموجهة إلى الأم إليها، ولا تملك كما هو الحال عند الطفل الذكر، البرهان للتأكد من بطلان مخاوفها. فعضوها الجنسي غير مرئي، لأن الفرج المكبوت لحساب البظر، تستثمره كل المخاوف المناطة بالجسد.

كل الطفلات لهن معرفة لاواعية (لاشعورية) مبكرة بالفرج. وهكذا يتجه الاستثمار نحو البظر العضو الظاهر، وتسقط عليه كل الهوامات الأنثوية المرتبطة بالعادة السرية معبرة بذلك عن رغبتها في إدماج ذكر الأب.

تتوصل ميلاني كلاين إلى الاستنتاج بأن عقدة الخصاء عند الطفلة، واشتهاء القضيب يتوقفان على سببين رئيسيين:

1 ـ رغبة الفتاة بامتلاك عضو جنسي يرضخ لاختبار الواقع.

2 ـ عدم الإشباع الناتج عن رغبتها في إدماج ذكر الأب، يجبرها على أن تقوم بعملية تماهي بالأب القضيبي السادي، أي تستعمله كسلاح حتى تتمكن من تهديم الأم التي ولّدت عندها الاحباط نتيجة انتزاع الثدي منها واحتفاظها بذكر الأب. هذه الفترة المتاخمة للتبول اللاإرادي (إغرائها، وإفساد جسد الأم بمساهمة الذكر السادي). هذا المنحى يشكل الميل السادي لجنسيتها المثلية؛ ولكن بالمقابل قد يكون التماهي الأبوي هو الوسيلة التي تمكِّنها من إصلاح الضرر اللاحق بالأم، عن طريق الذكر الذي سلبته الأم. هذه المواقف يمكن أن تؤثر بشكل نهائي على مصير التطور الجنسي عند الطفلة.

موقف الطفلة من هذه المواضيع، ووظيفة عضوها الجنسي السلبي (الاستقبالي) والأهمية الكبرى لنزواتها الفموية، تعطي للأنا الأعلى المندمج في ذاتها دوراً مرجّحاً يعزّزه غياب القضيب الفعال، المصلح ويجعلها أكثر التزاماً بهذه الأنا الأعلى. فالطفل يستثمر قضيبه بقدرة نرجسية هائلة. والطفلة بالمقابل بذكر الأب المندمج في ذاتها.

تواجه الطفلة موانع أكثر من الطفل في تكوين أناها الأعلى نتيجة تماهيها بالأم، لأن هذا التماهي يتم بصعوبة إذا اقتصر فقط على التشابه التشريحي.

فالأعضاء الداخلية لا تخضع للإمتحان والإختبار الواقعي. يجب أن لا يغيب عن الذهن بأن علاقة الطفلة بالأب وبالأنا الأعلى مرتهنة بعلاقتها الأولية بالأم (صورة الأم).

خلاصة: أوديب الفتاة مبكر، يتكوّن في المرحلة الأولى الفموية نتيجة النقلة الحاصلة من ثدي الأم إلى قضيب الأب. فمخاوفها التي تحيطها داخل جسدها تدفعها إلى الهروب من الأنوثة (في اشتهاء القضيب).

اشتهاء القضيب هو في النهاية عملية ثانوية، يسبقها موقف أنوثي استقبالي يمهد له، في البداية الوظيفة الاستقبالية للفم. وبعدها الفرج. وهذه أولية.

الأنا الأعلى عند الطفلة أقسى من الأنا الأعلى عند الطفل.

3- إرنست جونس (Ernest Jones)

نظرية جونس في الأنوثة

التطور المبكر للأنوثة، 1927

يبدأ جونس حديثه بالتعرّض إلى المنطق الذي انطلق منه المحلِّلون لكي يقدّموا نظريتهم عن الأنوثة. فهذه النظرية تخضع للشك والالتباس كونها اعتمدت على حكم مسبق على الأنوثة: سواء أتت من قبل محللين أو محللات، ففي كلتا الحالتين: اعتمد القضيب في مفهومه النظري كزاوية ينظر من خلالها إلى الأنوثة، مما يضيع على هذه الأخيرة فرصة استقلالها، وحدودها وواقعيتها ويحيطها بوشاح من الغموض.

انطلاقاً من هذا الواقع يطرح جونس سؤالين:

الأول: ما هو العامل المماثل للخوف من الخصاء عند المرأة؟

والثاني: ما الذي يميِّز تكوين الامرأة السحاقية عن الامرأة السوية؟

ويحاول الإجابة عن هذين السؤالين معتمداً من ناحية على بعض الحالات العادية، ومن ناحية أخرى على استنتاجه النظري.

يحاول جونس إيجاد صيغة تعمّم، سواء على الذكر أو الأنثى، بما يخص الخوف من الخصاء. على اعتبار أننا لا يمكن حصره في النشاط الجنسي، انطلاقاً مما ورد عند فرويد الذي ركّز تهديد الخصاء على القضيب فقط دون غيره. والدليل على ذلك:

إن هناك بعض الحالات التي يستغني فيها عن استعمال القضيب دون أن يطال ذلك النشاط الجنسي. وهكذا فالتهديد بالخصاء ليس إلا تهديداً جزئياً لا يطال الطاقة الجنسية بأكملها(*).

وللمناسبة يستنبط جونس كلمة[1] «Aphanisis»، يونانية الأصل، لكي يشمل القدرة الكاملة المعتمدة من قبل الإنسان في نشاطه الجنسي والعاطفي. أي بمعنى، زوال الرغبة الجنسية. يعلق لاكان على هذا التحديد «يتجاهل جونس في المناسبة الخصاء الرمزي المرتبط بالرغبة نفسها، فهذه الرغبة إن لم تتحدد بما هو محرّم عليها، يطالها التهديد من خلال قدرتها على الاستمرار، وذلك بمجرد أن تصبح في حل من المحرمات. فمن هذا التحريم، أي النقصان، تتكون وتتحدد وتنطلق في آن واحد».

(Aphanasis - Abandon total - Disparition) فهذا الزوال: يهدد الطفل عن طريق الخصاء، ويجد ما يعادله في أفكار الموت، والرغبة في الموت. وانطلاقاً من هذا التعميم: يكتشف جونس التقارب المشترك ما بين المرأة والرجل، اعتباراً منه أن الخوف من زوال الرغبة (Aphanisis)، هو شيء مشترك ما بين الاثنين دون الأخذ بعين الاعتبار الفارق بين الجنسين.

أما كيف يتكوّن هذا الخوف: فالأمر يختلف ما بين الرجل والامرأة. فالرجل يقول لنفسه: أريد أن أحصل على لذة بتحقيق فعل معين، ولكن أخاف من جراء ذلك أن أعاقب عليه بالخصاء، وهذا ما يعني بالنسبة لي انتزاع اللذة الجنسية باستمرار أي (Aphanisis).

كذلك عند المرأة تريد الحصول على إشباع عن طريق خبرة معينة، ولكنها لا تجرؤ أن تتخذ بعض الترتيبات لتنفيذها، فتكون قد حققت الاعتراف برغبة مذنبة، لأنها تخشى أن يتبع ذلك زوال رغبتها (Aphanisis).

جونس يؤكد منذ البداية أهمية العامل البيولوجي، معتبراً أنه المحور الذي يعزز المفهوم البسيكولوجي. وعلى هذا الأساس، يعتبر أن الأنثى ملتزمة أكثر من الرجل،

(*) مثلاً في بعض الأديان يقتضي الالتزام الكهنوتي أن يمتنع الرجال والنساء على تعاطي الجنس، ومع ذلك نراهم مهددين بالخصاء مثل غيرهم. إذن الخوف من الخصاء، يستنتج جونس، لا يمكن أن يقتصر على الوظيفة الجنسية للقضيب.

(1) أي زوال الرغبة.

بقرينها؛ فاكتفاؤها الجنسي يصبح مقترناً بموافقته ورضاه على أخلاقيتها. أما الرجل فنجد عنده استقلالية لا نجدها عند الامرأة. ولا يوازي الامرأة إلا إذا انوجد تحت سلطة رئيس له (موقف أنثوي بين رئيس ومرؤوس).

وهكذا يتوصل جونس إلى الاستنتاجات التالية: الرجل يخاف منذ البداية من الخصاء كخطر يهدد استقلاليته وحريته الجنسية.

والامرأة تخاف Aphanisis أي هجرة الآخر لها، أي قرينها، مصدر اكتفائها الجنسي.

والرأي السائد في الأخلاق العامة، أن الامرأة تتساوى مع الرجل في الإذعان للمثل الأخلاقية، ولكنها لا تتساوى معه في الواجبات.

هذا الخوف من أن تُهجر يلاحق الامرأة فترة طويلة من حياتها، ومصدره في البداية: الخوف من أن تُهجر من قبل الأم التي تصبح منافسة لها، أو الخوف من أن تهجر من قبل الأب فيحرمها من الوعد في الإشباع.

ويتوصل إلى الاستنتاج بأن الحرمان (Privation) يوازي في مفهومه الاحباط (Frustration) على اعتبار (اعتماداً على فرويد) أن زوال عقدة أوديب لا يتم عند الامرأة إلا على أثر خيبة أملها المستمرة، التي تؤدي إلى الإقرار بنقصها.

فالأنا الأعلى ليس إلا وليد شعور بالذنب الذي يتفرع في حد ذاته من الخوف من الخصاء.

ويزيد في استنتاجه أن الأنا الأعلى، والشعور بالذنب المرتبط بها، يتواجدان بهدف حماية الطفل من ضغط الحرمان لكي يبعد عنه رعب زوال الرغبة الذي يرافقه دائماً. وهكذا يقمع الرغبات غير المهيأة للإشباع، وعدم الإشباع يرتبط بالخطر من الرغبة الممنوعة فيسقطها على العالم الخارجي، ليجعل منها خط دفاع بشكل إنكار يحتمي به كي لا يتعرض لخطر الاعتراف.

يعود جونس فيما بعد كي يتكلم عن النشوء الجنسي عند الفتاة: فيضع في المقارنة على المحك نظرية فرويد التي تقول: إن الفتاة تنتقل بالتدرج من المرحلة الفموية إلى المرحلة القضيبية: الثدي أولاً ثم الإصبع وأخيراً البظر - أي مقارنة بما هو عند الذكر، تسقط أوهامها كي تفتش في الخارج ما يعوض عما هو ناقص عندها.

أما نظريته: انطلاقاً من خبرته وخبرة ميلاني كلاين (دون تحديد هذه الخبرة) يقول

بأن الانتقال يكون مباشراً: إما نحو البظر وإما نحو(Fellatio)[*] أي الفم[1]؛ ويوضح فكرته بشكل يستدعي التساؤل لما يكتنفها من غموض: فيقول إن الانتقال من المرحلة الفموية إلى المرحلة الشرجية، يتم بشكل تسلسلي بحيث إن هاتين الفتحتين التابعتين للجهاز الهضمي تصبحان فيما يبدو عضوي الاستقبال الأنثوي.

وينتقل إلى القول من دون إثبات: إن الشرج يصبح البديل للفرج، والانتقال من الأول إلى الثاني يتم في مرحلة مبكرة يكتنفها الغموض. وإن المرحلة الشرجية تتميز بارتباطها بهوام سادي: (أي الاغتصاب الشرجي الذي يتحول فيما بعد إلى هوام الضرب). بمعنى أن الفتاة تدخل الأوديب من هذا الباب عن طريق التسوية ما بين النزاعات الليبيدية والنزعة الاقتصادية.

ولذا يقول جونس: تنتقل الفتاة من مرحلة الفم ـ الشرج ـ الفرج عن طريق التماهي بالأم. ويتبين لنا أنه يُطلق هذه المعطيات دون أن يكشف لنا التسلسل المنطقي الذي مكّنه من فرضها. فهي معطيات تقبل أو ترد أن التساؤل حولها يبقى دون إجابة.

ويرى أن شهوة القضيب تتمثل بموقفين: إما قبل الأوديب أو بعده. وهو يرجح الثانية حسب خبرته العيادية ـ حتى العادة السرية والنشاطات الشبقية تأخذ أهميتها من الاستثمارات الشبقية المرتبطة بالغير.

وهكذا فالفتاة يجب أن تختار ما بين الموضوع، وما بين أنوثتها. (أي ما بين الأب وما بين فرجها). فلكي تحصل على أنوثتها يتوجب عليها التضحية بالأب، وإن احتفظت بهذا الأخير فيجب أن تضحي بفرجها؛ ومن هنا تنشأ عندها عقدة القضيب التي تلازمها دائماً بقدر ما يستمر تشبثها بأبيها. ولا يحصل ذلك إلا بالتماهي بالأب.

ويعمّم جونس هذه العملية على الذكر والأنثى: فعلى الذكر أن يختار ما بين موضوعه، وبين غرضه: رجولته وأمه ـ (أي قضيبه أو أمه). وهكذا يحصل أن زوال الرغبة أتى نتيجة حرمان لا مهرب منه:

يرضخ كلا الجنسين له ويحدد خيارهم: ما بين الرغبة الجنسية وما بين المحرم. خيار الأخير يؤدي إلى زوال الرغبة.

(*) Fellatio: ممارسة الجنس عن طريق الفم بدلاً عن الفرج.

(1) أي الحصول على القضيب عن طريق الفم.

وعلى ضوء هذا الاختبار يبني جونس نظريته حول نشوء الدوافع الجنسية المثلية عند الامرأة.

وحسب أرجحية الخيار يتقيم اهتمامها بالجنس الآخر (الرجال)؛ فهي تتأرجح ما بين التخلي عن موقف الليبيدو الغرضية المتمثلة بالأب أو التخلي عن الليبيدو المتجردة (أي الجنس). وهكذا يبدو أن التحوّل نحو الدوافع الجنسية السوية أو الدوافع الجنسية المثلية ما هو إلا عملية درجات، يصنِّف اثنين منها[1]:

1 ـ هناك صنف من النساء يحافظ على اهتمامه بالرجال والتعامل معهم على أساس المساواة. ويمثل الشريحة من النساء اللواتي تطالبن بحقوق المرأة.

2 ـ وقسم يحافظ على اهتمام بسيط، أو يتخلى عن هذا الإهتمام تجاه الرجال ولكن القسم الأكبر من الليبيدو يتحوّل نحو النساء.

وهكذا يستخلص أن القسم الأول من النساء يتخلّى عن جنسه.

أما القسم الثاني فيتخلّى عن الأب، بعد أن يستبدلنه بأنفسهن عن طريق التماهي.

ويستطرد جونس فيقول إذا ما أمعنا النظر فإن التماهي بالأب هو عملية مشتركة في كل الحالات السحاقية. وهذا التماهي لا يتصدر مسرح الأنا إلا على حساب الرغبات الأنثوية. وهي تكون في حد ذاتها إنكاراً تاماً بدافع الاحتماء لكل ما يمكن تصوره من الاحتماء في رغبات أنثوية محرمة.

وهكذا يتوصل إلى القول بأن المرحلة القضيبية التي توصَّل إليها فرويد ليست إلا تفسيراً للمرحلة الأخيرة من التطور. لأنه يتهيأ له بأن المرحلة القضيبية عند الفتيات ليست إلا شكلاً مصغراً لما هو التماهي بالأب. فهذه المرحلة القضيبية خلافاً لما يقول فرويد أولية إنما هي في صميم طبيعتها ثانوية ودفاعية. وهذا ما سيأتي على توضيحه لاحقاً.

يرى فرويد أن خلفيات هذا التماهي تتمثل: بتشبث ولعي في المرحلة الفموية والسادية. فالفتاة التي تتحول إلى سحاقية، نراها تستبدل على التوالي القضيب باللسان، وحتى التشبث بالثدي هو أحد الدواعي الجنسية المثلية لكي تصبح الامرأة موضوع الليبيدو.

يستخلص جونس بأن العاملين المذكورين: (الفموية والسادية) يطابقان الحالتين

(1) E.Jones: Œuvres complètes, Payot, p.406.

السحاقيتين المذكورتين سابقاً: إذا مالت الدفة باتجاه الشبق الفموي صبت الشهوة باتجاه الثاني: (أي الاهتمام بالامرأة). وإذا اتجهت نحو السادية فتتجه نحو الأول (أي الاهتمام بالرجل على حساب أنوثتها).

على كل حال فالفتاة تقيم العديد من الحواجز ضد أنوثتها خوفاً من زوال الرغبة سيما التماهي بالقضيب. وهذا مما يدعم الموقف أن كثيراً من الرجال (خاصة الأب) يتصدون بشدة للرغبات الجنسية المثلية. وهذا مما حدا بالفتاة إلى الاعتقاد بأن الرجال يكرهون الأنوثة.

في الخلاصة يميّز جونس ما بين الخصاء وما بين زوال الرغبة ـ الأول يعني تهديد القضيب، بينما الثاني يهدد بزوال الجنس أي الرغبة.

فالفم، والشرج والفرج، يمثِّلون، على صعيد المتخيل، معادلات للعضو الأنثوي. فالكبت للرغبات المحرمة، يولد حالة نكوص تعود بالشهوة القضيبية إلى مرحلة ماقبل القضيب؛ وهكذا فشهوة القضيب تتولد من ردة فعل. والتماهي بالأب إنكار لدوافع أنوثتها.

ويتوصّل إلى اليقين التالي: بأن مرحلة القضيب عند فرويد هي في الواقع مرحلة ثانوية دفاعية، ومرحلية، بدلاً من أن تكون أولوية مؤسسة للذات أو أصلية.

المرحلة القضيبية، 1933

يميز جونس مرحلتين بالنسبة للمرحلة القضيبية، الأولى: التي طرحها فرويد ـ أي Proto-phallique حيث إن الطفل على جهله، يعتبر أن كل العالم مكون على شاكلته: أي متمتع بقضيب. وهي مرحلة نرجسية.

الثانية: Deutro-phallique، عندما ينتابه القلق ويتبين له أن العالم مقسم إلى قسمين: قسم يتمتع بقضيب، وآخر محروم منه. وذلك قبل أن يصنِّف الناس صنفين: أنثى وذكر.

والمرحلة الثانية: تتميز بالعصابية، لأن الطفل ينتابه الخوف والنزاع الداخلي نتيجة إدراكه لهذه الحقيقة وهو أن: الخصاء يهدد قضيبه فتتعزز نرجسيته حول قضيبه، والفتاة يتنازعها الأمل واليأس في آن واحد.

ينطلق جونس من نظرية فحواها أنه يوجد معرفة لاواعية (لاشعورية) عند الطفل بوجود الفرج، على اعتبار أن نزعة الاختراق تظهر عنده في الطفولة الأولى قبل معرفته

البصرية بوجود الفرج. ولذا لا يمكن أن نفترض وجود القضيب ونحذف وظيفته الأساسية: الإيلاج. فتمسك الطفل بقضيبه والتوظيف النرجسي له يعودان إلى الخوف من الخصاء، وليس العكس. وهي المرحلة القضيبية التي إذا ما امتدت إلى سن الرشد تصبح مولّدة للعصاب.

وهذه المرحلة على صلة بنفر من النساء عندما يتكوّن لديهن هوام يجمع في معادلة واحدة ما بين الجماع والخصاء انطلاقاً من فكرة أنثوية مكبوتة: الجماع مع الأب.

ـ هناك احتمالان لتفسير المرحلة القضيبية:

الأول مبسّط: الطفل يعتقد أن الأم تتمتع بقضيب على شاكلته، واكتشافه لحرمانها يبدد هذه الفكرة، ويعتبر أن الأم قد خصيت. غير أن هذا الاحتمال يتجاهل الافتراض الأول الذي يربط ما بين الجماع والخصاء.

الاحتمال الثاني: للطفل معرفة مسبقة ولاواعية (لاشعورية) بوجود الفرج. فخوفه من الخصاء عن طريق الإيلاج يجعله يعزز نرجسيته بالقضيب ويفترض بإلحاح أن للأم قضيباً.

يرفض الطفل معرفة الحقيقة الواقعية وهي أن للأم عضواً أنثوياً بدلاً من المتخيل أي أن لها عضواً ذكرياً ـ لأنه في مثل هذه الحالة تصبح الدعوة إلى الإيلاج بمثابة محرم يهدد بالاخصاء. فلذلك يتمسك بالافتراض الثاني.وهذا يعني بأن معرفته بوجود الفرج سابقة لعقدة الخصاء. فلو لم يكن هناك فتحة خطرة في حال الإيلاج، لما كان هناك ضرورة للخوف من الخصاء.

كيف يمكن للطفل بأن يتوهم للأم قضيباً مثله؟ جونس يستعين بالأفكار الواردة من الخبرة الفموية، كونه يفترض معادلة رمزية ما بين الثدي والقضيب. على اعتبار امتلاك الأم للقضيب يؤمن له اكتفاءً وإشباعاً، وتغذية، أكثر من الثدي، نظراً لتفاوت الحجم. ومصدر هذا الهوام يضعه أمام احتمالين:

الأول: اما المشهد الأولي وتدخّل الأب بقضيبه.

الثاني: وإما قبل إدراكه لقضيب الأب، أي عندما يدخل في مرحلة العادة السرية التي تتكون على غرار رضاعة الثدي، يدخل القضيب عندئذ من باب التماهي.

ويرجح جونس الاحتمال الثاني.

أما فيما يختص بالموقف الأنثوي للطفل فإن جونس يؤكد بأن الطفل يمر في

مرحلة سلبية هي "أنوثة الرضاعة"، وتوظيف معرفته اللاواعية بالشرج الشيء الذي يجعله يتشبث بالأم قبل أن يكتشف قضيب الأب، وتظهر عندئذ نزعة الإيلاج.

يتوصل جونس إلى الاستنتاجات الآتية: إن المرحلة القضيبية هي في الأغلب حل وسط عصابي بدلاً من أن تكون تطوراً طبيعياً. كما ذكر فرويد.

المرحلة القضيبية هي إذن جزء من العصاب الطفولي. والسؤال كيف يمكن أن نقي الأطفال هذه العقدة؟

الإجابة تقع على عاتق المحللين النفسيين المختصين بالأطفال.

يتساءل جونس من أين أتى قضيب الأم؟ يجيب بأنه تركيب اصطناعي يلبي رغبات الطفل الفموية المذكورة آنفاً. ولكنه في الواقع هو قضيب، رغم أنه يمكن القول في معنى آخر بأنه قضيب الابن لأن النزاع مع الأب يهدد الاثنين بالخصاء.

ثم يضيف أن وجود القضيب عند الأم يطمئن الطفل بالنسبة لرغباته الفموية البدائية، فهو يشكل إنكاراً لأية نزوة سادية خطرة يمكن أن يواجهها من جراء حرمانه منها، وبالمناسبة إطمئناناً بأن الخصاء لم يحصل: إذاً لا هو ولا والده يمكنهما أن يواجها هذا الخطر.

ويؤكد جونس أن المرحلة القضيبية الناتجة عن Deutro-phallique هي مرحلة زمنية مؤقتة وعابرة، وهي بمثابة حاجز عصاب يعترض النمو الطبيعي للطفل؛ وعقدة أوديب تجد حلها بالعودة إلى المرحلة الأولى Proto-phallique التي تعتبر بأنها مرحلة طبيعية مهمة يتابع نموه على أساسها(*).

(*) تعليق لاكان: من هذا المنطلق: هناك احتمالين: الاحتمال الأول: إما أن الطفل له معرفة مسبقة بالفارق الجنسي ـ وهنا نتساءل من أين أتت هذه المعرفة؟ لأن جونس يعتبر أن هناك معرفة لاواعية(لاشعورية) لهذا الموضوع. وإذا كان هذا صحيحاً فما الداعي لكبتها؟ علماً أن الطفل لا يعلم حتى الآن الدواعي لمثل هذا الكبت. وما دامت هذه المعرفة موجودة عنده فلماذا الخوف من الخصاء علماً أن الله خلق البشر على أساس أنثى وذكر؟ ولماذا التركيز على القضيب إذا زال الخطر الذي يتهدده، طالما أن هناك نزوات فموية تؤكد له التجربة حرمانه منها؛ يمكن أن تتهدده أكثر بكثير؟ وهو على كل حال لا يستبعد أن يكون التهديد الفموي بالحرمان، أو حرمانه، وراء هذه التركيبة إذا اعتبرنا أن علاقته بالقضيب أصبحت متممة، وتركيبة متخيلة للعقدة الأساسية والمركزية: عقدة الحرمان الفموي.

وأما الاحتمال الثاني: وهو عدم معرفته، (وهذا ما يستدعي هذه المعرفة) ـ والتي لا بد أن تحصل، فعندئذ يأخذ موقفاً متأرجحاً حيث «يستجد احتمال خسران هذا القضيب ونستطيع أن نقول أنه يمكن أن يخسر شيئاً لا قيمة له: فلا داعي عندئذ للخوف. وأما أن نعتبر القضيب باستثمار موظف نرجسي قوي يفوق كل الاعضاء: عندئذ يصبح احتمال فقدانه مصدراً لخوف شديد Angoisse de castration.

الحياة الجنسية الأنثوية

جونس يضع كذلك احتمالين مختلفين:

أ ـ الاحتمال الأول وهو ما يسميه (أ): الجنسية عند الفتاة تكون في بداية الأمر ذكورية كما ورد عند فرويد.

ب ـ الاحتمال الثاني (ب): وهو عكس الأول، تكون منذ البداية أنثوية محضة ـ ولكن فشل ب ـ الإحتمال الثاني (ب): أي فشل هذا المسلك الأنثوي، لسبب من الأسباب، يؤدي بها إلى اعتماد موقف قضيبي ذكوري. أي اعتماد الموقف القضيبي الذكوري ما هو إلّا عملية ثانوية ناجمة عن فشل الموقف الأنثوي الطبيعي.

يطرح ارتباط تمني الفتاة لاحتواء القضيب وكرهها العميق للأم.

و هنا نرى جونس ينتقد نظرية فرويد: فيقول بأن المرحلة الثانية في النمو (Deutro-phallique) ما هي إلا تكوينة ثانوية، عصابية، دفاعية.

كذلك بالنسبة للعادة السرية البظرية، يزيل عنها الصفة القضيبية لأن ممارستها ليست مطابقة على الصعيد النفسي. سيما أن العادة السرية البظرية عند الفتاة الراشدة يرافقها هوام جماع جنسي طبيعي. وهذا ما يدحض نظرية فرويد.

ويعتمد جونس على أن كثيراً من الهوامات المتوافرة في تحليل الكبار والصغار تشير إلى التجويفات الداخلية في الجسد: الفم ـ الرحم ـ المهبل ـ الشرج، إلخ. مما يدل على أن هناك معرفة لاواعية (لاشعورية) للتجويفة الفرجية. كذلك هو الحال بالنسبة للطفل الصغير ـ أما بالنسبة للفتاة ينطلق جونس من عملية الفطام التي تولِّد عندها حقداً تجاه الأم، ونتيجة لهذا الفطام تحصل النقلة من الثدي إلى القضيب على اعتبار أنه أكثر إشباعاً وتعويضاً ونظراً إلى أن الأب لا يحتل مكانة قوية عند الفتاة في هذه المرحلة، لذا تنقل الفتاة رغبة إشباعها إلى الأم وتحمِّلها قضيباً وهمياً. إن هذا القضيب حسب جونس ناجم عن إحباط فموي بيولوجي يعد بعطاء أكثر من الثدي. ولكن من أين أتت فكرة القضيب؟

في مرحلة لاحقة تتأكد عندها هذه الفكرة الوهمية، ويتحول هذا القضيب إلى قضيب من الأب، اقتنته الأم عن طريق الفم (Fellatio). امتصاص القضيب من دون هدف، بعدما كان للحصول على الحليب أو المني).

علاقة الفتاة بجنسيتها منذ البداية هي علاقة استقبالية Allo érotique ـ أما هذه المعطيات المثيرة لنظرية جونس فجعلت لاكان يطرح السؤال الآتي لكي يبرز التناقض فيقول «من هذه المحتويات الموجودة في بطن الأم لماذا يختار الطفل القضيب لكي يجعله موضوع رغبته الأصلية؟ فهنا كما يبدو عند المحللين، تجاهل لأفضلية القضيب واستئثاره على باقي الأعضاء. وهذا ما يفاجىء به الطفل عندما يلتقي برغبة الآخر، لأن رغبة هذا الآخر هي التي كانت وراء اختياره وتحديد موضوع رغبته".

ويمكن أن نعتبر هذا الآخر الكبير المحذوف من تحليلاتهم هو الذي أدى إلى هذا الالتباس في التنظير.

يلتقي رأي جونس وميلاني كلاين في المعادلة قضيب = طفل ـ وهذه الفكرة تتمحور حول شهوة بدائية تدخل في إطار عملية الإستقبال. أي تستقبل القضيب من الفم لكي تجعل منه طفلاً لها.

ففعالية القضيب تتجسد عند الطفل بازدواجية كوسيلة للحصول على الحب، ووسيلة تجسدها بآلة مدمرة كي تعبر عن حقدها وانتقامها من أمها، نتيجة المعاكسات والإحباط الحاصل. فهذه السادية تولِّد عندها بالمقابل خوفاً معادلاً.

يتولَّد عند الطفلة شعور بالقرف، والاشمئزاز والحقد على القضيب، وتعتبره آلة هدامة تنوي تحطيمها وانتزاعها. وبالمقابل، ينتج شعور بالخوف الشديد من جراء إدخاله، يهددها في الداخل، وعندما يتبين لها أن الأب هو حامل القضيب تحوّل إليه نقمتها وحقدها الذي كانت توجهه سابقاً إلى الأم.

يستعرض جونس الاحتمال الأول(أ) (أنوثة قضيبية) الذي يطابق نظرية فرويد ويشرح كيف تتحول الفتاة من المرحلة القضيبية بعد أن يتبين لها الفارق وبأن قضيبها وهمي، إلى المرحلة العلاقية مع الآخر Allo-érotique، وتدخل في صلب المرحلة الأوديبية في علاقة محرمة. هذا الاحتمال يعتبره ناقصاً ولا يلم بكل جوانب الموضوع. ويقول إن الاحتمال الثاني(ب) (أنوثة طبيعية) هو الإجابة على هذا النقص.

الفتاة منذ البداية ترغب في القضيب على صعيد علاقة مع الآخر Allo-érotique، ولكنها ترتد إلى علاقة شبقية مع ذاتها، «Auto-érotique» على غرار الفتى، احتماء من المخاطر الناجمة من الرغبات المحرمة مع الآخر (Allo-érotique). وتعتمد الفتاة هذا الاتجاه لأن الأنوثة التي ترغب في تحقيقها يرافقها شعور بالخطر، وخوف لا يحتمل.

يحصد هذا الاحتمال صراع ما بين الأم والفتاة كون الأب لا يزال مستثنى. في هذا الصراع تخاف الفتاة من أنوثتها نظراً لما يمكن أن يتولَّد عندها من مخاطر من جراء استقبال القضيب وما يمكن أن يهددها من أثر إيلاجه في جسدها، لأن عدوانيتها موجهة في اتجاهه منذ أن تأكد حرمانها منه.

الاحتمال الأول (أ) والثاني (ب) يؤكدان على دور الإحباط الصادر من الأم، ولكن الخلاف يأتي من تقييم هذا الإحباط وتأثيره على الصعيد الجنسي والنفسي.

يلخص جونس محور الموضوع حول المقارنة ما بين الصبي والفتاة ـ في المرحلة الثانية (Deutro-phallique) ـ يقول: نجد عند كلا الطرفين غياب الشبقية ـ العلائقية، وتوجهاً إلى الشبقية الذاتية، إضافة إلى قرف واشمئزاز من الفرج، يقابل ذلك تركيز نرجسي على القضيب. ويجيب جونس أن لهذه الظاهرة أسبابها، هناك طرحان: الأول، حصول هذه الظاهرة يبين الفارق الجنسي وما ينتج من رفضه. الثاني، هناك خوف من الفرج نتيجة الهوام المتكون سابقاً حول العلاقة الجنسية بين الأب والأم. والخوف يتحرك عند رؤية العضو الجنسي المقابل.

انطلاقاً من هذين الطرحين: تتفرع الأجوبة وأبحاث المحللين. وهو يؤكد على النظرية المكتشفة من قبل المحللين والتي تدور حول الهوام البدائي القائل: باقتناء الأم في جوفها لقضيب الأب. (ميلاني كلاين). انطلاقاً من هذا الهوام ينتاب الخوف كلا الجنسين من (الشبقية ـ العلائقية) التي تهدد قضيب الطفل وفرج الطفلة ورحمها؛ وتتحول بالمناسبة اهتمامات الطرفين من الجماع وعملية الإيلاج، لكي تتركز على المظهر الخارجي للجسد.

الخوف إذاً واحد عند الجنسين: هو خوف من الإيلاج عند الصبي، تهديد بالخصاء من الأب ـ وخوف من الإيلاج عند الطفلة، خوف من التشويه من قبل الأم.

وهنا يبدو التناقض واضح مع فرويد: عندما يعتبر المرحلة القضيبية عند الطفل المتمحورة حول (Proto-phallique)، والتي تركز على الشبقية الذاتية، بأنها مغايرة تماماً للمعرفة (الشبقية العلائقية) التي تسبق ذلك في السنة الأولى من نموه. وكذلك بالنسبة إلى الفتاة، هنالك معرفة لاواعية (لاشعورية) بوجود الفرج وما يتعلق بذلك من معرفة «شبقية ـ علائقية»، يكون هدفها استقبال القضيب.

وبالمقارنة يعتبر جونس أن المرحلة «الشبقية ـ العلاقية»، أي العلاقة الجنسية مع الآخر، هي بمثابة المميزة للمرحلة الأولى، والتي تتحول، تحت تأثير المرحلة الثانية (Deutro-phallique) إلى شبقية - ذاتية مثلية تحل محل الأولى. وهكذا يتوصل إلى الاستنتاج أن هذه المرحلة الأخيرة التي يعتبرها فرويد مؤسسة لكل ما يتطور في النمو الجنسي، ليست في الواقع إلا حلاً وسطاً، أو تسوية ما بين الخوف والليبيدو؛ أي بين النزوات الليبيدية السوية وبين الخوف من التشويه. ويعتبرها مخالفة للتطور الطبيعي الذي يعتنقه فرويد وأتباعه، ويقول إنه تصح تسمية هذا التحول بالانحراف القضيبي.

إذاً الخوف الكامن وراء هذا التحول ناتج عن الإسقاطات العدوانية على كلا الزوجين ـ الأب والأم ـ والسادية والجنسية المتفرعة من السادية الفموية التي تم شرحها سابقاً .

وهذه المرحلة Deutro - phallique هي انحراف يهدف إلى انقاذ الإشباعات الليبيدية بانتظار الفرصة التي يستطيع الطفل بها تخطي خطر هذا التشويه، والعودة إلى التطور السوي، أي الشبقية ـ العلائقية. لذلك، يؤكد بأن هذا التطور هو انحراف محض حالة دفاعية.

الجنسية الأنثوية البدائية (1935)

يقول في هذا المقال مستشهداً بأبحاثه السابقة، داحضاً للمقولة الفرويدية التي تنادي بالمرحلة القضيبية كمرحلة مؤسسة لكل التطورات الجنسية، سواء بالنسبة للفتاة أو الفتى: إن الأنوثة، خلافاً لما يعتقد، متواجدة منذ البداية، وإن المرحلة ليست إلا مرحلة «دفاعية» عصابية تجاه الخوف من الخطر الكامن في الأنوثة .

إنه يعتمد في البرهان على نظريته تلك بأبحاث ميلاني كلاين، وبالنظرية القائلة بوجود إزدواجية جنسية عند الطفل أو الطفلة منذ البداية؛ معتمداً بذلك على البراهين البيولوجية.

فالسؤال الأول والبديهي الذي يطرح نفسه: ما هو سر هذا التعلق الشديد بالأم؟ وهل هو نتيجة للموقف القضيبي والتشبث بالبظر كما يقول فرويد؟

إن هذا المنطلق يعقّد تحليل النمو الجنسي سيما لدى الطفلة عندما تضطر إلى تغيير موضوع جنسها وموضوع حبها.

إنطلاقاً من هذه الاكتشافات التحليلية للأطفال، يعتمد جونس النظرية القائلة بأن للطفلة جنسية أنثوية أكثر منها قضيبية، وهي تتجسد في رغبتها الاستقبالية، وبالاحتفاظ على ما تجمع من أشياء؛ اهتمامها مركَّز على داخلها أكثر من خارجها.

إن علاقة الطفلة مع الأم تتميز منذ البداية بالإحباط الناجم عن إحجام الثدي. وهكذا يخلق عندها الهوام المبكر، باستبدال القضيب بالثدي، على اعتبار أنه أكثر إشباعاً. ومصدر هذا القضيب هو من ضمن محتويات الأم التي استحصلتها من الأب نتيجة الجماع الفموي.

يدخل الأب في العلاقة بشكل أقوى ابتداء من آخر السنة الأولى، وتدخل الفتاة في علاقة أوديبية ابتداء من السنة الثانية. فالسادية تجاه الأم تأخذ مظاهر متعددة: فموية ـ بولية ـ شرجية.

نتيجة لذلك، يتولد عندها خوف. ولكن نظراً لتكوينها لا تستطيع درء هذا الخوف كما هو الحال عند الطفل عبر القضيب (آلة هدامة) ودفاعية، لأن بظرها دون هذا المستوى؛ هذا بالإضافة إلى أن الطفل يعبِّر عن ساديته في تنافسه مع الأب. أما هي فتركِّز ساديتها على الأم التي تمثل بالنسبة لها عنصراً غذائياً لا غنى عنه. إذا ما تحطم هذا الموضوع يرتد عليها بضرر لا يحتمل لما يولِّد عندها من خوف داخلي.

إذاً، العلاقة الفموية، تشكل بالنسبة للطفلة المرحلة الأولى للتطور الجنسي الأنثوي. ودعماً لذلك، يستشهد ببعض أطباء الأطفال والمحللين بأن الإحساسات الفرجية تبدأ منذ فترة الرضاعة.

ولكن الخوف الذي يكمن وراء اكتشاف الفرج هو أقوى من أن يجعله مدركاً لذلك، يبقى مكبوتاً إلى فترة العادة الشهرية.

أما فيما يخص استبدال الفرج بالقضيب، يقول جونس: إن ذلك يعود في الدرجة الأولى إلى السادية الموجهة إلى الأم؛ وهي سادية تهدف إلى فتح الطريق إلى جوف الأم لالتهام قضيب الأب. هذه المرحلة هي المرحلة الماقبل الأوديبية، ولكنها تدخل في صلب تلك المرحلة؛ وهذا ما يرتد عليها بخوف على جسدها بأن تعامل بالمثل.

فتمسكها بالقضيب يعود بالدرجة الأولى إلى تفريغ ساديتها عبر تدفق البول. وهي عملية اقتصادية توفر عليها دمار القضيب لأنها تقتصر على نشر البول، خلافاً للطفل الذي يلهو بقضيبه ويبول فلا يخشى تدميره.

ولهذا السبب يبدو أن للقضيب الوهمي وظيفة مزدوجة: فهو من ناحية حبي ومغذٍ، ومن ناحية ثانية مؤذ ومدمر. سادي تستعمله لمواجهة الأم والحصول منها على ما تريد على غرار الأب؛ إضافة إلى العديد من الهوامات المعقدة والمرتبطة بتوهمها السادي سواء للأب أو للأم.

لكن الوظيفة الأساسية تكمن في رغبتها السيطرة على ساديتها وإبطال الخوف الداخلي الناجم عن ذلك. إذاً القضيب هو دفاعي، أكثر مما هو نمو طبيعي. إن الجواب على المقولة الفرويدية، هو أن أمنيتها في القضيب موجودة: ولكن في استقباله، في إدماجه والحصول عليه عن طريق الفم أو الفرج، أما كبتها لأنوثتها فناتج عن ساديتها تجاه الأم. إن ميلها إلى استقبال القضيب يؤدي بالضرورة إلى تكوُّن هوام الحصول على طفل، نتيجة تحوُّل هذا القضيب في داخلها.

يتطرأ جونس إلى علاقة الفتاة بالأب فيقول: إن الشعور بالذنب والخوف الذي كان موجّهاً إليها نتيجة استئصال ذكرها بطريقة سادية، ينتقل إلى الأب، وكذلك تشعر بأنها ابتلعت ذكر الأب، وبالمناسبة أحدثت جرحاً عنده. هكذا يحدث عندها خوف كبير نتيجة احتواء هذا الذكر المؤذي في جوفها.

أما فيما يختص بالمرحلة القضيبية، فإنه لا يؤمن بوجودها، ويعتبرها عابرة؛ ممكن أن تتبدد وتعود الفتاة إلى النمو الأنثوي السوي. وهو بهذه التسمية، يناقض المدرسة النمساوية غير المنطقية.

ويصح القول بتسميته «بوضع قضيبي» عوضاً عن مرحلة قضيبية، لأنه ينتج عن موقف عاطفي، ولا يمثّل مرحلة في نمو الليبيدو. فهناك عوامل معينة أوجدته، يستمر باستمرارها، ويتقهقر ويمّحي إذا زالت العوامل التي كانت سبباً في تكوينه.

هذا الوضع القضيبي يظهر في المرحلة الثانية (Deutro-phallique) كوسيلة دفاعية كما أتى الشرح سابقاً، وهي تزول وتنتهي كما يزول الخوف الذي يتكوَّن عند الطفل بشكل عام وهو في الأساس هوام دفاعي ومرحلي.

هذا الهوام يشبِّهه جونس بالهلوسة التي تحصل عند الحرمان من الحاجة الملحة، والتي تتبدد بمجرد أن تقوى الأنا ويدخل الواقع بشكل حقيقي فتتقبله. وبالمناسبة تتحول ساديتها التي كانت موجهة إلى الأم، إلى الأشخاص المحيطين بها. وهي بدلاً

من أن تكبت هذه السادية، تعبِّر عنها بشكل صريح نحو الأم نفسها؛ وبدلاً من أن يكون موضوع حبها جزئياً، يصبح كلياً فيمكنها حينئذ توطيد علاقة جامعة مع الأب أو الأخ.

الخلاف مع فرويد يتلخص، بأن العقدة الأوديبية تسبق الإحباط الفموي الصادر من الأم. ونتيجة لعدم قدرة الأنا على تخطي هذا الخوف الناتج، تتخلى الطفلة عن المواجهة وتحتمي بالمرحلة القضيبية، حتى تقوى وتعود إلى أنوثتها السوية. لأنه خلافاً لفرويد الذي يقول إن الأنوثة تتكوَّن عن طريق معرفتها للفارق الجنسي، فهي على العكس متواجدة قبلاً بحكم تكوينها الغريزي.

السؤال هو إذا كانت الامرأة خلقت امرأة أم أنها تصبح امرأة. إن الجواب على ذلك يستشهد به من حكم القدامى، من أفلاطون عندما قال: في البداية خلقهم ذكراً وأنثى.

و لكن السؤال الذي لم يطرحه جونس هو: إذا كان الأهل يعرفون أن طفلهم ذكر أو أنثى عن طريق تسمية ظهور الفارق الجنسي: هل بالمقابل يعرف الطفل ذلك دون معرفته باللغة؟ واذا كان لا يعرف فلا بد أن يستمد معرفته لتحديد جنسه من معرفة الآخر وهي ليست بالضرورة مطابقة للمعرفة التشريحية. هذا ما يؤكده لاكان ان الالتباس الذي وقع به جونس هو جهله لموقع الآخر الكبير الذي يحدد أولوية الفالوس.

الخاتمة

يتبين لنا من خلال هذا الاستعراض لتكوُّن الأنوثة أن التباين وارد عند معظم المحللين ـ وحتى فرويد يعترف بقصر نظريته ـ وأن الموضوع أعمق مما يمكن أن يطاله التحليل النفسي بكل جوانبه. فلا تزال هناك نقاط يحيطها الغموض ولا يطالها التحليل إلا من خلال الترميز، لأن واقعها لا يدركه الاستحضار الوجداني، فهي تبقى في حكم المخيلة، غير قابلة لأن تطابق واقعاً مرئياً ونهائياً.

وهذا ما دعا بعض المنظرين بوصف الأنوثة بـ: Mascarade، أي مجموعة أقنعة تعبِّر عنها، كلما سقط قناع ظهر آخر حتى القناع الأخير في مفهومه الجمالي يغطي حقيقة الموت. الجمال هو الخط الفاصل ما بين الواقعي والموت. وهنالك نقطتان يجب التوقف عندهما، لأنهما تمثِّلان المفترق الأساسي لما يميز المرأة عن الرجل:

أولاً: الإنجاب. فارتباط الوليد بالأم، هو ارتباط عضوي لا مجال للشك به، أي أنه واقع يربط الجنين مباشرة بالمصدر الذي أخرجه إلى هذه الحياة. ولا يتحمل أي شك. وهذه العلاقة الاندماجية ترمز إلى أسمى ما يمكن أن تعطيه الامرأة عن سر كينونيتها، لا يقبل أي تصور بيولوجي أو سيكولوجي نهائي. ولكن انفصال المولود عنها يضع حداً لهذه النرجسية، لأن الصورة المتكاملة التي كانت تكوّنها تصبح ناقصة بمجرد خروج هذا المولود إلى العالم، وكي تتمحور العلاقة بين الطرفين حول هذا النقصان المشترك سواء من دواعي رغبة الأم لاستعادته إلى أحشائها، وحنين الثاني إلى هذا المكان الذي تركه بحكم القوانين الطبيعية.

والإنجاب عند الامرأة له قيمة رمزية عميقة الآفاق تتفاخر بها على الرجل. ويظهر ذلك من خلال الأساطير والدراسات الأنتروبولوجية في بعض الشعوب البدائية أن الرجل تنتابه الغيرة إلى درجة أنه يحاكي الامرأة أوجاع المخاض كي يتهيأ له أنه ساهم في الإنجاب.

وإذا كانت علاقة الابن بانتمائه العضوي إلى الأم لا تقبل الشك، فالموضوع يختلف بارتباط الابن بالأب، فلا شيء يثبته سوى شهادة الأم (أي قولها)، مما حدا بجاك لاكان إلى تسمية هذه العلاقة بمجازية أبوية (Métaphore paternelle)[٨]، كونها تحافظ على سرها وتبقى مبهمة وغامضة وموضع تساؤل عن ماهية الأب، أي كون هذه التسمية والارتباط بها غير مطابقين لأي براهين بيولوجية[*]. إن العامل الوحيد والدليل على هذا الارتباط هو رغبة الأم به واعترافها بدوره.

ثانياً: التكوين التشريحي للأعضاء الجنسية التناسلية عند المرأة، فبما أنها مخفية عن النظر، خلافاً لما هو عند الرجل، جعلت الناظر المجرد من أي معرفة لها سواء صاحبتها أو غيرها، يتخيل ويتصور، يخدع وينخدع حسب التركيبة الهوامية ودون أن يصل إلى حقيقة الأمر. لأن ما هو ظاهر عند الرجل يأخذ أولية مطلقة، تخدع الطفل والطفلة عن حقيقة وضعها بالنسبة لهذا التباين.

وإذا كان الإفتتان المبكر الذي يظهر عند الفتاة يأخذ منحى أنثوياً مميزاً فيما بعد، فيعود بدرجة أولى إلى شعورها بنقصها وأن الآخر لا يعطي اهتمامه لها وتقويم نرجسيتها إلا بقدر ما تجعل من هذا النقصان مطلباً يتعمم على كل جزء من جسدها يشير إليه، وعلى شخصيتها بكاملها. فكل عملية الإفتتان تتمحور حول قدرة الامرأة بجذب الرجل إليها، عبر إمكانية نجاحها في إعطاء أكبر قيمة ممكنة لما هو نقصان عندها، سواء كان ذلك بإخفائه أو بالتلميح إليه ـ فكشف أي جزء من محاسنها لا يأخذ معنى الإغراء إلا بقدر ما يلمح إلى هذا النقصان.

وهذه القوة الجاذبية بين الطرفين لا تصبح فعالة إلا بقدر اعتراف الطرفين الضمني

(*) يتأرجح الإنسان دائماً في تفكيره بين الشك واليقين. فالشك باتجاه الأب ولا شيء يثبته سوى اسمه ودوره الرمزي. أما اليقين فهو باتجاه الأم، لأن العامل البيولوجي لا يحتمل الشك.
بعد التطور العلمي بدا أنه أصبح بالإمكان إثبات الهوية للأب. ورغم أن الأبحاث محصورة في بعض الحالات القضائية، إلا أنها تفتح المجال أمام سابقة لم يشهدها التاريخ وقد يكون لها آثار اجتماعية ونفسية متعددة. رغم ذلك يبقى الثابت في الموضوع هو اسم الأب ودوره الرمزي، بغض النظر عن هوية الأب البيولوجي. في الحمل الطبي المفتعل، لا يؤخذ بعين الاعتبار إلا الأب الرمزي الذي أعطى اسمه للمولود المختلق، وما يدعو إلى القلق هو تضاؤل حجم الأب ودوره في التأثير على الطفل، مما أحدث تغييراً في المعطيات العيادية: من اهمها ظهور ما يسمى بالحالة الحدودية: أي على مفترق طرق ما بين العصاب والانحراف والذهان. ظاهرة مرضية تبدو مرتبطة بافول دور الاب.

بالتباين الجنسي بينهما (فمثلاً هذه القوة الجاذبية تفقد فعاليتها عند اللوطيين والسحاقيين). والمرأة تعرف بأن نقصانها هو ثروتها وموضوع رغبة الرجل، فلذلك تحاول أن تستمد أكبر قوة منه ممكنة عبر مظاهرها الجذابة والفاتنة التي تكشف مظهر أنوثتها دون أن تكشف سرها.

وإذا قلنا إن الله خلقهم أنثى وذكراً ـ فهذه معرفة في ذات الخالق ـ ولكن هل يعني ذلك بأن الإنسان منذ ولادته يدرك هذه المعرفة؟

مما لا شك فيه أنه يخلق مع تراث غرائزي شأنه شأن أي حيوان. ولكنه ينفصل عنه في مرحلة لاحقة حيث إن الحيوان يبقى ملزماً بغريزته الطبيعية، أما الإنسان فينفصل عن المسيرة الطبيعية، ليتبع الارتقاء الحضاري الثقافي غير الطبيعي (Lévi-Strauss - Nature et culture). فالحيوان عندما يبلغ مرحلة النضوج الجنسي يكتشف التباين الجنسي عند أمثاله من نفس الفصيلة، عن طريق حاسة الشم أو النظر: وهي معرفة غرائزية تتملك بالحيوان ولا يتملك بها. أما بالنسبة للإنسان فهذه المعرفة، وإن كانت حقيقة بيولوجية، إلا أنها لا تصبح معرفة بالنسبة له إلا بعد نضوج وتطور نفسيين؛ أي خلافاً للحيوان حيث تقتصر المعرفة الغريزية على استمرار الجنس. تحصل عند الإنسان معرفة إدراكية لهذه المعرفة الغريزية، تمكِّنه من التملك بها والتحكم بها حسب تطوره الحضاري، وهو كلما ارتقى في هذا الاتجاه كلما تطلب منه جهداً إضافياً في كبت غرائزه ولجمها وتحويلها عن الإشباع المباشر أو حتى عن أهدافها، كي يستثمرها في ميادين تساهم في التقدم العلمي والثقافي.

ويتبين لنا أن مرحلة الكمود التي تأتي مباشرة بعد المرحلة القضيبية ـ الأوديبية ـ هي مرحلة انتقالية نشوئية خاصة بالإنسان فقط. فالحيوان (Mammifère) يرافق الإنسان في نموه الجنسي حتى المرحلة القضيبية وبعدها يكتمل نضوجه. أما الإنسان فيصاب بكف في المرحلة الأوديبية التي تلي الأولى، حيث يصاب بالكمود ويؤجل كل نشاطه الجنسي حتى بلوغه سن المراهقة. ففي خلال هذه الفترة تخمد عنده كل النزوات الجنسية التي كانت تثيره في الفترة ماقبل الأوديبية.

ويظهر من هذا التباين في النشوء الانتروبولوجي أن الإنسان عندما يصاب بحالة الكف المميزة بالعقدة الخصائية تتكون عنده فجوة نفسية يستحيل ردمها، إنها استحالة لأي علاقة جنسية يمكن أن تستعيد ما هو نقصان أساسي. وهذا ما حدا بلاكان إلى

القول بأنه لا يوجد علاقات جنسية Il n'y a pas de rapprot sexuel. فهذه الفجوة Béance، هي بمثابة النقصان الأحادي (1 ـ) أو (∅ ـ)(*) من حيث يبدأ العد الارتقائي للتطور الحضاري.

وهذا المد الحضاري المعتمد أساساً على البنية البطريركية (أي الأبوية) وصل باستنتاجاته العقلانية إلى إفرازات تقنية حديثة لا بد أن يكون لها الأثر العميق في تغيرات البنية الاجتماعية التي كانت سائدة حتى الآن، والتي على أساسها قوَّمنا العديد من الاكتشافات النفسية.

وسأقول على سبيل المثال: ليس الوصول إلى القمر هو الحدث، بالرغم من أهميته ـ فأثر ذلك يبقى محدوداً في إطاره التقني ـ ولكن ما يثير التساؤل هو التقدم التقني الحاضر فيما يخص الإنجاب الاصطناعي وتأثيره على علاقة المولود بالأم أو بالأب.

فهناك ثلاثة احتمالات وكل منها يطرح سؤالاً على حدة:

الاحتمال الأول: الزوج عقيم والزوجة خصبة: فيزرع في رحمها من صلب رجل آخر حسب اختيارها ـ أي تستثني علاقة الحب في الولادة.

الاحتمال الثاني: الزوج خصب والزوجة عاقر. فيزرع من صلب الزوج «مني» في رحم إمرأة تتبرع لمثل هذه المهنة مقابل حفنة من المال؛ وينتظر إلى حين بلوغ الجنين مرحلة الولادة، فيستعيده الأب ويضعه في حضن زوجته بدلاً من أمه البيولوجية.

والاحتمال الثالث: هو طفل الأنبوب: أي أنه يجمع بويضة امرأة ومني رجل مجهولين في أنبوب تتهيأ به كل الشروط البيوكيميائية التي تؤمن تكوُّن الجنين واستمرار الحياة حتى يصل إلى مرحلة الفصل.

فكل هذه التطورات التقنية لا بد أن تنعكس بشكل من الأشكال على البنية الذاتية للإنسان الغربي. وهنالك العديد من الأسئلة التي تطرح نفسها. فمثلاً ما علاقة الأب الشرعي بالأب البيولوجي وكذلك بالنسبة للأم؟ وما هو دور الباحث والقائم على مهمة الحمل الاصطناعي؟ أي في هوامه والتي تجعله يوجِّه اكتشافه في هذا الاتجاه. فإذا حقق رغبة فهل هذه الرغبة مطابقة لمفهومه لذاته، وهل بإمكانه تحمّل نتائجها

(*) (1-) تشير إلى الهوية العددية - كنقطة انطلاق- أي يبدأ من نقصان لوجوده. و∅ ـ وهو ما يمثل عقدة الخصاء. على اعتبار أن الخصاء الرمزي يطال المتخيل لكي يلغي الفالوس الذي كان يتماهى به كي يتمم نقصان أمه.

وحصرها فيما بعد. كل هذه الأسئلة التي يمكن أن تطرح، لا يسهل الجواب عليها نظراً لأنه لم يتسن للباحثين ولعلماء النفس البعد الزمني الكافي لكي يقوِّموا نتائجها.

إضافة إلى تفتت البنية البطريركية للأب، بعدما سمح في بعض البلدان الغربية، للطفل غير الشرعي، أن يصبح شرعياً ـ أي بدون زواج ـ وأن يحمل إسم الأم إذا لم يتسن له اعتراف الأب به، أو حتى له الخيار في أن يحمل اسم الأم أو اسم الأب.

إن التطور النوعي سواء كان على الصعيد التقني أم على الصعيد الاجتماعي لا بد أن يترك بصماته في تغييرات نفس ـ اجتماعية.

فإذا كان التطور الحضاري قد أخذ منحى مغايراً للطبيعة، فالبادىء هو أوديب(*) عندما اعترضه السفينكس لكي يطرح عليه لغزاً: فإما يحله وتنفتح عليه آفاق المعرفة والحقيقة وإلا فإنه سيهلك.

وهكذا عندما أجاب بأن الحيوان الذي يبدأ حياته بالمشي على أربعة أطراف، ثم على اثنين ثم على ثلاثة، هو الإنسان. لم يكن يعرف بأنه قد خط طريق الإنسانية في الاتجاه المغاير للطبيعة، وبأنه قد حدد موعده مع القدر على غير علم منه.

(*) أنظر: أسطورة «أوديب الملك» حيث إن أوديب قبل أن يخلق كان القدر قد حدد مصيره.

المصطلحات اللاكانية

أب: ركّز لاكان بعد فرويد على دور الأب في تأسيس بنية الذات، رغم أنه ألغى سيمينيره المخصص لهذا الموضوع، إلا أنه تكلم في مناسبات عديدة بصيغة اسم الأب كمجاز محوري يشير إلى انتقال السلطة من الأم إلى الأب واعتبره دال 1 يتماهى به الطفل ويصبح الحجر الأساسي لبنيته.

الأب الرمزي:

بنظر فرويد ولاكان هذا القانون الأولي الذي حل على الأبناء بعد جريمة قتل الأب. فحرَّموا في مماته كل ما كانوا يتمنّون الحصول عليه في حياته. وعلى رأس هذه هّو التحريم الأساسي للأم.

الأب الرمزي إذاً هو القانون أو الأب المقتول (الميت). لا يمكن لأحد أن يحل مكانه إلا في حالات الأنظمة الديكتاتورية، حيث يصبح الحاكم هو القانون والقانون "هو" ويشرِّع القوانين على هواه. الأب الرمزي يشير إلى الفراغ أي إلى النقصان، أي عمل يملأ الفراغ يحيي الشعور بالذنب المرتبط بقتل الأب.

الأب المخيالي:

هي الصورة التي يكوِّنها الطفل عن أبيه بمعزل عن شخصيته الواقعية. وهذه الصورة تستمد تكوينها من الهوامات اللاواعية سواء كانت في اتجاه التقديس للأب أو في اتجاه إذلال الأب وتحقيره. على أساسها تترتب مسالك الطفل في علاقاته الاجتماعية . وفي هذا الأب المتخيل يكمن التهديد في الخصاء أو في الموت، أو في الالتهام. الأب المتخيل يحمل في طياته كل هذه الصفات التي تعود إلى الأب البدائي. مما لا شك ان تصرفات الأب الواقعي ومكانته الاجتماعية قد تساهم في هذا الاتجاه أو في التخفيف من وطأة تأثيره. أهم إفرازاته العيادية هي الأب المثالي.

الأب المثالي:

حدده صفوان بالآتي:

- من الناحية البنيوية: هو من صنع الحقل المخيالي رغم احتوائه عنصراً رمزياً بما يخص التحريم.

تقاس أهميته وتأثيره: بالمسافة التي تبعد الأب المخيالي عن الأب الواقعي.

- من موقعه ومكانته:

1- هو أب ميت: نجد هذه الصفة في طيات المتخيل على اعتبار أنه صنم نعبده لوجوده ولعدم قدرته على التحرك.

ميت أيضاً: نتيجة حسم الصراع والمنازعة التي سبقت ظهورها.

2- هو أعمى: تجاه حقيقة الرغبة، لا يريد أن يعرف شيئاً عنها.

3- مجرد من الرغبات الجنسية: مما يحمي الشخص من تأثير هوام المشهد الجنسي الأولي الذي يلغيه.

4- تتجسد به سلطة الأنا الأعلى: يصبح الشخص تحت رحمة الممنوعات المفروضة عليه من الخارج. لأن الأب المثالي يتجاهل الرغبة "لا يعرف".

الأب الواقعي:

يقول مصطفى صفوان: في الأساس بعيداً عن التحكم الوحيد لقانون الجماع الشائع، يتبين أن تكاثر البشر يخضع بالدرجة الأولى إلى قوانين القرابة. على رغم اختلاف المجتمعات البشرية، إلا أنها تبقى مشاركة بصفة واحدة وشاملة وهي ما يختص بتحريم الأم. قبل أن تصبح رباطاً مفصلاً أو حتى موضوعاً للتذكير. يبقى هذا التحريم للأم مرتهنا باسم الأب. وتأخذ هذه الوظيفة أهميتها بقدر ما تعطي الأم وزناً للأب. في خطابها الموجه إلى الطفل. تظهر هذه الحالة الفريدة بوضوح عندما يتبين بأن القانون يستمر مرتبطا باسم الأب كدال بغض النظر عن وجوده جسدياً. هذا لا يمنع بأن الرجل الذي يحمل هذا الاسم يدعم نفوذه بالقدر الذي يسمع به كلامه للأم.

عندئذ يجد الطفل نفسه ملزماً بدين، من خلال علاقته بالأب الواقعي، يحمل في فحواه الخصاء الرمزي. فبنظر لاكان تكمن وظيفة الأب الواقعي في كونه عميل الخصاء (Agent de la castration).

إشارة signe:

خلافاً لما يعرِّف لاكان الدال، فالإشارة تتميز عن المفهوم الألسني: فهي بنظر لاكان ما يمثِّل الشيء بالنسبة إلى الذات - عندما نقول: لا يوجد دخان من دون نار - أي الدخان هو اشارة عن وجود النار بالنسبة للناظر أي الشخص. بالنسبة لسوسير Saussure الإشارة تتكون من مفهوم يجمع ما بين الدال والمدلول.

دال / مدلول = الدال أي الشجرة. أي فكرة الشجرة هي فكرة واقعية تشير إلى مادية وجودها . أما كلمة شجرة فهي المدلول كونه واقعاً نفسياً لتصور هذه الشجرة، بمجرد أن ينطلق الصوت اللفظي: المكوّن من ش.ج.ر.ة . فالكل يشكل وحدة تسمى إشارة.

أنا Moi:

تشير إلى الهوية التي لا يمكن أن تأخذ معناها إلا عن طريق نفي الآخر، على اعتبار أنه غير الأنا. اعتبرها فرويد الأنا المحاور الأساسي مع الآخر ومع الواقع الخارجي.

في مرحلة لاحقة (مقدمة في النرجسية) اعتبرها سلطة مضللة عندما تؤجهها المشاعر الملتهبة. لاكان حسم الموضوع بين الموقفين:

اعتبر الانا في بنيتها الأساسية مخيالية انطلاقاً من مرحلة المرآة، وهي مضللة إذا سلبت الصورة المرئية الإنسان عن ذاته. وهنا ليس ببعيد عن الموقف الفرويدي الثاني، ولكنه أكثر حسماً.

أنا مثالي: Moi idéal

نجد اختلاطاً والتباساً عند فرويد في التوضيح ما بين الأنا المثالي ومثال الأنا والأنا الأعلى .

بالنسبة للاكان الأمور أكثر وضوحاً: فالأنا المثالي هي حالة مثالية يريد الإنسان أن يتوصل إليها، تشعره بالإكتفاء التام ويحظى بها على محبة الآخرين، بالشكل الذي يتمنى أن ينظر اليه.

هذا التصور للحالة المثالية يدخل في إطار العمل الخيالي المبني على النرجسية. ويتبين في العيادة إذا ما تتطور لا يتحقق إلا على حساب إلغاء الآخرين.

مثال الانا: Idéal du moi

وصل الأنا في مثال أعلى، يضعه الإنسان نصب عينيه، لا يتوخى إلا الاقتراب منه والوصول اليه، او تحقيقه.

وهذا المثال رمزي قد يأخذ أشكالاً مختلفة: دينية، فكرية، مهنية، أخلاقية، الخ، أي موضوعها أيديولوجي. إذا ابتعد عنه المثال يشعر بضغط شديد وبدونية محبطة، وإذا اقترب منه كثيراً تفقد الحياة قيمتها. هذا التجاذب يستمر مدى الحياة دون أن يبلغ حده الأقصى، إلا إذا بلغت التضحية في سبيله الحياة نفسها.

ضياعه يؤدي إلى حالات اكتئابية، عندئذ قد يتحول إلى أنا أعلى يلاحق ويضطهد.

انعدام Forclusion:

مفهوم استعان به لاكان لكي يميِّز العمليات النفسية المؤسسة للذهان psychose. والكلمة تأتي من عدم: تشير إلى غياب أي مؤشر أو مرجع يشير إلى وجود مسبق للشيء. المعروف أن كل المجتمعات الإنسانية تنبني على مجموعة من المعتقدات السابقة والتي تشكل البنية الأساسية للتراتب الرمزي (صفوان). في صدارة هذا الموروث الثقافي يحتل الجهاز العائلي وتنظيم العلاقات المكانة الاولى . وهذا الجهاز يتمحور حول اسم الأب على اعتبار أنه ينظم قوانين الزواج وتسلسل النسب انطلاقاً من المحرم الأول (أي الأم). فانعدام اسم الأب المميز للذهان يفقد الذات مرجعيتها في تحديد هويتها وفي ترتيب الجهاز الرمزي الذي يفقدها القدرة على التعامل مع الواقع (le réel). ويشير لاكان بالمناسبة، إلى أن هذا الأخير إذا لم يحصل على الترميز من الجهاز الداخلي يرتد من الخارج بشكل هذياني، ويفقد ارتباطه بالواقع النفسي الداخلي- فيظهر غريبا عن الذات، إما بشكل ملاحقة أو اضطهاد أو رؤية الواقع الخارجي بشكل هذياني أو هلوسي.

هذا الانعدام لاسم الأب يأتي نتيجة لعاملين:

إما بإلغاء إرادي من الأم كي تتملك بمولودها وتخضعه لقانونها الخاص (نزواتها)، ولا شيء يؤثر عليها.

وإما لأن الأب قد غاب كلياً عن اسماع صوته وقوله حتى لو كان موجوداً جسدياً، فيفقد اسم الأب حينئذ فعاليته، وإما لتشبهه بشكل كاريكاتور تتجسد به القدرة والسلطة كما لو كان هو مصدر القانون وصاحبه.

في كل هذه الحالات تنعدم فعالية اسم الأب وتفقد الذات محور نظامها الرمزي. ويخلق فجوة في الحقل الرمزي تهدد الذات بالفناء إذا ما اقتربت منها فيتدخل الهذيان لملئها، بالنسبة لفرويد الهذيان كناية عن محاولة علاجية لردم هذه الهوة.

إحباط: Frustration

هو تعبير عن الانزعاج الشديد الذي يطال الحالة النفسية عندما لا تحصل الذات على الموضوع الذي يؤدي إلى اكتفائها، رغم الإلحاح أو الجهد المبذول للحصول عليه.

مثلاً الطالب الذي يبذل جهداً كبيراً للنجاح في الأمتحان، فيحصل على الفشل. يقال أصيب بإحباط شديد. أو العاشق على موعد مع عشيقته فيطول انتظاره دون ان تأتي إليه، يصاب بالاحباط. كذلك الأم عندما ترفض لطفلها موضوع طلبه، يحصل كما يقول لاكان تضرر نفسي.

هذا المفهوم يشكل إحدى الزوايا الثلاث للمثلث الذي تتمثل به الحالة النفسية بالنسبة لموضوع طلبها. وقد تناول لاكان في السيمينير "4" علاقة الإنسان بالموضوع. يتميز هذا الأخير بكونه نقصان يحاول الطفل منذ وعيه للعالم الخارجي أن يزيل النقصان عن طريق الحصول على موضوعه. إذا في الاساس، وهو حجر الزاوية، هنالك نقصان لموضوع يؤدي إلى ثلاث حالات من النقص: الإحباط، الحرمان، والخصاء.

كل حالة من هذه الحالات الثلاث لها عاملها المؤشر في عملية البناء الأولى، ولها موضوعها الذي يتميز حسب التعريف اللاكاني بنوعيات مختلفة: إما أن يكون واقعياً، وإما أن يكون مخيالياً وإما رمزياً.

الإحباط يدخل في المفهوم اللاكاني عندما تتأسس العلاقة الأولى مع الأم. فهو الممهد البدائي للأوديب، لأنه يحدد الموضوع والفاعل الذي يتحكم بتلبية الطلبات أو رفضها. الطفل يدرك موضوعه قبل الأم الملبية. فهذا الموضوع يقول لاكان بأنه واقعي (Réel). لا يدرك الأم بوظيفتها لتلقى الطلبات إلّا بعدما يتحقق شرطان: الأول حضور غياب الأم يجبره كما الحال في FOR-DA إلى ترميزها.

الشرط الثاني: بما أنها تلبي طلباته يضفي عليها السلطة بأنها قادرة على تلبية كل طلباته. أي تقصير يحصل يؤدي إلى الإحباط من منطلق مخيالي. لذلك اختزل لاكان العلاقة الأولى: بأن الإحباط هو حالة مخيالية.

موضوعها: واقعي يطال أحد مواضيع العالم المحيط به.

الفاعل: هو الأم بشكلها الرمزي: أي الأم الرمزية لأنها تتمتع بالسلطة العليا القادرة.

الآخر (الكبير): Autre

يميِّز لاكان بين الآخر الكبير والآخر الصغير عن طريق المخاطبة. ويختلف موقع الذات حسب المرسل إليه. إذا كان بمثابة الآخر الكبير أو الآخر الصغير.

يتكون الآخر الكبير في البداية عن طريق الأم، حيث توجه اليها كل الطلبات التي تؤمن له حاجاته الحياتية. وفي مرحلة لاحقة يأخذ الأب هذا المكان على اعتبار ان الطفل يدرك انه نظراً لصغره غير قادر من ان يلبي كامل نقصها. موضوع رغبتها يتعدى وجوده لكي يطال الأب على اعتبار انه يحمل القضيب الذي يتمم نقصها. هذه النقلة تؤدي إلى عملية يدرك الطفل من خلالها انه نقص موجود وأن الأب كمؤسس أول للقانون، يعطي للرغبة حق انطلاقتها الأولى.

ويحصل على غير علم منه ان هذا الآخر الكبير، حتى ولو تجسد في البداية بالأم والأب، إلا أنه لم يكن ليحصل لولا نسيج اللغة التي أعطته قدرة التعبير، وتكون منها في آن واحد.

انطلاقاً من هذه العلاقة تتكون الذات من شبكة دوالي لغوية، لكي يصبح الآخر الكبير المرسل إليه "حكماً" لكل طلب ولكل رغبة. هو المحطة التي تعطي للكلام معناه وتفك رموزه وهو كنز الدوالي Trésor du signifiant..

وهو موقع موجود في استمرار في كل مرة يتحاور طرفان.

يقول لاكان: إن بدى أن الآخر الكبير خارجي في البداية إلا أنه سريعاً ما يدخل في حوار الذات مع نفسها، لكي يصبح ذاتياً داخلياً، أو في مرحلة لاحقة مخزن الرغبات المكبوتة. أي بتعبير آخر اللاوعي وممكن أن يسمى الـ «هو».

الآخر (الصغير): autre

هو القرين الذي نتعامل معه كل يوم ويمثّل الفرد من رابطة عائلية أو اجتماعية. يدخل في بنية الذات منذ الطفولة الأولى على أساس أنه منافس وذلك حسب لاكان انطلاقاً من مرحلة المرآة التي تظهر له لأول مرة أن هذا الذي يحتل مكانه ويزيحه، هو آخر، من هنا المقولة المعروفة: بأن الأنا هي الآخر، وهو في البداية المؤسس الأول للصراع الذاتي، لأنه يدخل إلى العلاقة الاجتماعية من باب المنافسة. ولكن

إصلاح الأمور يأتي عن طريق اللغة الآخر الكبير، الذي يدخل كوسيط لكي يعطل المنافسة المميتة.

هذا الآخر الصغير يدخل في تكوين الحقل المخيالي للذات، عن طريق التماهيات التي تحصل من خلال مقارنته بالآخر القرين أو من خلال إدماجه والحلول مكانه.

انها عملية نفسية مستمرة، لأن هذا الآخر الصغير يعكس دائماً صورة للأنا تتحكم بردات الفعل عنده إن كانت حبية، كراهية أو صدامية.

الآخر الصغير (a) يدخل دائماً في تكوين الأنا.

إنكار- نفي Dénégation- VERNEINUNG

اعتماد فكرة معاكسة لما يرغب الشخص به. أي هي كناية عن وسيلة تعتمدها الأنا كي تحافظ على كبت الفكرة المعكوسة لها. يعطي فرويد مثالاً على ذلك: عندما يسرد مريض حلماً يقول بأنه ظهرت امرأة تريد اغراءه ـ ثم يزيد لا تقل لي إنها أمي ـ يجيب فرويد بالتأكيد هي أمك. اعتمد على هذا التأويل على أساس أن النفي اللاحق جاء ليؤكد الفكرة المكبوتة "تعلقه الشبقي بالأم".

تدخل هذه العملية الفكرية في إطار نسق الكبت. وينبني عليها الحكم بالنفي على اعتبار أنها آتية من الخارج ولا علاقة له بها.

وهذا الحكم ينبني على عمليتين فكريتين:

إما أن ينفي الموضوع كلياً: وتلفظه الأنا لكي يصبح خارجاً. وإما أن يطال النفي صفات الموضوع المميزة له ويدمجه بالأنا لكي يتوحد بها.

تتحقق وظيفة الإنكار بفضل العامل الرمزي الذي يتناول الموضوع ويعطيه الرمز المناسب، الشيء الذي يمكن الأنا من الاعتراف بما هو مكبوت في اللاوعي، عن طريق إخراجه المعاكس.

بوروميه- العقدة البورومية.

استعان لاكان بالرياضيات الموضعية (Topologie) لكي يعطي تصوراً للعمليات الدائرة في الحقل النفسي. واستعان بالعديد من النظريات الرياضية لكي يستخرج منها صيغاً تؤمن تعليم التحليل النفسي دون تحريف، على اعتبار أن الصياغة الكلامية يطالها الوهن من كثرة التكرار ومعرضة دائماً للتأويل المنحرف بسبب العامل الذاتي.

آخر مبتكراته: كانت العقدة البورومية التي أدخلها في دراساته سنة 1972- وهي كناية عن عقدة مؤلفة من ثلاث حلقات: منعقدة فيما بينها بشكل إن قطعت إحدى العقد تتحرر الثلاث في آن واحد. عائلة "بوروميه" الإيطالية جعلت منها شعاراً لتؤكد تحالفها مع عائلتين أخريين، وكانت تطرزها على القمصان المشتركة.

استعان لاكان بهذه العقدة لكي يبرهن نوعية الترابط ما بين الواقعي والمتخيل والرمزي. انطلاقاً من ان دخول الإنسان عالم اللغة أعطى تحقيقاً لوجوده. وهذا ما عبر عنه في كلمة "parlêtre" أي المتكلوجودي. أي الوجود مرهون بالكلام.

هذا الوجود، وهو واقعي، لا يمكن استخراجه من الكون إلى حيّز الاعتراف إلا عن طريق نوعية تشابكه مع المتخيل والرمزي.

وهذه النوعية تعطي تصورها النهائي في العقدة البورومية. فإما تكون أو لا تكون.

هدف هذا التحول والاستعانة بالأدوات الرياضية هو تسهيل مهمة التحليل، لا كما يتصور البعض نقل التحليل النفسي إلى الحقل الرياضي أو حتى الفلسفي. هذا ما ضلل العديد من المنظرين، وغيَّب عنهم العمل العيادي.

تحويل: (Transfert)

عملية نفسية تحصل في العلاج التحليلي على غير علم من المتحلِّل، تجعله يحوّل إلى شخص المحلل صفات ومشاعر حبية أو عدوانية، تعود إلى أشخاص لعبوا دوراً مهماً في بناء تاريخه، ولكن طواها الزمن، ولم يبق منها سوى الهوامات المتكوّنة المحصورة في اللاوعي لأن الكبت قد عزز مقاومة الوعي.

وضّح لاكان الفرق بينه وبين المحللين الذين أخطأوا في تأويل فرويد للتحويل. في نظره التحويل لا ينطلق من المشاعر تجاه المحلل، إنما من المعرفة على اعتبار أن هذا الأخير يمثل بالنسبة للمتحلل: الشخص المفترض عارف لما يجهله من أسباب معاناته. على هذا الأساس يبدأ المتحلل بالكلام بالتعريف عن نفسه كي يلق من الآخر مزيداً من المعرفة.

في هذا المجال ينشأ من التحويل شيء لم يكن في الحسبان: أي أن المحلل يحتل من خلال تسلسل الأفكار، مكان موضوع الرغبة أي موضوع ألف ـ الذي ـ

يصبح المحرّك الأساسي للتحويل ـ والمحلل لم يعد شخصاً عادياً إنما الشخص المميز أي الآخر الكبير الذي يحمل موضوع رغبته ويعرف أكثر منه عن هذه الرغبة التي كانت إلى حد الآن مكبوتة.

إذاً التحويل هو المسرح الذي يفسح المجال للاوعي أن يصبح فعلاً. يشير هنا لاكان أن المحلل غير معني بشخصه إنما بالخطاب الموجه إليه والمقصود به آخر.

نهاية التحليل تحصل في استئصال موضوع "أ" أي يسقط عن المحلل ـ يعود بعدها في نظر المتحلل إلى إنسان عادي، دال كبقية الدوال. موضوع "أ" هو سر بريقه ولمعانه وجاذبيته على غرار آغالما (Agalma) كما وردت في وليمة سقراط.

تحويل مقابل:

هو ما يخالج المحلل من توارد افكار من جراء سماع خطاب المتحلل، على اعتبار أن هذا الأخير موجَّه إلى لاوعيه أكثر من وعيه.

قد يشعر من جراء ذلك بمشاعر مختلفة لم تكن في حسبانه:

شعور بالمودة، بالحب، بالعطف، أو بالعداء، أو بالاشمئزاز، الخ

المهم ليس ظاهر هذه المشاعر، إنما استقراء مصادرها ليعرف ماذا في حديث المتحلل قد أثير عنده. من هنا قد يأتيه مفتاح التأويل، ويصبح على موعد مع المكبوت عند المتحلل.

المهم في الموضوع في نظر لاكان أن لا تحول هذه المشاعر المتقلبة عن تغييب رغبة المحلل في التحليل.

هدف التحليل التعليمي هو تمكين المحلل من اكتشاف وتثبيت هذه الرغبة، التي تخوِّله العمل حتى تتمكن من التغلب على كل ما هو ناجم عن التحويل المقابل، فلا يضحِّي بها من أجل نزوة جانبية، لأنها في الأساس غير معادلة لرغبة المتحلل.

تواصل: (Transitivisme) صفوان

وسيلة اجتماعية للتواصل تتميز بصفة syncrétique أي بتناقض في مفهوم العلاقات، بين الأنا والآخر، على غرار ما يحصل للطفل في سن مبكرة. مثلاً إذا سألنا طفلة لماذا ضربت تجيب لأن "الطفلة " "المضروبة" "قد ضربتني" . هنا يجب أن نميز بأن هذه الحالة لا تصنف بالإسقاط (Projection) إنما هي ناجمة عن بنية

أساسية عند كل طفل في البداية لا يفرق بين الأنا وصورة الآخر شبيهه، بشكل أنه يظهر عندما يعتدي، كأنه هو المعتدى عليه، أي هو الذي تلقى الضربة. الطفل يبدو مأخوذاً في استعراض الآخر قرينه، فيتماهى به في شكل غيرة منافسة، إما تكون غيرة محببة أو تحبب في غيرة.

كذلك يتبين ان الثاني يتماهى بالأول، حيث يتأمل نفسه بشكل مرآتي . يتحكم بهذه العلاقة ما بين الذات والذات الاخرى، انقسام أساسي جواني خاص بكل طرف.

من خلال التطور اللاحق، تتمكن الأنا من الانفراد وتمييزها عن الآخر. ولكن يتبين انه رغم النضوج، تبقى هذه البنية قابعة في أساس الأنا ولا تلغى كلياً، وهي كما يبين لاكان، تتحكم بعلاقة السيد والعبد (كما ورد عند هيغل) وتظهر في وضح النهار عندما تصبح العلاقة عشقية.

فيقول العاشق للمعشوق: أنا أنت وأنت أنا.

خصاء: أو بما يسمى عقدة الخصاء

فرويد:

يعتبر أن الطفل سواء كان ذكراً أم أنثى، يتعرض إلى التهديد بالخصاء عندما يبلغ المرحلة القضيبية. أي عندما يستقطب القضيب على كل الملذات ويحتل مكانة الأفضلية- عندئذ- ينتاب الطفل الخوف من فقدانه.

هذا الخوف من انفصال القضيب عن جسده، يتأكد عندما يدرك أن الفتاة لا تملكه، يعزز ذلك خبراته السابقة الفموية: انفصال الثدي عنه. والشرجية: انفصال الغائط عن جسده في خلال علاقته مع الأم.

التغيُّر والتهديد الحاصل يأتي هذه المرة من الأب. على اعتبار أنه المحق والمالك لجسد الأم. من المحرم إذاً أن تكون موضوع رغبة جنسية عند الأبن. يصبح الطفل عندئذ أمام خيارين: إما الاحتفاظ بموضوعه المحرم: الأم، فيتعرض للتهديد بالخصاء وفقدان قضيبه، وإما الاقلاع والامتناع عن الأم فيحفظ قضيبه، ويوجِّه استعماله لامرأة أخرى في المستقبل. أي يطال وظيفة الفالوس حد في متعتها وخيارها الجنسي.

هذه العملية النفسية، رغم أنها تحمل التهديد والخوف إلا أنها تحضر الطفل إلى

طريق المخرج الثاني إلى حياة جنسية سوية، تؤمن له الاستقرار والطمأنينة في متعة محددة.

لاكان:

نقل هذه العملية على المستوى الرمزي وحددها عن طريق الموقع الذي يحتله الطفل بالنسبة لنقصان الفالوس عند الأم، ويتبين للاكان بأنه لا فرق بين الطفل الذكر او الأنثى أمام هذا الموقع الرمزي. فكلاهما يواجهان نفس المشكلة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ان هذا الأمر يتعدى القضيب بمفهومه التشريحي، لكي يتحول إلى الفالوس في مفهومه الرمزي.

وهذا ما يسميه بالخصاء الرمزي. أي أن الطفل لا يستطيع أن يتماهى بالفالوس لكي يتمم نقصان الأم، ويكون معها وحدة متكاملة (لا يحصل ذلك إلا في الذهان) انما يدرك ان التماهي يبقى ناقصاً، لأن رغبة الأم تتعداه لكي تؤكد أن ما يشبعها ويعوض عن نقصها، هو امتلاك الأب للقضيب (او أي رجل آخر). عملية الخصاء عند لاكان، تطال موقع الطفل الوجودي بالنسبة لعلاقته بالأم، وتفرض عليه التخلي عن التماهي الفالوسي، لكي يصبح هذا المكان بحكم الخسارة، أي نقصان لوجود، موضوع ضائع ألف يؤسس رغبته في مفهوم آخر سواء بالنسبة للفتاة أو الذكر: الإقرار بنقصان الأم بفضل تدخل الأب كعامل أساسي.

ولكن تجب الاشارة في هذه العملية، التمييز بين الفتاة والفتى:

الفتاة: تنطلق من حرمانها لكي تحتل مكانه في العلاقة مع الرجل أي الفتاة تتماهى بجسدها بالفالوس وليس بذاتها. وبالنسبة للذكر: ينطلق من امتلاكه للفالوس دون أن يحتل مكانه.

تجب الإشارة إلى خصوصية المجتمع الشرقي:

المحرمات الجنسية وبصورة خاصة المحرم الأول الأم تأتي بأمر إلهي- مما ينقل عملية الخصاء والالتزام، من حقلها التشريحي إلى الحقل الرمزي الديني.

خطاب:

حاول لاكان تحديد العلاقة الاجتماعية انطلاقاً من الموقع الذي تحتله الذات لكي تخاطب الآخر. على هذا الأساس استقر بأربعة أنواع من الخطب:

خطاب المعلم «د1»، خطاب الجامعة (الخطاب العلمي) «د2»، خطاب الهستيريا «$=$\not{S}$» وأي بمعنى انقسامها على ذاتها ما بين وعي ولاوعي)، وأخيراً خطاب الرغبة

"أ" 4 المتمثل في موضوعها. انطلاقاً من احتلال أي خطاب مكان الصدارة تتحدد أمكنة الخطب الثلاثة في منطق شبه دائري. أي في كل مرة ننطلق من صدارة خطاب إلى تصدر خطاب آخر، نكون قد أنجزنا ربع دائرة.

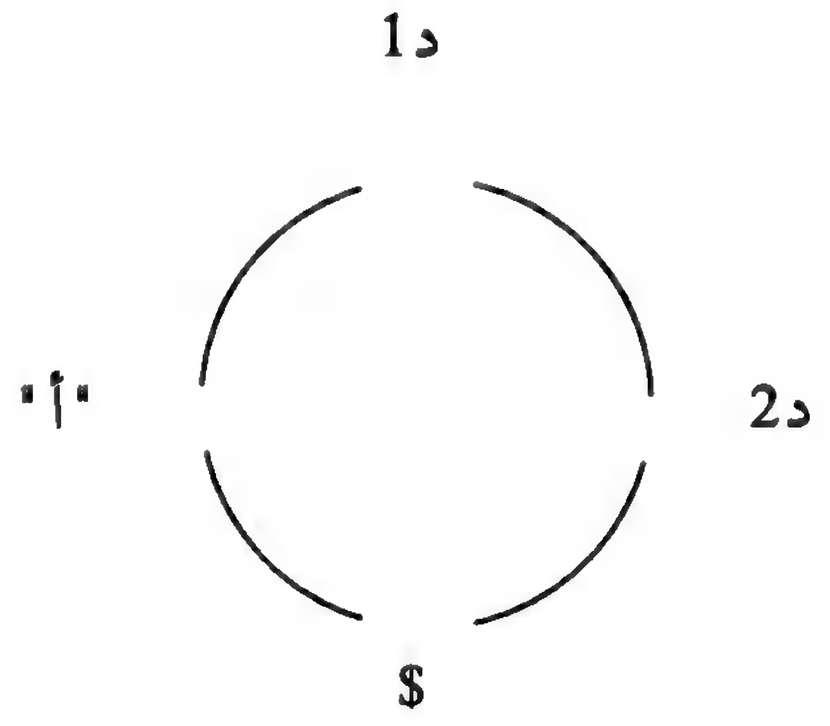

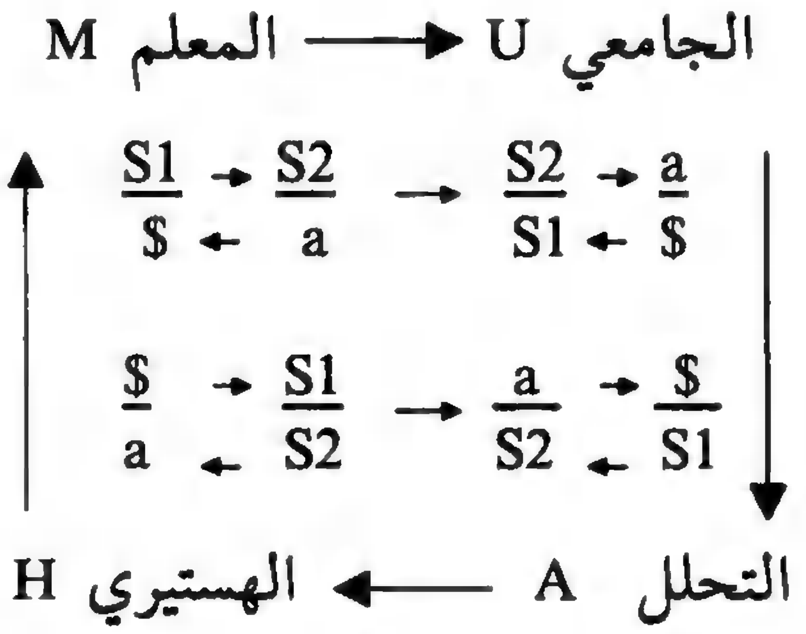

الفائدة من هذا التنسيق، هو أن المتكلم لا يستطيع أن يحدد الأنا والنتائج لكلامه إلا من خلال موقع الخطاب الذي يحتله. على سبيل المثال: عندما يتكلم الأستاذ الجامعي يحتل مكان المعلم- مكان الفيلسوف الحكيم سابقاً- يتوجه إلى الطلاب لكي يغنيهم بالمعرفة العلمية الأكاديمية. والهستيريا تتوجه إلى المحلل أو المريض أو الطبيب، لأنه بموقع السيد (المعلم) الذي يعرف ما لا تعرفه عن موضوع رغبتها، ولأن هذا السيد هو مفترض عارف. وأخيراً التحليلي الذي يضع موضوع الرغبة «أ» في أولياته ويتوجه إلى الهستيريا ليتساءل معها. وهكذا - فهذه الخطب الاربعة متواجدة دائماً في العمل التحليلي لا تنفصل عن بعضها على اعتبار أنها محركة ومنسقة لشبكة الدوالي ضمن منطق يخضع لقانون اللغة.

دال Signifiant

استخرجه لاكان من دراسة الالسنية. وفصَّل لكي يبين أن عمل التحليل يقوم أساساً على لغة الكلام. لا مخرج للمتحلل الذي يعاني من أعراض إلا عن طريق الكلام. فبمجرد أن يطال هذا العارض عبر التحليل بالكلمات التي تكوَّن منها، فلا بد عندئذ إلا أن يتبدد هذا مع كل انفعالاته.

أفرد لاكان الدال من الخبرة الفرويدية في علاجه للهستيريا، لكي يجعل منه تكوينة لاواعية وواعية اعتباراً من أن العارض يتكون من سلسلة دوال لاواعية.

وقد استطاع التحليل النفسي، عبر فتح المجال للتداعي الحر، أن يستدرج هذه الدوال من حقلها اللاواعي إلى حقل الوعي كي يتملك بها المتحلل بدل أن كانت تتملك به سابقاً.

وأصبح واضحاً بالنسبة إليه أن الذات لا تخرج إلى حيز الوجود والتعريف إلا عن طريق الدال، ولكن الدال بحاجة إلى دال آخر يعترف بها. لذا قال لاكان التحديد التالي:

الدال هو ما يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر. أي يستخرج الذات من العملية الانتقالية من دال 1 إلى دال 2 .

يشدد لاكان على استقلالية الدال وانفصالها عن مرجعية المعنى سيما عندما يرتبط بسلسلة من الدوال تكون في النهاية محتوى لاوعيه، حيث تكمن بها الذات في حقيقتها الأولية، وهذا هو هدف التحليل.

ولكن هذا الدال يبقى مرتهناً بمدلوله وفي نفس الوقت مفصولاً عنه بخط لا يمكن اختراقه، إلا في الذهان.

<u>دال</u>

مدلول

ويعود ذلك إلى كون الإنسان حيواناً ناطقاً، وكل كلمة تحمل في طياتها دالاً ومدلولاً، غائباً وحاضراً.

عندما نقول فلان: فهو حاضر في نفس الوقت الذي تلفظ اسمه، ولكن في نفس الوقت أيضاً يعني غيابه عن الحضور.

ما يميز الدال في تعريفه عن الذات، هو الاختلاف عن الدال التالي. وهذا الفارق يشكل ميزة تجعله ينتقل من دال إلى دال آخر دون أن يلغي الفارق: د1- د2- د3- د4 ـ إلخ. كل واحد يختلف عن الآخر وهكذا. وهذه ميزة اللغة، تفتح آفاقاً

واسعة لا يمكن لدال(*) أن يستأصل المعنى النهائي للمدلول، فالخط الفاصل يبقى قائماً.

بما أن البداية في تكون اللاوعي قائمة على الكبت البدائي، فإن الدال الأول ينطلق من هذا الكبت البدائي المتمحور حول الفالوس، موضوع التماهي الأولي في رغبة الأم، ولكن عندما يطال الفالوس الكبت يصبح في خانة النقصان (الاستحالة) لكي يحل ما يمثله دال رقم واحد.

ذات (انقسامها): الانقسام الذاتي:

نظراً إلى احتكام الإنسان إلى اللغة، وهذا ما يميزه عن الحيوان، يتبين أن ما يتفوه به يتعدى حدود المعرفة التي انطلق منها، يقول دائماً أكثر مما كان يبغي، أي الكلام يحمل في طياته انقساماً ذاتياً يعود مصدره إلى اللاوعي، وبصورة خاصة إلى رغباته المكبوتة، التي تكونت منذ مرحلة عقدة الخصاء.

عندما يخاطبك شخص ما، تقول له أستنتج من كلامك أنك تعني غير ما قلت. فهذا الاستنتاج في السمع هو ما يميز العمل التحليلي على اعتبار أن كل خطاب كلامي يحمل في طياته انقساماً ما بين ذات في البيان الظاهر وذات في المبين كقطعة النقود: واحدة في الأصل: ولكن تحمل انقساماً ما بين وجه وقفا.

لاكان يسير هنا على خطى فرويد عندما حدد هذا الأخير أن الأنا منقسمة في أداء وظيفتها إلى قسم واع على علاقة بالمخاطب، وقسم لاواعٍ على علاقة بالمكبوت. هذا ما تؤكده الأفعال المغلوطة، وهفوات (زلات) اللسان.

عبَّر لاكان عن هذا الإنقسام في الرمز التالي $ الخط القاطع يشير إلى الانقسام الحاصل في الذات المكتملة.

شيء: La chose

فكرة بنى عليها لاكان مفهوم بداية العمليات الفكرية.

تناولها لاكان بإيضاح في سيمينير: "خلق التحليل النفسي" عندما تكلم عن الفراغ في كوب الخردل. فهو مجاز يشير إلى أنه لا ينتظر إلا أن يملأ. يشير هنا إلى اللاوجود الذي ينطلق منه الوجود أي ما قبل التسمية، لأن الغرض كان في حكم

الشيء. كذلك فرويد يشير إلى أن الكلمة قبل أن تعرَّف عن مضمونها، كان هذا المضمون شيئاً، والشخص قبل ان يصبح ذاتاً تعرِّف عنه، كان شيئاً.

ينطلق هذا التأويل من التأكيد، أن التمثل ينبع من الشيء، الذي في الأساس لم يكن له وجود سوى في القوة. كذلك أشار لاكان في سيمينير من الآخر الكبير إلى الآخر الصغير، أن علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة تنحصر في متمثل الممثل في المرأة، أي في آخر المطاف في الشيء الذي كان مصدراً للمرأة- لأن الممثل الأساسي طاله الكبت منذ البداية. كما في الخصاء، على اعتبار أنه نقصان، لا يأخذ فاعليته في تكوين الذات إلا عن طريق "ممثل المتمثل" وهذا المتمثل هو الشيء الذي طاله الكبت، ولم يكن موجوداً قبلاً.

في أماكن أخرى يشير لاكان أن الشيء هو بمثابة الموضوع الضائع الذي يتمثل بموضوع "أ" (objet a).

في مجال آخر يقول إن الرمز هو قتل الشيء أي يحل محله بعد استغنائه عن وجوده. الشيء خارج اطار اللغة ولكنه قابل أن يدلج حقل ما قبل اللغة عندئذ يمكن أن توضع عليه التسمية (الكلمة).

فالوس أو قضيب: Phallus

يجب التمييز أولاً ما بين الفالوس وما بين القضيب (ظبر). فهذا الأخير هو عضو جسدي، يشير منذ الولادة إلى تصنيف جنس الطفل ـ وجوده يعني ذكراً وغيابه يعني أنثى. أما الفالوس حسب تصنيف لاكان: فهو رمز للحيوية التي تميز القضيب أو الظبر في حالة الانتصاب. على هذا الأساس أصبح الفالوس الرمز لكل القدرة الليبيدية. حصل توافق ما بين فرويد ولاكان على أن الأولوية هي الفالوس، ولكن لاكان ذهب أبعد من ذلك لكي يعطي للفالوس الموقع المحوري في النظرية التحليلية.

ميَّز ما بين الفالوس الرمزي الإيجابي، رمز القوة والسلطة، صولجان الملك. الأصنام المنتصبة باشكال قضيبية عامودية، إلخ. من كل معالم حضارات الأقدمين - والفالوس الناقص- المخيالي- وهو مشترك ما بين الرجل والمرأة - لأن الأول يتخيله لأنه وعد لمزيد من المتعة، والثانية تتخيله لأنه يشكل الحرمان عندها. في كلا الحالتين: الفالوس الناقص يشكل نقطة التقاء ما بين الرجل والمرأة.

إذاً الفالوس بنظر لاكان هو الدال الأول الذي يطاله الكبت الأولي لكي يصبح $-\varphi$، ويحل بديلاً عنه دال ثانٍ، البداية هي الانتقال من د1 إلى د2.

لكن الخط الفاصل ما بين د1 ود2، يبقى حاسماً على اعتبار لا يمكن استئصال كل المعاني الواردة في الفالوس المخيالي. لذلك تستمر السلسلة د3، د4، الخ.

على أساس هذا التمييز ما بين د1 ود2 حاول لاكان تفسير البنية الهستيرية: فعندما لا يطال الكبت د1 يصبح د2 العارض أي البديل عن الفالوس المرمز بـ د1 . أي أن مخيال الهستيريا يستمر نشاطه من وجود فالوس مخيالي يبين عليه الواقع النفسي: أي أن الهستيريا تستمر بالاعتقاد بأنها ذكر في مظهر أنثى.

توغل لاكان كثيراً في توسيع نظريته حول الفالوس. تكلم في القواعد الرياضية، عن وظيفة الفالوس والتي على أساسها يتبين الفارق بين الرجل والمرأة.

وفي مرحلة لاحقة - أي بعد سنة 1972- تكلم عن متعة الفالوس مميزة عن كل الاستمتاعات، لأن لا شيء يضاهيها. وأدخلها في أبحاثه حول العقدة البورومية.

يبقى أن الفالوس في أشكاله الثلاثة: واقعي، رمزي، متخيل: يشكل المحور الأساسي الذي تدور حوله كل النظريات التحليلية.

قانون: Loi

استعمال سلطة القانون في التحليل النفسي لا تتطابق مع المفهوم الشائع كما هو الحال عند القانونيين والمشرعين حول التأويلات انطلاقاً من القوانين المكتوبة. إنما تتخطى هذه القوانين المعروفة والمكتوبة، لتطال القانون غير المكتوب والمتعارف عليه والذي كان مصدراً لكل القوانين المنظمة للشؤون الاجتماعية: وهو القانون المحرم الأساسي لعلاقة الأم بالإبن. وهو قانون بشري يطال كل المجتمعات رغم تنوعها، ويدخل الإنسان في حقل اللغة. هذا القانون غير معلن، تبقى معرفته في اللاوعي، لأنه يرأس التنظيم البنيوي للذات، والتوازن الليبيدي، انطلاقاً من المحرم الأول. وهو المؤسس الأول لكل القوانين التي تشرع العلاقات الاجتماعية، لذلك يتبين في العمل العيادي، أن أي انتهاك له أو لمشتقاته، الأب والأخوات، إلخ، يعتبر إثماً يهدد الخلية الأولى للعلاقة الاجتماعية، ويترتب عليه العديد من الاضطرابات المسلكية والليبيدية.

الإنسان منذ ولادته يرتبط بعقد دين تجاه المجتمع على غير علم منه لأن دخوله وارتهانه بحقل اللغة يقتضي ذلك. فكل إنسان مديون للغة التي كونته.

متعة- استمتاع: Jouissance

يختلط الأمر عند المحللين في استعمال كلمة متعة (من تمتع) - ويشيرون دائماً إلى صفتها الجنسية، من حيث يصعب أمر فصلها عن اللذة الجنسية. رغم أنه قد يكون لها علاقة جزئية باللذة، إلا أن لاكان يفصلها ويضعها "ما بعد مبدأ اللذة" اعتماداً على مقالة فرويد- شدد لاكان على وظيفة اللذة، أنها قد تكون في بعض الأحيان وقاية من المتعة.

السبب في طلب هذه الحماية يعود إلى بنية كل واحدة على حدة.

من الممكن السيطرة على اللذة لأنها تدخل في إطار الواقع وتلجمها حدودنا الجسدية، اما المتعة فتدخل في تركيبة الهوام ويكون مسرحها المخيال الذي لا حدود له. على سبيل المثال ممكن لشخص أن يتذوق الطعام وتبقى لذته محصورة في حدود حاجته، ولكن إذا ما دخلت هذه اللذة في إطار المتعة، تتحول إلى شهية لا حدود لها (Boulimie) تؤدي إلى التهام الأكل وليس التذوق. يصبح الشخص أسيراً لها، مدمناً على الأكل بشكل مرضي، ويصاب بسمنة خطرة. كذلك بالنسبة لمتعة المخدرات.

من الممكن أن نعمم هذه المتعة في هوام الشخص عندما تؤدي إلى تكرار تصرفات وأفعال مضرة لا يعرف كيف يتصدى لها، سوى انها تأتي من متعة مخيالية تسيره ولا سلطة له عليها. وهذا ما يتأكد في الإطار العيادي، حيث تبدو المتعة المحرك اللاواعي للعارض بعد أن تكون قد تخلت عن حدود ضريبة اللذة.

مجاز - كناية:

قوة الكلام تعتمد على قدرتها على التعبير عبر محورين أساسيين: المجاز والكناية، مما يشكل البلاغة.

المجاز هو استبدال كلمة بكلمة أخرى مما يؤدي إلى ولادة معنى جديد: مثلاً: ثعلب الصحراء تشير إلى شخص القائد الالماني رومل، أو عاصفة الصحراء، أفعى الصحراء، عقرب الصحراء... كلها تشير إلى معارك التحالف ضد العراق.

الكناية هي استعمال جزء بكلمة تعني الكل أو التعبير عن المحتوى بالمحتوى: مثلاً: ثلاثون شراعاً: تعني ثلاثون مركباً. أو جملة: أشرب كأساً: تعني المحتوى بالكأس.

استعمل لاكان هذين المحورين لكي يؤكد الترابط ما بين استعمال اللغة المتداولة والبنية اللغوية في اللاوعي، اعتباراً منه أن اللاوعي مركب على غرار اللغة. اعتمد في ذلك على ما ورد عند فرويد في تأويل الأحلام: إنها لا تفهم إلا إذا اعتبرنا أن مجمل الحلم يقوم على التكثيف من ناحية (أي المجاز في اللغة المتداولة - والنقلة - أي الكناية). من هذا المنطلق بنى لاكان نظريته للدال في اللاوعي وتجمع الدال في سلسلة ضمن شبكة تشكل النسيج لبنية الذات اللاواعية.

أول مجاز: حدده لاكان "بالمجاز الأبوي". يأتي بعد أن يحل الأب مكان الأم. النتيجة ذات الأثر التأسيسي تأتي عن طريق الأوديب، عندما يحل الأب مكان الأم كمرجع أساسي في علاقته مع نفسه أو مع المجتمع . هذه العملية لا يمكن أن تنجح إلا إذا احتل الأب المكان الأول الذي يملك الفالوس..

أما الكناية فقد حصرها لاكان في التعبير عن الرغبة أن موضوعها يطل علينا من نقصان لموضوع أساسي، كان الطفل في نشأته الأولى قد تماهى به. لذلك تأتي الرغبة كدعوة لاستعادة هذا الموضوع، ولكن سريعاً ما يتبين أن هذا التحقق لا يحصل إلا جزئياً، لأن أي بديل عن الموضوع الأساسي الضائع، لا يمكن أن يعادله - لذلك فالجزء يعبر عن الكل ضمن كناية مستمرة منذ ولوج الإنسان عالم اللغة وأي موضوع يحققه في رغبته يظل دون الموضوع الضائع. هذا مما يجعل الرغبة مستمرة مدى الحياة لأنها غير مطابقة لإشباع الحاجة.

يبرهن لاكان أن وظيفة المجاز، تتحول إلى انقطاع عن مصدرها إذا قلنا مثلاً عائلة النجار أو الزبال أو الحداد. يصبح المجاز أو الاستعارة مقطوعاً عن مصدره (المهنة) لكي يتحول إلى دال يعبر عن الذات بالنسبة إلى دال آخر. أما الكناية فوظيفتها تؤمن استمرارية في رغبة لا تنضب مدى الحياة.

مزيد من المتعة: Plus de jouir

تختزل ماهية المحرك الأساسي لعلاقة الإنسان بالحياة. فهو يسعى دائماً إلى المزيد من اللذة، على غرار ما نظر ماركس حول plus-value الربح الإضافي، وهو العامل الدافع إلى مزيد من الإنتاج مما يعادل مزيد من الربح أي مزيد من المتعة.

اختزلها لاكان في البداية في وظيفة موضوع "أ": سبب الرغبة هي المؤشر الأول لبزوغ المتعة القضيبية ويعتبرها متعة آخر، أي تدخل في إطار حقل الآخر الكبير: سريعاً ما يطالها الكبت وتتحول إلى نقصان، وتصبح في حقل، مميزة بغيابها بسبب المكان الفارغ الذي تتركه- عندئذ يتماهى الطفل بهذا الموضوع الناقص لكي يتمم الآخر.

إذا تمكن الكبت في تغييب نهائي لهذا الوعد بلذة إضافية، يستطيع الطفل أن يعتمد بدائل تعبر عن ذاته. أما إذا بقي هذا الوعد زائداً (+) يلوح باستمرار إلى لذة اضافية، عندئذ يتعرض الطفل في المستقبل إلى حالة العصاب. التحليل النفسي بعد نهاية العلاج قد يتمكن من تحويل هذه اللذة الإضافية: من حالة الزائد إلى حالة النقصان أي (+) ← (-).

موضوع (أو غرض): Objet

مفهوم اوجده فرويد لكي يبين علاقة الإنسان مع العالم الذي يحيط به انطلاقاً من فلسفة الكون. وهذا ما يبين الفرق بين التحليل النفسي وعلم النفس. فالأول يطال شرح وتأويل ديناميكية العلاقة بالموضوع. أما الثاني فيكشف شكل الأنا دون أن يكشف تحركاتها باتجاه الموضوع. والملاحظ هو أن هنالك عدة أنواع من المواضيع:

الموضوع الطيب والموضوع السيّئ لميلاني كلاين.

الموضوع المتحول transitionnel لڤينيكوت.

والموضوع الجزئي لأبراهام.

والموضوع "أ" لجاك لاكان (سيمينير 4).

تناول لاكان "العلاقة بالموضوع" من زاوية تختلف عن فرويد. انطلق من فكرة النقصان الذي يشير إلى غياب الموضوع. وهذا الغياب يبقى حاضراً في كل مرة يختار الشخص موضوعاً بديلاً، لكي يؤكد له أنه لا يمكن أن يحل محل الضائع. أي بالنسبة للاكان لا يمكن التعبير للموضوع عن وجوده إلا من حالة النقصان التي تميزه. وهي ثلاث:

وهذا النقصان يتميز بحالات وجدانية مختلفة:

إما ان يؤدي إلى الحرمان وإما إلى الإحباط وإما إلى الإخصاء.

وكل حالة نقصان لها موضوعها الخاص.
- الخصاء رمزي ولكن موضوعه مخيالي (فالوس).
- الإحباط هو مخيالي ولكن موضوعه واقعي.
- الحرمان هو واقعي: ولكن موضوعه رمزي.

موضوع "أ": Objet a

هو من اختراع لاكان، لكي يميز الموضوع الذي يكون في آن واحد سبب الرغبة وغايتها. لا يأخذ موضوع «أ» أهميته وحيويته إلا من كونه ضائعاً.

في البداية يتمثل بقطعة من الجسد انفصلت وأصبحت نفاية، أو فاقدة الأهمية.

يشير لاكان إلى أن "موضوع أ" يتكون منذ الولادة، عندما ينفصل الطفل عن المشيمة، فتسقط في النفايات فيحصل من خلال ذلك الانفصال النهائي عن جسد الأم.

على هذه التجربة الأولى تتكرر تجارب اخرى تؤكد ضياع الغرض. يتعلق في الثدي ثم ينفصل عنه كما لو كان جزءاً منه، كذلك في الغائط كقطعة مهداة إلى الأم. أضاف لاكان فيما بعد النظر أو السمع على اعتبار أنهم من المواضيع الضائعة التي تميز النزوات.

"موضوع أ" يتواجد ما بعد العطاء، وراء الذات وليس أمامها، يحث الحصول على المزيد من اللذة وعلى الموضوع الضائع. ولكن لا يحصل الإنسان، إلا على البدائل التي تضله عن جوهر الموضوع "أ"- مثلاً يعمل بجد للحصول على المال كي يساعد الفقراء لأنه كان فقيراً. عندما يحصل على الثروة يصبح المال بديلاً عن الموضوع الضائع أي حرمان الفقراء من الإعانة. أو البخيل يجد في الصندوق "موضوع أ"، لأنه يحتوي على بديل الغائط الذي انفصل عنه.

هوام:

تكوّنت فكرة الهوام عند فرويد بعد تأكده من فشل نظرية النيروتيكا أي الإغواء. اعتبر انطلاقاً من هذا الاكتشاف، أن مصدر العصاب لا يحصل من أثر الأحداث في الطفولة، صحيحة كانت أم وهما، إنما من الهوام المتكون وهو كناية عن سيناريو بقي محفوظاً في المخيال، يطاله الكبت ولكن يبقى فاعلاً وناشطاً في سلك الشخص وفي

إنتاج عوارضه العصابية وهذه الحيوية المميزة تعود إلى محرك الرغبة الذي يحتوي الهوام موضوعها. الهوام يتحرك انطلاقاً من أحلام اليقظة الواعية لكي يطال التمثلات اللاواعية التي تنظم حياتنا النفسية.

بهذا المعنى يبدو جلياً أن هدف العمل التحليلي، هو كشف النقاب عن هذه الهوامات المكبوتة، لكي يخرجها من حيز اللاوعي حيث لا سلطة للمتحلل عليها، إلى حيز الوعي كي يتمكن من السيطرة عليها، بعد أن يتبين له أن اكتشاف الذات القابعة وراء سيناريو الهوام. كي يتيسر ذلك بين لاكان صلة الوصل ما بين الهوام واندراجه في عمل اللغة. شدد أولاً - اعتماداً على فرويد - أن طبيعة الهوام هي أصلاً لغوية. هذا ما يؤكده العمل العيادي: إن جملة تأتي في سياق الكلام لكي تعبر بوضوح عن الهوام يرمزه لاكان بالتالي: ($ < > a). الفاصل بين التقارب والتباعد.

إضافة إلى ذلك ذهب لاكان إلى التأكيد بأن هنالك هوامات عديدة، ولكن تؤدي في النهاية إلى "هوام أساسي" حيث تقبع الذات اللاواعية متخفية.

وهو بمثابة النواة المرضية عند فرويد.

"الهوام الأساسي" يشكل بالنسبة للذات النافذة التي يرى من خلالها العالم الخارجي. إذاً في نظر لاكان هذا هو المستهدف في كل عمل تحليلي. الغاية ليست إزالته لانه تأسيس لا يزول، إنما التعامل معه على بينة من أمره، تخفيف أو توقيف الانزلاق به أو تهميشه.

واقع

يتميز عن الواقعي (réel) وحسب المفهوم الفرويدي هنالك الواقع النفسي الذي من خلاله نرى الواقع الخارجي . والاثنان يتداخلان معاً حيث تلعب الأنا دور الوسيط. أما بالنسبة للاكان: فان هذا الواقع لا نستطيع أن نطاله إلا عبر الواقعي (réel) عن طريق تمخيله وترميزه.

واقعي- رمزي- مخيالي: RSI Réel- Symbolique- Imaginaire

ثلاثة مجالات فصلها جاك لاكان منذ بداية تنظيره لعلاقة الإنسان مع نفسه، مع الآخر، مع العالم.

وربطها فيما بعد بتصور العقدة البورومية، ارتباطاً وثيقاً لا يفصل أحدها عن

الأخرى دون أن يتم تحريرها جميعاً، ويشكل تشابك المجالات الثلاثة: النسيج الأساسي للبنية اللغوية .

عندما نقول مثلاً أسد: الكلمة تشكل اللفظ الرمزي - في لغة أخرى ليس لها مفهوم. هذا يستدعي تصور حيوان مفترس يمتاز بقوته، وهذا التصور يستمد صورته من المخيال . وأخيراً الحيوان الأسد الذي أصبح حاضراً كواقع من سلالة الحيوانات المفترسة. أي الكلام استدعاه وأحضره معنا دون أن يكون هنالك ضرورة لحضوره جسدياً، وحتى لو لم نر في حياتنا أسداً- واقع - رمز- مخيال- إذا تشابكوا فيما بينهم لكي يعطوا معنى للكلام نتعامل من خلاله مع الآخر.

إذاً دخول الإنسان عالم اللغة هو بمثابة دخول عالم الرمز لأن العالم كله الذي يبدأ الإنسان اكتشافه منذ ولادته مبني على أسس لغوية متقاطعة بالمجاز والكناية والبلاغة والقواعد اللغوية التي تقسم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل، وتفصل في الفضاء ما هو للآخر وما هو للأنا. عالم الرمز في تركيبته اللغوية، يؤسس الإنسان ويفصله عن طبيعته الحيوانية.

المجال المخيالي: يتمحور حول علاقة الذات بالآخر. علاقة في الاساس صراعية (أنظر مرحلة المرآة) يخترقها العداء منذ البداية. وتشكل هذه العلاقة المخيالية المؤسس الاول لهذا العداء مع الآخر، والتي لا تصبح سليمة إلا بفضل تدخل عامل اللغة.

لكن هذا الصراع يأخذ حده عندما يدرك الإنسان أنه لا يستطيع ان يتكون إلا عن طريق صورة الآخر. فهو ضرورة لوجوده بنفس الوقت الذي يتمنى إزالته . نجد هنا مصدر الشعور الإنساني وتحريم القتل- لولا هذا التماهي بالآخر لما حصل كما نرى نمو المشاعر الإنسانية.

الواقعي:

هو مفهوم من استنباط لاكان لكي يميزه عن الواقع. نستطيع أن نشبهه بالحدث المفاجىء الذي لم يكن له تصور مسبق. لذلك نعته لاكان باللاعقلاني، لأنه خارج المنهاج المنطقي المتبع، إن ما تحداه وزعزع أسسه.

الثورة الفرنسية حدث واقعي لاعقلاني بالنسبة للنظام الملكي. لذلك ميزه لاكان عن الواقع لأنه قد يكون سبباً لواقع جديد. ولكن بالاضافة يمكن أن يكون الواقعي

عقلانياً يشير إلى الكواكب التي تدور في فلكها ولكن تعود دائماً إلى نفس المكان فترشدنا في تنقلنا في حقل الواقع.

في مقولة أخرى يشير لاكان أن شيئاً من تكوين الذات يبقى خارجاً عنها، ولا نستطيع إدماجه إلا عن طريق اللغة. يستعمل لاكان الواقعي في التكرار الذي يميز ديناميكية النزوة (الاندفاعية)، ويجسده في "موضوع أ".

المراجع التي اعتمدها الكاتب

Adler, Alfred: - Le sens de la vie, Payot.
Bakan, David :- Freud et la tradition juive, édition Payot, 1962
Balint: - Médecin Malade et maladie.
Bergler: - Névrose de base.
Bonaparte, Marie : - Lettres à W. Fleisse (1887- 1902)
Breuer, J: - Etudes sur l'hystérie: Tr.Fr P.U.F, Paris, 1956.
Schemama, Roland: - Dictionnaire de psychanalyse. Larousse, Paris, 2000.
- Eléments Lacaniens pour une psychanalyse question.
Clavreul, Jean: - L'ordre médical, éd. Seuil, Paris.
Deutsch, Hélène. Psychologie de la femme.
De Saussure, Ferdinand: - Cours de linguistique générale, Paris, Payot.
Dor Joël: Denoël- Paris, 1986. Comprendre Lacan.
Ferenczi, Sandor: - Œuvres complètes, Payot, 1982.
Flerens, Christian: - Logique de l'inconscient chez Lacan.
Foucault. Michel: Histoire de la folie.
Freud, Anna:
- La naissance de la psychanalyse.
- Le moi et les mécanismes de défenses, PUF, Paris.
- Le normal et la pathologie chez l'enfant, Gallimard, Paris, 1968
Freud., Sigmund: Essais de psychanalyse. Payot, 1976, Paris.
-Totem et Tabou, Gallimard, Paris 2001.
- L'homme aux loups: Tr. Fr PUF, 1989.
- La vie sexuelle - PUF
- Cinq psychanalyses: PUF, Paris 1965.
- Résultats, idées et problèmes: PUF, Paris 1987.
-Trois essais sur la théorie sexuelle. Gallimard, Paris, 2001.
-Métapsychologie: Gallimard, Paris.

-Nouvelles conférences sur la psychanalyse, Gallimard, Paris.
-Ma vie et la psychologie, Gallimard, Paris.
-Cinq leçons sur la psychanalyse, Gallimard, Paris.
-Introduction à la psychanalyse, Payot, Paris.
-Etudes sur l'hystérie avec Breuer
- Correspondance 1873-1939, éd. Gallimard, Paris.
- La science des rêves, PUF, 1967
- Inhibition symptôme et Angoisse PUF, Paris, 1971.
- Névroses, psychoses et perversions, PUF, Paris, 1971.
- Pulsions et destin des pulsions «métapsychologie».

Grorichard, Alain: «La structure du sérail», Paris, Seuil.
Hegel: Phénoménologie de l'esprit.
Henri, Michel: - Généalogie de la psychanalyse. PUF, Paris, 1985.
Henrion, Jean-Louis: - La cause du désir, Point hors-ligne, Paris, 1991.
Houbballah, Adnan: - Virus de la violence, Albin Michel, Paris, 1997.
- Destin du traumatisme: Hachette, Paris, 1999.
Horney, Karen: - La psychologie de la femme, Payot, Paris.
Israel, Lucien: - L'hystérie, le sexe et le médecin, Masson, Paris, 1976.
Jones, Ernest :
- La vie et L'œuvre de Freud. 3 volumes, PUF, Paris, 1961.
- Œuvre complètes:
Théorie et pratiques de la psychanalyse, PUF, Paris.
Julien, Philippe: Le retour à Freud de Jacques Lacan, E.P.E.L.F, Paris, 1990.
Klein, Mélanie: - La psychanalyse d'enfants, Payot.
-Envie et gratitude, Gallimard..
- Œuvres complètes: Payot, Paris, 1967.
Kojev, A.: - Le concept, le temps et le discours, Paris, Gallimard, 1990.
Lacan, Jacques,
Ecrits, Seuil, Paris, 1966.
- Séminaire I: Les écrits techniques, Seuil, Paris.
- Séminaire II: Le moi, Seuil, Paris.
- Séminaire IV: Les relations d'objets.
- Séminaire V: Les formations de l'inconscience.
- Séminaire VIII: Le transfert.
- Séminaire IX: Lidentification.

- Séminaire X: L'angoisse, Seuil, Paris.
- Séminaire XI: Les 4 concepts, Seuil, Paris.
- Séminaire XIV: La logique du fantasme.
- Séminaire XVII: L'envers de la psychanalyse
- Séminaire XVIII: D'un Autre à l'autre,
- Lettres de l'école Freudienne, Paris 1974.
- Lettres de l'école Freudienne, numéro 3.
- Les écrits , Seuil
Laplanche, J. et Pontalis: -Vocabulaire de la psychanalyse, PUF, Paris 1967.
Lévi-Strauss, Claude: - Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1958.
Nasio, J.D.: - Cinq leçons sur la théorie de Jacques Lacan, Payot, Paris.
Platon: «Le banquet».
Rifflet- Lemaire Anika: Jacques Lacan. Paris, éd. Ch. Dassart 1970.
Roustang, F.:- Lacan, de l'équivoque à l'impasse.
Schemama, R.: - Eléments lacaniens pour une psychanalyse.
Vellabregua, J.P:- La formation du psychanalyste, 1994.
Vernant, J.P.: Mythologie grecque.
Winnicott, D.:- International Journal of Psychanalyse, 1956.
- Processus de maturation chez l'enfant, Payot.
- L'enfant et sa famille.
Safouan, M.:- La sexualité féminine, Seuil, Paris, 1975.
S.Zas, Thomas: - L'éthique de la psychanalyse, Payot, Paris.
Zafiropoulos, Marcos: - Lacan et les sciences sociales, PUF, 2001.
Klein, M; Heumann, P.; Isaac.S.; Rivière. J.:
- Développement de la psychanalyse, PUF, Paris.

أبو حيان التوحيدي: الاستمتاع و المؤآنسة : دار الحياة.
ابن عربي : الفتوحات.

ثبت المصطلحات

عربي مصطلح	فرنسي	إنجليزي
	أ	
1 ـ إتحاد ـ إنفصال (النزوات)	Union-désunion (des pulsions)	Fusion-defusion (of instincts)
2 ـ إتكالي (صفة)	Anaclitique	Anaclitic, attachment
3 ـ أثر ذكروي	Trace mnésique	Mnemic trace
4 ـ اندخال	Introjection	Introjection
5 ـ إحباط	Frustration	Frustration
6 ـ إختبار الواقع	Epreuve de réalité	Reality-testing
7 ـ إختيار العصاب	Choix de la névrose	Choice de neurosis
8 ـ إختيار الموضوع	Choix d'objet	Object-choice
9 ـ إختيار الموضوع النرجسي	Choix d'objet narcissique	Narcissistic object-choice
10 ـ إدراك ـ وعي	Perception-conscience	Perception-consciousness
11 ـ إدماج	Incorporation	Incorporation
12 ـ إرتباط	Liaison	Binding
13 ـ إرتداد على الشخص نفسه	Retournement sur La personne propre	Turning round upon the subject's ownself
14 ـ تحصيل أو انضاج نفسي	Elaboration psychique	Psychical working out (over)
15 ـ تحصيل ثانوي	Elaboration secondaire	Secondary revision
16 ـ نقله	Déplacement	Displacement
17 ـ ردة فعل علاجية سلبية	Réaction thérapeutique négative	Negative therapeutic reaction
18 ـ استدخال	Intériorisation	Internalization
19 ـ إستناد	Etayage	Anaclisis
20 ـ إسقاط	Projection	Projection
22 ـ انذار القلق	Signal d'angoisse	Signal of anxiety

Reparation	Réparation	23 ـ إصلاح
Compulsion, compulsive	Compulsion, compulsionnel	24 ـ إضطرار، إضطراري، قهري
Repetition compulsion	Compulsion de répétition	25 ـ قهرية التكرار
Repudiation, forclosure	Forclusion	26 ـ انعدام
Cannibalistic	Cannibalique	27 ـ أكلة لحم البشر ـ افتراس
(Latent) dream-thoughts	Pensées (latentes) du rêve	28 ـ أفكار الحلم (الباطنة)
Economic	Economique	29 ـ إقتصادي
Conversion	Conversion	30 ـ إقلاب
Alteration of the ego	Altération du moi	31 ـ تضرر الأنا
Undoing (what has been done)	Annulation (- rétroactive)	32 ـ إلغاء مرتجع
Abstinence (rule of -)	Abstinence (règle d'-)	33 ـ إمتناع (قاعدة الـ)
Ego (the -)	Moi (le-)	34 ـ أنا (الأنا)
Superego	Surmoi	35 ـ أنا أعلى
Pleasur-ego-	Moi- plaisir -	36 ـ أنا لذة ـ
Reality-ego	moi-réalité	أنا واقع
Ideal ego	Moi idéal	37 ـ أنا مثالي
Egoism	Egoïsme	38 ـ أنانية
Attention (suspended -)	Attention (flottante)	39 ـ إنتباه (عائم)
Wish-fulfilment	Accomplissement de désir	40 ـ إنجاز الرغبة
Damming up of libido	Stade libidinal	41 ـ مرحلة ليبديه
Pressure (Instinct -)	Poussée (de la pulsion)	42 ـ إندفاع، ضغط، (النزوة)
Spliting of the ego	Clivage du moi	43 ـ إنقسام الأنا
Spliting of the object	Clivage de l'objet	44 ـ انقسام الموضوع
Introversion	Introversion	45 ـ إنطواء
Negation	(Dé) (négation)	46 ـ إنكار
Interest, ego interest	Intéret, intérêt du moi	47 ـ فائدة، إهتمام الأنا
Working-off mechanisms	Mécanismes de dégagement	48 ـ ميكانيكيات التخلص (أوالية ـ)
Defence mechanisms	Mécanismes de défense	49 ـ ميكانيكيات الدفاع، (أوالية ـ)
Eros	Eros	50 ـ إيروس

ب

Substiute	Substitut	51 ـ بديل
Differed action	Après-coup	لاحق ـ ما بعد الحاصل

Day's residues	Restes diurnes	53 ـ بقايا نهارية
Construction	Construction	54 ـ بنيان، تركيب

ت

Interpretation	Interprétation	55 ـ تأويل،
Anagogic interpretation	Interprétation anagogique	56 ـ تأويل روحاني
Over-interpretation	Surintérpretation	57 ـ تأويل مضاعف
Thanatos	Thanatos	58 ـ تاناتوس (نزعة الموت)
Rationalization	Rationalisation	59 ـ تبرير
Fixation	Fixation	60 ـ تثبيت
Ambivalence	Ambivalence	61 ـ تجاذب وجداني ـ تأرجح
Experience of satisfaction	Expérience de satisfaction	62 ـ تجربة الإشباع، إرضاء
Symbolic realization	Réalisation symbolique	63 ـ تحقيق رمزي
Training analysis	Analyse didactique	64 ـ تحليل تعليمي
Self-analysis	auto-analyse	65 ـ تحليل ذاتي
Direct analysis	Analyse directe	66 ـ تحليل مباشر
Supervised analysis	Psychanalyse sous Controle, ou controlée	68 ـ تحليل نفسي خاضع للإشراف
Wild analysis	Psychanalyse sauvage	69 ـ تحليل نفسي همجي
Distortion	Déformation	70 ـ تحوير، تشويه
Association	Association	71 ـ تداعي، ترابط
Free association	Libre association (méthode ou règle de -)	72 ـ تداعي حر
Sublimation	Sublimation	73 ـ تسامي
Intricacy-disjunction	Intrication-désintrication	74 ـ تشابك ـ إنفكاك
Libido adhesiveness	Viscosité de la libido	75 ـ سيولة الليبيدو
Abreaction	Abréaction	77 ـ تفريج
Generation of anxiety	Développment d'angoisse	77 ـ تصعيد القلق، توليد
Idea, presentation	Représentation	78 ـ تصور
Thing presentation, Word presentation	Représentation de chose, Représentation de mot	79 ـ تصور الشيء وتصور الكلمة
Purposive idea	Représentation-but	80 ـ تصور ـ هدف
Innervation	Innervation	81 ـ تعصيب
Cathartic method	Cathartique (méthode -)	82 ـ تفريج (طريقة تفريجية)
Discharge	Décharge	83 ـ تفريغ
Acting out	Acting out	84 ـ تفعيل خارجي
Active technique	Technique active	85 ـ تقنية فاعلة

Condensation	Condensation	86 ـ تكثيف
Repetition	Répétition	87 ـ تكرار
Symptom-formation	Formation de symptome	88 ـ تكوين العارض
Substitutive formation	Formation substitutive	89 ـ تكوين بديل
Compromise-formation	Formation de compromis	90 ـ تكوين تسوية
Compromise-formation	Formation de compromis	91 ـ تكوين معاكس
Identification	Identification	92 ـ تماهي، تعيين ـ توحيد
Projective Identification	Identification projective	93 ـ تماهي إسقاطي
Primary identification	Identification primaire	94 ـ تماهي أولي
Identification with the Aggressor	Identification à l'agresseur	95 ـ تماهي بالمعتدي
Facilitation	Etayage	96 ـ تمهيد عصبي
Genital love	Génital (amour -)	97 ـ تناسلي (حب ـ)
Organization of the libido	Organisation de la libido	98 ـ تنظيم الليبدو
Cathexis	Investissement	99 ـ توظيف
Anticathexis	Contre-investissement	100 ـ توظيف مضاد
Hypercathexis	Surinvestissement	101 ـ توظيف مفرط

ث

Bisexuality	Bisexualité	102 ـ ثنائية جنسية

ج

Sexuality	Sexualité	103 ـ جنسية
Psychic apparatus	Appareil psychique	104 ـ جهاز نفسي

ح

Need for punishment	Besoin de punition	105 ـ حاجة إلى العقاب
Borderline case	Cas-limite	106 ـ حالة حدودية
Hypnoid state	Etat hypnoïde	107 ـ حالة تنويمية
Over determionation	Surdétermination	108 ـ حتم مضاعف ـ محتمة
Instinctual impulse	Motion pulsionnelle	109 ـ حركة نزوية
Instinctual impulse	Motion pulsionnelle	109 ـ حركة نزوية
Judgement of condemnation	Jugement de condamnation	110 ـ حكم الإدانة
Day-dream	Rêve diurne, reverie	111 ـ حلم يقظة
Tenderness	Tendresse	112 ـ حنان
Neutrality	Neutralité	113 ـ حياد

خ

Anaclitic depression	Dépression anaclitique	114 ـ انهيار أعصاب
Imaginary	Imaginaire	115 ـ خيالي

د

Defence	Défense	116 ـ دفاع
Dynamic	Dynamique	117 ـ دينامي
Screen-memory	Souvenir-écran	118 ـ ذكرى ساترة
Masculinity-feminity	Masculinité-féminité	119 ـ ذكورة ـ أنوثة
Psychosis	Psychose	120 ـ ذهان

ر

Mothering	Maternage	121 ـ رعاية أموية
Fright	Effroi	122 ـ رعب، ذعر
Wish	Désir	123 ـ رغبة
Reality denaial	Déni (-de la réalité)	124 ـ رفض (ـ الواقع)
Censorship	Censure	125 ـ رقابة
Agency	Instance	126 ـ ركن، سلطة
Symbolic	Symbolique	127 ـ رمزي
Symbolism	Symbolisme	128 ـ رمزية
Mnemic symbol	Symbole mnésique	129 ـ رمز ذكروي
Family romance	Roman familial	130 ـ رواية أسرية

ز

Aphanisis	Aphanisis	131 ـ زوال الرغبة، إصفاء
Pair of opposites	Couple d'opposés	132 ـ زواج المضافات

س

Sadism	Sadisme	133 ـ سادية
Sado-Masochism	Sado-Masochisme	134 ـ سادو مازوشية
Dream screen	Ecran du rêve	135 ـ ستارة الحلم
Withdrawal of cathexis	Désinvestissement	136 ـ سحب التوظيف
Complemental series	Série complémentaire	137 ـ سلسلة مكملة

ش

Paranoid	Paranoïde	138 ـ شبه عظامي
Perversion	Perversion	39 ـ شذوذ

Inferiority feeling	Sentiment d'infériorité	140 ـ شعور بالدونية
Guilt feeling	Sentiment de culpabilité	141 ـ شعور بالذنب
Penis envey	Envie du pénis	142 ـ شهوة القضيب

ص

Protective shield	Pare-excitations	143 ـ صاد الإثارات
Trauma	Trauma ou traumatisme (psychique) -	144 ـ صدمة (نفسية)،
Psychical conflict	Conflit psychique	ـ صراع نفسي، مأزم
Imago	Imago	146 ـ صورة هوامية

ط

Cathectic energy	Energie d'investissement	147 ـ طاقة التوظيف
Free energy-	Energie libre -	148 ـ طاقة حرة ـ
Bound energy	Energie liée	طاقة مرتبطة

ظ

Functional phenamenon	Phénomène fonctionnel	149 ـ ظاهرة وظيفية

ع

Affect	Affect	150 ـ عاطفة
Helplesness	Détresse (état de -)	151 ـ عجز (حالة الـ ـ)
Aggressivity	Agressivité	152 ـ عدوانية
Isolation	Isolation	153 ـ عزل
Neurosis	Névrose	154 ـ عصاب
Family neurosis	Névrose familiale	155 ـ عصاب عائلي
Phobic neurosis	Névrose phobique	156 ـ عصاب خوافي
Actual neurosis	Névrose actuelle	157 ـ عصاب راهن
Traumatic neurosis	Névrose traumatique	158 ـ عصاب صدمي
Character neurosis	Névrose de caractère	159 ـ عصاب الطبع
Failure-neurosis	Névrose (ou syndrome)	160 ـ عصاب (أو تكوين الفشل
Failure-neurosis	Névrose (ou syndrome) d'échec	160 ـ عصاب (أو تكوين الفشل
Mixed neurosis	Névrose mixte	162 ـ عصاب مزيج
Narcissistic neurosis	Névrose narcissique	162 ـ عصاب المصير
Transference neurosis	Névrose de transfert	164 ـ عصاب التحويل

165 ـ عصاب هجاسي ـ قهري	Névrose obsessionnelle	Obsessional neurosis
166 ـ عصاب الهجر	Névrose d'abandon	Abandonment neurosis
167 ـ عظام ـ بارانويا	Paranoïa	Paranoïa
168 ـ عقدة	Complexe	Complex
169 ـ عقدة الأبوة	Complexe paternel	Father complex
171 ـ عقدة الأوديب	Complexe d'oedipe	Oedipus complex
172 ـ عقدة الدونية	Complexe d'infériorité	Inferiority complex
173 ـ عقدة الخصاء	Complexe de castrastion	Castration complex
174 ـ عقلنة، فكرنة	Intellectualisation	Intellectualization
175 ـ عمل الإستيعاب	Perlaboration	Working-through
176 ـ عمل الحداد	Travail du rêve	Dream-work
178 ـ عملية أولية،	Processus secondaire	Secondary process
عملية ثانوية	Processus secondaire	Secondary process
179 ـ عودة المكبوت	Retour du refoulé	Breakthrough of the repressed
180 ـ علاج نفساني	Psychothérapie	Psychotherapy
181 ـ علاقة الموضوع	Relation d'objet	Object-relationship
182 ـ عياء	Neurashténie	Neurasthenia

غ

183 ـ غريزة	Instinct	Instinct
184 ـ غلمة بولية	Erotisme urétral ou urinaire	Urethral erotism
185 ـ شبق ذاتية	Auto-érotisme	Auto-erotism
186 ـ غلمة غيرية	Allo-érotisme	Auto-erotism
187 ـ غواية (مشهد، نظرية ـ)	Séduction (scène de- Thérorie de-)	Seduction (scene of theory of-)

ف

188 ـ استشفاء	Hospitalisme	Hospitalism
189 ـ فصام	Schizophrénie	Schizophrenia
190 ـ فصام هذياني	Schizophrénie	Schizophrenia
190 ـ فصام هذياني	Paraphrénie	Paraphrenia
191 ـ فعلنة	Mise en acte	Actualization
192 ـ فعل نوعي	Action spécifique	Specific action

ق

Considerations of representability	Figurability, (Prise en considération de la figurabilité)	193 ـ قابلية التصوير، أخذ قابلية التصوير بعين الاعتبار
Erogeneity	Erogénéité	194 ـ قابلية توليد الشبق
Fundamental rule	Règle fondamentale	195 ـ قاعدة أساسية
Phallus	Phallus	196 ـ قضيب ـ فالوس
Phallic (woman or mother)	Phallique (femme ou mère-)	197 ـ فالوسية (إمرأة، أو أم ـ)
Reversal into the opposite	Renversement (d'une pulsion) dans le contraire)	198 ـ قلب (النزوة) إلى الضد
Realistic anxiety	Angoisse devant un danger réel	199 ـ قلق إزاء خطر واقعي
Automatic anxiety	Angoisse automatique	200 ـ خوف آلاتي
Suppression	Répression	201 ـ قمع

ك

Repression	Refoulement	202 ـ كبت
Primal repression	Refoulement orginaire	203 ـ كبت أصلي، أولي
Primary and secondary gain from illness	Bénéfice primaire et secondaire de la maladie	204 ـ كسب أولي وثانوي من المرض
Latency period	Latence (période de -)	205 ـ كمون (فترة ـ)

ل

Libido	Libido	206 ـ ليبدو
Ego-Libido- Object-libido	Libido du moi - Libido d'objet	207 ـ ليبدو الأنا ـ ليبدو الموضوع
Narcissistic libido	Libido narcissique	208 ـ ليبدو نرجسي
Organ-Pleasure	Plaisir d'organe	209 ـ لذة العضوة

م

Materiel	Matériel	210 ـ مادة
Subconscious	Subconscient	211 ـ ما دون الوعي، ما دون الشعور
Masochism	Masochisme	212 ـ مازوشية
Preoedipal	Préoedipien	213 ـ ما قبل أوديبي
Preconscient	Préconscient	214 ـ ما قبل الوعي، ما قبل الشعور

Pregenital	Prégénital	215 ـ ما قبل تناسلي
Metapsychology	Métapsychologie	216 ـ ما وراء علم النفس
Principle of constancy	Principe de constance	217 ـ مبدأ الثبات
Pleasure principle	Principe de plaisir	218 ـ مبدأ اللذة
Principle of neuronic inertia	Principe d'inertie (neuronique)	219 ـ مبدأ القصور (العصبي)
Nirvana principle	Principe de nirvana	220 ـ مبدأ النرفانا
Reality principle	Principe de réalité	221 ـ مبدأ الواقع
Ambivalent	Ambivalent	222 ـ متجاذب وجدانياً،
Pre-ambivalent	Préambivalent	سابق للتجاذب
Post-ambivalent	Postambivalent	لاحق للتجاذب
Egosyntonic	Conforme au moi	223 ـ متلائم مع الأنا
Ego ideal	Idéal du moi	224 ـ مثال للأنا
Idealization	Idéalisation	225 ـ مثلنة ـ مثالية
Sum of excitation	Somme d'excitation	226 ـ مجمع الإثارة
Latent content	Contenu latent	227 ـ محتوى باطن
Mirror stage	Stade du miroir	229 ـ مرحلة المرآة
Genital stage (or organization)	Stade (organisation) génital (e)	230 ـ مرحلة تناسلية، أو تنظيم
Oral-sadistic stage	Stade sadique-oral	231 ـ مرحلة شرجية سادية
Oral stage	Stade oral	232 ـ مرحلة فمية
Oral-sadistic stage	Stade sadique-oral	233 ـ مرحلة فمية سادية
Phallic stage	Stade phallique	234 ـ مرحلة فالوسية
Plasticity of the libido	Plasticité de la libido	236 ـ مرونة الليبيدو
Somatic compliance	Complaisance somatique	237 ـ مسايرة جسدية، تواطؤ
Derivative of the unconscious	Rejeton de l'inconscient	238 ـ مشتقات اللاوعي
Primal scene	Scène originaire	239 ـ مشهد أصلي، أولي
Primal scene	Scène primitive	240 ـ مشهد بدائي-أولي
Source of instinct	Source de la pulsion	241 ـ مصدر النزوة
Aim-inhibited	Inhibé quant au but	242 ـ مكفوف الهدف
Autoplastic	Autoplastique	243 ـ مطاوعة ذاتية ـ تطويع الغير
Alloplastic	Alloplastique	تطويع الغير
Quota of affect	Quantum d'affect	244 ـ مقدار العاطفة
Resistance	Résistance	245 ـ مقاومة
Instinctual component	Composante pulsionnelle	246 ـ مكون نزوي
Ideational representative	Représentant-représentation	247 ـ ممثل المتمثَّل
Instinctual representative	Représentant de la pulsion	248 ـ ممثل النزوة

Psychical representative	Représentant psychique	249 ـ ممثل نفسي
Erotogenic zone	Zone érogène	250 ـ منطقة مولدة للغلمة
Erotogenic zone	Zone érogène	251 ـ المكان الشبقي
Object	Objet	252 ـ موضوع ـ غرض
Transitional object	Objet transitionnel	253 ـ موضوع إنتقالي
Part-object	Objet partiel	254 ـ موضوع جزئي
«good» object,	«Bon» objet.	255 ـ موضوع «طيب»،
«Bad» object	«mauvais» objet	موضوع «سيىء»
Topography, Topographical	Topique	256 ـ موقعي
Erogenic	Erogène	257 ـ مولّد للغلمة

ن

Narcissim	Narcissime	258 ـ نرجسية
Primary narcissism,	Narcissime primaire,	259 ـ نرجسية أولية،
Secondary narcissism	Narcissisme secondaire	نرجسية ثانوية
Ego instincts	Pulsions du moi	260 ـ نزوات الأنا
Life instincts	Pulsions de vie	261 ـ نزوات الحياة
Death instincts	Pulsions de mort	262 ـ نزعات الموت
Instincts of self preservation	Pulsion d'auto-conservation	362 ـ نزوات حفظ الذات
Instinct	Pulsion	264 ـ نزوة
Destructive instinct	Pulsion de destruction	265 ـ نزوة التدمير
Instinct to master	Pulsion d'emprise	266 ـ نزوة السطوة
Aggressive instinct	Pulsion d'agression	267 ـ نزوة العدوان
Parial instinct	Pulsion partielle	268 ـ نزوة جزئية
Sexual instinct	Pulsion sexuelle	269 ـ نزوة جنسية
Infantile amnesia	Amnésie infantile	270 ـ نسيان طفلي
Activity-passivity	Activité-passivité	271 ـ نشاط ـ فتور
System	Système	272 ـ نظام، منظومة
Cloacal theory	Théorie cloacale	273 ـ نظرية حُشْيّة
Psychoneurosis	Psychonévrose	274 ـ نفاس ـ عصاب نفسي
Defence psychoneurosis	Psychonévrose de défense	275 ـ نفاس الدفاع عصاب دماغي
Negation	Négation	276 ـ نفي
Transference	Transfert	277 ـ تحويل
Counter-transference	Contre-transfert	278 ـ تحويل مضاد، أو تقابل
Regression	Regression	279 ـ نكوص

هـ

Aim (-instinctual)	But (-pulsionnel)	280 ـ هدف (ـ نزوي)
Flight into illness	Fuite dans la maladie	2812 ـ هروب في المرض
Hysteria	Hystérie	282 ـ هستيريا
Hypnoid hysteria	Hystérie hypnoide	283 ـ هستيريا تنويمية
Defence hysteria	Hystérie de défense	284 ـ هستيريا الدفاع
Traumatic hysteria	Hystérie traumatique	285 ـ هستيريا صدمية، هلعية
Anxiety hysteria	Hystérie d'angoisse	286 ـ هستيريا القلق
Retention hysteria	Hystérie de rétention	288 ـ هستيريا الحصر
Parapraxis	Acte manqué	289 ـ هفوة
Id	Ça (Le -)	290 ـ هو (الـ ـ)
Fantasy	Fantasme	291 ـ هوام
Phantasy	Phantasme	292 ـ هوام لا واع
Primal phantasies	Fantasmes originaires	293 ـ هوامات أصلية

و

Psychical reality	Réalité psychique	294 ـ واقع نفسي
Combined parents	Parent (s) combiné (s)	295 ـ والد مزيج ـ والدين ممتزجين (صورة الـ ـ)
Perceptual identity	Identité de perception	296 ـ وحدة الإدراك ـ
Thought identity	Identité de pensée	وحدة الفكر
Depressive position	Position dépressive	297 ـ وضعية انهيارية
Paranoid position	Position paranoïde	298 ـ وضعية شبه عظامية
Beng conscious	Conscience (psychologique)	299 ـ وعي (نفساني)

لا

Unconscious	Inconscient	300 ـ لا وعي، لا وعي لا شعور

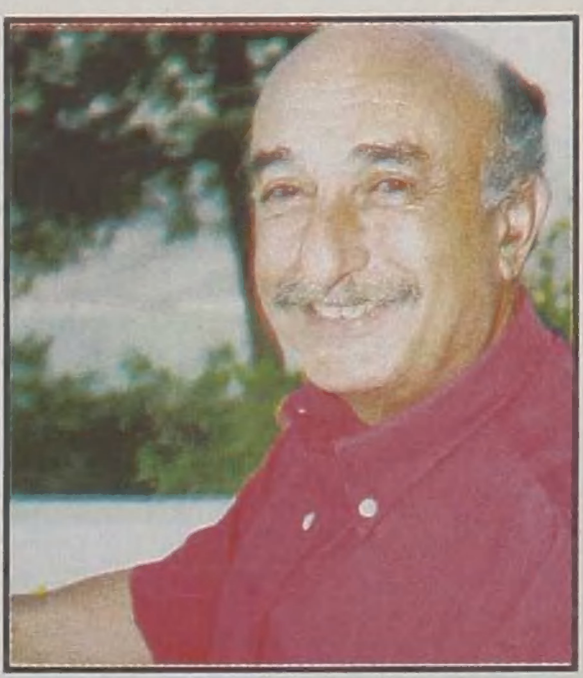

البروفسور
عدنان حب الله

كاد التحليل النفسي أن ينطفئ لولا ظهور جاك لاكان في أوائل الخمسينات. تلامذة فرويد كانوا لا يزالون تحت تأثير سلطة ونفوذ المعلم الأكبر، مما جعلهم يبتعدون عن كل قدرة في الاستنباط والإبداع، فوقعوا فريسة ما يسمى بالأنا الأعلى التحليلي، ولم يبق لهم سوى التقليد مما أفرغ العمل التحليلي من قوته الخلاقة وديناميكيته الناجعة فأصبح هيكلية نظرية.

من هذا المنطلق اعتبر لاكان أن العودة إلى فرويد هي السبيل الوحيد لتصحيح المسار التحليلي، لأن التحليل النفسي يتخطى فضيلته العلاجية، لكي يطال كل نشاط فكري في أي حقل وُجد. يبقى نموذج فرويد في مساره السبيل الوحيد لكل من اتبعه أن يكتشف الحقائق التي توصل إليها. الحقيقة ليست مطلقة إنما بالدرجة الأولى هي حقيقة ذاتية تكمن في اللاوعي بحكم المكبوت. وإن غابت عن الوعي فهي تستمر بالتحكم بتصرفات الإنسان ومسلكه، وتفرز العوارض المرضية.

موضوع التحليل النفسي يكمن في هذه الحقيقة التي اكتشفها فرويد ثم لاكان بعده، والتي تتجسد في موضوع الرغبة. والأنا خلافاً لما كان يتصور البعض تضللنا عن طريق التماهيات الآنية والمخيالية.

الجديد عند لاكان هو انفصاله عن كل ما هو علاقة الإنسان بالبيولوجيا لكي يحدد معنى وجوده في حقل اللغة التي من خلالها يعبر عن ذاته ويصبو دائماً إلى بلوغ حقيقتها وصدقيتها من خلال علاقته بالآخر الذي يسميه لاكان بالكبير للتمييز بينه وبين الصغير أي القرين. فهذا منحى فكري ديناميكي معتمد على الرغبة التي تحركه في الحياة وتضمن له المتعة، وهو منحى مغاير تماماً لما يسمى بسيكولوجية الأنا.

ولا عجب في أن يواجه التحليل النفسي مقاومة شديدة لاسيما في مجتمعنا العربي: أولاً لأن لغة الحب ممنوعة، ثانياً لأن الاعتزاز بالأنا قد تزعزع بعدما تبين أن حقيقتها تكمن في اللاوعي حيث لا سلطة عليه سوى قول الحق والحقيقة.

كل ذلك شرحه البروفسور عدنان حب الله بأسلوب مبسط: السهل الممتنع، و هو تلميذ لاكان، كي يبين تواصله مع فرويد.

البروفسور عدنان حب الله، أستاذ أمراض نفسية في الجامعة اللبنانية، إختصاصي بالأمراض النفسية والعصبية. محلل نفساني: من مؤسسي الجمعية اللبنانية للتحليل النفسي والجمعية الأوروبية للتحليل النفسي. مؤسس ورئيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية. له العديد من المؤلفات في اللغتين العربية والفرنسية ويتمتع بمقام علمي في الأوساط الأوروبية.

ISBN 9953-438-79-X
9 789953 438795

ISBN 9947-21-082-0
9 789947 210826
Dépôt-Légal:85-2004